التبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي

٣٨٥ ــ ٤٦٠ هـ.

تحقيق وتصحيح:

أحمد حبيب قصير العاملي

المجلد الخامس

دار إحياء التراث العربي

الآية: ١٥٨ - ١٦٩

الآية: ١٧٠ - ١٨٩

الآية: ١٩٠ - ٢٠٦

سورة الانفال

الآية: ١ - ١٩

الآية: ٢٠ - ٣٩

الآية: ٤٠ - ٥٩

الآية: ٦٠ - ٧٥

سورة براءة

الآية: ١ - ١٩

الآية: ٢٠ - ٣٩

الآية: ٤٠ - ٥٩

الآية: ٦٠ - ٧٩

الآية: ٨٠ - ٩٩

الآية: ١٠٠ - ١١٩

الآية: ١٢٠ - ١٢٩

سورة يونس

الآية: ١ - ١٩

الآية: ٢٠ - ٣٩

الآية: ٤٠ - ٥٩

الآية: ٦٠ - ٧٩

الآية: ٨٠ - ١٠٩

سورة هود

الآية: ١ - ١٩

الآية: ٢٠ - ٣٩

الآية: ٤٠ - ٤٩

(١)

التبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي

٣٨٥ ــ ٤٦٠ هـ.

تحقيق وتصحيح:

أحمد حبيب قصير العاملي

المجلد الخامس

دار إحياء التراث العربي

(٣)

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد الله الذى وفقنا لطاعته والعمل على فهم كتابه واحكامه. وإنى اشكره إستتماما لنعمته ورضاء بتدبيره وإعترافا بربوبيته واعتقادا بحكمته. وصلى الله على محمد رسوله الامين وعلى آله الميامين الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

وبعد فاني اقدم لاخواني المؤمنين العاملين بأحكام القرآن هذا المجلد الخامس من تفسير التبيان. وقد لاقيت من العناء في اخراجه الشئ الكثير.

ولما نفد هذا الجزء ورأينا الطلب باقيا توكلنا على الله واعدناه طبعة ثانية منقحة والله الملهم للصواب.

أحمد حبيب قصير

(٥)

قوله تعالى:

(قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والارض لاإلـــه إلا هـــو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الامي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتـــدون) (١٥٧) آية.

أمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) ان يخاطب الخلق، ويقول لهم إني رســـول الله أرســـلني اليكم يعني إلى الناس أجمع " الذي له ملك السماوات والارض " يعني ارسلنى اليكم الذي لـــه التصرف في السماوات والارض من غير دافع، ولامنازع " لا إله اي لا معبود " إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله " أمر من النبي (صلى الله عليه وآله) للخلق بأن يصدقوا بتوحيـــد الله ويقـــروا بنبوة النبي " الامي الذي يؤمن " يعني يصدق بالله وكلماته، وأمرهم بأن يتبعوه ويرجعوا إلـــى طاعته لكي يهتدوا إلى الثواب والجنة.

و " جميعا " نصب على الحال من ضمير المخاطب الذي عمل حرف الاضافة فيه والعامل في الحال معنى الفعل في " رسوله " الا أنه لايتقدم على حرف الاضافة، لانه قد صـــار بمنزلـــة العامل.

وإنما وصفه بأنه يحيي ويميت لانه لايقدر على الاحياء إلا الله، ولاعلى الاماتة أيضـــا ســـواه لانه لو قدر أحد على الاماتة لقدر على الاحياء، لان من شأن القادر على الشئ أن يكون قادرا على ضده، وانما استعمل بمعنى لتهتدوا على الرجاء والطمع في الفوز به من العذاب.

قوله تعالى:

(ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) (١٥٨) آية.

(٦)

أخبر الله تعالى أن من قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون.

قال ابن عباس والسدي: قوم وراء الصين.

وقال ابوجعفر (عليه السلام): هم قوم خلف الرمل لم يغيروا ولم يبدلوا.

وأنكر الجبائي قول ابن عباس، وقال شرع موسى (عليه السلام)، منسوخ بشرع عيســـى (عليـــه السلام) وشرع محمد (صلى الله عليه وآله) فلو كانوا باقين لكفروا بنبوة محمد.

وهذا ليس بشئ، لانه لا يمتنع ان يكون قوم لم تبلغهم الدعوة من النبي (صلى الله عليه وآله) فـــلا نحكم بكفرهم.

وقال الجبائي يحتمل ذلك وجهين:

احدهما – انهم كانوا قوما متمسكين بالحق في وقت ضلالتهم (١) بقتل أنبيائهم.

والاخر – انهم الذين آمنوا بالنبي (صلى الله عليه وآله) مثل ابن سلام وابن صوريا وغيرهما.

وتقدير الكلام في معنى الاية إذا: كان من قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون، قد مدحوا بذلك وعظموا، فعلى كل أمة أن يكونوا كهذه الامة الكريمة في هذا المعنى. والامة الجماعة التي تؤم أمرا بأن تقصده وتطلبه وأمة محمد (صلى الله عليه وآله) تؤم شريعته وأمة موسى وعيسى مثل ذلك.

وليس في الاية ما يدل على ان في كل عصر أمة هادية من قوم موسى لان بعد نبوة نبينا (صلى الله عليه وآله) لم يبق احد يجب اتباعه في شرع موسى (عليه السلام) وكذلك قوله تعالى " وممن خلقنا امة يهدون بالحق وبه يعدلون " (٢) ولا دلالة في ذلك على ان تلك الامة موجودة في كل عصر، بل لو لم توجد هذه الامة الا في وقت واحد هادية بالحق عادلة به لصح معنى الاية على ان عندنا في كل عصر لا يخلون من قوم بهذا الوصف وهم حجج الله على خلقه، المعصومين الذين لا يجوز عليهم الخطأ والزلل، فقد قلنا بموجب الاية.

---

(١) أي وقت ضلالة قومهم (٢) سورة ٧ الاعراف آية.

(*)

(٧)

وصريح الاية يدل على بطلان قول من قال لا يهدي إلى الحق الا الله تعالى، لان الله تعالى بين ان فيمن خلقه امة يهدون بالحق وبه يعدلون، وظاهر ذلك الحقيقة وصريح الاية بخلاف ما يقوله المخالف، ولا ينافي ذلك قوله تعالى " من يهد الله فهو المهتدي " (١) لانه يصح اجتماعه مع ذلك، والمعنى من يهده الله إلى الجنة فهو المهتدي اليها على ان قوله تعالى " من يهد الله فهو المهتدي، لا يمنع من ان يهديه ايضا غير الله ويهتدي، لان المتعلق بذلك تعلق بدليل الخطاب. وهو ليس بصحيح عند اكثر العلماء، على ان من هدى غيره إلى الحق فانما يهديه بأن ينبهه على الحجج التي نصبها الله على الحق فجاز ان يضاف ذلك إلى انه بهداية الله. ومن حمل قوله تعالى " يهدون " على ان المعنى يهتدون فقد غلط، لان ذلك لايعرف في اللغة.

قوله تعالى:

(وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما وأوحينا إلى موسى إذ استسقيه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) (١٥٩) آية.

قد مضى تأويل معنى اكثر هذه الاية في سورة البقرة (٢) فلا معنى للتطويل بذكر ما مضى وانما نذكر مالم يذكر هناك: انما انث قوله اثنتي عشرة اسباطا لان النية التقديم والتأخير والتقدير وقطعناهم اممما اثنتي عشرة اسباطا ولم

---

(١) سورة الاعراف آية ١٧٧ (٢) آية ٦٠ من سورة البقرة المجلد ١ / ٢٦٩
(*)

(٨)

يقل سبطا لاحد ثلاثة اشياء:

احدها – انه بدل ليس بتمييز والمعنى قطعناهم اسباطا ذكر ذلك الزجاج.

الثاني – على ان كل قسم اسباط لان الواحد يقال له سبط، فيجوز على هذا عندي عشرون دراهم على ان كل قسم منها دراهم قال كثير:

علي والثلاثة من بنيه * هم الاسباط ليس بهم خفاء

فسبط سبط ايمان وبر * وسبط غيبته كربلا (١)

الثالث – ان يكون اقام الصفة مقام الموصوف. وتقديره اثنتي عشرة فرقة اسباطا.

والسبط: الجماعة التي تجري في الامر بسهولة لاتفاقهم في الكلمة على انه مأخوذ من السبوط. وقيل انه مأخوذ من السبط ضرب من الشجر، فجعل الاب الذي يجمعهم كالشجرة التي تتفرع عنها الاغصان الكثيرة. وقال ابوعلي لانهم كانوا بني اثني عشر رجلا من ولد يعقوب وقيل انما فرقوا اسباطا لاختلاف رتبتهم.

والانبجاس: خروج الماء الجاري بقلة، والانفجار خروجه بكثرة، فكان يبتدئ بقلة ثم يتسع حتى يصير إلى الكثرة، فلذلك ذكره ههنا بالانبجاس وفي البقرة بالانفجار.

والظلة السترة التي تقي من الشمس، والاغلب عليها العلو.

فجعل الله عزوجل لهم من الغمام ظلة تكنهم لما احتاجوا إلى ذلك في التيه كما اعطاهم المن والسلوى. والمن ضرب من الحلاوة يسقط على الشجر. والسلوى طائر كالسماني. وانما انث " اثنتا عشرة اسباطا " مع ان السبط ذكر، لاحد ثلاثة اشياء:

احدها – اثنتي عشرة فرقة ثم حذف.

الثاني – وقطعناهم قطعا اثنتي عشرة، فحذف على هذا التقدير.

الثالث – أن السبط لما وقع على الامة أنث. كما قال الشاعر:

---

(١) الاغاني ٩ / ١٤

(*)

(٩)

وان كلابا هذه عشر أبطن * وانت برئ من قبائلها العشر

وقوله تعالى " وما ظلمونا ولكن كانوا انفسهم يظلمون " معناه: ما أنقصونا شيئا ولكن انقصوا أنفسهم تقول العرب: ظلمت سقاك إذا سقيته قبل ان يخرج زبده، ويقال: ظلم الوادي إذا بلغ الماء منه موضعا لم يكن ناله فيما مضى، قال الفراء وانشدني بعضهم:

يكاد يطلع ظلما ثم يمنعه * عن الشواهق فالوادي به شرق

ويقال هو أظلم من حية. لانها تأتي حجر الم تحفره فتسكنه ويقال ما ظلمك ان تفعل كذا أي ما منعك. والارض المظلومة التي لم ينلها المطر.

قوله تعالى:

(وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين) (١٦٠) آية بلا خلاف.

قرأ اهل المدينة وابن عامر ويعقوب (يغفر) بالياء وضمها، وفتح الفاء الباقون بالنون وكسر الفاء، وقرأ اهل المدينة ويعقوب (خطيئاتكم) على جمع السلامة ورفع التاء، وقرأ ابن عامر على التوحيد ورفع التاء، وقرأ ابوعمرو (خطاياكم)

بغير همز على جمع التكسير، الباقون وهم ابن كثير واهل الكوفة (خطيآتكم)

على جمع السلامة وكسر التاء.

من قرأ " يغفر " حمله على قوله تعالى " وإذ قيل لهم " ادخلوا.. يغفر، والتي في البقرة (نغفر) بالنون، فالنون هناك احسن لقوله " وإذ قلنا " وجاز ههنا بالنون كأنه قيل لهم ادخلوا.. نغفر. أي إن دخلتم غفرنا.

ومن قرأ تغفر بالتاء المضمومة فلانه اسند اليها خطيئاتكم وهو مؤنث فأنث

(١٠)

وبنى الفعل للمفعول اشبه بما قبله، لان قبله واذ قيل.

ومن قرأ بالنون فلقوله " سنزيد المحسنين " وخطايا جمع خطيئة جمع تكسير (وخطياتكم) مسكنا لانه يكثر فيه السكون وسميت القرية قرية لان الماء يقري اليها يقال قريت الماء في الحوض أقريه قريا إذا حمعته. ويجوز ان يكون مشتقا من اجتماع الناس اليها.

وقد مضى تفسير مثل هذه الاية في سورة البقرة (١) فلا معنى لاعادته.

وإنما نذكر جمل ذلك فنقول:

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله) يقول اذكر يا محمد اذ قيل لبني اسرائيل اسكنوا هذه القرية وهي بيت المقدس على قول الجبائي وغيره من المفسرين وقال الحسين هي ارض الشام. وقال قوم غير ذلك. وقد ذكرنا اختلافهم في سورة البقرة (٢) لانه كان امرهم بدخولها واخراج من فيها من الكفار وغيرهم ووعدهم ان يوسع عليهم فيها الزرق ويبيحهم ذلك ليأكلوا من حيث شاؤا ما يريدون من انواع الاغذية والرزق. وقال لهم: " كلوا من حيث شئتم " على كثرة الرزق والغذاء في هذه القرية وفي كل ناحية منها.

وقوله تعالى: " وادخلوا الباب سجدا " يعني متواضعين وكانوا امروا بأن يدخلوا بابا منه معينا في هذا الموضع كانوا فيه – في قول الجبائي – وقال ذلك قبل دخلوهم إلى بيت المقدس، قال ولم يد ان يدخلوا الباب سجدا منحنين.

قال ابن عباس كان هناك باب ضيق امروا بان يدخلوه ركعا فدخلوه على استاههم. وقيل لهم " قولوا حطة " أي مغفرة، فقالوا حنطة. وذكرنا اختلاف الناس في ذلك.

وقوله " وقولوا حطة " معناه قولوا حط عنا ذنوبنا وهو بمنزلة الاستغفار والتوبة.

وقوله " نغفر لكم خطاياكم " جواب الامر وفيه معنى الجزاء. والتقدير انكم

(١، ٢) آية ٥٨ المجلد ١ / ٢٦٣

(*)

ان فعلتم ذلك غفرنا لكم خطاياكم. وقوله (سنزيد المحسنين) معناه سنزيد المحسنين منكم نعما وفضلا في الدنيا والاخرة، ولا نقتصر لهم على نعم هذه القرية.

ورفع حطة على تقدير مسألتنا حطة ومطلوبنا حطة. وان نصب جاز بمعنى حط عنا حطة.

وقوله سجدا نصب على الحال من دخول الباب. وقال ابوعلي ليس بحال لدخول الباب، لانهم بدلوا في حياة موسى.

قوله تعالى:

فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون (١٦١) آية اخبر الله تعالى عن هؤلاء الذين امرهم بدخول القرية متواضعين، وان يقولوا حطة لذنوبنا، انهم بدلوا قولا غير الذي قيل لهم.

والتبديل تغيير الشئ برفعه إلى بدل، فقال الحسن قالوا حنطة بدل حطة.

وقال قوم: قالوا قولا ينافي الاستغفار ويخالف التوبة. وقالوا ما يدل على الاصرار.

واخبر تعالى انه ارسل عليهم عند ذلك رجزا وهو العذاب والعقوبة جزاء بما كانوا يفعلونه من معاصي الله تعالى ويظلمون بها انفسهم.

واصل الرجز الميل عن الحق فمنه الرجازة وما يعدل به الحمل اذا مال عن خفة والرجز عبادة الوثن. والناقة الرجزاء التي تميل في احد شقيها لداء يعرض لها في عجزها قوله تعالى: وسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لاتأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون (١٦٢) آية.

(١٢)

القراء كلهم على فتح الياء في قوله تعالى (لا يسبتون) وروي عن الحسن ضمها.

من قال أسبتوا اراد دخلوا في السبت ومن فتح الياء اراد يفعلون السبت اي يقومون بأمره كما يفعل المسلون يوم الجمعة، ومثله أجمعنا اي مرت بناجمعة، وجمعنا شهدنا الجمعة. قال الفراء: قال لي بعض العرب: أترانا اشهرنا منذ لم نلتق يريد مر بنا شهرا.

امر الله نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يسأل بني اسرائيل الذين كانوا في وقته عن القرية التي كانت حاضرة البحر، وعن سبب هلاكها، سؤال تقرير وتوبيخ لاسؤال استفهام، كما يقول الرجل لغيره أنا فعلت كذا؟ وانت تعلم أنك لم تفعل، وانما تسأله لتقريره وتوبيخه، فوجه امر النبي (صلى الله عليه وآله) ان يسأل اهل الكتاب عن اهل هذه القرية مع ما اخبره الله تعالى بقصتها لتقرير هم تقديم كفرهم وتعلمهم ما لا يعلم الا بكتاب اووحى، وهو (صلى الله عليه وآله) لم يكن ممن قرأ الكتب، فعلموا بذلك ان ذلك وحي انزل عليه.

وقوله تعالى (اذ يعدون في السبت) معناه اذ يظلمون في السبت، يقال عدا فلان يعدو عدوانا، وعدا عدوا اذا ظلم.

وقوله تعالى (اذ تأتيهم حيتانهم) في موضع نصب بيعدون.

والمعنى سلهم اذ عدوا في وقت اتيان الحيتان " شرعا " اي ظاهرة والحيتان جمع حوت واكثر ما يسمي العرب السمك بالحيتان والنيتان، وكانت الحيتان تأتي ظاهرة فكانوا يحتالون بحبسها يوم السبت ثم يأخذونها في يوم الاحد. وقال قوم: جاهروا بأخذها يوم السبت.

وقوله تعالى (كذلك نبلوهم) اي مثل هذا الاختبار الشديد نختبرهم.

وموضع الكاف نصب بقوله: (نبلوهم بما كانوا يفسقون) اي شددت عليهم المحنة بفسقهم. قال الزجاج ويحتمل ان يكون " ويوم يسبتون لا تأتيهم كذلك " اي لاتأتيهم شرعا ويكون " نبلوهم " مستأنفا. والاول قول اكثر المفسرين.

والوجه في تشديد المحنة التي هي التكليف أن الله تعالى أمر بني اسرائيل

(١٣)

بامساك السبت والنفرغ فيه للعبادة وأن لايتشاغلوا بشئ من أمر الدنيا فيه فتهاون قم ممن كان يسكن هذه القرية وهي (ايلة) في قول قوم من المفسرين. وقال قوم هي مدين. ورويا جميعا عن ابن عباس، ولم يقوموا بما وجب عليهم فشدد الله على من اخذوه. قال الحسن: كانت تشرع على ابوابهم كأنها الكباش البيض فيعدون فيأخذونها وتبعد عنهم في باقي الايام وامرهم ان لايصطادوا يوم السبت فكان ذلك تشديدا للتكليف وتغليظا للمحنة والبلوى، وكان ذلك عقوبة على تهاونهم بما أوجب الله عليهم فخالفوا فأرسلوا الشباك يوم السبت واخرجوها يوم الاحد.

قوله تعالى:

وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون (١٦٣) آية بلا خلاف.

قرأ حفص وحده عن عاصم " معذرة " بالنصب. الباقون بالرفع.

من رفع فعلى تقدير موعظتنا معذرة إلى ربكم. ومن نصب فعلى المصدر، كما يقول القائل لغيره: معذرة إلى الله واليك من كذا على النصب.

والمعنى قالوا نعتذر معذرة واعذارا.

قال ابوزيد عذرته اعذره عذرا ومعذرة وعذرى. والتقدير واذكر اذ قالت امة منهم لطائفة منهم لم تعظون قوما علمتم انهم هالكون في الدنيا ويعذبهم الله عذابا شديدا في الاخرة، فقالوا في جوابهم وعظناهم إعذارا إلى الله اي نعظهم اعتذارا إلى ربكم لئلا يقول لنا لم لم تعظوهم ولعلهم ايضا بالوعظ يتقون ويرجعون.

وفي ذلك دليل على انه يجب النهي عن القبيح وإن علم الناهي ان المنهي لا ينزجر ولا يقبل، وان ذلك هو الحكمة والصواب الذي لا يجوز غيره.

(١٤)

واختلفوا في هذه الفرقة التي قالت: لم تعظون قوما الله مهلكهم؟ هل كانت من الناجية او من الهالكة عن الاعتداء في السبت. ذهب اليه ابن عباس وقال نجت الطائفتان من الهلاك الناهية والتي قالت لها لم تعظون، وبه قال السدي وقال قوم الفرقة التي قالت لم تعظون قوما الله مهلكهم كانت من الفرقة الهالكة ذهب اليه ابن عباس في رواية اخرى عنه.

وقال قتادة عن ابن عباس هم ثلاث فرق التي وعظت والموعظة، فنجت الاولى وهلكت الثانية، والله اعلم ما فعلت الفرقة الثالثة، وهم الذين قالوا لم تعظون واختاره الجبائي.

وقال الكلبى: هما فرقتان الواعظة والمواعظة.

وقال الجبائي لم يريدوا بذلك الانهيهم اياهم عن ذلك القبيح. وانما قالوا ذلك على سبيل الاياس من قبولهم منهم.

وقوله " لم " اصله (لما) الا انه حذف الالف مع حرف الجر نحو " عم يتساءلون " ولم يقولوا (عن ما).

قوله تعالى:

فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون (١٦٤) آية قرأ أبوبكر إلا العليمي " بيئس " بفتح الباء وبعدها ياء ساكنة وبعدها همزة مفتوحة على وزن (فيعل) وروي عنه بكسر الهمزة. وقرأ اهل المدينة والداحوني عن هشام بكسر الهاء وبعدها ياء ساكنة من غير همز. وقرأ مثل ذلك ابن عامر الا الداحونى عن هشام إلا أنه همز. والباقون بفتح الباء وبعدها همزة مكسورة بعدها ياء ساكنة على وزن (فعيل). وروى خارجة عن نافع بفتح الباء بعدها

ياء بلا همز على وزن (فعل).

قال ابوزيد: قد بؤس الرجل يبؤس بأسا إذا كان شديد البأس، وفي البؤس بئس وبيس يبأس بؤسا وبيئسا وباسا والبأساء الاسم.

قال أبوعلي: من قرأ على وزن (فعيل) يحتمل أمرين:

أحدهما – أن يكون فعيلا من بؤس يبؤس إذا كان شديد البأس مثل " من عذاب شديد " (١)

قال ابومحمد الفقعسي:

أشعث غير حسن اللبوس * باق على عيش له بئيس

أي شديد.

والثاني – أن يكون من عذاب ذي بئيس. فوضعه بالمصدر، والمصدر قد يجئ على (فعيل) مثل نكير ونذير وشحيح وعذير الحي، والتقدير من عذاب ذي بئيس أي عذاب ذي بؤس.

ومن قرأ بكسر الباء من غير همز فانه جعلها اسما، فوصفه به مثل قوله (صلى الله عليه وآله) (إن الله نهى عن قيل وقال) ومثله: منذ شب إلى رب. ونظيره من الصفة نقض وبصق.

ومن فتح الباء من غير همز فهو أيضا (فعل) في الاصل وصف به وابدلت الهمزة ياء وحكى سيبوية أنه سمع بعض العرب يقول: بيس فلا يحقق الهمزة ويدع الحرف على الاصل الذي هو (فعل) كأنه يسكن العين كما يسكن من (علم) ويقلب الهمزة ياء الا أنه لما أسكنها لم يجز أن يجعلها بين بين فأخلصها ياء.

وقراءة ابن عامر مثل قراءة نافع إلا أن ابن عامر حقق الهمزة.

وقراءة ابي بكر على وزن " فيعل " فانه جعله وصفا كضيغم وحيدر، وهذا البناء كثير في الصفة ولا يجوز كسر العين من بيئس لان " فيعل " بناء اختص به ما كان عينه ياء أو واوا مثل سيد وطيب، ولم يجئ مثل ضيغم وجاء في المعتل حكى سيبويه عين وانشد لرؤبة.

---

(١) سورة ١٤ ابراهيم آية ٢

(*)

ما بال عيني كالشعيب العين (١)

فينبغي ان يحمل بيئس على الوهم عمن رواه عن عاصم والاعمش بالكسر وقد أنشد بعضهم:

كلاهما كان رئيسا بيئسا * يضرب في يوم الهياج القونسا (٢)

أعلى كل شئ قونسه بكسر العين. فمن كسر العين حمله على هذه اللغة.

أخبر الله تعالى أنه لما ترك أهل هذه القرية الرجوع عن ارتكاب المعصية بصيد السمك يوم السبت بعد أن ذكرهم الواعظون ذلك ولم ينتهوا عن ذلك أنه انجى الناهين عن ذلك وأخذ الذين ظلموا انفسهم بعذاب شديد جزاء بما كانوا يفسقون ويخرجون عن طاعة الله إلى معصيته.

وروي عن عطا أن رجلا دخل على ابن عباس وبين يديه المصحف وهو يبكى وقد أتى على هذه الاية إلى آخرها، فقال ابن عباس قد علمت ان الله اهلك الذين أخذوا الحيتان وانجى الذين نهوهم، ولاادري ما صنع بالذين لم ينهوهم ولم يواقعوا المعصية وهي حالنا.

و " نسوا " في الاية معناه تركوا ويحتمل ان يكون تركهم القبول في منزلة من نسئ، ولايجوز أن يكون المراد النسيان الذي هو السهو، لانه ليس من فعلهم فلا يذمون عليه.

وقال الجبائي العذاب الشديد لحقهم قبل ان يمسخوا قردة خاسئين.

قوله تعالى:

فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين (١٦٥) آية

---

(١) وقيل قائله الطرماح. اللسان (عين)

(٢) قائله امرئ القيس بن عابس الكندي. تفسير ابن حيان ٤ / ١٤٣ وتفسير الطبري ١٣ / ٢٠٠

(*)

اخبر الله تعالى عن هؤلاء العصاة الذين عصوا بصيد السمك في السبت، ونهوا فلم ينتهوا ووعظوا فلم يتعظوا، وأنه أنزل عليهم العذاب الشديد، فلما عتوا عما نهى الله وتمردوا في معصيته مسخهم الله قردة خاسئين.

والعاتي الشديد الدخول في الفساد المتمرد الذي لا يقبل موعظة. والعتو الخروج إلى الجرأة على أفحش الذنوب. وقوله " خاسئين " معناه مبعدين من قولهم خسأت الكلب إذا أقصيته فخسأ أي بعد. وقال الحسن معناه صاغرين، وقال: إن أهل المسخ يتناسلون. وقال ابن عباس: لايتناسلون، وأجاز الزجاج كلا الامرين.

وسئل ابومالك: أكانت القردة والخنازير قبل ان يمسخوا؟ قال: نعم وكانوا فيما خلق الله من الامم. وقول ابن عباس أصح، لان المعلوم أن القردة ليست من ولد آدم كما أن الكلاب ليست من ولد آدم. قال قتادة: صاروا قردة لها أذناب تعاوي بعد ما كانوا نساء ورجالا.

وقوله تعالى: " كونوا قردة " صيغته صيغة الامر والمراد به الاخبار: من أنه جعلهم قردة على وجه يسهل عليه ولم يتعب به ولم ينصب كما قال تعالى: " إنما قولنا لشئ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون " (١). وقال " ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين " (٢) ولم يكن هناك أمر لانه تعالى لا يأمر المعدوم، وإنما هو إخبار عن تسهيل الفعل، وأجاز الزجاج أن يكون قيل لهم ذلك بكلام سمعوه فيكون ذلك أبلغ في الاية النازلة بهم لما يدل على وقوع الاول الذي تبعه الثاني. وليس كذلك إذا قلت: لما جاء المطر خرج النباب، وقوله تعالى " ولو ردوا لعادوا " فلا يقع الرد أصلا.

قوله تعالى:

وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيمة من

---

(١) سورة ١٦ النحل آية ٤٠ (٢) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ١١

(*)

يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم (١٦٦) آية بلا خلاف.

التقدير اذكر يا محمد " إن تأذن ربك " ومعنى تأذن: أعلم، والعرب تقول تعلم ان هذا كذا بمعنى إعلم، قال زهير:

تعلم أن شر الناس حي * ينادي في شعارهم يسار (١)

ويسار اسم عبد. وقال زهير ايضا:

فقلت تعلم ان للصيد غرة * والا تضيعه فانك قاتله (٢)

وقال الزجاج معنى (تأذن) تألا ربك ليبعثن. وقال قوم: معناه امر من اذن يأذن. وقوله: " ليبعثن عليهم إلى يوم القيمة من يسومهم سوء العذاب " قسم من الله تعالى انه يبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب اي من يوليهم سوء العذاب.

قال ابوجعفر (عليه السلام) وابن عباس وقتادة وسعيد بن جبير والحسن: اراد به امة محمد صلى الله عليه اله يأخذون منهم الجزية.

فان قيل فقد جعلوا قردة كيف يبقون ال يوم القيامة؟ قلنا: إن الذكر لليهود فمنهم من مسخ فجعل منهم القردة والخنازير ومن بقى قمع بذل من الله، فهم اذلاء بالقتل او اذلاء باعطاء الجزية، فهم في كل مكان اذل اهله لقوله تعالى " ضربت عليهم الذلة اينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس " (٣) اى إلا ان يعطوا الذمة والعهد.

وفي الاية دليل على ان اليهود لايكون لهم دولة إلى يوم القيامة ولا عزلهم ايضا وقيل في معنى البعث ههنا قولان: احدهما – الامر والاطلاق. والاخر –

---

(١) الاغاني – دار الثقافة بيروت – ١٠: ٣١٧ الشعار علامة ينصبونها في سفرهم (٢) تفسير القرطبي ٧: ٣٠٩. وروايته (تضيعها) بدل (تضيعه).

(٣) سورة ٣ آل عمران آية ١١٢

(*)

التخلية، وإن وقع على وجه المعصية، كما قال تعالى: " أنا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم ازا " (١).

وقوله تعالى: " إن ربك لشديد العقاب " معناه إن ربك يا محمد لسريع العقاب لمن يستوجبه على كفره ومعصيته " وانه لغفور رحيم " اي صفوح عن ذنوب من تاب إليه من معاصيه ورجع إلى طاعته يستر عليهم بعفوه وبفضله رحمة بهم فلا ينبغي لاحد ان يصر ويأمن عقابه بل ينبغي ان يجوز سرعة عقابه فيبادر إلى التوبة والاستغفار.

قوله تعالى:

وقطعناهم في الارض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيات لعلهم يرجعون (١٦٧) آية اخبر الله تعالى انه قطع بني اسرائيل يعنى فرقهم فرقا في الارض " اممًا " يعني جماعات شتى متفرقين في البلاد، وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وعلى اي وجه فرقهم؟ قيل فيه قولان:

احدهما – فرقهم حتى تشتت امرهم وذهب عزهم عقوبة لهم.

الثاني – فرقهم على ما علم انه اصلح لهم في دينهم.

ثم اخبر عنهم فقال: من هؤلاء الصالحون يعني من بني اسرائيل الصالحون، وهم الذين يؤمنون بالله ورسله، ومنهم دون ذلك يعني دون الصالح، وإنما وصفهم بذلك لما كانوا عليه قبل ارتدادهم عن دينهم، وقبل كفرهم بربهم، وذلك قبل ان يبعث فيهم عيسى (عليه السلام).

وقوله: " وبلوناهم بالحسنا والسيئات " معناه اختبرناهم بالرخاء في العيش

---

(١) سورة ١٩ مريم آية ٨٤

(*)

والحفض في الدنيا والدعة والسعة في الرزق، وهي الحسنات. ويعني بالسيئات الشدائد في الحبس والمصائب في الانفس والاموال " لعلهم يرجعون " اي لكي يرجعوا إلى طاعته وينيبوا إلى إمتثال امره.

فان قيل كيف قال: لكي يرجعوا إلى الحق. وهم لم يكونوا عليه قط؟ ! قلنا عنه جوابان:

احدهما – انهم مارون على وجوههم إلى جهة الباطل فدعوا إلى الرجوع إلى جهة الحق لان الانصراف عن الباطل رجوع إلى الحق.

الثاني – انهم ولدوا على الفطرة وهي دين الحق الذي يلزمهم الرجوع اليه.

قوله تعالى:

فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ياخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا وإن ياتهم عرض مثله ياخذوه الم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الاخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون (١٦٨) آية بلا خلاف.

معنى الاية ان الله اخبر انه خلف – بعد القوم الذين كانوا فرقهم في الارض – خلف، وهم قوم نشؤوا بعدهم من اولادهم ونسلهم، يقال للقرن الذي يجئ في اثر قرن خلف، والخلف ما اخلف عليك بدلا مما اخذ منك. ويقال في هذا خلف ايضا. فأما ما اخلف عليك بدلا مما ذهب منك، فهو – بفتح اللام – افصح. قال الفراء: يقال: اعطاك خلفا مما ذهب لك، فأنت خلف صدق وخلف سوء، قال الله تعالى " فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة " (١) واكثر ما يجئ في المدح

---

(١) سورة ١٩ مريم آية ٥٩

(*)

بفتح اللام – وفي الذم بتسكينها – وقد تحرك في الذم وتسكن في المدح، فمن ذلك في تسكين اللام في المدح قول حسان بن ثابت:

لنا القدم الاولى اليك وخلفنا * لاولنا في طاعة الله تابع (١)

ويقال: خلف اللبن إذا حمض من طول تركه من السقاء حتى يفسد، فالرجل الفاسق مشبه بـه، ومنه خلوف فم الصائم وهو تغيره. وأما بتسكين اللام في الذم فقول لبيد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم * وبقيت في خلف كجلد الاجرب (٢)

وقيل ان الخلف الذين ذكرهم الله في هذه الاية أنهم خلفوا من قبلهم هم النصارى – ذهب اليه مجاهد – وهذا الذي قاله جائز، وجائز أيضا أن يكون المراد به قوم خلفوهم من اليهود.

وقوله تعالى " ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى " قال قـوم. كـانوا يرتشـون علـى الاحكام، ويحكمون بجور. وقال آخرون: كانوا يرتشون ويحكون بحق، وكل ذلـك عـرض خسيس، ومعنى " هذا الادنى " هذا العاجل و " يقولون سيغفر لنا " معناه إذا فعلوا ذلك يقولون الله يغفر لنا ذلك تمنيا منهم للاباطيل كما قال تعالى " فويل للذين يكتبون الكتاب بأيـديهم ثـم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون " (٣).

وقوله تعالى " وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه " دليل على اصرارهم وأنهم تمنوا أن يغفر لهـم مع الاصرار، لان المعنى وان جاءهم حرام من الرشوة بعد ذلـك أخـذوه واسـتحلوه، ولـم يرتدعوا عنه – وهو قول سعيد بن جبير وقتادة والسدي وابن عباس وقال الحسن: معنـاه لا يشبعهم شئ.

---

(١) ديوانه: ٨٤.

واللسان (خلف) وتفسير القرطبي ٧ / ٣١٠ (٢) ديونه القصيدة: ٨. واللسان (خلف) وتفسـير القرطبـي ٧ / ٣١٠

(٣) سورة ٢ البقرة آية ٧٩

(*)

وقوله " ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ان لا يقولوا على الله الا الحق ودرسوا ما فيه " معناه الم يؤخذ على هؤلاء المرتشين في الاحكام القائلين سيغفر لنا هذا اذا عوتبوا على ذلك و " ميثاق الكتاب " هو ما أخذ الله على بني اسرائيل من العهود باقامة التوارة والعمل بما فيهـا، فقـال تعالى لهؤلاء الذين قصهم توبيخا لهم على خلافهم امره ونقضهم عهده وميثاقه: ألم يأخـذ الله عليهم الميثاق في كتابه ان لا يقولوا على الله الا الحق، ولا يضيفوا اليه الا ما انزلـه علـى

رسوله موسى في التوراة ولا يكذبوا عليه وانما احتج عليهم بميثاق الكتاب، ولم يحتج عليهم بالعقل، ليعلمنا ما لانعلمه مما هو في كتبهم من ادلة تؤكد ما في العقل.

وقوله تعالى: " ودرسوا ما فيه " المعنى قرؤوا ما فيه ودرسوه فضيعوه، وتركوا العمل به. والدرس تكرر الشئ يقال درس الكتاب اذا كرر قراءته، ودرس المنزل: اذا تكرر عليه مرور الامطار والرياح حتى يمحى اثره.

وقوله تعالى " والدار الاخرة خير للذين يتقون " أي ما اعده الله تعالى لاوليائه في دار الاخرة من النعيم والثواب وذخره للعاملين بطاعته الحافظين لحدوده " خير للذين يتقون " يعني يجتنبون معاصي الله ويحذرون عقابه.

وقوله: " أفلا تعقلون " فمن قرأ بالياء معناه تعقل هذه الطائفة التي تقدم ذكرها وهم الذين يأخذون عرض هذا الادنى على أحكامهم ويقولون سيغفر لنا. ومن قرأ بالتاء قال: معناه قل لهم: افلا تعقلون الامر على ما اخبر الله به.

وحكي ان طيا في جمع ميثاق: مياثيق، وفي جمع ميزان: ميازين، وحكي عن غيرهم من اهل الحجاز أيضا ذلك وانشد بعض الطائيين:

حمى لا يحل الدهر الا باذننا * ولا نسل الاقوام عقد المياثيق (١)

---

(١) قائله عياض بن درة الطائي. اللسان (وثق)

(*)

(٢٣)

قوله تعالى:

والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلوة إنا لانضيع أجر المصلحين (١٦٩) آية.

قرأ ابوبكر " يمسكون " بتسكين الميم، الباقون بفتحها وتشديد السين. من خفف السين فلقوله تعالى " فامساك بمعروف " (١) وقوله " إمسك عليك زوجك " (٢)

وقوله " فكلوا مما أمسكن " (٣). ومن شدد أراد التكثير، وهو اولى لقول تعالى " وتؤمنون بالكتاب كله " (٤) اي لاتؤمنون ببعضه وتكفرون ببعضه بل تؤمنون بجميعه. ويقوي التشديد ما روي عن أبي أنه قرأ (مسكوا بالكتاب " ومعنى " يمسكون " اي يأخذون فيه من حلاله وحرامه.

أخبر الله تعالى ان الذين يعملون بما في الكتاب ويقيمون الصلاة مع دخولها في التمسك بالكتاب لجلالة موقعها وشدة تأكدها أنه لا يضيع جزاء عملهم، ويثيبهم بما يستحقونه، لاني لا اضيع لاحد – أصلح عمله فعمل بطاعتي – أجر عمله، وهو قول ابن زيد ومجاهد، وجميع

المفسرين. والتقدير إنا لانضيع أجر المصلحين منهم لان من كان غير مؤمن واصلح فأجره ساقط، لانه يوقعه على خلاف الوجه الذي يستحق به الثواب. ويمسكون بالكتاب ويمسكون ويتمسكون ويستمسكون بمعنى واحد أي يعتصمون به ويعملون بما فيه. وخبر (الذين) قوله " إنا لا نضيع اجر المصلحين " فاستغنى بذكر العلة عن ذكر المعلول.

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٢٩ (٢) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٣٧.
(٣) سورة ٥ المائدة آية ٥ (٤) سورة ٣ آل عمران آية ١١٩
(*)

(٢٤)

قوله تعالى:

وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون (١٧٠) آية هذا خطاب لنبينا محمد (صلى الله عليه وآله) يقول الله له: اذكر يا محمد الوقت الذي نتقا فيه الجبل اي رفعناه فوقهم حتى صار كأنه ظلة. وقيل: إنه رفع الجبل على عسكرهم فرسخا في فرسخ.

وامرأة منتاق وناتق كثيرة الولد. وقال ابن الاعرابي الناتق الرافع، والناتق الفاتق، الناتق الباسط، وقال العجاج:

ينتق انتقاق الشليل نتقا (١)

يعني يرفعه عن ظهره. وقال الاخر:

ونتقوا أحلامنا الاثاقلا (٢)

وقال النابغة:

لم يحرموا حسن الغذاء وامهم * دحقت عليك بناتق مذكار (٣)

ويروى طفحت عليك بناتق. ويقال: تتق السير اذا حركه، ويقال: ما ينتق برجله ولا يركض، والنتق نتق الدابة صاحبها حين تعدوبه وتتبعه حتى تربو فذلك النتق. وقال بعضهم: معنى " نتقنا الجبل فوقهم " فرفعناه بنتقه نتقا. قال ابوعبيدة:

سمعت من يقول: أخذ الجراب فنتق ما فيه إذا نثر ما فيه والاصل نتقت كل شئ وقوله عزوجل " كأنه ظلة " يعني به غماما من الظلال وقول " وظنوا أنه واقع بهم " قال الحسن معناه علموا. وقال الجبائي والرماني: هو الظن بعينه، لانه قوي في

---

(١) ديوانه ٤٠ وتفسير الطبري الطبعة الثانية ٩ / ١٠٩ (٢، ٣) اللسان (نتق) وتفسير الطبري الطبعة الثانية ٩ / ١١٠

(*)

(٢٥)

نفوسهم ذلك.

وقوله " خذوا ما آتيناكم بقوة " أي قلنا لهم: خذوا ما آتيناكم بجد يعني ما ألزمناكم من احكام كتابنا وفرائضه فاقبلوه باجتهاد منكم في اوانه من غير تقصير ولا توان. وقال الجبائي: معناه خذوه بالقدرة التي آتاكم الله وأقدركم بها لانهم لو لم يكونوا قادرين لما كلفهم الله ذلك، وذلك يفسد مذهب من قال القدرة مع الفعل.

وقوله " واذكروا ما فيه " معناه ما في كتابه من العهود والمواثيق التي أخذناها عليكم، بالعمل بما فيه لكي تتقوا ربكم فتخافوا عقابه بترككم العمل به إذا ذكرتم ما اخذ عليكم فيه من مواثيق. وكان سبب رفع الجبل عليهم ان موسى (عليه السلام) لما اتاهم بالتوراة ووقفوا على ما فيها من الاحكام والحدود والتشديد في العبادة ابوا أن يقبلوا ذلك وان يتمسكوا به وان يعملوا بما فيه. وقالوا: إن ذلك يغلظ علينا، فرفع الله الجبل كالظلة عليهم، وعرفهم موسى انهم إن لم يقبلوا التوراة ولم يعملوا بما فيها وقع عليهم فأخذوا بالتوراة وقبلوا ما فيها وصرف الله نزول الجبل عليهم. قال ابن عباس فلذلك صارت اليهود تسجد على قرنها الايسر، لانهم سجدوا كذلك ينظرون إلى الجبل وكأنها سجدة نصبها الله. وإنما اتخذت النصارى المشرق قبلة، لان مريم (عليها السلام) اتخذت مكانا شرقيا حين حملت بعيسى. وقال مجاهد: معناه إن أخذتموه بجد وحسن نية وإلا القي الجبل عليكم. وقال ابومسلم إن رفع الجبل كان ليظلم من الغمام، وذلك خلاف اقوال المفسرين وما يقتضيه سياق الكلام.

قوله تعالى:

واذ أخذ ربك من بني ادم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيمة

(٢٦)

إنا كنا عن هذا غافلين (١٧١) أو تقولوا إنما أشرك أباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون (١٧٢) آية قرأ ابن كثير وأهل الكوفة " ذريتهم " على التوحيد. الباقون ذرياتهم على الجمع. وقرأ ابوعمرو " وان يقولوا، او يقولوا " بالياء فيهما. الباقون بالتاء و (الذرية) قد يكون جمعا نحو قوله تعالى " وكنا ذرية من بعدهم " وقوله تعالى " ذرية

من حملنا مع نوح " (١) وقد يكون واحدا كقوله: " هب لي من لدنك ذرية طيبة.. فنادته الملائكة.. أن الله يبشرك بيحيى " (٢) فهو مثل قوله:
" فهب لي من لدنك وليا يرثني " (٣) فقال الله: " يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى " (٤).
فمن أفرد جعله اسما واستغنى عن جمعه بوقوعه على الجمع.
ومن جمع قال: لانه إن كان واقعا على الواحد فلا شك في جواز جمعه وإن كان جمعا فجمعه أيضا حسن، لانه قد وردت الجموع المكسرة وقد جمعت نحو الطرقات وصواحبات يوسف.
وحجة من أفرد قال: لايقع على الواحد والجميع. فأما وزن (ذرية) فانه يجوز أن تكون (فعلولة) من الذر، فابدلت من الراء التي هي لام الفعل الاخيرة ياء كما أبدلت من دهرية، يدلك على البدل فيه قولهم: دهرورة، ويحتمل ان تكون فعلية منه فأبدلت من الراء الباء، كما تبدل من هذه الحروف في التضعيف وإن وقع فيها الفصل. ويحتمل أن تكون (فعليه) نسبة إلى الذر وأبدلت الفتحة منها ضمة كما أبدلوا في الاضافة إلى الدهر دهري والى سهل سهلي ويجوز أن تكون (فعلية)
من ذرأ الله الخلق، أجمعوا على تخفيفها كما أجمعوا على تخفيف البرية. ويجوز ان

---

(١) سورة ١٧ الاسراء آية ٣ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ٣٨ - ٣٩ (٣) سورة ١٩ مريم آية ٤ (٤) سورة ١٩ مريم آية ٦
(*)

تكون من قوله " تذروه الرياح " (١) ابدلت من الواو الياء لوقوع ياء قبلها.
وحجة أبي عمرو في قراءته بالياء ان ما تقدم ذكره من الغيبة وهو قوله عزوجل " واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم " كراهية ان يقولوا أولئلا يقول، ويؤكد ذلك ما جاء بعد من الاخبار عن الغيبة وهو قوله:
" قالوا بلى ".
وحجة من قرأ بالتاء انه قد جرى في الكلام خطاب وهو قوله " ألست بربكم قالوا بلى شهدنا " وكلا الوجهين حسن لان الغيب هم المخاطبون في المعنى.
وهذا خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) قال الله تعالى له: واذكر أيضا الوقت الذي اخذ الله فيه من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم؟.
واختلفوا في معنى هذا الاخذ فيه وهذا الاشهاد:
فقال البلخي والرماني اراد بذلك البالغين من بني آدم واخراجه اياهم ذرية قرنا بعد قرن وعصرا بعد عصر واشهاده إياهم على انفسهم تبليغه إياهم وإكماله عقولهم، وما نصب فيها

من الادلة الدالة بأنهم مصنوعون وان المصنوع لابدله من صانع، وبما اشهدهم ممـــا يحـــدث فيهم من الزيادة والنقصان والالام والامراض الدال بجميع ذلك على ان لهم خالقا رازقا تجب معرفته والقيام بشكره، وما اخطر بقلوبهم من تأكيد ذلك والحث على الفكر فيه، ثـــم إرســـاله الرسل وإنزاله الكتب، لئلا يقولوا إذا صاروا إلى العذاب: إنا كنا عن هذا غافلين، لم ينبه علينا ولم تقم لنا حجة عليه ولم تكمل عقولنا فنفكر فيه، او يقول قوم منهم: إنما أشرك آباؤنا حـــين بلغوا وعقلوا فأما نحن فكنا أطفالا لانعقل ولا نصلح للفكر والنظر والتدبير.

وقال الجبائي: أخذه ذرياتهم من ظهورهم انه خلقهم من ظهور الاباء، ثم خلقهم فـــي ارحـــام الامهات، ثم نقلهم من خلقة إلى خلقة، وصورة إلى صورة، ثم صاروا حيوانا بأن احيـــاهم الله في الارحام، واتم خلقهم، ثم اخرجهم من الارحام بالولادة

---

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٤٦

(*)

(٢٨)

وقوله تعالى: " واشهدهم على انفسهم " يعني عند البلوغ وكمال العقل وعندما عرفوا ربهم فقال لهم على لسان بعض انبيائه " الست بربكم "؟ فقالوا: بلى شهدنا بذلك واقررنا به لانهم كـــانوا بالله عارفين انه ربهم.

وقوله تعالى " ان تقولوا إنا كنا عن هذا غافلين " معناه لئلا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هـــذا غافلين فأراد بذلك اني انا قررتكم بهذا لتواظبوا على طاعتي وتشكروا نعمتي ولا تقولوا يـــوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين.

وقوله تعالى " او تقولوا إنما اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم " فنشأنا على شـــركهم فتحنجوا يوم القيامة بذلك، فبين انى قد قطعت بذلك حجتكم هذه بما قررتكم به مـــن معرفتـــي واشهدتكم على انفسكم باقراركم وبمعرفتكم إياي.

وقوله " افتهلكنا بما فعل المبطلون " من آبائنا. وهذا يدل على انها مخصوصة في قوم من بني آدم وانها ليست في جميعهم، لان جميع بني آدم لم يؤخذوا من ظهور بنـــي آدم لان ولـــد آدم لصلبه لايجوز ان يقال: إنهم اخذوا من ظهور بني آدم فقد خرج ولد آدم لصـــلبه مـــن ذلـــك وخرج ايضا اولاد المؤمنين من ولد آدم الذين لم يكن آباؤهم مشركين، لانه بـــين ان هـــؤلاء الذين اقروا بمعرفة الله واخذ ميثاقهم بذلك كان قد سلف لهم في الشرك آباء. فصح بذلك انهـــم قوم مخصوصون من اولاد آدم.

فأما ما روي ان الله تعالى اخرج ذرية آدم من ظهره واشهدهم على انفسم وهم كالذر، فان ذلك غير جائز لان الاطفال فضلا عمن هو كالذر لاحجة عليهم، ولا يحسن خطابهم بما يتعلق بالتكليف، ثم ان الاية تدل على خلاف ما قالوه.

لان الله تعالى قال " وإذ اخذ ربك من بني آدم " وقال " من ظهورهم " ولم يقل من ظهره. وقال " ذريتهم " ولم يقل ذريته، ثم قال " او تقولوا إنما اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم افتهلكنا بما فعل المبطلون " فأخبر ان هذه الذرية قد كان قبلهم آباء مبطلون وكانوا هم بعدهم.

(٢٩)

على ان راوي هذا الخبر سليمان بن بشار الجهني، وقيل مسلم بن بشار عن عمر بن الخطاب وقال يحيى بن معين: سليمان هذا لايدري اين هو. وايضا فتعليل الاية يفسد ما قالوه. لانه قال: فعلت هذا لئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين والعقلاء اليوم في دار الدنيا عن ذلك غافلون.

فان قيل نسوا ذلك لطول العهد اولان الزمان كان قصيرا كما يعلم الواحد منا اشياء كثيرة ضرورة ثم ينساها كما ينسى ما فعله في امسه وما مضى من عمره.

قلنا إنما يجوز ان ينسى مالا يتكرر العلم به ولا يشتد الاهتمام به، فأما الامور العظيمة الخارقة للعادة، فلا يجوز ان ينساها العاقل. الا ترى ان الواحد منا لودخل بلاد الزنج وراى الافيلة ولو يوما واحدا من الدهر لايجوز ان ينسى ذلك حتى لايذكره اصلا مع شدة اجتهاده واستذكاره؟ ولو جاز ان ينساه واحد لما حاز ان ينساه الخلق بأجمعهم. ولو جوزنا ذلك للزمنا مذهب التناسخ وان الله كان قد كلف الخلق فيما مضى واعادهم، إما ليتعمهم او ليعاقبهم. ونسوا ذلك. وذلك يؤدي إلى التجاهل.

على ان أهل الاخرة يذكرون ما كان منهم من احوال الدنيا ولم يجب ان ينسوا ذلك لطول العهد، ولا المدة التي مرت عليهم وهم اموات وكذلك اصحاب الكهف لم ينسوا ما كانوا فيه قبل نومهم لما انتبهوا مع طول المدة في حال نومهم، فعلمنا ان هؤلاء العقلاء لما كانوا شاهدوا ذلك وحضروه وهم عقلاء لما جاز ان يذهب عنهم معرفة ذلك لطول العهد، ولوجب أن يكونوا كذلك عارفين.

وقال قوم وهو المروي في أخبارنا إنه لايمنع ان يكون ذلك مختصا بقوم خلقهم الله وأشهدهم على أنفسهم بعد ان أكمل عقولهم واجابوه ب (بلى)، وهم اليوم يذكرونه ولا يغفلون عنه، ولا يكون ذلك عاما في جميع العقلاء وهذا وجه ايضا قريب يحتمله الكلام.

وحكى أبوالهذيل في كتابة الحجة: أن الحسن البصري واصحابه كانوا

(٣٠)

يذهبون إلى ان نعيم الاطفال في الجنة ثواب عن إيمانهم في الذر.

وحكى الرماني عن كعب الاحبار: انه كان يخبر خبر الذر غير انه يقول ليس تأويل الاية على ذلك. وإنما فعل ليجروا على الاعراف الكريمة في شكر النعمة والاقرار لله بالوحدانية، كما روي انهم ولدوا على الفطرة.

ويدل على فساد قولهم قوله تعالى " والله اخرجكم من بطون امهاتكم لاتعلمون شيئا " (١) فهم لو كانوا أخرجوا من ظهر آدم على صورة الذر كانوا بعد من ان يعلموا او يعقلوا ومتى قالوا أكمل الله عقولهم فقد مضى الكلام عليهم.

وذكر الازهري وروي ذلك عن بعض من تقدم ان قوله: " وإذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على انفسهم ألست بربكم قالوا بلى " تمام الكلام. وقوله " شهدنا ان تقولوا يوم القيامة " حكاية عن قول الملائكة انهم يقولون شهدنا لئلا تقولوا.

وهذا خلاف الظاهر وخلاف ما عليه جميع المفسرين لان الكل قالوا (شهدنا)

من قول من قال (بلى) وان اختلفوا في كيفية الشهادة على ان الملائكة لم يجر لها ذكر، فكيف يكون ذلك إخبارا عنهم.

قوله تعالى:

وكذلك نفصل الايات ولعلهم يرجعون (١٧٣) آية إنا كما بينا لكم هذه الايات كذلك نفصلها للعباد ونبينها لهم. وتفصيله الايات هو تمييز بعضها من بعض ليتمكنوا من الاستدلال بكل واحدة منها على جهتها وبين أنه فعل ذلك بهم ليتوبوا وليرجعوا عن معاصيه إلى طاعته وعن الكفر إلى الايمان به.

---

(١) سورة ١٦ النحل آية ٧٨

(*)

(٣١)

قوله تعالى:

واتل عليهم نبأالذي اتيناه اياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين (١٧٤) آية بلا خلاف.

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآلـه) يأمره بأن يقرأ على بني اسرائيل وغيـرهم من أمته خبر الذي اتاه الله حججه وبيناته فانسلخ منها فأتبعه الشيطان وكان من جملة الغاوين الخائبين الخاسرين. وقيل معناه الضالين الهالكين.

واختلفوا في المعني بقوله " آتيناه آياتنا ": فقال ابن عباس ومجاهد:

هو بلعام بن باعورا من بني اسرائيل. وقال: معنى " فانسلخ منها " مانزع منـه مـن العلـم. وروي عن عبدالله بن عمر انها نزلت في أمية بن ابى الصلت. وقال مسروق وعبدالله: هـي في رجل من بني اسرائيل يقال له بلعم بن باعوراء. وقال قوم: هو رجل من الكنعانيين. وقال الحسن: هذا مثل ضربه الله للكافر آتاه الله آيات دينه " فانسلخ منها " يقـول اعـرض عنهـا وتركها " فاتبعه الشيطان " خذله الله وخلى عنه وعن الشيطان، وهو مثل قوله تعالى " كتـب عليه انه من تولاه فانه يضله " (١) اى كتب على الشيطان انه من تولى الشيطان فان الشيطان يضله. وقال الجبائي اراد به المرتد الذي كان الله آتاه العلم به وبآياته فكفر به وبآياته وبدينـه من بعد ان كان به عارفا فانسلخ من العلم بذلك ومن الايمان.

وقوله " فأتبعه الشيطان " معناه ان الشيطان اتبعه كفار الانس وغواتهم حتى اتبعوه علـى مـا صار اليه من الكفر بالله وبآياته. وقيل اتبعه الشيطان بالتزيين والاغواء حتى تمسـك بحبلـه وكان من الغاوين الخائبين من رحمة الله، قال وهو رجل من المتقدمين يقال لـه: بلعـام بـن باعورا.

---

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٤

(*)

اتبعه الشيطان، واتبعه لغتان وبالتخفيف معناه فقاه، وبالتشديد حذا حذوه وإذا اردت اقتـدا بـه فبالتشديد لاغير. فأما ما روي أن الاية كانت النبوة فانه باطل، فان الله تعالى لايؤتي نبوته من يجوز عليه مثل ذلك، وقد دل دليل العقل والسمع على ذلك قال الله تعالى " ولقد اخترناهم على علم على العالمين " (١) وقال " المصطفين الاخيار " (٢) فكيف يختار من ينسلخ عن النبوة.

وقيل: إن الاية كانت الاسم الاعظم وهذا ايضا نظير الاول لايجوز ان يكون مرادا، والقـول هو ما تقدم من اكثر المفسرين: ان المعني به بلعم بن باعورا ومن قال امية بن ابي الصـلت قال كان اوتي علم الكتاب فلم يعمل به. والوجه الذي قاله الحسن يليق بمذهبنا دون الذي قالـه الجبائي، لان عندنا لايجوز ان يرتد المؤمن الذي عرف الله على وجه يستحق به الثواب.

والنبأ الخبر عن الامر العظيم ومنه اشتقاق النبوة: نباه الله جعله نبيا وإنما آتاه الله الايات باللطف حتى تعلمها وفهم معانيها وقال ابومسلم: الاية في كل كافر بين الله له الحق فلم يتمسك به. وقال ابوجعفر (عليه السلام) في الاصل بلعم ثم ضرب مثلا لكل مؤثر هواه على هدى الله تعالى من اهل القبلة.

قوله تعالى:

ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الارض واتبع هويه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا باياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون (١٧٥) آية.

---

(١) سورة ٤٤ الدخان آية ٣٢ (٢) سورة ٣٨ ص آية ٤٧

(*)

الهاء في (لرفعناه) كناية عن الذي تقدم ذكره، وهو الذي آتاه اله آياته فانسلخ منها، فأخبره الله تعالى انه لو شاء لرفعه بتلك الايات.

واختلفوا في معنى هذه المشيئة فقال الجبائي: المعنى لو شئنا لرفعناه بايمانه ومعرفته قبل ان يكفر لكن ابقيناه ليزداد الايمان، فكفر. وقال البلخي هذا اخبار عن قدرته انه لو شاء لحال بينه وبين الكفر والارتداد، وهو الذي نختاره لانا قد بينا ان المؤمن لايجوز ان يرتد. وقال الزجاج: معناه لو شئنا ان نحول بينه وبين المعصية لفعلنا.

وقوله " ولكنه أخلد إلى الارض " معناه سكن إلى الدنيا وركن اليها ولم يسم إلى الغرض الاعلى. يقال أخلد فلان إلى كذا وكذا وخلد، وبالالف اكثر في كلام العرب، والمعنى إنه سكن إلى لذات الدنيا واتبع هواه أي لم نرفعه بالايات لاتباع هواه. وقيل معنى أخلد قعد ويقال: فلا مخلد إذا أبطأ عنه الشيب ومخلد إذا لم تسقط اسنانه – هكذا ذكره الفراء – ومن الدواب الذي تبقى ثناياه حتى تخرج رباعيتاه. وأخلد بالمكان اذا اقام به، قال زهير:

لمن الديار غشيتها بالفدفد * كالوحي في حجر المسيل المخلد (١)

وقال مالك بن نويرة:

بأبناء حي من قبائل مالك * وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا (٢)

وقال ابوعبيدة هو اللزوم للشئ والتقاعس فيه وقال سعيد بن جبير معناه ركن إلى الارض، وقال مجاهد: معناه سكن اليها.

(١) ديوانه ٢٦٨، واللسان (خلد). و (الفدفد) الفلاة التي لاشئ بها.
وقيل: هي الارض الغليظة ذات الحصى، وقيل غير ذلك و (الوحي) الكتابة و (حجر المسيل) هو حجر صلب يكتبون فيه.
(٢) الاصمعيات: ٣٢٣.
(*)

(٣٤)

وقوله: " فمثله كمثل الكلب " ضرب الله مثل البارك لاياته والعادل عنها بأخس مثل في أخس احواله، فشبهه بالكلب، لان كل شئ يلهث فانما يلهث في حال الاعياء والكلال إلا الكلب فانه يلهث في حال الراحة والتعب، وحال الصحة وحال المرض. وحال الري وحال العطش وجميع الاحوال، فقال تعالى إن وعظته فهو ضال وان لم تعظه فهو ضال كالكلب إن طردته وزجرته فانه يلهث، وإن تركته يلهث، وهو مثل قوله " وإن تدعوهم إلى الهدى لايتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم انتم صامتون " (١)

وقوله تعالى " ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا " يعني هذا المثل الذى ضربه بالكلب هومثل الذين كذبوا بآيات الله. وقال الجبائي إنما شبهه بالكلب لانه لما كفر بعد ايمانه صار يعادي المؤمنين ويؤذيهم، كما ان الكلب يؤذي الناس طردته أو لم تطرده فانه لايسلم من اداه.

وقوله تعالى " فاقصص القصص " معناه فاقصص على الناس ما نبينه لك لكي يتذكروا ويتفكروا فيرجعوا إلى طاعة الله وينزجروا عن معاصيه. وقال ابن جريج مثله بالكلب، لان الكلب لافؤاد له فيقطعه الفؤاد حملت عليه او تركته، شبه من ترك الايات كأنه لافؤاد له.

واللهث التنفس الشديد من شدة الاعياء، وفي الكلب طباع يقال: لهث يلهث لهثا فهو لاهث ولهثان.

قوله تعالى:

ساء مثلا القوم الذين كذبوا باياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون (١٧٦) آية بلا خلاف.

التقدير ساء مثلا مثل القوم، وحذف لدلالة الكلام عليه و " أنفسهم " نصب

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٩٢
(*)

(٣٥)

ب (يظلمون) وصف الله تعالى هذا المثل الذي ضربه وذكره بأنه ساء مثلا اي بئس مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، وانهم بذلك لا يظلمون إلا انفسهم دون غيرهم، لان عقاب ما

يفعلونه من المعاصي يحل بهم فان الله تعالى لايضره كفرهم ولامعصيتهم كما لا ينفعه طاعتهم وإيمانهم.

قوله تعالى:

من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فاولئك هم الخاسرون (١٧٧) آية.

" فهو المهتدي " كتب – ههنا – بالياء ليس في القرآن غيره بالياء، واثبت الياء في اللفظ ههنا جميع القراء. وقال الجبائي: معنى الاية من يهديه الله إلى نيل الثواب. كما يهدي المؤمن إلى ذلك والى دخول الجنة فهو المهتدي للايمان والخير، لان المهتدي هو المؤمن فقد صار مهتديا إلى الايمان والى نيل الثواب.

ومن يضله الله عن الجنة وعن نيل ثوابها عقوبة على كفره او فسقه، " فأولئك هم الخاسرون " لانهم خسروا الجنة ونعيمها وخسروا انفسهم والانتفاع بها. وقال البلخي المهتدي هو الذي هداه الله فقبل الهداية واجاب اليها، والذي أضله الله هو الضال الذي اختار الضلاله فأضله الله بمعنى خلى بينه وبين ما اختاره وترك منعه بالخير على انه إذا ضل عن امر الله عند امتحانه وتكليفه جاز أن يقال: ان الله أضله. وقيل: معنى " من يهدي الله " من يحكم الله بهدايته " فهو المهتدى " ومن حكم بضلالته فهو الخائب الخاسر.

قوله تعالى:

ولقد ذرانا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب

لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم اذان لايسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون (١٧٨) آية بلا خلاف.

معنى " ذرأنا " خلقنا يقال: ذرأهم يذرأهم واللام في (لجهنم) لام العاقبة.

والمعنى انه لما كانوا يصيرون اليها بسوء اختيارهم وقبح أعمالهم جاز أن يقال: إنه ذرأهم لها والذي يدل على ان ذلك جزاء على اعمالهم قوله " لهم قلوب لايفقهون بها " وأخبر عن ضلالهم الذي يصيرون به إلى النار، وهو مثل قوله تعالى " إنما نملي لهم للزدادوا إثما " (١) ومثل قوله " ربنا إنك آتيت فرعون وملاه زينة واموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك " (٢) ومثل قوله عزوجل " فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا " (٣) وإنما التقطوه ليكون قرة عين كما قالت امرأة فرعون عند التقاطه " فرة عين لي ولك لاتقتلوه عسى أن ينفعنا او نتخذه ولدا " " ٤ " ومثله قول القائل: اعددت هذه الخشبة ليميل الحائط فاسنده بها وهو لا يريد ميل الحائط. ومثله قول الشاعر:

وللموت تغذو الوالدات سخالها * كما لخراب الدهر تبنى المساكن (٥)

وقال الاخر:

اموالنا لذوي الميراث نجمعها * ودورنا لخراب الدهر نبنيها (٦)

وقال الاخر:

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٧٨ (٢) سورة ١٠ يونس آية ٨٨ (٣) سورة ٢٨ القصص آية ٨ (٤) سورة ٢٨ القصص آية ٩ (٥) قائله سابق البربري او (البربدي) العقد الفريد ١ / ٢٦٩ (٦) إنظر ٣ / ٦٠ من هذا الكتاب (*)

(٣٧)

وام سماك فلا تجزعي * فللموت ماتلد الوالدة (١)

وقال آخر:

لدوا للموت وابنوا للخراب * فكلكم يصير إلى ذهاب (٢)

وقوله " لهم قلوب لايفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها " معناه انهم لما لم يفقهوا بقلوبهم ولم يسمعوا بآذانهم ولم يبصروا بعيونهم ما كانوا يؤمرون به ويدعون اليه سموا بكما عميا صما. ولما لم ينتفعوا بجوارحهم اشبهوا العمي البكم الصم، لان هؤلاء لا ينتفعون بجوارحهم فأشبهوهم في زوال الانتفاع بالجوارح وسموا باسمائهم، ومثله قول مسكين الدارمي:

أعمي اذا ما جارتي خرجت * حتى يواري جارتي الخدر

ويصم عما كان بينهما * سمعي وما بي غيره وقر (٣)

فجعل نفسه اصما واعمى لما لم ينظر ولم يسمع وقال آخر:

وكلام سئ قد وقرت * أذني عنه ومابي من صمم

وقال آخر:

صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به * وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا (٤)

وهذا كثير. ويجوز أن يكون قوله تعالى " ذرأنا لجهنم " معناه ميزنا.

ويقال: ذرأت الطعام والشعير أي ميزت ذلك من التبن والمدر، فلما كان الله

(١، ٢) إنظر ٣ / ٦٠ من هذا الكتاب.

(٣) تفسير الطبري الطبعة الثانية ٩ / ١٣٢. وروايته " الستر " بدل " الخدر " " وما بالسمع من وقر " بدل " وما بي غيره وقر " وقد مر البيتان في ١ / ٩٠ وفي ٢ / ١١٣ من هذا الكتاب.

(٤) قائله قنعب بن أم صاحب اللسان والتاج (أذن) وفي مجاز القرآن ١ / ١٧٧ هكذا:

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا * وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

(*)

(٣٨)

تعالى قد ميز اهل النار من اهل الجنة في الدنيا بالتسمية والحكم والشهادة جاز ان يقول ذرأناهم اي ميزنا هم. ثم وصفهم بصفة تخالف اوصاف اهل الجنة يعرفون بها فقال " لهم قلوب لايفقهون بها " إلى آخرها.

ويجوز ان يكون قوله " ذرأنا " بمعنى سنذرأ كما قال: " ونادى اصحاب الجنة اصحاب النار " (١) بمعنى سينادون، فكأنه قال سيخلقهم خلقا ثانيا للنار بأعمالهم التي تقدمت منهم في الدنيا إذ كانوا استحقوا النار بتلك الاعمال. ولايجوز أن يكون معنى الاية إن الله خلقهم لجهنم واراد منهم ان يفعلوا المعاصي فيدخلوا بها النار، لان الله تعالى لا يريد القبيح، لان إرادة القبيح قبيحة، ولان مريد القبيح منقوص عند العقلاء تعالى الله عن صفة النقص، ولانه قال " وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون " (٢) فبين انه خلق الخلق للعبادة والطاعة وقال " وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع " (٣) وقال " ولقد صرفناه بينهم ليذكروا " (٤) وقال " ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط " (٥) وقال " إنا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا بالله ورسوله " (٦) ونظائر ذلك اكثر من ان تحصى، فكيف يقول بعد ذلك " ولقد ذرأنا لجهنم " وهل هذا إلا تناقض تنزه كلام الله عنه.

وقوله " اولئك كالانعام " يعني هؤلاء الذين لايتدبرون بآيات الله ولا يستدلون بها على وحدانيته وصدق رسله اشباه الانعام والبهائم التي لاتفقه ولاتعلم ثم قال " بل هم اضل " يعني من البهائم، لان في البهائم ما إذا زجرتها انزجرت واذا أرشدتها إلى طريق اهتدت. وهؤلاء لعتوهم وكفرهم لايهتدون إلى شئ من الخيرات مع ما ركب الله فيهم من العقول التي تدلهم على الرشاد وتصرفهم عن الضلال

---

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٤٣ (٢) سورة ٥١ الذاريات آية ٥٦ (٣) سورة ٤ النساء آية ٦٣ (٤) سورة ٢٥ الفرقان آية ٥٠ (٥) سورة ٥٧ الحديد آية ٢٥ (٦) سورة ٦٣ المؤمنون آية ٤٥

(*)

(٣٩)

وليس ذلك في البهائم. ومع ذلك تهتدي إلى منافعها وتتحرز عن مضارها، والكافر لا يفعل ذلك. ثم قال " أولئك هم الغافلون " يعني هؤلاء هم الغافلون عن آياتي وحججي والاستدلال بها والاعتبار بتدبرها على ما تدل عليه من توحيده، لان البهائم التي هي مسخرة مصروفة لاختيار لها.

قوله تعالى:

ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون (١٧٩) آية اجماعا.

قرأ حمزة " يلحدون " بفتح الحاء والياء – ههنا – وفي النحل وحم السجدة وافقه الكسائي وخلف في النحل، والباقون بضم الياء. من قرأ بكسر الحاء، فلقوله " ومن يرد فيه بالحاد " (١) وألحد أكثر في الكلام قال الشاعر:

ليس الامام بالشحيح الملحد * ولايكاد يسمع لاحد (٢)

والالحاد العدول عن الاستقامة والانحراف عنها ومنه اللحد الذي يحفر في جانب القبر خلاف الضريح الذي يحفر في وسطه فمعنى " يلحدون في آياتنا " يجورون عن الحق فيها. وروى ابوعبيدة عن الاحمر: لحدت جرت وملت وألحدت ماريت وجادلت قال: وقال ابوعبيدة: لحدت له والحدت للميت بمعنى واحد.

قال أبن جريج اشتقوا العزى من العزيز واللات من الله. وكان ذلك إلحادا.

وقال ابن عباس: الحادهم تكذيبهم. وقال قتادة: هو شركهم. وقال قوم: هو تسميتهم الاصنام بآنها آلهة.

أخبر الله تعالى ان له الاسماء الحسنى نحو قوله تعالى " بسم الله الرحمن الرحيم "

---

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٢٥ (٢) قائله حميد بن ثور. اللسان " لحد "
(*)

وغير ذلك من الاسماء التي تليق به، وهي الاسماء الراجعة إلى ذاته او فعله نحو العالم العادل، والسميع البصير المحسن المجمل، وكل اسم لله فهو صفة مفيدة لان اللقب لايجوز عليه. وامر تعالى ان يدعوه خلقه بها وان يتركوا اسماء اهل الجاهلية وتسميتهم اصنامهم آلهة ولاتا وغير ذلك. وقال الجبائي: يحتمل أن يكون اراد تسميتهم المسيح بأنه ابن الله وعزيزا بأنه ابن الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وقال قوم: هذا يدل على أنه لا يجوز أن يسمى الله إلا بما سمى به نفسه.

وقوله " وذروا الذين يلحدون " فيه تهديد للكفار وأن الله تعالى سيعاقبهم على عدولهم عن الحق في تغيير أسمائه.

وقوله تعالى " سيجزون ما كانوا يعملون " معناه سيجزون جزاء ما كانوا يعملون من المعاصي بانواع العذاب. قال الرماني الاسم كلمة تدل على المعني دلالة الاشارة، والفعل كلمة

تدل على المعني دلالة الافادة. والصفة كلمة مأخوذة للمذكور من اصل من الاصول لتجـــري عليه تابعة له.

قوله تعالى:

وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون (١٨٠) آية.

أخبر الله تعالى أن من جملة من خلقه جماعة يهدون بالحق. وهداهم بالحق هو دعاؤهم الناس إلى توحيد الله والى دينه وتنبيههم إياهم على ذلك. وقال قوم معنى (يهدون) يهتـــدون " وبـــه يعدلون " معناه إنهم يعملون بالعدل والانصاف فيما بينهم وبين الناس.

وهذا إخبار ان فيما خلق قوما هذه صفتهم ولايدل ذلك على ان في كل عصر يوجد قوم هـــذه صفتهم ولو لم يوجدوا إلا في وقت واحد كانت الفائدة حاصلة بالاية، فلا يمكن الاستدلال بهـــا على ان اجماع اهل الاعصار حجة. على ان عندنا انه لايخلوا وقت من الاوقات ممن يجـــب اتباعه وتثبت عصمته ويكون حجة الله على

خلقه فيمكن أن يكون المراد بالاية من ذكرناه. وقال ابوجعفر (عليه الســـلام) وقتادة وابن جريج: الاية في أمة محمد (صلى الله عليه وآله) وهو مثل قوله تعالى " وجعلناهم أئمة يهـــدون بأمرنـــا " (١) فكما أنه لايدل على وجود أئمة في كل وقت فكذلك ما قالوه.

قوله تعالى:

والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون (١٨١) وأملي لهم إن كيدي متين (١٨٢) آيتان المعنى إن الذين كذبوا بآيات الله التي تضمنها القرآن والمعجزات الدالة على صدق النبي (صلى الله عليه وآله) وكفروا بها سنستدرجهم من حيث لايعلمون استدراجا لهم إلى الهلكة حتـــى يقعوا فيها بغتة من حيث لايعلمون، كما قال تعالى " بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فـــلا يســـتطيعون ردها " (٢) وقال: " فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون " (٣)

فيقولوا هل نحن منظرون؟ ويجوز ان يكون من عذاب الاخرة.

فأما من قال من المجبرة: إن معنى الاية أن الله يستدرجهم إلى الكفر والضلال فباطل، لان الله تعالى لايفعل ذلك لانه قبيح ينافي الحكمة، ثم إن الاية بخلاف ذلك لانه بين أن هؤلاء الـــذين يستدرجهم كفار بالله ورسوله وبآياته، وانه سيستدرجهم في المستقبل لان الســـين لاتـــدخل إلا على المستقبل فلا معنى لقوله " إن الذين كفروا سنستدرجهم " إلى الكفر، لانهم كفار قبل ذلك، ولا يجب في الكافر أن يبقى حتى يواقع كفر آخر، لانه يجوز أن يميته الله تعالى، فبان بـــذلك أن المراد أنه سيستدرجهم إلى العذاب والعقوبات من حيث لايعلمون في مستقبل أمرهم بقوا أو لم يبقوا.

على ان الاستدراج عقوبة من الله والله لايعاقب أحدا على فعل نفسه كما لا يعاقبهم

---

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٧٣ (٢) سورة ٢١ الانبياء آية ٤٠ (٣) سورة ٢٦ الشعراء آية ٢٠٢ (*)

على طولهم او قصرهم.

ويحتمل ان يكون معنى الاية إنا نعاقبهم على استدراجهم للناس وإغوائهم إياهم ونعاقبهم على كيدهم، فجعل العقوبة على الاستدراج استدراجا، والعقوبة على الكيد كيدا، كما قال " سخر الله منهم " (١) وقال " الله يستهزئ بهم " (٢) وقال يخادعون الله وهو خادعهم " (٣) وقال " والله خير الماكرين " (٤) وما اشبه ذلك.

ويحتمل ان يكون المراد: إني سأفعل بهم ما يدرجون في الفسوق والضلال عنده ويكون ذلك إخبار عن بقائهم على الكفر عند إملائه لهم، فسمى ذلك استدراجا لانهم عند البقاء كفروا وازدادوا كفرا ومعصية. وان كان الله لم يرد منهم ذلك ولا بعثهم عليه، كما قال " أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر " (٥) كما يقول القائل: أبطر فلان فلانا بانعامه عليه. ولقد ابطرته النعمة واكفرته السلامة، وإن كان المنعم لايريد ذلك بل اراد ان يشكره عليها.

ومعنى قوله " وأملي لهم " أؤخر هؤلاء الكفار في الدنيا وابقيهم مع إصرارهم على الكفر ولا أعاجلهم بالعقوبة على كفرهم، لانهم لايفوتوني ولا يعجزوني، ولا يجدون مهربا ولا ملجأ.

وقوله تعالى " إن كيدي متين " معناه إن عذابي وسماه كيدا لنزوله بهم من حيث لايشعرون. وقيل: إنه اراد أن جزاء كيدهم وسماه كيدا للازدواج على ما بينا نظائره. ومعنى " متين " شديد قوي قال الشاعر:

عدلن عدول اليأس والشيخ يبتلى * افانين من الهوب شد مماتني (٦)

---

(١) سورة ٩ التوبة آية ٨٠ (٢) سورة ٢ البقرة آية ١٥ (٣) سورة ٤ النساء آية ١٤١ (٤) سورة ٣ آل عمران آية ٥٤ (٥) سورة ٣٥ فاطر آية ٤٧ (٦) تفسير الطبري ١٣ / ٢٨٨ والطبعة الثانية ٩ / ١٣٦ وفيه اختلاف (*)

يعني شد او شديدا باقيا لا ينقطع. والمتن أصله اللحم الغليظ الذي عن جانب الصلب وهما متنان. والكيد والمكر واحد، وهو الميل إلى الشر في خفى، كاد يكيد كيدا ومكيدة، وفلان يكيد بنفسه.

وأصل الاستدراج اغترار المستدرج من حيث يرى أن المستدرج محسن اليه حتى يورطه مكروها. والاستدراج أن يأتيه من مأمنه من حيث لايعلم.

و (أملي) بمعنى أؤخر من الملي – ثقيلة الياء – يقال مضى عليه ملي من الدهر وملاؤ من الدهر – بفتح الميم وضمها وكسرها – أي قطعة منه. ووجه الحكمة في اخذهم من حيث لا يعلمون أنه لو اعلمهم وقت ما يأخذهم وعرفهم ذلك لامنوه قبل ذلك وكانوا مغريين بالقبيح قبله تعويلا على التوبة فيما بعد وذلك لايجوز عليه تعالى.

والاستدراج على ضربين:

احدهما – ان يكون الرجل يعادي غيره فيطلب له المكايدة والختل من وجه يغتره به ويخدعه ويدس اليه من يوقعه في ورطة حتى يشفي صدره ولايبالي كيف كان ذلك، فهذا سفيه غير حكيم.

والاخر – أن يحلم فيه ويتأنى ويترك العجلة في عقوبته التي يستحقها على معاصيه كيدا ومكرا واستدراجا. ألا ترى لوان إنسانا عادى غيره فجعل يشتمه ويعيبه وذاك يعرض عنه ولا يكا فيه مع قدرته على مكافاته جاز أن يسمى كيدا واستدراجا ومكرا وحيلة، ولجاز ان يقال: فلان متين الكيد شديد الاستدراج، بعيد الغور محكم التدبير.

وقيل في معنى " سنستدرجهم " سنأخذهم قليلا قليلا ولا نباغتهم، يقال:

امتنع فلان على فلان واتى عليه حتى استدرجه اي خدعه حتى حمله على ان درج اليه درجانا أي اخذ في الحركة نحوه كما يدرج الصبي اول ما يمشي، ويقال:

صبي دراج: ويقال: درجوا قرنا بعد قرن اي فنيوا قليلا قليلا.

(٤٤)

قوله تعالى:

أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين (١٨٣) أولم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شئ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون (١٨٤) آيتان هذا خطاب من الله تعالى للكفار الذين كانوا ينسبون النبي (صلى الله عليه وآله) إلى الجنون على وجه التوبيخ لهم والتقريع " أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة " اي وليس بالنبي (صلى الله عليه وآله) جنة وهي الجنون، فانه لايأتي بمثل ما يأتي به المجنون، وهم يرون الاصحاء منقطعين دونه ويرون صحة تدبيره واستقامة أعماله وذلك ينافي أعمال المجانين.

وبين انه ليس به (صلى الله عليه وآله) إلا الخوف للعباد من عقاب الله، لان الانذار هو الاعلام عن المخاوف، فبين لهم ما عليهم من أليم العذاب بمخالفته ثم قال " أولم ينظروا " ومعناه

يفكروا " في ملكوت السماوات والارض " وعجيب صنعهما فينظروا فيهما نظر مستدل معتبر، فيعرفون بما يرون من اقامة السماوات والارض مع عظم أجسامهما وثقلهما على غير عمـــدو تسكينها من غير آ لة فيستدلوا بذلك على انه خالقها ومالكها وأنه لايشبهها ولاتشبهه.

وقوله " وما خلق الله من شئ " يعني وينظروا فيما خلق الله تعالى من اصناف خلقه فيســتدلوا بذلك على انه تعالى خالق جميع الاجسام وأنه أولى بالالهية من الاجسام المحدثة.

وقوله تعالى " وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم " معناه اولم يتفكروا

في ان عسى ان يكون قد اقترب اجلهم، وهو اجل موتهم فيدعوهم ذلك إلى ان يحتاطوا لدينهم ولا نفسهم فيما يصيرون اليه بعد الموت من امور الاخرة ويزهدهم في الدنيا وفيما يطلبونـــه من فخرها وعزها وشرفها فيدعوهم ذلك إلى النظر في الامور التي أمرهم بالنظر فيها.

وقوله تعالى " فبأي حديث بعده يؤمنون " معناه بأي حديث بعد القرآن يؤمنون مـــع وضـــوح دلالته على أنه كلام الله إذ كان معجزا لايقدر أحد من البشر ان يأتي بمثله، وسماه حديثا لانه محدث غير قديم لان إثباته حديثا ينافي كونه قديما.

وفي الاية دلالة على وجوب النظر وفساد التقليد، لان النظر المراد به الفكر دون نظر العين، لان البهائم ايضا تنظر بالعين، وكذلك الاطفال والمجانين، والفكر موقوف على العقلاء.

وقال الحسن وقتادة سبب نزول الاية ان النبي (صلى الله عليه وآله) وقف على الصفا يدعوا قريشا فخذا فخذا، فيقول: يا بني فلان يا بني فلان يحذرهم بأس الله وعقابه، فقال قائلهم: إن صاحبكم لمجنون بأن يصوت على الصباح: فأنزل الله الاية.

والملكوت هو الملك الاعظم للمالك الذي ليس بمملك.

قوله تعالى:

من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون (١٨٥) آية.

قرأ أهل العراق " ويذرهم " بالياء، واسكن الراء منه حمزة والكسائي وخلف البـــاقون بـــالنون وضم الراء من قرأ بالنون قال لان الشرط من الله، فكأنه قال " من يضلل الله.. فنذرهم " ومن قرأ بالياء رده إلى اسم الله تعالى وتقديره الله يذرهم.

ومن ضم الراء قطعه عن الاول ولم يجعله جوابا. ويجوز ان يكون أضمر المبتدأ وكان تقديره ونحن نذرهم، فيكون في موضع الجزم. ويجوز أن يكون استأنف الفعل فيرفعه ومن جزمـــه فانه عطفه لى موضع الفاء وما بعدها من قوله " فلا هادي له " لان موضعه جـــزم، فحمـــل "

ونذرهم " على الموضع، ومثله في الحمل على الموضع قوله تعالى " فأصدق وأكن " (١) لانه لو لم يلحق الفاء لقلت لولا أخرتني أصدق، لان معنى " لولا أخرتني " (٢) أخرني أصدق. فحمل قوله تعالى " واكن " على الموضع.

ومعنى قوله " من يضلل الله فلا هاي له " اي يمتحنه الله فيضل عند امتحانه وأمره إياه بالطاعة والخير والرشاد " فلا هادي له " أي لايقدر أحد أن يأتيه بالهدى والبرهان بمثل الذي آتاه الله تعالى، ولا بما يقارنه أو يزيد عليه " ويذرهم في طغيانهم " بمعنى يخلي بينهم وبين ذلك، وترك اخراجه بالقسر والجبر، ومنعه إياه لطفه الذي يؤتيه من آمن واهتدى وقيل الوعظ.

والطغيان الغلو في الكفر، والعمه: التحير والتردد في الكفر. ويحتمل ان يكون المراد من يضلل الله عن الجنة عقوبة على كفره فلا هادي له اليها وإن الله لايحول بين الكافر بل يتركه مع اختياره لان ما فعله من الزجر والوعيد كاف في ازاحة علة المكلف. وقيل معناه من حكم الله تعالى بضلاله وسماه ضالا بما فعله من الكفر والضلال فلا احد يقدر على إزالة هذا الاسم عنه ولا يوصف بالهداية، وكل ذلك واضح بحمد الله تعالى.

قوله تعالى:

يسئلونك عن الساعة أيان مرسيها قل إنما علمها عند

(١، ٢) سورة ٦٣ المنافقين آية ١٠

(*)

ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والارض لا تأتيكم إلا بغتة يسئلونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لايعلمون ١٨٦) آية بلا خلاف.

" أيان " معناه متى، وهي سؤال عن الزمان على وجه الظرف.

أخبر الله تعالى ان الكفار يسألون النبي (صلى الله عليه وآله) عن الساعة، وهي القيامة " أيان مرساها " أي وقت قيامها وثباتها. ومعنى " أيان " متى قال الراجز:

ايان تقضي حاجتي أيانا * أما ترى لنجحها إبانا (١)

و " مرساها " في موضع رفع بالابتداء، يقال: رسى يرسوا إذا ثبت فهو راس وجبال راسيات ثابتات، وارساها الله اي ثبتها. وقيل معنى " مرساها " الوقت الذي يموت فيه جميع الخلق، ومعنى سؤالهم عنها اي متى وقوعها وكونها. فأمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) ان يجيبهم ويقول لهم " علمها عند الله " لم يطلع عليها احدا كما قال " إن الله عنده علم الساعة " (٢)

وقوله تعالى " لا يجليها لوقتها الا هو " اي لا يظهرها في وقتها إلا الله.

وقوله تعالى " ثقلت في السموات والارض " قيل في معناه قولان:

احدهما – ثقل علمها على السماوات والارض ذهب اليه السدي وغيره.

الثاني – ثقل وقوعها على اهل السموات والارض – ذكره بن جريج وغيره –.

ثم اخبر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) بكيفية وقوعها فقال " لاتأتيكم إلا بغتة " يعني فجأة.

وقوله " يسألونك كأنك حفي عنها " قيل في معناه ثلاثة اقوال:

احدها – ان معناه وتقديره حفي عنها يسألونك عن الساعة ووقتها كأنك عالم بها

---

(١) تفسير القرطبي ٧ / ٣٣٥ ومجاز القرآن ١ / ٢٣٤ واللسان (ابن)

(٢) سورة ٣١ لقمان آية ٣٤.

(*)

وقيل: معناه كأنك فرح بسؤالهم عنها. وقيل: معناه كأنك اكثرت السؤال عنها ذكره مجاهد.

يقال حفيف بفلان في المسألة إذا سألته سؤالا أظهرت فيه المحبة والبر، قال الشاعر:

سؤال حفي عن أخيه كأنه * بذكرته وسنان او متواسن (١)

ويقال: احفى فلان بفلان في المسألة إذا اكثر عليه. ويقال: حفيت الدابة تحفى حفا مقصورا إذا اكثر عليها الم المشي، والحفاء – ممدودا – المشي بغير نعل.

ثم امر الله نبيه ان يقول " إنما علمها عند الله " اي لا يعلمها إلا الله.

وقوله تعالى " ولكن اكثر الناس لايعلمون " معناه اكثر الناس لا يعلمون ان ذلك لا يعلمه إلا الله، ويظنون انه قد يعلمه الانبياء وغيرهم من خلقه. وقال الجبائي معناه " لكن اكثر الناس لايعلمون " لم اخفى الله تعالى علم ذلك على التعيين على الخلق. والوجه فيه انه ازجر لهم عن معاصيه لانهم إذا جوزوا في كل وقت قيام الساعة وزوال التكليف كان ذلك صارفا لهم عن فعل القبيح خوفا من فوات وقت التوبة. وقوله في اول الاية " قل إنما علمها عند ربي " يعني علم وقت قيامها. وقوله في آخرها " قل إنما علمها عند الله " معناه علم كيفيتها وشرح هيئتها وتفصيل ما فيها لايعلمه إلا الله، فلا تكون تكرارا لغير فائدة.

وقال قتادة الذين سألوا عن ذلك قريش. وقال ابن عباس: هم قوم من اليهود وقال الفراء: في الاية تقديم وتأخير وتقديرها يسألونك عنها كأنك حفي بهم.

قال الجبائي وفي الاية دليل علي بطلان قول الرافضة من أن الائمة معصومون منصوص عليهم واحدا بعد الاخر إلى يوم القيامة، لان على هذا لابد أن يعلم آخر الائمة أن القيامة تقوم بعده ويزول التكليف عن الخلق، وذلك خلاف قوله " قل إنما علمها عند الله ".

---

(١) قائله المعطل الهذلي. ديوانه ٣ / ٤٥ وتفسير الطبري ١٣ / ٣٠١ (طبعة دار المعارف) و ٩ / ١٤٢ الطبعة الثانية.

(*)

وهذا الذي ذكره باطل لانه لا يمتنع أن يكون آخر الائمة آخر الائمة يعلم أنه لاإمام بعده وإن لم يعلم متى تقوم الساعة، لانه لايعلم متى يموت، فهو يجوز أن يكون موته عند قيام الساعة إذا أردنا بذلك انه وقت فناء الخلق. وإن قلنا إن الساعة عبارة عن وقت قيام الناس في الحشر فقد زالت الشبهة، لانه إذا علم أنه يفنى الخلق بعده لا يعلم متى يحشر الخلق. على انه قد روي أن بعد موت آخر الائمة يزول التكليف لظهور اشراط الساعة وتواتر إماراتها نحو طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة وغير ذلك، ومع ذلك فلا يعلم وقت قيام الساعة، ولهذا قال الحسن وجماعة من المفسرين: بادروا بالتوبة قبل ظهور الست: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، والدابة، وغير ذلك مما قدمناه فعلى هذا سقط السؤال.

قوله تعالى:

قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون (١٨٧) آية بلا خلاف.

أمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يقول للمكلفين إني " لاامللك لنفسي نفعا ولا ضـــرا إلا ما شاء الله " ان يملكني إياه فمشيئته تعالى في الاية واقعة على تمليك النفع والضـــر لا علـــى النفع والضر، لانه لو كانت المشيئة إنما وقعت على النفع والضر كان الانسان يملك ما شـــاء الله من النفع، وكان يملك الامراض والاسقام وسائرها ما يفعله الله فيه مما لا يجدله عن نفسه دفعا. ومعنى الاية إني املك ما يملكني الله من الاموال وما اشبهها مما يملكهم ويمكـــنهم مـــن التصرف فيها على ما شاؤا، وكيف شاؤا.

والضر الذي ملكهم الله إياه هو ما مكنهم منه من الاضرار بأنفسهم وغيرهم، ومن لم يملكه الله شيئا منه لم يملكه.

(٥٠)

وذلك يفسد تأويل المجبرة الذين قالوا: معنى الاية إن الله يريد جميع ما ينال الناس من النفـــع والضرر وإن كان ظلما وجورا من أفعال عباده وقوله عزوجل " ولـــو كنـــت اعلـــم الغيـــب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء " معناه إني لو كنت أعلم الغيب لعلمت ما يـــربح مـــن التجارات في المستقبل وما يخسر من ذلك فكنت اشتري ما اربح واتجنب ما اخسر فيه، فتكثر بذلك الاموال والخيرات عندي، وكنت أعده في زمان الخصب لزمان الجدب " ومـــا مســـني السوء " يعني الفقر إذا فعلت ذلك. وقيل: وما مسني تعذيب. وقيل: وما مسني جنون جوابا لهم حين نسبوه إلى الجنون. وقال ابن جريج " لو كنت اعلم الغيب لاستكثرت " من العمل الصالح قبل حضور الاجل، وهو قول مجاهد وابن زيد. وقال البلخي:

لو كنت اعلم الغيب لكنت قديما، والقديم لايمسه السوء لان احدا لايعلم الغيب الا الله.

وفي الاية دلالة على ان القدرة قبل الفعل، لان قوله " لو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير " يفيد أنه كان قادرا لانه لو لم تكن القدرة إلا مع الفعل لو علم الغيب لما امكنه الاستكثار مـــن الخير وذلك خلاف الاية.

وقوله تعالى " إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون " معناه لست الا مخوفا من العقاب محـــذرا من المعاصي ومبشرا بالجنة حاثا عليها غير عالم بالغيب " لقوم يؤمنون " فيصدقون بما اقول، وخصهم بذلك لانهم الذين ينتفعون بانذاره وبشارته دون من لا يصدق به كمـــا قـــال " هـــدى للمتقين ".

قوله تعالى:

هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشيها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت

(٥١)

دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين (١٨٨)

فلما آتيهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتيهما فتعالى الله عما يشركون (١٨٩) آيتان.

قرأ اهل المدينة وابوبكر وعكرمة والاعراج " شركا " بكسر الشين منونا الباقون بضم الشين على الجمع. وقرا ابن يعمر " فمرت " بتخفيف الراء وهو شاذ.

قال ابوعلي الفارسي: من قرا " شركا " بكسر الشين منونا – حذف المضاف كأنه اراد جعلا له ذا شرك اي ذا نصيب او ذوي شرك، ويكون كقول من جمع فالقراءتان يؤلان إلى معنى واحد. والضمير في قوله " له " يعود إلى اسم الله كأنه قال جعلا لله شركاء.

وقال ابوالحسن: كان ينبغي لمن قرأ بكسر الشين – أن يقول جعلا لغيره شركا. وقول من قرا " جعلا له شركاء " يجوز ان يريد جعلا لغيره فيه شركاء.

فحذف المضاف، فالضمير على هذا ايضا في " له " راجع إلى الله تعالى. وقال ابوعلي يجوز ان يكون الكلام على ظاهره، ولايقدر حذف المضاف في قوله تعالى " جعلا له " وانت تريد لغيره ولكن يقدر حذف المضاف إلى شرك فيكون المعنى جعلا له ذوي شرك، واذا جعلا له ذوي شرك كان في المعنى مثل لغيره شركا، فلا يحتاج إلى تقدير جعلا لغيره شركا.

قال ابوعلي: ويجوز ان يكون قوله تعالى " جعلا له شركاء " جعل احدهما له شركاء او ذوي شرك فحذف المضاف واقام المضاف اليه مقامه كما حذف من قوله تعالى " لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم " والمعنى على رجل واحد من احد رجلي القريتين.

وحكى الازهري ان الشرك والشريك واحد ويكون بمعنى النصيب.

(٥٢)

قوله " هو الذي " كناية عن الله تعالى وإخبار عن الذي خلق البشر من نفس واحدة وهي آدم وخلق منها زوجها يعي حواء.

وقيل: انه خلقها من ضلع من اضلاعه وبين انه إنما خلقها ليسكن اليها آدم ويأنس بها.

وقوله " فلما تغشاها " معناه لما وطأها وجامعها. وقيل: تغشاها بدنوه بها لقضاء حاجة، فقضى حاجته منها " حملت " ففي الكلام حذف " حملت حملا خفيفا " لان الحمل اول ما يكون خفيفا، لانه الماء الذي يحصل في رحمها. والحمل – فتح الحاء ما كان في الجوف وكذلك ما كان على نخلة او شجرة فهو مفتوح.

– وبكسر الحاء – ما كان من الثقل على الظهر.

وقوله تعالى " فمرت به " معناه استمرت به وقامت وقعدت وقيل: شكت له وآلمها ثقلها. ومن خفف الراء اراد شكت ومارت فلم تدر هي حامل ام لا. وقال الحسن أغلاما ام جارية.

وقوله تعالى " فلما اثقلت " اي صارت ذات ثقل كما يقال اثمر اي صار ذا ثمر، وذلك قرب ولادتها. " دعوا الله ربهما " يعني آدم وحواء دعوا الله اي سألاه " لئن آتيتنا صالحا " اي لو أعطيتنا ولدا صالحا. قال الحبائي: صالحا يعني سليما من الافات صحيح الحواس والالات. وقال غيره: معنى صالحا مطيعا فاعلا للخير " لنكونن من الشاكرين " اي نكونن معترفين نعمك علينا نعمة بعد نعمة تسديها الينا.

وقوله عزوجل " فلما آتاهم صالحا " يعني فلما آتى الله آدم وحواء ولدا صالحا جعلا له شركاء، واختلفوا في الكناية إلى من ترجع في قوله " جعلا ":

فقال قوم هي راجعة إلى الذكور والاناث من اولادهما او إلى جنسي من اشرك من نسلهما، وإن كانت الادلة تتعلق بهما. ويكون تقدير الكلام فلما آتى الله آدم وحواء الولد الصالح الذي تمنياه وطلباه جعل كفار اولادهما ذلك مضافا إلى غير

الله ويقوي ذلك قوله تعالى " فتعالى الله عما يشركون " فلو كانت الكناية عن آدم وحواء لقال عما يشركان. وإنما اراد تعالى الله عما يشرك هذان النوعان او الجنسان وجمعه على المعنى. وقد ينتقل الفصيح من خطاب إلى خطاب غيره. ومن كناية إلى غيرها. قال الله تعالى " إنا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا بالله ورسوله " (١) فانصرف من مخاطبة الرسول إلى المرسل اليهم ثم قال " وتعزروه وتوقروه " (٢) يعني الرسل ثم قال " وتسبحوه " يعني الله تعالى، قال الهذلي:

يالهف نفسي كان جده خالد * وبياض وجهك للتراب الاعفر (٣)

ولم يقل وبياض وجهه. وقال كثير:

اسئ بنا او احسني لاملومة * لدنيا ولا مقلية إن تقلت (٤)

فخاطبها ثم ترك الخطاب. وقال الاخر:

فدى لك ناقتي وجميع اهلي * ومالي إنه منه آتاني

ولم يقل منك اتاني. وليس لاحد ان يقول كيف يكني عمن لم يجر له ذكر، وذلك ان لنا عنه جوابين:

احدهما – انه يجوز ذلك إذا دل الدليل عليه، كما قال " حتى توارت بالحجاب (٥) ولم يتقدم للشمس ذكر. وقال الشاعر:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى * إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر (٦)

ولم يتقدم للنفس ذكر.

والجواب الثاني – انه تقدم ذكر ولد آدم في قوله " هو الذي خلقكم من نفس واحدة " واراد بذلك جميع ولد آدم، وتقدم ايضا في قوله " فلما آتاهما صالحا "

(١، ٢) سورة ٤٨ الفتح آية ٨ – ٩ (٣) مر هذا البيت في ١: ٣٥ من هذا الكتاب.
(٤) اللسان (سوأ) (٥) سورة ٣٨ ص آية ٣٢ (٦) اللسان (حشرج)
(*)

لان معناه ولدا صالحا، ويريد بذلك الجنس. وإن كان لفظه واحدا، وإذا تقدم مذكوران وعقبا بأمر لايليق بأحدهما وجب ان يضاف إلى الاخر، والشرك لايليق بآدم، لانه نبي نزهه الله عن ذلك، وعن جميع القبائح، ويلق بكفار ولده ونسله فوجب ان نرده اليهم.

وقال الزجاج وإبن الاخشاد: جعل من كل نفس زوجها كأنه قال: وجعل من النفس زوجها على طريق الجنس واضمر لتقدم الذكر.

وقال ابومسلم محمد بن بحر الاصفهاني: الكناية في جميع ذلك غير بآدم وحواء وجعل الهاء في " تغشاها " والكناية في " دعوا الله ربهما، وآتاهما صالحا " راجعين إلى من اشرك ولم يتعلق بآدم وحواء إلا قوله: " خلقكم من نفس واحدة " والاشارة بذلك إلى جميع الخلق. وكذلك قوله " وجعل منها زوجها " ثم خص بها بعضهم، كما قال " هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة " (١) فخاطب الجماعة ثم خص راكب البحر، فكذلك اخبر الله تعالى عن جملة امر البشر بأنهم مخلوقون من نفس واحدة وزوجها وهما آدم وحواء ثم عاد الذكر إلى الذي سأل الله تعالى ما سأل فلما اعطاه إياه ادعى له الشركاء في عطيته.

وقال قوم: يجوز ان يكون عنى بقوله " هو الذي خلقكم من نفس واحدة " المشركين خصوصا، إذا كان كل بني آدم مخلوقون من نفس واحدة كأنه قال:

خلق كل احد من نفس واحدة وخلق من النفس الواحدة زوجها، ومثله كثير نحو قوله عزوجل " فاجلدوهم ثمانين جلدة " (٢) والمعنى فاجلدوا كل واحد منهم.

وقال قوم: ان الهاء في قوله: " جعلا له شركاء " راجعة إلى الولد لا إلى الله ويكون المعنى انهما طلبا من الله تعالى امثالا للولد الصالح فاشركابين الطلبتين، كما يقول القائل:

طلبت مني درهما فلما اعطيتكه شركته بآخر أي طلبت آخر مضافا اليه، فعلى هذا

---

(١) سورة ١٠ يونس آية ٢٢ (٢) سورة ٢٤ النور آية ٤
(*)

(٥٥)

يجوز أن تكون الكناية من اول الكلام إلى آخره راجعة إلى آدم وحواء.

فان قيل: فعلى هذا فأي تعلق لقوله " فتعالى الله عما يشركون " بذلك.

وكيف ينزه نفسه عن ان يطلب منه ولد آخر؟ ! قلنا: لم ينزه نفسه عن ذلك وإنما نزهها عن الاشراك به، ليس يمتنع ان يقطع هذا الكلام عن حكم الاول، لانه قال بعد ذلك " ايشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون " فنزه نفسه عن هذا الشرك دون ما تقدم.

فأما الخبر المدعى في هذا الباب، فلا يلتفت اليه، لان الاخبار تبنى على ادلة العقول، فاذا علمنا بدليل العقل ان الانبياء لايجوز عليهم المعاصي تأولنا كل خبر يتضمن خلافه او ابطلناه، كما نفعل ذلك بأخبار الجبر والتشبيه. على ان هذا الخبر مطعون في سنده، لانه يرويه قتادة عن الحسن عن سمرة، وهو مرسل، لان الحسن لم يسمع من سمرة شيئا – في قول البغداديين – ولان الحسن قال بخلاف ذلك فيما روى عنه عروة – في قوله عزوجل " فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما " قال هم المشركون. ويعارض ذلك ما روي عن سعيد بن جبير وعكرمة والحسن وغيرهم: من ان الشرك غير منسوب إلى آدم وزوجته، وأن المراد به غيرهما على ان في الخبر اشركا إبليس اللعين فيما ولد لهما بأن سمياه عبد الحرث، والاية تقضي انهم اشركوا الاصنام التي لا تخلق وهي تخلق، والتي لاتستطيع ضرا ولانفعا وليس لابليس في الاية ذكر، ولو كان له ذكر لقال أتشركون من. وقال في آخر القصة " ألهم ارجل يمشون بها.. " وكذا، ولايليق ذلك بابليس. ويقوي ان الاية مصروفة عن ادم إلى ولده انه قال " فلما تغشاها " ولو كان منسوقا على النفس الواحدة لقال فلما تغشتها، لان ذلك هو الاجود والافصح وإن جاز خلافه.

وحكي البلخي عن قوم انهم قالوا: لو صح الخبر لم يكن في ذلك الا إشراكا في التسمية، وليس ذلك بكفر ولامعصية كبيرة، وذهب اليه كثير من المفسرين واختاره الطبري.

(٥٦)

قوله تعالى:

أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون (١٩٠) ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون (١٩١) وإن تدعوهم إلى الهدى لايتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم إم أنتم صامتون (١٩٢) ثلاث آيات قرأ نافع " لا يتبعوكم " وفي الشعراء " يتبعهم " بالتخفيف. الباقون بالتشديد وهما لغتان، وبالتشديد اكثر. قال ابوزيد تقول: رأيت القوم فأتبعتهم إتباعا إذا سبقوك فأسرعت

نحوهم ومروا علي فاتبعتهم اتباعا إذا ذهبت معهم ولم يسبقوك، قال: وتبعتهم اتبعهم تبعا مثل ذلك.

وفي الاية توبيخ من الله وتعنيف للمشركين، وإن خرج مخرج الاستفهام، بأنهم يعبدون مع الله جمادا لايخلق شيئا من الاجسام ولا مايستحق به العبادة، وهم مع ذلك مخلوقون محدثون ولهم خالق خلقهم. ونبههم بذلك على انه لاينبغي أن يعبد إلا من يقدر على إنشاء الاجسام واختراعها وخلق اصول النعم التي يستحق بها العبادة، وان ذلك لايقدر عليه إلا الله تعالى الذي ليس بجسم، والقادر لنفسه، ثم بين أن هذه الاشياء التي يعبدونها ويتخذونها آلهة واشركوا بها مع الله تعالى لاتقدر لمن عبدها واتخذها إلها على نفع ولا على ضر ولا أن ينصروهم، ولا ان ينصروا انفسهم إن اراد بهم غيرهم سواء، ومن هذه صورته فهو على غاية العجز، ولا يجوز أن يكون إلها. وإنما يجب ان يكون كذلك من يقدر على الضر والنفع ونصرة اوليائه.

وقوله تعالى " وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم " معناه إن الاصنام والاوثان

التي كانوا يعبدونها ويتخذونها آلهة إن دعوها إلى الهدى والرشد لم يستمعوا ذلك، ولا تمكنوا من اتباعهم، لانها جمادات لا تفقه ولا تعقل – في قول ابي وغيره – وقال الحسن: ان ذلك راجع إلى قوم من المشركين قد عموا بالكفر فهم لايعلمون.

ثم قال " سواء عليكم ادعوتموهم ام انتم صامتون " يعني سواء عندها دعاؤها والسكوت عنها لكونها جمادا لاتعقل وإنما قال " أم انتم صامتون " ولم يقل أم صمتم ليكون في مقابلة " ادعوتموهم " فيفيد الماضي والحال لان المقابلة دلت على معنى الماضي، واللفظ يدل على معنى الحال، وعليه أكثر الكلام يقولون: سواء علي أقمت ام قعدت، ولا يقولون أقمت أم انت قاعد، قال الشاعر:

سواء إذا ما اصلح الله امرهم * علينا ادثر ما لهم ام اصارم (١)

وانشد الكسائي:

سواء عليك النفر ام بت ليلة * بأهل القبا من نمير بن عامر (٢)

وانشد بعضهم: (ام انت بائت)

قوله تعالى:

إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين (١٩٣) آية.

إنما قال " إن الذين " وهو يريد الاصنام، لانها لما كانت عندهم معبودة تنفع وتضر، جـــاز أن يكني عنها بما يكنى عن الحي، كما قال في موضع آخر " بل فعله كبيرهم

---

(١) معاني القرآن ١ / ٤٠١ " الدثر " المال الكثير. و " اصارم " جمع اصرام وهو الفريق القليل العدد ويقصد – هنا – الفريق من الابل. واصله اصاريم، وحذف الياء لضرورة الشعر.
(٢) معاني القرآن ١ / ٤٠١. يريد النفر من منى.

(٥٨)

(*)

هذا فأسلوهم " (١) ولم يقل فعله كبيرها فاسألوها، وقال " والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين " (٢) لما أضاف السجود إليها جمعها بالواو والنون التي تختص بالعقلاء ومعنى " من دون الله " غير الله، كأنه قال كل مدعو إلها غير الله " عباد امثالكم " و " من " لابتداء الغايـــة فـــي أن الدعاء دون دعاء الله إلى حيث انتهى إنما هو لعباد الله.

ثم قال " عباد أمثالكم " فانما سماها كذلك لان التعبد التذلل، فلما كانت الاصنام تنصرف علـــى مشيئة الله، وهي غير ممتنعة عما يريد الله تعالى بها كانت بذلك في معنى العباد. ويقال عبدت الطرق إذا وطئته حتى تقرر وسهل سلوكه. ومنه قوله تعالى " وتلك نعمة تمنها علي ان عبدت بني اسرائيل " (٣) اي ذللتهم واستخدمتهم ضروبا من الخدم. وقال الجبائي وغيره: معنـــى " عباد " أي املاك لربهم كما انتم عبيد له، فان كنتم صادقين في ادعائكم انها آلهـــة فـــادعوهم ليستجيبوا لدعائكم.

وهذه لام الامر على معنى التهجين كما قال " هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين " (٤)

فاذا لم يستجيبوا لكم، لانها لاتسمع دعاءكم فاعلموا انها لاتنفع ولا تضر ولا تستحق العبادة.

فأما من قال الاصنام تعبد الله على الحقيقة كما يعبد العقلاء، وان كنا لانفقه ذلك فقد تجاهـــل، لان العبادة ضرب من الشكر، والشكر هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم. والعبادة وان كانت شكرا فانه يقارنها خضوع وتذلل. وكل ذلك يستحيل من الجماد.

ويحتمل من حيث انهم توهموا انها تضر وتنفع فقيل لهم ليس يخرج هؤلاء بذلك عن حكم الله تعالى. وقال الحسن: معناه إنها مخلوقة امثالكم. والعبد المملوك من جنس ما يعقل، لان الثوب مملوك، ولا يسمى عبدا.

وقيل الدعاء الاول في الاية تسميتهم الاصنام آلهة كأنه قال: " إن الذين تدعون "

---

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٦٣ (٢) سورة ١٢ يوسف آية ٤ (٣) سورة ٢٦ الشعراء آية ٢٢ (٢) سورة ٢٧ النمل آية ٦٤

(*)

(٥٩)

آلهة من دون الله فاطلبوا منهم المنافع وكشف المضار، فاذا كان ذلك ميؤسا منهـا، فعبادتهـا جهل وسخف. وقوله " إن كنتم صادقين " قال الحسن: معناه في أنهم آلهة.

قوله تعالى:

ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم عين يبصرون بها أم لهم آذان يسـمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون (١٩٤) آية قرأ ابوجعفر " يبطشون " ويبطش – بظم الطاء – حيث وقع. الباقون بكسرها. وهما لغتان، والكسر افصح واكثر. وقرأ " كيدوني " بياء في الحالين الوقف والوصل الحلواني عن هشام ويعقوب وافقهما في الوصـل أبـوعمرو وابوجعفر واسماعيل والداحوني عن هشام. الباقون بغير ياء في الحالين. و " تنظروني " بياء في الحالين عن يعقوب.

قال ابوعلي الفارسي: الفواصل وما أشبهها من الكلام التام تجري مجرى القوافي لاجتماعهمـا في أن الفاصلة آخر الاية، كما ان القافية آخر البيت وقد الزموا الحذف في هـذا البـاب فـي القوافي كقوله:

فهل يمنعن ارتيادي البلاد * من قدر الموت أن يأتين

والياء التي هي لام الكلمة كذلك نحو قوله:

يلمس الاحلاس في منزله * بيديه كاليهودي المصل (١)

أكد الله تعالى في هذه الاية الحجة على المشركين في انه لاينبغي لهم أن يعبدوا هذه الاصـنام ولا يتخذونها آلهة، فقال " ألهم ارجل يمشون بها ". لان لفظه وإن

---

(١) قائله لبيد. اللسان " لمس " والاحلاس ملازمة المنزل وعدم التدخل بشؤون الدولة. و " المصل " بمعنى الخاسـر الذي ليس له شئ في الامر.

(*)

(٦٠)

كان لفظ الاستفهام، فالمراد به الانكار، اي ليس لهم ارجل يمشون بها ولالهم أيد يبطشون بها ولا اعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها، فعرفهم بذلك انهم دون منـزلتهم وأن الكفـار مفضلون عليهم بما انعم الله عليهم من هذه الحواس التي لم تؤت الاصنام. واذا كنتم مفضـلين عليها وكنتم أقدر على الاشياء وأعلم، فكيف يجوز لكم ان تتخذوها مع ذلك آلهة لانفسكم.

وقوله تعالى " قل ادعوا شركاء كم ثم كيدون فلا تنظرون " معناه ادعوا هذه الاوثان والاصنام التي تزعمون أنها آلهة وتشركونها في اموالكم فتجعلون لها حظاً من الاموال والمواشي وتوجهون عبادتكم الهيا اشركا بالله لها. واسألوها ان يضروني وان يكيدوني معكم، ولا تؤخروا ذلك إن قدروا عليه، ومتى لم يتمكنوا من ذلك فتبينوا انها لاتستحق العبادة، لانها في غاية الضعف والعجز.

قوله تعالى:

إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين (١٩٥) آية بلا خلاف.

روى ابن خنيس عن السوسي " ان ولي الله " بياء مشددة مفتوحة. الباقون بثلاث ياءات الاولى ساكنة والثانية مكسورة والثالثة مفتوحة – على الاضافة – ومن قرأ مشددا حذف الوسطى وادغم الاولى في الثالثة. ولا يجوز إدغام الثانية في الثالثة، لانها متحركة وقبلها ساكن لايمكن الادغام.

امر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) ان يقول للمشركين " ان وليي الله الذي " يحفظني وينصرني ويحوطني ويدفع شرككم عني هو الله الذي خلقني وإياكم جميعا ويملكني ويملككم الذي نزل القرآن، وهو ينصر الصالحين الذين يطيعونه ويجتنبون معاصيه تارة بالحجة واخرى بالدفع عنهم.

(٦١)

قوله تعالى:

والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون (١٩٦) آية.

هذا عطف على الاية الاولى، فكأنه قال قل وليي الله القادر على نصرتي عليكم وعلى من اراد بي ضرا. والذين تتخذونهم انتم آلهة لايقدرون على ان ينصروكم ولا أن يدفعوا عنكم ضررا. ولا يقدرون ان ينصروا أنفسهم ايضا لو ان إنسانا اراد بهم سوءا من كسر او غيره.

وإنما كرر هذا المعنى لانه ذكره في الاية التي قبلها على وجه التقريع، وذكره ههنا على وجه الفرق بين صفة من تجوز له العبادة ممن لاتجوز، كأنه قال: إن ناصري الله ولا ناصر لكم ممن تعبدون.

وانما قال تدعون من دونه وهم يدعونهم معه، لان معنى من دونه من غيره ومع ذلك فانه بمنزلة من افرد غيره بالعبادة في عظم الكفر والشرك.

قوله تعالى:

وإن تدعوهم إلى الهدى لايسمعوا وتريهم ينظرون إليك وهم لايبصرون (١٩٧) آية.

قال الفراء والزجاج: المعنى إن دعوتم هؤلاء الذين تعبدونهم من الاصنام إلى صلاح ومنافع لايسمعوا دعاءكم، وتراهم فاتحة اعينهم نحو كم على ما صور تموهم عليه من الصور، وهم مع ذلك لايبصرونكم.

قال الجبائي: جعل الله انفتاح عيونهم في مقابلتهم نظرا منهم اليهم مجازا، لان النظر حقيقة تقلب الحدقة الصحيحة نحو المرئي طلبا لرؤيته وذلك لايتأتى في الجماد.

ويقال في اللغة: تناظر الحائطان إذا تقابلا وكل شئ قابل غيره يقال: نظر اليه.

وقال الحسن: المعنى وإن تدع يا محمد المشركين، فلم يجعل الكناية عن الاوثان وقال الرماني: الكناية عن الاوثان لانهم جعلوها تضر وتنفع، كما يكون ذلك فيما يعقل.

وفي الاية دلالة على ان النظر غير الرؤية، لانه تعالى أثبت النظر ونفى الرؤية وقوله " وتراهم ينظرون اليك وهم لايبصرون " وجه الخطاب إلى النبي (صلى الله عليه وآله) ولو كان امره بخطاب المشركين بمعنى قل لهم لقال وترونهم. وقال السدي ومجاهد:

اراد به المشركين، فعلى هذا يكون قوله " وإن تدعوهم " خطابا للنبي (صلى الله عليه وآله) انه ن دعا المشركين إلى الهدى لا يسمعوا بمعنى لايقبلوا وهم يرونه ولا ينتفعون برويته.

قوله تعالى:

خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين (١٩٨) آية امر الله تعالى نبيه أن يأخذ مع الناس بالعفو، وهو التساهل فيما بينه وبينهم وقبول اليسير منهم الذي سهله عليهم ويسر فعله لهم، وان يترك الاستقصاء عليهم في ذلك، وهذا يكون في مطالبة الحقوق الواجبة لله تعالى وللناس وغيرها. وهو في معنى الخبر عن النبي (صلى الله عليه وآله) " رحم الله سهل القضاء سهل الاقتضاء ". ولا ينافي ذلك ان لصاحب الحق والديون وغيرها استيفاء الحق وملازمة صاحبه حتى يستوفيه، لان ذلك مندوب إليه دون ان يكون واجبا. وقد يكون العفو في قبول العذر من المعتذر وترك المؤاخذة بالاساءة.

وقوله " وامر بالعرف " يعني بالمعروف، وهو كل ما حسن في العقل فعله او في الشرع، ولم يكن منكرا ولا قبيحا عند العقلاء.

وقوله عزوجل " وأعرض عن الجاهلين " امر بالاعراض عن الجاهل: السفيه الذي إن كلمه سفه عليه وآذاه بكلامه. وأمره إذا أقام عليهم الحجة وبين بطلان

ما هم عليه من الكفر والمعاصي أن يعرض عنهم ولايجاوبهم في مكروه يسمعه، صيانة لنفسه عنهم. وقال عطا العفو: الفضل. وقال مجاهد: العفو من اخلاق الناس، وعفو أموالهم من غير تجسس عليهم. وقال: ما عفا لك من أموالهم، وذلك قبل فرض الزكاة. وقال السدي: نسخ ذلك بآية الزكاة وقال ابن زيد: امره بالاعراض عنهم ثم نسخ بقوله " واغلظ عليهم " (١).

وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) في قوله: " وامر بالعرف " أن جبرائيل قال له معناه تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك.

قوله تعالى:

وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم (١٩٩) آية.

النزغ ادنى حركة تقول: نزغته اذا حركته. والمعنى ان نالك يا محمد من الشيطان ادنى حركة من معاندة وسوء عشرة " فاستعذ بالله " اي سل الله ان يعيذك، ويحفظك منه فانه سميع للمسموعات وعالم بالخفيات يسمع دعاء من يدعوه ويعلم دعاءه وما يستحقه بذلك من الله.

والنزغ الفساد ايضا يقال: نزغ فلان بيننا اي افسد، ومنه قوله تعالى: " نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي " (٢) ونزع ينزع ونغز ينغز اذا افسد. وموضع ينزغنك جزم ب (إن) التي للجزاء الا انه لايبين فيه الاعراب، لانه مبني مع نون التأكيد على الفتح واذا كانت مشددة لابد من تحريك ما قبلها في الجزم لالتقاء الساكنين والنزغ الازعاج بالاغواء واكثر ما يكون ذلك عند الغضب واصل النزغ الازعاج بالحركة نزغته انزغه نزغا.

---

(١) سورة ٩ التوبة آية ٧٤ وسورة ٦٦ التحريم آية ٩ (٢) سورة ١٢ يوسف آية ١٠٠

(*)

(٦٤)

قوله تعالى:

إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون (٢٠٠) آية بلا خلاف.

قرأ ابن كثير واهل البصرة والكسائي " طيف " بغير الف وبغير همز. الباقون بألف بعدها همزة. قال الحسن: الطيف في كلام العرب اكثر من طائف. وقال ابوزيد: طاف الرجل يطوف طوفا إذا اقبل وادبر واطاف يطوف طوفا إذا جعل مستدبر القوم ويأتيهم من نواحيهم. وطاف الخيال طيفا إذا ألم في المنام. وقال ابوعبيدة: طيف من الشيطان بأن يلم به، لما يقال منه: طفت اطيف طيفا. وقال قوم: الطائف ما أطاف بك من وسوسة الباطل. والطيف اللمم والمس. وقال ابوعمرو ابن العلا: العطيف الوسوسة. وحكى الرماني: ان الطيف اصله طوف من الواو مثل سيد وميت، فخفف، وانشد ابوعبيدة للاعشى في الالمام.

ونصبح عن غب السرى وكأنما * ألم بها من طائف الجن اولق (١)

وكأن معنى الاية إذا مسهم من ينظر لهم نظرة من الشيطان. ويكون طائف مثل العاقبة والعافية، مما جاء المصدر منه على فاعل وفاعلة، فالطيف اكثر لان المصدر على هذا الوزن اكثر منه على وزن فاعل، والطائف كالخاطر. وقال الحسن معناه يطوف عليهم الشيطان بوساوسه، فيقبل بعض وحبه من يعصي الله. وقوله " تذكروا " أي تذكروا ما عندهم من المخرج والتوبة " فاذا هم مبصرون " قد تابوا. وقال مجاهد: هم المؤمنون إذا مسهم طيف أي غضب تذكروا. وقال سعيد ابن جبير: هوالرجل يغضب الغضب فيذكر فيكظم غيظه. وقال مجاهد: هو الرجل يهم بالذنب فيذكر الله تعالى فيتركه.

---

(١) ديوانه ١٤٧ ومجاز القرآن ١ / ٢٣٦ واللسان " طيف "

(*)

(٦٥)

اخبر الله تعالى بأن الذين يتقون الله باجتناب معاصيه إذا وسوس اليهم الشيطان واغراهم بمعاصيه تذكروا، فعرفوا ما عليهم من العقاب بذلك فيجتنبونه ويتركونه.

وقال مجاهد وسعيد بن جبير: الطيف الغضب. وقال ابن عباس والسدي: هي الزلة التي إذا ارتكبها تاب منها. و " اذا " الاولى بمنزلة الجزاء ولها جواب، والثانية بمعنى المفاجأة كقولك خرجت، فاذا زيد. وقال ابن عباس الطيف النزغ. وقال أبوعمرو بن العلا: الوسوسة. وقال غيره هو الممس. قوله تعالى:

وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لايقصرون (٢٠١) آية.

قرئ " يمدونهم " بضم الياء وكسر الميم عن نافع. الباقون بفتح الياء وضم الميم ومعنى الاية أن إخوان الشياطين من الكفار يمدهم الشياطين في الغي، ومعناه يزيدونهم في الغواية، والاضلال، ويزينون لهم ما هم فيه.

ثم اخبر ان هؤلاء مع ذلك " لايقصرون " كما يقصر الذين اتقوا إذا مسهم طيف من الشيطان. وهو قول ابن عباس والسدي وابن جريج وابي علي، وأكثر المفسرين. وقال مجاهد: هم إخوان المشركين من الشياطين. وقال قتادة قوله " ثم لايقصرون " يعني الشياطين " لا يقصرون " عن استغوائهم ولا يرحمونهم.

وقصرت واقصرت لغتان، والقراءة على لغة اقصرت، ومن ضم الياء من " يمدونهم " فلقوله تعالى " إنما نمدهم به من مال وبنين " (١) وقوله عزوجل " وأمددناهم بفاكهة " (٢)

وقوله " اتمدونني بمال " (٣) ومن فتح الياء فلقوله تعالى " ويمدهم في طغيانهم يعمهون " (٤). وأمددت فيما يستحب، ومددت فيما يكره. قال ابوزيد: امددت القائد بالجند وامددت الدواة وامددت القوم بالمال والرجال. وقال ابوعبيدة

---

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٥٥ (٢) سورة ٥٢ الطور آية ٢٢ (٣) سورة ٢٧ النمل آية ٣٦ (٤) سورة ٢ البقرة آية ١٥

(*)

" يمدونهم في الغي " اي يزينون لهم يقال: مد له في غيه. هكذا يتكلمون به ووجه قراءة نافع قوله تعالى " فبشرهم بعذاب أليم ".

قوله تعالى:

وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون (٢٠٢) آية.

معنى الاية انك يا محمد إذا لم تأتهم بآية يقترحونها، قالوا: لم لا تطلبها من الله فيأتينا بها. وقوله " لولا " معناه هلا " اجتبيتها " معناه اختلقتها واقتلعتها من قبل نفسك في قول الزجاج، والفراء والحسن، والضحاك، وقتادة، وابن جريج، وابن زيد، وابن عباس.

وفي رواية أخرى عن ابن عباس وقتادة: معناه هلا اخذتها من ربك وتقبلتها منه. ويكون الاجتباء بمعنى الاختيار. وقال الفراء: اجتبيت الكلام واختلقته وارتجلته إذا اقتعلته من قبل نفسك. وقال ابوعبيدة: اخترعته مثل ذلك. وقال ابوزيد: هذه الحروف تقولها العرب للكلام يبتدؤه الرجل لم يكن اعده قبل ذلك في نفسه.

فأمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يقول لهم إني لست آتي بالايات من عندي وإنما يفعلها الله ويظهرها على حسب ما يعلم من المصلحة في ذلك لا بحسب اقتراح الخلق، وإنما اتبع ما يوحي إلي.

وقوله " هذا بصائر من ربكم " يعني هذا القرآن حجج وبراهين وأدلة من ربكم. والبصائر جمع بصيرة، وهي البراهين الواضحة والحجج النيرة. وتكون البصائر جمع بصيرة. وهي طريق الدم. والبصيرة الرأس ايضا. وجمها بصائر، ومعناه ظهور

الشئ وبيانه. وإنما قال " هذا بصائر " لان المراد به القرآن، وقوله تعالى " وهدى " يعني بيان وحجة ورحمة لقوم يؤمنون، فأضافه اليهم لانهم هم المنتفعون بها، دون غيرهم من الكفار،

وان كان بيانا للكل. وقال الجبائي قوله " هذا بصائر " إشارة إلى الادلة الدالة على توحيده وصفاته وعدله وحكمته وصحة نبوة النبي وصحة ما أتى به النبي (صلى الله عليه وآله).

قوله تعالى:

وإذا قرئ القران فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون (٢٠٣) آية بلا خلاف.

امر الله تعالى المكلفين بأنه إذا قرئ القرآن ان يسمعوا له ويصغوا إليه ليفهموا معانيه ويعتبروا بمواعظه وان ينصتوا لتلاوته ويتدبروه ولا يلغوا فيه ليرحمهم بذلك ربهم، وباعتبارهم به وإتعاضهم بمواعظه.

واختلفوا في الوقت الذي أمروا بالانصات والاستماع:

فقال قوم: امروا حال كون المصلي في الصلاة خلف الامام الذي يأتم به. وهو يسمع قراءة الامام، فعليه أن ينصت ولا يقرأ ويتسمع لقراءته.

ومنهم من قال: لانهم كانوا يتكلمون في صلاتهم ويسلم بعضهم على بعض، وإذا دخل داخل وهم في الصلاة قال لهم كم صليتم فيخبرونه وكان مباحا فنسخ ذلك، ذهب اليه عبدالله بن مسعود، وأبوهريرة والزهري وعطا عبيد الله بن أبي عمير ومجاهد وقتادة وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والضحاك وابراهيم وعامر الشعبي وابن عباس وابن زيد، واختاره الجبائي.

وقال قوم: هو امر بالانصات للامام إذا قرأ القرآن في خطبته. روي ذلك عن مجاهد. وقال قوم: هو امر بذلك في الصلاة والخطبة. وروي ذلك عن مجاهد

ايضا، والحسن. واقوى الاقوال الاول. لانه لاحال يجب فيها الانصات لقراءة القرآن إلا حال قراءة الامام في الصلاة، فان على المأموم الانصات لذلك والاستماع له. فأما خارج الصلاة فلا خلاف أنه لايجب الانصات والاستماع. وعن أبى عبدالله (عليه السلام) انه في حال الصلات وغيرها. وذلك على وجه الاستحباب.

وقال الجبائي: يحتمل ان يكون اراد الاستماع إذا قرأ النبي (صلى الله عليه وآله) عليهم ذلك، فانه كان فيهم من المنافقين من لا يستمع. والاول اكثر فائدة وأعم. وقال

الزجاج: يجوز أن يكون الامر بالاستماع للقرآن للعمل بما فيه وان لايتجاوزه كما تقول سمع الله لمن حمده بمعنى أجاب الله دعاه، لان الله سميع عليم.

والانصات السكوت مع الاستماع، قال الطرماح يصف وحشا، وحذرها الصيادين:

يخافتن بعض المضغ من خشية الردى * وينصتن للسمع إنصات القناقن (١)

والقناقن عراف الماء.

قوله تعالى:

واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدوو الاصال ولا تكن من الغافلين (٢٠٤) آية.

امر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يذكره على حال التضرع والمراد به الامة.

ونصب " تضرعا " على الحال، وعلى وجه الخوف من عذابه، والخيفة هو الخوف ويكون دعاؤه خالصا لله ويفعل هذا الدعاء " بالغدو " وهو أول النهار، " والاصال " وهو جمع اصل. والاصل جمع الاصيل، فالاصال جمع الجمع وتصغيره أصيلال على بدل النون. وقال قوم: هو جمع اصل، والاصل يقع على الواحد والجمع ومعناه

---

(١) اللسان (نصت)

(*)

العشيات، وهو ما بين العصر إلى غروب الشمس.

وقال ابن زيد: الخطاب متوجه إلى المستمع للقران إذا تلي ثم اكد توصيته له في الدعاء بقوله " ولا تكن من الغافلين " والمعنى لا تكن من الغافلين عما امرتك به من الدعاء له والذكر لله.

وقال الجبائي: في الاية دليل على ان الذين يرفعون اصواتهم بالدعاء ويجهرون بها مخطؤن على خلاف الصواب.

ومن قرأ " خفية " اراد اخف الدعاء واترك الاجهار، وهو تأكيد لما امر به من الدعاء إخفاء وقوله " ودون الجهر " يعني دعاء باللسان في خفاء الاجهار.

وقال قوم: الاية متوجهة إلى من أمر بالاستماع للقرآن والانصات له الذين كانوا اذا سمعوا القرآن رفعوا اصواتهم بالدعاء عند ذكر الجنة او النار – ذهب اليه ابن زيد ومجاهد وابن جريج، واختاره الطبري – والاولى ان يكون ذلك متوجها إلى النبي، والمراد به جميع الامة، فانه اكثر فائدة.

وإنما امره بالذكر في النفس وإن كان لايقدر عليه العبد لامرين:

أحدهما – ان المراد به التعرض للذكر من جهة الفكر، وهذا في الذكر المضاد للسهو الثاني – انه امر بالذكر الذي هو القول فيما يخفى كحديث النفس.

قوله تعالى:

إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون (٢٠٥) آية بين الله تعالى ان الذين عنده، وهم الملائكة، ومعناه انهم عنده بالمنزلة الجليلة لابقرب المسافة، لانه تعالى ليس في مكان ولا جهة فيقرب غيره منه، لان ذلك من صفات الاجسام، وهذا حث منه على

الطاعة والاستكانة والخضوع له، لان الملائكة مع فضلها وارتفاع منزلتها إذا كانت لاتستكبر عن عبادته بل تسبحه دائما وتسجد

(٧٠)

مثل ذلك فبنوا آدم بذلك اولى واحق ولهم أوجب والزم.

قال الجبائي معنى " عند ربك " إنهم في المكان الذي لايملك فيه الحكم بين الخلق سواه لانه ملك عباده الحكم في الارض على وجه حسن. قال: ويجوز ان يكون المراد بذلك أنهم رسله الذين يبعثهم في أمور الانس، واذا كانوا رسله جاز أن ينسبهم إلى نفسه فيقول: إنهم عنده، كما يقال: عند الخليفة جيش كثير، ولا يراد به في مكانه، ولا بالقرب منه، وإنما يراد انهم اصحابه وإن كانوا متفرقين في البلاد. وقال الزجاج: من قرب من رحمة الله وفضله فهو عند الله اي قريب من تفضله وإحسانه.

وهذا اول سجدات القرآن، وهي – عندنا – مستحبة غير واجبة وفي ذلك خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف.

وسبب نزول الاية ان قريشا لما قالت: وما الرحمن؟ أنسجد لما تأمرنا؟ ! نزلت هذه الاية.

(٧١)

٨ – سورة الانفال هذه السورة مدنية في قول قتادة وابن عباس ومجاهد وعثمان، وقال: هي اول ما نزل على النبي (صلى الله عليه وآله) بالمدنية، وحكي عن ابن عباس: انها مدنية إلا سبع آيات:

أولها " وإذ يمكر بك الذين كفروا) إلى آخر سبع آيات بعدها. وهى خمس وسبعون آية في الكوفي، وسبع وسبعون آية في الشامي، وست وسبعون في المدنيين والبصري.

بسم الله الرحمن الرحيم يسئلونكم عن الانفال قل الانفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين (١) آية.

اختلف المفسرون في معنى الانفال – ههنا – فقال بعضهم: هي الغنائم التي غنمها النبي (صلى الله عليه وآله) يوم بدر، فسألوه لمن هي؟ فأمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم:

هي لله ولرسوله – ذهب اليه عكرمة ومجاهد والضحاك وابن عباس وقتادة وابن زيد – وقال قوم: هي أنفال السرايا – ذهب اليه علي بن صالح بن يحيى – وقال قوم:

وهو ما شذ من المشركين إلى المسلمين من عبد او جارية من غير قتال او ما اشبه ذلك – عن عطا – وقال: هو للنبي (صلى الله عليه وآله) خاصة يعمل به ما يشاء.

وروي عن ابن عباس – في رواية اخرى – انه ما سقط من المتاع بعد قسمة

الغنائم من الفرس والدرع والرمح. وفي رواية اخرى – أنه سلب الرجل وفرسه ينفل النبي (صلى الله عليه وآله) من شاء.

وقال قوم: هو الخمس، روي ذلك مجاهد، قال: قال المهاجرون: لم يرفع منا هذا الخمس ويخرج منا؟ فقال الله: هو لله والرسول.

وروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله (عليهما السلام) (أن الانفال كل ما اخذ من دار الحرب بغير قتال إذا انجلى عنها أهلها). ويسميه الفقهاء فيئا، وميراث من لاوارث له، وقطائع الملوك إذا كانت في أيديهم من غير غصب، والاجام وبطون الاودية والموات وغير ذلك مما ذكرناه في كتب الفقه. وقالا: هو لله وللرسول وبعده للقائم مقامه يصرفه حيث يشاء من مصالح نفسه ومن يلزمه مؤنته ليس لاحد فيه شئ.

وقالا: إن غنائم بدر كانت للنبي (صلى الله عليه وآله) خاصة، فسألوه أن يعطيهم.

وفي قراءة اهل البيت: " يسألونك الانفال " فأنزل الله تعالى قوله " قل الانفال لله والرسول " ولذلك " فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم " ولو سألوه عن موضع الاستحقاق لم يقل لهم: اتقوا الله.

والانفال جمع نفل والنفل هو الزيادة على الشئ، يقال: نفلتك كذا إذ ازدته قال لبيد بن ربيعة:

إن تقوى ربنا خير نفل * وباذن الله ريثي والعجل (١)

والنفل هو ما أعطيته المرء على البلاء، والفناء على الجيش على غير قسمة.

وكل شئ كان زيادة على الاصل فهو نفل ونافلة، ومنه قيل لولد الولد: نافلة، ولما زاد على فرائض الصلاة نافلة.

واختلفوا في سبب نزول هذه الاية، فقال قوم: نزلت في غنائم بدر، لان النبي (صلى الله عليه وآله) كان نفل أقواما على بلاء فأبلى اقوام وتخلف آخرون مع النبي (صلى الله عليه وآله) فلما انقضى الحرب اختلفوا، فقال قوم: نحن اخذنا، لانا قتلنا. وقال آخرون:

---

(١) تفسير القرطبي ٨ / ٣٦١ واللسان (نفل) ومجاز القرآن ١ / ٢٤٠.

(*)

نحن احطنا بالنبي (صلى الله عليه وآله) ولو أردنا لاخذنا. وقال آخرون: نحن كنا وراءكم نحفظكم فأنزل الله هذه الاية يعلمهم أن ما فعل فيها رسول الله (صلى الله عليه وآله) ماض جائز – ذهب اليه ابن عباس وعكرمة وعبادة بن الصامت –.

وقال قوم: نزلت في بعض اصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) سأل من المغنم شيئا قبل قسمتها فلم يعطه إياها إذ كان شركا بين الجيش، فجعل الله جميع ذلك للنبي (صلى الله عليه وآله) روي ذلك عن سعد بن مالك، وهو ابن ابي وقاص. قال: وكان سيف سعد بن العاص لما قتله اخوته، وكان يسمى ذا الكثيفة، قال سعد أتيت النبي (صلى الله عليه وآله) فسألته سيفا فقال: ليس هذا لي ولا لك فوليت عنه. قال: فاذا رسول الله (صلى الله عليه وآله) خلفي فقال: إن السيف قد صار لي فأعطانيه، ونزلت الاية.

وروي عن ابي أسيد مالك بن ربيعة قال: اصبت سيف ابن عابد، وكان يسمى المرزبان فألقيته في النفل، فقام الارقم بن ابي الارقم المخزومي، فسأل رسول الله فأعطاه إياه.

وقال آخرون: إن أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) سألوه أن يقسم غنيمة بدر عليهم يوم بدر، واعلمهم الله أن ذلك لله ولرسوله دونهم ليس لهم فيه شئ.

وقالوا معنى " عن " ههنا معنى " من " وكان ابن مسعود يقرأه " يسألونكم الانفال " على هذا التأويل. وهذا مثل ما رويناه عن ابي جعفر وابي عبدالله (عليهما السلام) وروي ذلك عن الاعمش، والضحاك عن ابن مسعود، وروي ذلك عن ابن عباس وابن جريح وعمرو ابن شعيب عن ابيه عن جده وعن الضحاك، وعكرمة، واختاره الطبري وهو قول الحسن. وقال الحسن: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أيما سرية خرجت بغير إذن إمامها فما أصابت من شئ، فهو غلول. وقال الزجاج: كانت الغنائم قبل النبي (صلى الله عليه وآله) حراما، فسألوا النبي عن ذلك، فنزلت الاية، وهذا بعيد.

واختلفوا هل هي منسوخة أم لا؟ فقال قوم: هي منسوخة بقوله " واعلموا انما غنمتم من شئ.. " الاية وروي

ذلك عن مجاهد وعكرمة والسدي وعامر الشعبي واختاره الجبائي.

وقال آخرون: ليست منسوخة، ذهب اليه ابن زيد واختاره الطبري، وهو الصحيح، لان النسخ محتاج إلى دليل، ولا تنافي بين هذه الاية وبين آية الخمس، فيقال انها نسختها.

واختلفوا هل لاحد بعد النبي (صلى الله عليه وآله) ان ينفل احدا - ذكرناه في الخلاف - فقال سعيد بن المسيب لانفل بعد رسول الله. وبه قال عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وعندنا وعند جماعة من الفقهاء واختاره الطبري: أن للائمة أن يتأسوا بالنبي (صلى الله عليه وآله) في ذلك.

وقوله " فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم " امر من الله للمكلفين أن يتقوا معاصيه ويفعلوا طاعاته ان يصلحوا ذات بينهم.

واختلفوا في معناه، فقال قوم: هو ان النبي (صلى الله عليه وآلـه) كان ينفل الرجل من المـؤمنين سلب الرجل من الكفار إذا قتله، فلما نزلت الاية امرهم أن يرد بعضهم على بعض، ذهب اليه قتادة وابن جريج.

وقال قوم: هذا نهي من الله للقوم عن الاختلاف فيما اختلفوا فيه من أمر الغنيمة يوم بدر. ذهب اليه مجاهد وابن عباس وسفيان والسدي.

واختلفوا لم قال " ذات بينكم " فأنث، والبين مذكر؟ فقال قوم: أراد " ذات بينكم " للحال التـي للبين، كما يقولون ذات العشاء يريدون الساعة التي فيها العشاء، ولم يصفوا مذكرا لمؤنث ولا مؤنثا لمذكر. قال الزجاج: اراد الحال التي يصلح بها أمر المسلمين. وقال الاخفش: جعلـه " ذات " لان بعض الاشياء يوضع عليه اسم المؤنث وبعضه يذكر مثل الدار والحائط انث الدار وذكر الحائط.

وقوله " واطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين " امر من الله للخلق ان يطيعـوه ولايعصـوه، ويطيعوا رسوله فيما يأمرهم به إن كانوا مصدقين لرسوله فيما يأتيهم به من قبـل الله، لانهـم متى لم يطيعوه ولم يقبلوا منه لم يكونوا مؤمنين.

(٧٥)

وروي: ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) قسم غنائم بدر بينهم عن تواء، يعنـي سـواء، ولـم يخمس وإنما خمس بعد ذلك.

وقال الزجاج: " ذات بينكم " معناه حقيقة وصلكم، والبين الوصل، لقوله تعالى " لقد تقطع بينكم " اي وصلكم.

قوله تعالى:

إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم اياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون (٢) الذين يقيمون الصلوة ومما رزقناهم ينفقون (٣) أولئك هم المؤمنون حقـا لهـم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم (٤)

ثلاث آيات بلا خلاف.

استدل – من قال: إن الايمان يزيد وينقص وان أفعال الجوارح قد تكون إيمانا – بهذه الايات، فقالوا: نفى الله ان يكون المؤمن إلا من إذا ذكر الله وجل قلبه وإذا تليت عليه آياته أي قرئـت زادتهم الاية إيمانا، بمعنى أنهم يزدادون عند تلاوتها ايمانا، وانهم على الله يتوكلون في جميع أمورهم " الذين يقيمون الصلاة " بمعنى يأتون بها على ما بينها النبـي (صـلى الله عليـه وآلـه) وينفقون مما رزقهم الله في ابواب البر.

وإخراج الواجبات من الزكاة وغيرها. ثم وصفهم بأن هؤلاء الذين وصفهم بهذه الاوصاف هم المؤمنون حقا، يعني الذين اخلصوا الايمان، لاكمن كان له اسمه على الظاهر، وإن لهم الدرجات عند الله وهي المنازل التي يتفاضل بها بعضهم على بعض وإن لهم المغفرة والرزق الكريم فدل على أن من ليس كذلك ليس له ذلك.

ومن خالف في ذلك قال: هذه اوصاف افاضل المؤمنين، وخيارهم، وليس

يمتنع أن يتفاضل المؤمنون في الطاعات وان لم يتفاضلوا في الايمان، يبين ذلك انه قال في اول الاية " اذا ذكر الله وجلت قلوبهم " ووجل القلب ليس بواجب بلا خلاف، وانما ذلك من المندوبات. وقوله " واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون " لانه اذا صدق بآية آية انها من عند الله، فلا شك ان معارفه تزداد وإن لم يزد بفعل الجوارح.

وقوله " الذين يقيمون الصلاة " يدخل في ذلك الفرائض والنوافل، ولاشك أن الاخلال بالنوافل لايخرج من الايمان ولا ينقص منه عند الاكثر. والانفاق أيضا قد يكون بالواجب والنفل. والاخلال بما ليس بواجب منه لايخرج من الايمان بلا خلاف. وقوله " أولئك هم المؤمنون حقا " يبين ذلك انه اشار به: إلى خيارهم وافاضلهم، لان هذه اوصافهم فمن اين ان غيرهم وإن كان دونهم في المنزلة لايكون مؤمنا؟ ! وقال ابن عباس: اراد ان المنافق لايدخل قلبه شئ من ذلك عند ذكر الله.

وأن هذه الاوصاف منتفية عنه.

والوجل والخوف والفزع واحد، يقال وجل فلان يوجل وجلا، ويقال ياجل وييجل وأفصحها يوجل. قال الله تعالى " لا توجل " أي لاتخف وقال الشاعر:

لعمرك ما ادري وإني لاوجل * على أينا تعدوا المنية أول (١)

وإنما وصفهم بالوجل – ههنا – وباطمئنان القلوب في قوله: " الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله " (٢) لان الوجل يكون بالخوف من عقابه وبارتكاب معاصيه.

والاطمئنان بذكر الله معناه: ينعمه وعدله، ووصفهم بالوجل يكون في دار الدنيا، وأما في الاخرة فانه " لا يحزنهم الفزع الاكبر " (٣)

---

(١) قطر الندى ٢٣ الشاهد ٦ باب المعرب والمبني.

(٢) سورة ١٣ الرعد آية ٣٠ (٣) سورة ٢١ الانبياء آية ١٠٣

(*)

وقال الربيع: معنى زادتهم إيمانا زادتهم حسنة، والدرجات عند الله، قال قوم: معناه أعمال رفيعة وقضائل استحقوها في أيام حياتهم – ذهب اليه مجاهد – وقال غيره: معناه لهم مراتب رفيعة. والرزق الكريم، قال قتادة: هو الجنة. وقال غيره: هو ما اعد الله ووعدهم به في الجنة من انواع النعيم والمغفرة يعني لذنوبهم ومعاصيهم سترها الله عليهم.

وقوله " حقا " منصوب بمعنى دلت عليه الجملة، وهي قوله " اولئك هم المؤمنون " والمعنى احق ذلك حقا. والتوكل هو الثقة بالله في كل امر يحتاج اليه تقول وكلت الامر إلى فلان، إذا جعلت اليه القيام به، ومنه الوكيل القائم بالامر لغيره. والكريم القادر على النعم من غير مانع، ولم يزل الله كريما بهذا المعنى.

قوله تعالى:

كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون (٥) يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون (٦) آيتان من مد الف (كما) فلان المد يقع في حروف اللين، وهي الالف والواو والياء، فاذا كان الحروف منها قبل همزة، وكانت الواو والياء ساكنتين والالف لاتكون الا ساكنة مدوا الالف كألف هذه الكلمة، وكقوله " من السماء من ماء " (١) بمد الف السماء والف مساء، والياء نحو قوله " وما ينطق عن الهوي ان هو الاوحي يوحي " (٢) بمد الياء من الهوي، والواو نحو قوله " " قالوا أانت فعلت هذا " (٣) بمد الواو.

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٦٤ (٢) سورة ٥٣ النجم آية ٣ – ٤ (٣) سورة ٢١ الانبياء آية ٦٢

(*)

واختلفوا في الكاف من قوله " كما " إشارة إلى ماذا؟ فقال الزجاج وغيره:

قوله " كما أخرجك " معطوف على قوله " قل الانفال لله والرسول " والمعنى في ذلك أن رسول الله لما جعل النفل لمن جعله له وسلمه المؤمنون لذلك على كراهية بعضهم له كراهية طباع، فقال " الانفال لله والرسول " فامض لذلك، وإن كرهه قوم كما مضيت " كما اخرجك ربك من بيتك بالحق " وهم كارهون أيضا لانهم كانوا كرهوا خروجه الكراهية التي ذكرناها، وليس على المؤمنين في هذه الكراهية حرج، إذا سلموا الامر لله ورسوله وعملوا بما فيه طاعاتهما. وقال غيره: ذلك معطوف على قوله " يسألونك عن الانفال " كأنه قال: يسألونك الانفال كما جادلوك عند ما اخرجك ربك من بيتك، فذلك قوله " يجادلونك في الحق بعد ما

تبين ". وقال قوم: يجوز أن يكون الكاف عطفا على قوله " اولئك هم المؤمنون حقا.. كما اخرجك ربك من بيتك بالحق ". قال بعضهم " كما أخرجك ربك من بيتك..

فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم ". وقال مجاهد " كما أخرجك ربك من بيتك بالحق.. يجادلونك في الحق من بعد ما تبين " يعني يجادلونك في القتال بعد ما أمرت به. وقال الفراء: قوله " كما اخرجك ربك من بيتك بالحق " جواب قوله " وإن فريقا من المؤمنين لكارهون " فقال: فامض لامرك في الغنائم على ما شئت " كما أخرجك ربك " مجاز اليمين كأنه، قال والذي اخرجك ربك، فتكون " ما " في موضع الذي كقوله " وما خلق الذكر والانثى " (١) وتقديره والذي خلق الذكر، وقال ابوعبيدة معمر بن المبنى: " ما " في قوله " كما اخرجك " كما في قوله " وما بناها " (٢) اي وبنائها. وقال عكرمة: المعنى " اتقوا الله واصلوا ذات بينكم " فان ذلك خير لكم " كما أخرجك ربك من بيتك بالحق " وكان خير لكم.

وقال بعضهم: الكاف بمعنى (على) كأنه قال: إمض على الذي اخرجك

---

(١) سورة ٩٢ الليل آية ٣ (٢) سورة ٩١ الشمس آية ٥

(*)

من بيتك. والحق الذي جادلوا فيه هو القتال في قول مجاهد. و " بيتك " يراد به المدينة، اخرجه الله إلى بدر – في قوله ابن جريج، وابن ابي نجيح واكثر المفسرين – ووجه كراهية القتال – ما ذكره ابن عباس – من ان أبا سفيان لما اقبل بعير قريش من الشام فيها أموالهم، ندب النبي (صلى الله عليه وآله) المسلمين إلى الخروج اليها، قال لعل الله أن ينفلكموها، فانتدب اليهم، فخف بعضهم، وثقل بعضهم، ولم يظنوا أن رسول الله ملقي كيدا ولاحزنا، وهو قول السدي والمفسرين. واختلفوا في المؤمنين الذين كرهوا القتال، وجادلوا النبي (صلى الله عليه وآله). فقال قوم: أراد به أهل الايمان يوم بدر – ذكر ذلك عن ابن عباس، وابن اسحاق – وقال قوم: عنى المشركين – ذهب اليه ابن زيد – وقال: هؤلاء المشركون جادلوه في الحق كأنما يساقون إلى الموت حين يدعوهم إلى الاسلام، وهم ينظرون، قال وتكون هذه صفة مبتدأة لاهل الكفر. وقول ابن عباس هو الظاهر، وعليه اكثر المفسرين، وهو ان هذا صفة للمؤمنين لكن كرهوا ذلك كراهية الطبع، لكونهم غير مستعدين للقتال، ولقلتهم وكثرة المشركين، ويقوي ذلك قوله بعد هذه الاية " وإذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم " فبين بذلك انهم كانوا يودون العير دون الحرب.

وقوله " بعد ما تبين " انك يا محمد لاتصنع إلا ما امرك الله به. وقال ابن عباس معناه يجادلونك في القتال بعد ما امرت به. والجدل شدة الفتل ومنه قولهم: جدلت الزمام إذا شددت فتله، والاجدل الصقر لشدته.

وقوله " كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون " معناه كأن هؤلاء الذين يجادلونك في لقاء العدو في كراهتهم للقتال إذا دعوا اليه وصعوبته عليه بمنزلة من يساق إلى الموت، وهم يرونه أو يتوقعونه.

والسوق الحث على السير عجلة. والاخراج في الاية معناه الدعاء إلى الخروج الذي يقع به، تقول: اخرجه فخرج اي دعاه فخرج، ومثله اضربت زيدا عمرا،

فضربه وسمي البيت بيتا لانه جاء مهيئا للبيتوتة فيه. وقوله " من بيتك " قال الحسن وابن ابي برة وابن جريج معناه من المدينة.

قوله تعالى:

وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين (٧) ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون (٨) آيتان تقدير الاية واذكر يا محمد إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين إما العير وإما قريشا.

قال الحسن كان المسلمون يريدون العير، ورسول الله يريد ذات الشوكة لما وعده الله. وقوله " إحدى الطائفتين " يعني عير قريش او قريشا، وكان الله وعد نبيه حصول احداهما.

وقوله " إحد الطائفتين " في موضع نصب ب " يعدكم الله " وقوله " إنها لكم " نصب بدل من قوله " إحدى الطائفتين " ومثله " هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة " (١) فانها في موضع نصب بدلا من (الساعة). ومثله: " ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ان تطؤهم " (٢) قال الزجاج: تقديره لو لا أن تطؤهم.

وقوله " وتودون " معناه وتحبون " ان غير ذات الشوكة " يعني القتال. وانما قال " ذات الشوكة " فأنث لانه عنى الطائفة، والشوكة الجد، يقال: ما اشد شوكة بني فلان، وفلان شاك في السلاح وشائك وشاك – بتشديد الكاف – من الشكة.

---

(١) سورة ٤٣ الزخرف آية ٦٦ (٢) سورة ٤٨ الفتح آية ٢٥

(*)

ومثله شاك في قوله الشاعر:

فيو همومي انني هوذاكم * شاك سلاحي في الحوادث معلم

وقال الضحاك، وغيره: كرهوا القتال واعجبهم أن يأخذوا العير.

وقوله " ويريد الله ان يحق الحق " معناه إن الله يريد أن يظهر محمد (صلى الله عليه وآله) ومن معه على الحق " ويبطل الباطل " اي يبطل ما جاء به المشركون.

وقيل: هذه الاية نزلت قبل قوله " كما اخرجك ربك من بيتك بالحق " وهي في القراءة بعدها – ذكره البلخي والحسن – وفي الاية دلالة على ان الله لايريد الباطل ولايريد ابطال الحق بخلاف ما يقول المجبرة من ان كل ما في الارض من باطل وسفه وفسق فان الله يريده لان ذلك خلاف الاية.

وقوله " ويقطع دابر الكافرين " معناه يريد الله ان يجتث الجاحدين من اصلهم والدابر المأخر، وقطعه الاتيان على جميعهم – وهو قول ابن زيد وغيره – وقال قوم: الحق في هذا الموضع القرآن. والباطل ابليس. وقيل الحق الاسلام، والباطل الشرك.

وقال ابن عباس: كان عدة اهل بدر مع النبي (صلى الله عليه وآله) ثلثمائة وثلاث عشر رجلا وروي ان النبي (صلى الله عليه وآله) لما بلغه خروج قريش لحماية العير شاور اصحابه، فقال قوم:

خرجنا غير مستعدين للقتال. وقال المقداد: امض لما امرك الله به، فو الله لو خضت بنا الجمر لتبعناك، فجزاه خيرا. وأعاد الاستشارة، فقال سعد بن معاذ (رحمه الله)

يا رسول الله تريدنا؟ قال: نعم فقال سعد: إنا آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به حق واعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لنخوضنه معك، فسر رسول الله (صلى الله عليه وآله) بقول سعد ونشطه ذلك. ثم قال سيروا على بركة الله وابشروا فان الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الان انظر إلى مصارع القوم.

و (الحق) وقوع الشئ في موضعه الذي هو له فاذا اعتقد شئ بضرورة او حجة فهو حق، لانه وقع موقعه الذي هو له، وعكسه الباطل.

وروي ان احدا لم يشاهد الملائكة يوم بدر إلا رسول الله (صلى الله عليه وآله). ومعنى قوله " ليحق الحق " ليظهر تحقيق الحق للمخلوقين، ويبطل الباطل، لأنهما لم يكونا كذلك عنده.

قوله تعالى:

إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بالف من الملئكة مردفين (٢) آية بلا خلاف.

قرأ أهل المدينة ويعقوب " مردفين " بفتح الدال. والباقون بكسرها. قال ابو علي: من قرأ بكسر الدال احتمل شيئين:

أحدهما – ان يكونوا مردفين مثلهم. كما تقول: اردفت زيدا دابتي فيكون المفعول الثاني محذوفا في الاية وذلك كثير.

الثاني – ان يكون معنى " مردفين " جاءوا بعدهم. قال ابوالحسن: تقول العرب بنو فلان يردفوننا أي هم يجيئون بعدنا. وهو قول ابي عبيدة. وردفني وأردفني واحد. قال الشاعر:

إذا الجوزاء اردفت الثريا * ظننت بآل فاطمة الظنونا (١)

وقال قوم: ردفه صار له ردفا واردفه جعله له ردفا. ويكون أردفت الثريا الجوزاء. ومعنى البيت ان الجوزاء إذا طلعت في شدة الحر لم يبق حينئذ احد من

---

(١) قائله خزيمة بن مالك وهو من قدماء شعراء الجاهلية الاغاني ١٣ / ٧٥ طبعة دار الثقافة. ومعجم ما استعجم ١٩، وسمط اللالى ١٠٠ واللسان (قرظ)، (ردف).

(*)

البوادي في مناجعهم، لان مياه الغدر ان يبست فتفرق الحلل بعد اجتماعها فتفترق ظنونه في امر فاطمة انها اي ماء تأخذ لتعلق قلبه بها، وهي فاطمة بنت حل بن عدي.

وقول ابي عبيدة: ردفني وأردفني واحد أقوى لقوله " إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم اني ممد كم بألف من الملائكة مردفين " اي جاء من بعد إستغاثتكم ربكم ف " مردفين " على هذه صفة للالف الذين هم الملائكة.

ومن قرأ بفتح الدال فمعناه اردفوا الناس أي انزلوا بعدهم، فيجوز على هذا أن يكون حالا من الضمير المنصوب في " ممدكم " مردفين بألف من الملائكة، والعامل في (إذ) يحتمل شيئين:

احدهما – ويبطل الباطل (إذا) والثاني – بتقدير اذكروا (اذ)

فعلى الوجه الاول يكون متصلا بما قبله وعلى الثاني يكون مستأنفا.

والاستغاثة طلب المعونة وهو سد الخلة في وقت شدة الحاجة. وقيل: في معنى " تستغيثون ربكم " تستجيرون به من عدوكم والاستجابة موافقة المسألة بالعطية، وأصله طلب الموافقة بالارادة وليس في الاجابة معنى الطلب من هذه الجهة.

وقيل في معنى " مردفين " ثلاثة أقوال:

قال ابن عباس: مع كل ملك ملك ردفا له، وقال الجبائي: هم ألفان لان مع كل واحد واحد ردفا له.

والثاني – قال السدي وقتادة: إن معناه متتابعين:

والثالث – قال مجاهد ممدين بالارداف وامداد المسلمين بهم. ويقال هذه دابة لاترادف. ولايقال تردف، ويقال: أردفت الرجل إذا جئت بعده. وكان يجوز أن يقرأ بتشديد الدال وفتح الراء وضمها – لان الاصل مرتدفين، وقرئ في الشواذ – بضمها – فمن فتح الراء نقل فتحة التاء اليها، ومن كسرها فلاجتماع الساكنين ومن ضمها فللاتباع.

أخبر الله تعالى عن حال اهل بدر انهم لقلة عددهم استغاثوا بالله والتجأوا اليه فأمدهم الله بألف من الملائكة مردفين، رحمة لهم ورأفه بهم، وهو قول ابن عباس،

(٨٤)

وقال: الداعي كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو قول ابي جعفر (عليه السلام) والسدي وابي صالح وهو المروي عن عمر بن الخطاب. وقيل: إنهم قتلوا يومئذ سبعين واسر واسبعين. وقال الحسن: جميع ما امدوا به من الملائكة خمسة آلاف: ما ذكر هنا، وما ذكر في آل عمران. وقال غيرهم: جميعهم ثمانية آلاف. وقال الحسن: اردف بهؤلاء الالف الثلاثة آلاف الذين ذكرهم في آل عمران ثم أردفهم بألف آخر فصاروا خمسة آلاف.

قوله تعالى:

وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم (١٠) آية.

الهاء في قوله " جعله الله " يحتمل أن تكون عائدة إلى الامداد، لانه معتمد الكلام. وقال الفراء: هي راجعة إلى الارداف.

ويحتمل أن تكون عائدة على الخبر بالمدد، لان تقديم ذلك اليهم بشارة في الحقيقة اخبر الله تعالى أنه لم يجعل هذه الذي أخبر به من إمداد الملائكة إلا بشرى.

وإنما جعله بأن اراده به فقلبه إلى هذا المعنى. وقيل: جعله بشرى بأن امر الملائكة أن تبشر به، والجعل على ضروب: اولها – أن يكون بمعنى القلب، كقولك: جعلت الطين خزفا. وبمعنى الحكم كقولك: جعله الحاكم فاسقا. وبمعنى الظن كقولك جعلته كريما بحسن ظني به. وبمعنى الامر كقولك جعله الله مسلما بمعنى امره بالاسلام.

وقوله " ولتطمئن به قلوبكم " فالاطمئنان الثقة ببلوغ المحبوب، وهو خلاف الانزعاج. والطمأنينة: السكون والدعة.

وقوله " وما النصر إلا من عند الله " معناه لايكون النصر وقهر الاعداء من الكفار إلا بفضل من عند الله ونصر من جهته. وليس ذلك بشدتكم وقوة بأسكم

(٨٥)

وإنما أضافه إلى الله، لئلا يظن أنه من قبل الملائكة من غير امره.
فأما الغلبة بكثرة العدد، فقد ينفق للكافر والمبصل، فعلى هذا المؤمن وان قتل، فهو منصور غير مخذول، والكافر وإن غلب وقتل فهو مخذول.
وهل قاتلت الملائكة يوم بدر قيل فيه قولان:
قال ابوعلي الجبائي: ما قاتلت، وإنما أراد الله بالامداد البشارة بالنصر واطمئنان القلب ليزول عنهم الخوف الذي كان بهم، قال لان ملكا واحدا يقدر ان يدمر على جميع المشركين كما اهلك جبرائيل قريات لوط.
وروي عن ابن مسعود: أنها قاتلت. وقيل: سأل ابوجهل من اين كان يأتينا الضرب ولا نرى الشخص، قالوا له: من قبل الملائكة، فقال هم غلبونا لا أنتم.
وقوله " إن الله عزيز " يعني قادر لايغالب " حكيم " في أفعاله ليثقوا بوعده.
قوله تعالى:
إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الاقدام (١١) آية.
قرأ ابن كثيروا ابوعمرو " يغشاكم " بفتح الياء وسكون الغين وبألف مخفف.
وقرأه اهل المدينة – بضم الياء وسكون الغين وكسر الشين مخفا من غير الف. الباقون بضم الياء وفتح الغين وتشديد الشين وكسرها من غير الف. وكلهم نصب النعاس إلا ابن كثير وابوعمرو، فانهما رفعاه.
وحجة من فتح الياء قوله " أمنة نعاسا يغشى " (١). فكما اسند الفعل إلى النعاس والامنة، كذلك ههنا. ومن قرأ بضم الياء وشدد الشين او خففها، فالمعنى واحد.

---

(١) سورة ٣ آل عمران اية ١٥٤
(*)

قال الله تعالى " فأغشيناهم فهم لايبصرون " (١) وقال " فغشاها ما غشى " (٢) وقال " كأنما اغشيت وجوههم " (٣) وحجتهما أنه أشبه بما بعده. لانه قال " وينزل عليكم من السماء ماء " فكما أن (ينزل) مسند إلى اسم الله كذلك " يغشي ".
و " الغشيان " لباس الشئ ما يتصل به، ومنه غشي الرجل إمرأته، فكأن النعاس قد لا بسهم بمخالطته إياهم. و " النعاس " ابتداء حال النوم قبل الاستثقال فيه، وهو السنة، تقول: نعس ينعس نعاسا فهو ناعس. وحكى الفراء أنه سمع نعسان.

و " الامنة " الدعة التي تنافي المخافة، تقول: أمن أمنا وأمانا وأمنة. وانتصب " أمنة " بأنه المفعول له، والعامل فيه " يغشى ".

وقوله " وينزل عليكم من السماء ماء " يعني مطرا وغيثا.

وقوله: " ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان " قال ابن عباس: معناه يذهب منكم وسوسة الشيطان، بأنه غلبكم على الماء المشركون حتى تصلوا وانتم مجنبين، لان المسلمين باتوا ليلة بدر على غير ماء، فأصبحوا مجنبين، فوسوس اليهم الشيطان، فيقول: تزعمون أنكم على دين الله وانتم على غير الماء تصلون مجنبين، وعدوكم على الماء، فأرسل الله عليهم السماء، فشربوا واغتسلوا وأذهب به وسوسة الشيطان، وكانوا في رمل تغوص فيه الاقدام، فشدده المطر حتى تثبت عليه الرجال فهو قوله " ويثبت به الاقدام ". والهاء في " به " راجعة إلى الماء. وقال ابن زيد:

يذهب بوسوسته أنه ليس لكم بهؤلاء طاقة. وقال الجبائي: لان الاحتلام بوسوسة الشيطان.

وقوله " وليربط على قلوبكم " معناه ليشد عليها بما يسكنها وقوله " ويثبت به الاقدام " قيل في معناه قولان:

أحدهما – قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وأكثر المفسرين: لتلبيده الرمل

---

(١) سورة ٣٦ يس آية ٩ (٢) سورة ٥٣ النجم آية ٥٤ (٣) سورة ١٠ يونس آية ٢٧ (*)

الذي لايثبت عليه القدم.

والثاني – الصبر الذي افرغه عليهم عند ذلك حتى ثبتوا لعدوهم – في قول ابي عبيدة والزجاج –. و " إذ " في موضع نصب على معنى وما جعله الله إلا بشرى في ذلك الوقت، ويجوز على تقدير إذكروا " إذ يغشاكم ".

قوله تعالى:

إذ يوحي ربك إلى الملئكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا سالقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان (١٢) آية معنى الاية اذكروا " إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم " يعني بالمعونة والنصرة، كما يقال: فلان مع فلان بمعني ان معونته معه. وذكر الفراء قال:

كان الملك يأتي الرجل من اصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) فيقول سمعت المشركين يقولون، والله لئن حملوا علينا لنكشفن، فيحدث المسلمون بعضهم فيقوي انفسهم بذلك و " الايحاء " إلقاء

المعنى إلى النفس من وجه يخفى، وقد يكون ذلك بنصب دليل يخفى إلا على من إلقي اليه من الملائكة.

وقوله " فثبتوا الذين آمنوا " قيل في معناه قولان: احدهما – احضروا معهم الحرب. والثاني – قال الحسن: قاتلوا معهم يوم بدر. وقال قوم: معنى ذلك الاخبار بأنه لابأس عليهم من عدوهم.

وقوله " سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب " اخبار من الله تعالى انه يلقي في قلوب الكفار الرعب، وهو الخوف. تقول: رعبته ارعبه رعبا ورعبانا، فانا راعب، وذاك مرعوب. و " الرعب " إنزعاج النفس بتوقع المكروه. واصل الرعب التقطيع من قولهم رعبت السنام ترعيبا: اذا قطعته مستطيلا. والرعب يقطع حال

السرور بضده من انزعاج النفس بتوقع المكروه. وجارية رعبوبة اذا كانت شطنة مشبهة بقطعة من السنام. ورعب السيل فهو راعب: اذا امتلا منه الوادي، لانه انقطع اليه من كل جهة. والرعيب من الرجال النصير. قال الراجز:

ولا أجيب الرعب ان دعيت (١)

وقوله " فاضربوا فوق الاعناق " قيل في معناه ثلاثة أقوال:

احدها – اضربوا الاعناق – ذهب اليه عطية – وقال غيره اضربوا على الاعناق.

وقال قوم اضربوا فوق جلدة الاعناق.

وقوله " واضربوا منهم كل بنان " قال ابن جريج والضحاك والسدي:

أراد بنان الاطراف من اليدين والرجلين والواحد بنانة. ويقال: للاصبع بنانة.

واصله اللزوم من قولهم: أبنت السحابة إبنانا إذا لزمت. وأبن بالمكان اذا لزمه فسمي البنان بنانا، لانه يلزم به ما يقبض عليه، قال الشاعر:

ألا ليتني قطعت مني بنانة * ولا قيته في البيت يقظان حاذرا (٢)

وقال الفراء: أعلمهم مواضع الضرب، فقال: اضربوا الرؤوس والايدي والارجل.

وقال الزجاج: اباح الله قتلهم بكل نوع يكون في الحرب. و " اذ " في موضع نصب على قوله " وليربط.. اذ يوحي " ويجوز على تقدير واذكروا.

قوله تعالى:

ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب (١٣) آية.

أخبر الله تعالى أنه فعل بهؤلاء الكفار، ما فعل وامر بقتلهم وضرب اعناقهم

---

(١) قائله رؤبة. اللسان (رعب) ويروى (إن رقبت)

(٢) قائله عباس بن مرداس اللسان والتاج (بنن) ومجاز القرآن ١ / ٢٤٢
(*)

(٨٩)

وقطع بنانهم جزاء بما شاقوا الله ورسوله. قال الزجاج: معناه جانبوا الله، اي صاروا في جانب غير جانب المؤمنين، ومثله حاربوا الله. و " الشقاق " اصله الانفصال من قولهم: انشق انشقاقا، وشقه شقا، واشتق القوم إذا مر بينهم، وشاقه شقاقا إذا صار في شق عدوه عليه، وتشقق تشققا، وشقق تشقيقا، ومنه اشتقاق الكلام لانه انفصال الكلمة عما يحتمله الاصل. ومعنى " شاقوا الله " شاقوا اولياء الله كما قال " ان الذين يؤذون الله ورسوله " (١). وقوله " ومن يشاقق الله " يجوز في العربية الاظهار والادغام، فاما أن يأتي على الاصل للحاجة إلى حركة الاول، وإما ان يحرك الثاني – لالتقاء الساكنين – بالكسر. ويجوز الفتح والاول اجود مع الالف واللام لتأكد سببه.

وقوله " فان الله شديد العقاب " شدة العقاب عظمه بجنس فوق جنس أدنى منه، لان العظم على ضربين: احدهما – بالتضاعف في المرتبة الواحدة. والثاني – بالترقي إلى مرتبة بجنس يخالف الجنس الذي في ادنى مرتبة.

قوله تعالى:

ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار (١٤) آية.

العامل في " ذلكم " يحتمل احد وجهين: أحدهما – الابتداء على تقدير الامر " ذلكم "، قال الزجاج: من قال: إنه يرفع " ذلكم " بما عاد عليه من الهاء او بالابتداء وجعل " فذوقوه " الخبر، فقد أخطأ، لان ما بعد الفاء لايكون خبر المبتدأ لايجوز " زيد فمنطلق " ولا " زيد فاضربه " الا ان تضمر هذا كقول الشاعر:

وقائله خولان فانكح فتاتهم * وأكرومة الحيين خلو كما هيا (٢)

أي هذه خولان. الثاني – أن يكون نصبا بذوقوا، كما تقول: زيدا فاضربه.

---

(١) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٥٧ (٢) اللسان (خلا)
(*)

(٩٠)

والكاف في قوله " ذلكم " لا موضع له من الاعراف لانه حرف خطاب، ولو كان اسما لجاز أن يؤكد بالنفس وذلك غير جائز اجماعا. والاشارة بذلك إلى ما تقدم من انواع العقوبات، وانما ضم إلى الكاف الميم، لانه خطاب للمشركين.

وقوله " فذوقوه " فالذوق طلب ادراك الطعم بتناول اليسير بالفم كما ان الشم طلب ادراك الرائحة بالانف، وليس بالادراك، لانه يقال ذقتة فلم أجد له طعما، وشممته فلم اجد له رائحة، وانما قال " فذوقوه " والذوق اليسير من الطعام، لان المعنى كونوا للعذاب كالذائق للطعام، لان معظمه بعده. وقيل: لان الذائق أشد احساسا بالطعم من المستمر عليه، فكأن حالهم ابدا حال الذائق في شدة احساسه نعوذ بالله منه.

وقوله " وأن للكافرين " فموضع " أن " يحتمل النصب والرفع، فالرفع بالعطف على ذلكم كأنه قال " ذلكم، فذوقوه " وذلكم " ان للكافرين عذاب النار " مع ذا والنصب من وجهين: احدهما – وبان للكافرين، والاخر – واعلموا ان للكافرين، كما انشده الفراء:

تسمع للاحشاء منه لغطا * ولليدين جسأة وبددا (١)

اي وترى لليدين وانما قدم الخبر في قوله: " وأن للكافرين " على الاسم لدلالته على الكفر الذي هو السبب للعذاب. ومرتبة السبب قبل المسبب.

قوله تعالى:

يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الادبار (١٥) آية.

---

(١) معاني القرآن للفراء ١ / ٤٠٥. (اللغط) الاصوات المبهمة، والجسأة – بضم الجيم – الخشونة والصلابة والغلظ. والبدد تباعد مابين اليدين.

(*)

هذا خطاب للذين آمنوا من بين المكلفين ناداهم الله ليقبلوا إلى امر الله بما يأمرهم به وانتهائهم عما ينهاهم عنه بالتأمل له والتدبر لموجبه ليعملوا به ويكونوا على يقين منه. وقوله " اذا لقيتم الذين كفروا " فالالتقاء الاجتماع على وجه المقاربة لان الاجتماع قد يكون على غير وجه المقاربة، فلا يكون لقاء كاجتماع الاعراض في المحل الواحد. و " الذين كفروا " هم الذين جحدوا نعم الله او من كان بمنزلة الجاحد.

فالمشرك كافر، لانه في حكم الجاحد لنعم الله إذا عبد غيره.

وقوله " زحفا " نصب على المصدر، فالزحف هو الدنو قليلا قليلا والتزاحف التداني، زحف يزحف زحفا، وازحفت القوم اذا دنوت لقتالهم وثبت لهم، والمزحف من الشعر الذى قد تدانت حروفه على ما ابطلت وزنه.

وقوله: " فلا تولوهم الادبار " نهي لهم عن الفرار عند لقائهم الكفار وقتالهم اياهم.

قوله تعالى:

ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأويه جهنم وبئس المصير (١٦) آية اخبر الله تعالى ان " من يولهم " يعني الكفار " يومئذ " يوم القتال " دبره فقد باء بغضب من الله ". والتولية جعل الشئ يلي غيره وهو متعد إلى مفعولين. ولاه دبره اذا جعله يليه، ومنه ولاه البلد من ولاية الامارة، وتولى هو اذا قبل الولاية واولاه نعمة، لانه جعلها تليه.

وقوله " يومئذ " يجوز اعرابه وبناؤه، فاعرابه لانه متمكن اضيف على تقدير الاضافة الحقيقية، كقولك هذا يوم ذلك، وأما البناء فلانه اضيف إلى مبني اضافة غير حقيقية، فأشبه الاسماء المركبة، وقوله " الا متحرفا لقتال " فالتحرف الزوال

من جهة الاستواء إلى جهة الحرف. تقول تحرف تحرفا، وانحرف انحرافا وحرفه تحريفا واحترف احترافا، لانه يقصد جهة الحرف لطلب الرزق، مثل ابعد في طلب الرزق، والمحارف المحدود من جهة الرزق إلى جهة الحرف. ومنه حروف الهجاء لانها اطراف الكلمة كحرف الجبل، ونحوه.

وقوله " او متحيزا إلى فئة " فالتحيز طلب حيز يتمكن فيه، تحيز تحيزا وانحاز انحيازا وحازه يحوزه حوزا، والحيز المكان الذي فيه الجوهر. والفئة القطعة من الناس، وهي جماعة منقطعة عن غيرها. وذكر الفئة في هذا الموضع حسن جدا، وهو من فأوت راسه بالسيف اذا قطعته.

وفي تناول الوعيد لكل فار من الزحف خلاف.

فقال الحسن وقتادة والضحاك: انما كان ذلك يوم بدر خاصة.

وقال ابن عباس: هو عام، وهو قول ابي جعفر وابي عبدالله (عليهما السلام).

ثم اخبر تعالى ان من ولي دبره على غير وجه التحرف للقتال، او التحيز إلى الفئة انه باء بغضب من الله. أي رجع بسخطه تعالى واستحقاق عقابه. وان مستقره " جهنم وبئس المصير " هي لمن صار اليها.

وقوله " متحرفا لقتال " نصب على الحال، وتقديره الا ان يتحرف لان يقاتل، وكذلك " متحيزا " نصب على الحال وتقريره حال تحيزه إلى فئة، ويجوز النصب فيهما على الاستثناء، تقديره الا رجلا متحيزا او يكون متفردا، فينحاز ليكون مع المقاتلة. واصل متحيز متحيوز فأدغمت الياء في الواو بعد قلبها ياء.

قوله تعالى:

فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم (١٧) آية بلا خلاف.

(٩٣)

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف " ولكن الله قتلهم. ولكن الله رمى " بالتخفيف فيهما ورفع اسم الله فيهما. والباقون بتشديد النون ونصب " الله ".

نفى الله ان يكون المؤمنون قتلوا المشركين يوم بدر فقال " فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم " وإنما نفى القتل عمن هو فعله على الحقيقة ونسبه إلى نفسه وليس بفعل له من حيث كانت أفعاله تعالى كالسبب لهذا الفعل، والمؤدي اليه من إقداره إياهم ومعونته لهم وتشجيع قلوبهم فيه، والقاء الرعب في قلوب اعدائهم المشركين حتى خذلوا وقتلوا على شركهم عقابا لهم. وقوله " وما رميت إذا رميت ولكن الله رمى " مثل الاول في انه نفى الرمى عن النبي (صلى الله عليه وآله) وإن كان هو الرامي وأضافه إلى نفسه من حيث كان بلطفه، واقداره.

وهذه الرمية ذكر جماعة من المفسرين، كابن عباس وغيره: أن النبي (صلى الله عليه وآله) أخذ كفا من الحصباء فرماها في وجوههم، وقال: شاهت الوجوه، فقسمها الله تعالى على ابصارهم، وشغلهم بأنفسهم حتى غلبهم المسلمون، وقتلوهم كل مقتل. وقال بعضهم: ارد بذلك رمي النبي (صلى الله عليه وآله) أبي امية بن الخلف الجمحي يوم احد فأصابه فقتله. وقال آخرون: اراد بذلك رمية سهمه يوم خيبر، فأصاب ابن ابي الحقيق في فراشة رأسه، فقتله. والاول أشهر الاقوال.

فأما تعلق من تعلق بذلك من الغلاة، بأن قال: لما قال " ولكن الله رمى " – وكان النبي هو الرامي – دل ذلك على انه هو الله تعالى، فهو جهل وقلة معرفة بوجوه الكلام لانه لو كان على ما قالوه لكان الكلام متناقضا، لانه خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) بأنه لم يرم، فان كان هو الله تعالى فالى من توجه الخطاب؟ وإن توجه اليه الخطاب دل على ان الله غيره. وأيضا فاذا كان هو الله فقد نفى عنه الرمي فاذا أضافه بعد ذلك إلى الله كان متناقضا على انه قد دلت الادلة العقلية على ان الله ليس بجسم، ولا حال في جسم، فبطل قول من قال إن الله كان حل في محمد (صلى الله عليه وآله) وليس هذا موضع نقضه. وقد ذكرنا الكلام في ذلك واستوفيناه في الاصول.

(٩٤)

وأما من قال: إن الفعل واجد، وهو من الله تعالى بالايجاد، ومن العبد بالاكتساب فباطل، لانه خلاف المفهوم من الكلام، ولو كان كذلك لم يجز أن ينفى عنه إلا بتقييد كما لا ينفى عن الله الا بتقييد.

وقوله " وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا " معناه لينعم عليهم نعمة حسنة.

والمعنى ولينصرهم الله نصرا جميلا ويختبرهم بالتي هي احسن، ومعنى يبليهم – ههنا – يسدي اليهم. وقيل للنعمة بلاء وللمضرة أيضا مثل ذلك، لان أصله ما يظهر به الامر من الشكر أو الصبر، ومنه يبتلي بمعنى يختبر ويمتحن وسميت النعمة بذلك لاظهار الشكر، والضر لاظهار الصبر الذي يجب به الاجر.

وقوله " إن الله سميع عليم " معناه انه يسمع دعاء من يدعوه ويعلم ماله فيه من المصلحة فيجيبه اليه.

قوله تعالى:

ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين (١٨) آية.

قرأ ابن عامر وحمزة الكسائي وأبوبكر عن عاصم: " موهن " خفيفة منونة.

وقرا ابوعمرو وابن كثير ونافع شديدة. وقرأ حفص عن عاصم خفيفة مضافة وخفض " كيد ".

وقرأ الباقون بنصب كيد.

تقول: وهن الشئ واوهنته انا كما تقول: فرح وافرحته، وخرج واخرجته فمن قرأ " موهن " مخففا فمن اوهن اي جعله واهنا، ومن شدد فمن قولهم: وهنته كما تقول خرج وخرجته وعرف وعرفته. ومنه قوله " فما وهنوا لما اصابهم " (١)

وتقول: وهن يهن مثل ومق يمق وولي يلي، وهو أيضا ينقل بالهمزة وتثقيل العين ايضا والامران جميعا حسنان، واختار الاخفش القراءة بالتخفيف. والوهن الضعف ومنه قولهم: توهن توهنا اي ضعف، ومن قال قوله " ذلكم " في موضع رفع قال

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٤٦

(*)

الزجاج: تقديره الامر " ذلكم وأن الله " والامر ان الله.

وقوله " ذلكم " اشارة إلى قتل المشركين ورميهم حتى انهزموا وابتلاء المؤمنين البلاء الحسن بالظفر بهم وامكانهم من قتلهم واسرهم فعلنا الذي فعلناه. ومعنى " وأن الله موهن كيد الكافرين " يضعف مكرهم حتى يذلوا ويهلكوا. وفي فتح " أن " من الوجوه ما في قوله " ذلكم " فذوقوه، وأن للكافرين عذاب النار " – وقد بيناه – والكيد يقع بأشياء منها الاطلاع على عوراتهم، ومنها إبطال حيلتهم، ومنها إلقاء الرعب في قلوبهم، ومنها تفريق كلمتهم، ومنها نقض ما ابرموا باختلاف عزومهم قوله تعالى:

إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين (١٩) آية قرأ نافع وابن عامر وحفص " وان الله " بفتح الالف. الباقون بالكسر، من فتح الهمزة فوجهه " ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت " ولان الله مع المؤمنين اي لذلك لاتغني عنكم فئتكم شيئا. ومن كسر قطعه عما قبله واستأنفه، وقوي ذلك لما روي ان في قراءة ابن مسعود " والله مع المؤمنين ". والكسر اختيار الفراء، ومن نصب فعلى ان موضعه نصب بحذف حرف الجر، ويجوز ان يكون عطفا على قوله " وأن الله موهن ".

والاستفتاح طلب النصرة التي بها يفتح بلاد العدو كأنه قال ان تستنصروا على اعدائكم فقد جاءكم النصر بالنبي (صلى الله عليه وآله). وقال الزجاج: يجوز ان يكون المراد استحكموا لان الاستفتاح الاستقضاء. ويقال للقاضي: الفتاح، والمعنى فقد جاءكم الحكم من عند الله، وهو قول الضحاك وعكرمة ومجاهد والزهري، والاول قول

ابن عباس وغيره، والمعنيان متقاربان. وقيل في معنى الاية قولان:

أحدهما – قال الحسن ومجاهد والزهري والضحاك والسدي والفراء: انه خطاب للمشركين لانهم استنصروا بان قالوا: اللهم اقطعنا للرحم، واظلمنا لصاحبه فانصرنا عليه روي ان ابا جهل قال ذلك.

الثاني – قال ابوعلي: هو خطاب للمؤمنين والمعنى وان تعودوا إلى مثل ما كان منكم يوم بدر في الاشر والبطر بالنعمة بعد الانكار عليكم. وقال الحسن وان تعودوا لقتال محمد (صلى الله عليه وآله) نعد عليكم بالقتل والاسر يا معشر قريش وجماعة الكفار وان تنتهوا عن الكفر بالله العظيم ورسوله وعن قتال نبيه فهو خير لكم وانفع لكم واقرب إلى مرضاة الله.

والانتهاء ترك الفعل لاجل النهي عنه، تقول نهيته عن كذا فانتهى، وامرتة فاتمر، على فعل المطاوع وقد يطاوع بأن يقال: كسرته فانكسر، وقد يكون الانتهاء بمعنى بلوغ الغاية.

وقوله تعالى " ولن تغني عنكم فئتكم شيئا " معناه انه لن يغني عنكم جمعكم في الدفاع عنكم والنصرة – وان كانوا كثيرين – وإن الله مع المؤمنين بالنصرة لهم والمعونة قوله تعالى:

يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون (٢٠) آية.

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين، وإنما خصهم بالخطاب، لان غيرهم بمنزلة من لايعتد به في العمل بما يجب عليه مع ما في إفراده إياهم بالخطاب من إعظام لهم واجلال ورفع من اقدارهم، وإن دخل في معناه غيرهم.

والايمان: هو التصديق بما اوجب الله على المكلف او ندبه اليه.

وقال الرماني: هو التصديق بما يؤمن من العقاب مع العمل به.

امر الله تعالى المؤمنين أن يطيعوا الله ورسوله، والطاعة هي امتثال امره وموافقة إرادته الجاذبة إلى الفعل بطريق الرغبة او الرهبة، والاجابة موافقة الارادة فيما يعمل من اجلها. وقوله " ولا تولوا عنه وانتم تسمعون " معناه ولا تعرضوا عن امره ونهيه وانتم تسمعون دعاءه لكم، فنهاهم عن التولي في هذه الحال. وقال الحسن:

معناه وانتم تسمعون الحجة.

قوله تعالى:

ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون (٢١) آية.

" ولاتكونوا " في موضع جزم وحذف النون دلالة على الجزم.

نهى الله تعالى المؤمنين الذين خصهم بالذكر في الاية الاولى عن ان يكونوا كالذين قالوا سمعناوهم لايسمعون، وفي الكلام حذف المنهي عنه، لانه قد دل عليه من غير جهة الذكر له، وفي ذلك غاية البلاغة، والتقدير ولايكونوا في قولهم المنكر هذا " كالذين " والتشبيه على ثلاثة اوجه: أعلى وأدنى واوسط، فالاعلى هو الذي حذف معه أداة التشبيه، كقولهم للانسان: هذا الاسد، والاوسط تثبت معه مجردة كقوله " والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة " (١) والادنى تأتي معه مقيدة كقولهم الجسم كالعرض في الحدوث.

ومعنى قوله " قالوا سمعنا وهم لايسمعون " معناه سمعنا سماع عالم قابل، وليسوا كذلك، وهو من صفة المنافقين في قول ابن اسحاق وابي علي. وقال الحسن: يعني به أهل الكتاب. وقيل: هو من صفة المشركين، فجعلوا بمنزلة من لايسمع في أنهم لم ينتفعوا بالمسموع. وقال ابوعلي: هي نفي القبول من قولك

---

(١) سورة ٢٤ النور آية ٣٩

(*)

سمع الله لمن حمده. وقال الزجاج: يعني الذين قالوا " لو نشاء لقلنا مثل هذا " فسماهم الله لايسمعون لانهم استمعوا استماع عداوة وبغضاء فلم يتفهموا ولم يتفكروا فكانوا بمنزلة من لم يسمع. وقال ابن اسحاق: أراد به الذين يظهرون الايمان ويسرون النفاق.

قوله تعالى:

إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون (٢٢) آية بلا خلاف.

اخبر الله تعالى " إن شر الدواب عند الله الصم " والشر إظهار السوء الذي يبلغ من صاحبه وهو نقيض الخير. وقيل الشر الضر القبيح، والخير النفع الحسن. وقيل الشر الضر الشديد. والخير النفع الكثير، واصل الشر الاظهار من قول الشاعر:

كما اشرت بالاكف المصاحف (١)

اي أظهرت، وشر الرجل يشر شرا وشروت الثوب إذا بسطته في الشمس وشرر النار ما تطاير منه لظهوره بانتشاره وتفرقه، ومنه الشر وهو ما يظهر من الضرر كشرر النار.

والدواب جمع دابة وهي مادب على وجه الارض إلا انه تخصص في العرف بالخيل دب يدب دبيبا.

فبين ان هؤلاء الكفار شر مادب على الارض من الحيوان. ثم شبههم بالصم

---

(١) نسب إلى كعب بن جعيل. وقيل هولا بن الحمام المري. وقيل لابن جهمة الاسدي راجع: وقعة صفين: ٣٣٦، ٤١١، واللسان " شرر " وروايته:

فما برحوا حتى رأى الله صبرهم * وحتى أشرت بالاكف المصاحف

واشرت – بتشديد الراء المفتوحة، مبني للمفعول – اي أظهرت بكثرة.

(*)

البكم الذين لايعقلون من حيث لم ينتفعوا بما كانوا يسمعون من وعظ الله ولا يتكلمون بكلمة الحق، والصم آفة في الاذن تمنع السمع، ثم يصم صمما وهو اصم. وصمم على الامر إذا حقق العزم عليه وتصام عن القول إذا تغافل عنه. وعود اصم خلاف المجوف وأصله المطابقة من غير خلل. والبكم الخرس: الذي يولد به صاحبه لانه

قد يكون لافة عارضة، وقد يكون لافة لازمة.

وقال ابوجعفر (عليه السلام) نزلت الاية في بني عبد الدار لم يكن اسلم منهم غير مصعب بن عمير وحليف لهم يقال له سويبط. وقيل: نزلت الاية في النضر ابن الحارث بن كلدة من بني عبد الدار بن قصي.

قوله تعالى:

ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون (٢٣) آية.

معنى الاية ان الله تعالى اخبر انه لو علم فيهم. يعني هؤلاء الكافرين انهم يصلحون بما يورده عليهم من حججه وآياته لاسمعهم إياها ولم يخلف عنهم شيئا منها وإن كان قد أزاح علتهم في التكليف بما نصب لهم من الادلة الموصلة إلى الحق، ولكنهم لايصلحون بل يتولون وهم معرضون.

وقال ابن جريج وابن زيد: لاسمعهم الحجج والمواعظ سماع تفهم.
وقال ابوعلي: لاسمعهم كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم من قصي بن كلاب وغيره وقال الزجاج: لاسمعهم جواب كل ما يسألون عنه.
والاعراض خلاف الاقبال وهو الانصراف بالوجه عن جهة الشئ والاقبال الانصراف بالوجه إلى جهته والاستماع إيجاد السماع بايجاده والتعريض له. فان الله تعالى يسمعهم بأن يوجد السماع لهم. والانسان يسمعهم بأن يعرضهم للسماع

الذي يوجدلهم، هذا على مذهب من قال: إن الادراك معنى، ومن قال: انه ليس بمعنى، فمعنى الاسماع هو ان يوجد من كلامه الدال على ما يجب أن يسمعوه لكونهم أحياء لا آفة بهم في حواسهم.
وقال الزجاج المعنى " ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم " كلما يسألون عنه ولو اسمعهم كلما يخطر ببالهم لتولوا وهم معرضون. وقال الحسن: هو إخبار عن علمه كما قال " ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه " (١).
وفي الاية دلالة على بطلان قول من يقول: يجوز ان يكون في مقدوره لطف لو فعله بالكافر لامن.
قوله تعالى:
يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون (٢٤) آية.
أمر الله المؤمنين ان يجيبوا الله والرسول إذا دعاهم وان يطلبوا موافقته والاستجابة طلب موافقة الداعي فيما دعا اليه على القطع به. وقال ابوعبيدة والزجاج:
معنى استجيبوا اجيبوا. وقال كعب بن سعد الغنوي.
وداع دعا يا من يجيب إلى الندا * فلم يستجبه عند ذاك مجيب (٢)
اي لم يجبة. والفرق بين الدعاء إلى الفعل وبين الامر به أن الامر فيه ترغيب في الفعل المأمور به، ويقتضي الرتبة. وهي ان يكون متوجها إلى من دونه، وليس

---

(١) سورة ٦ الانعام آية ٢٨ (٢) مر هذا البيت في ١ / ٨٦ و ٢ / ١٣١ و ٣ / ٨٨.
(*)

كذلك الدعاء لانه يصح من دونك لك.

وقوله " إذا دعاكم لما يحييكم " قيل في معناه ثلاثة أقوال:

احدها – دعاكم إلى احياء امركم بجهاد عدوكم مع نصر الله إياكم، وهو قول ابن اسحاق والفراء والجبائي. وقال البلخي: معناه لما يبقيكم ويصلحكم ويهديكم ويحيي امركم.

الثاني – معناه لما يورثكم الحياة الدائمة في نعيم الاخرة من اتباع الحق: القرآن الثالث – معناه لما يحييكم بالعلم الذي تهتدون به من اتباع الحق، والاقتداء بما فيه.

وقوله " واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه " قيل في معناه ثلاثة اقوال:

احدها – ان يفرق بين المرء وقلبه بالموت او الجنون وزوال العقل. فلا يمكنه استدراك ما فات. والمعنى بادروا بالتوبة من المعاصي قبل هذه الحال.

الثاني – ان معناه بادروا بالتوبة لانه اقرب إلى المرء من حبل الوريد لايخفى عليه خافية من سره وعلانيته وفي ذلك غاية التحذير.

والثالث – تبديل قلبه من حال إلى حال لانه مقلب القلوب من حال الامن إلى حال الخوف ومن حال الخوف إلى حال الامن على ما يشاء.

وروي عن ابي عبدالله (عليه السلام) في معنى قوله " يحول بين المرء وقلبه " قال لايستيقن القلب أن الحق باطل أبدا ولا يستيقن أن الباطل حق ابدا.

فأما من قال من المجبرة: إن المراد إن الله يحول بين المرء والايمان بعد امره إياه به فباطل، لانه تعالى لايجوز عليه أن يأمر أحدا بمايمنعه منه ويحول بينه وبينه، لان ذلك غاية السفه، تعالى الله عن ذلك. وايضا فلا احد من الامة يقول: إن الايمان مستحيل من الكافر، فانهم وان قالوا إنه لايقدر على الايمان يقولون يجوز منه الايمان ويتوقع منه ذلك، ومن ارتكب ذلك فقد خرج من الاجماع.

ويحتمل ان يكون المراد ان امر الله بالموت يحول بين المرء وقلبه، كما قال " هل ينظرون إلا ان يأتيهم الله " (١) أي أمر الله.

وقال قوم: يجوز ان يكون معناه يحول بينه وبين قلبه بان يسلبه قلبه فيبقى حيا بلا قلب وهذا قريب من معنى زوال العقل، قالوا: يجوز أن يكون المراد: انه عالم بما ينظرون اليه، وما يضمره العبد في نفسه من معصيته فهو في المعنى كأنه حائل بينه وبينه، لان العبد لايقدر على اضمار شئ في قلبه إلا والله عالم به، وهذا وجه حسن وروي في التفسير أن الله يحول بين المؤمن وبين الكفر. والمعنى في ذلك ان الله يحول بينه وبين الكفر بالوعد والوعيد، والامر والنهي، والترغيب في الثواب والعقاب. فأما ماروي عن سعيد بن جبير وغيره من ان الله يحول بين الكافر والايمان فقد بينا ان ذلك لا يجوز على الله. والعقل مانع منه. ولو صح

ذلك لكان الوجه فيه ان الله يحول بين الكافر وبين الايمان في المستقبل بان يميته، لانه لايجب تبقيته حتى يؤمن، بل لو ابقاه لكان حسنا، وان لم يبقه كان ايضا حسنا. وقوله تعالى " وانه اليه تحشرون " معناه انكم تحشرون يوم القيامة للجزاء على اعمالكم إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، فلذلك يجب المبادرة بالطاعة والاقلاع عن المعصية بالتوبة وترك الاصرار على القبائح.

قوله تعالى:

واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب (٢٥) آية امر الله تعالى المكلفين من خلقه أن يتقوا فتنة لاتصيب الذين ظلموا منهم خاصة والفتنة البلية التي يظهر بها باطن امر الانسان فيها. والفتنة الهرج الذي يركب فيه

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢١٠

(*)

الناس بالظلم قال ابن عباس امر الله المؤمنين ان لايقروا المنكر بين أظهرهم، فيعمهم الله بالعذاب. وقال عبدالله: هو من قوله تعالى " إنما اموالكم وأولادكم فتنة " (١) وقال الحسن: الفتنة البلية. وقال ابن زيد: هي الضلالة. وقال الجبائي:

هي العذاب. " لاتصيبن " فالاصابة الايقاع بالشئ بحسب الارادة، وضده الخطأ.

يقال: أصاب الغرض او أخطأه.

وقوله " لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة " معناه انها تعم لان الهرج إذا وقع دخل ضرره على كل أحد. ويجوز أن يقال يخص الظالم، ولايعتد بما وقع بغيره للعوض الذي يصل إليه. ويحتمل أن يكون اراد إن هذه العقوبة على فتنتكم لاتختص بالظالمين منكم بل كل ظالم منكم كان أو من غيركم فستصيبه عقوبة ظلمه وفسقه وفتنته واراد بذلك تحذير الناس كلهم، وأنهم سواء في المعصية، وما توجبه من العقوبة ليكون الزجر عاما.

وفي دخول النون الثقيلة في " تصيبين " قولان:

احدهما – قال الفراء: لانه نهي بعد أمر وفيه معنى الجزاء كقوله " يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده " (٢) ومثله لارينكم ههنا.

والثاني – أن يكون خرج مخرج جواب القسم.

وقال الزجاج: يحتمل ان يكون نهيا بعد أمر وتقديره اتقوا فتنة، ثم نهى، فقال " لا تصيبن الذين ظلموا " أي لايتعرض الذين ظلموا لما ينزل معه العذاب.

ومثله قال في قوله " لا يحطمنكم " فيكون لفظ النهي لسليمان، ومعناه النمل، كما يقول القائل لأرينك ههنا، فلفظ النهي لنفسك، والمراد لاتكون ههنا، فاني اراك.

و " الخاصة " للشئ ما كان له دون غيره ونقيضة العامة.

---

(١) سورة ٨ الانفال آية ٢٨ وسورة ٦٤ التغابن آية ١٥ (٢) سورة ٢٧ النمل آية ١٨ (*)

(١٠٤)

وقوله " واعلموا أن الله شديد العقاب " معناه لمن لم يتق معاصيه ولم يتبع او امره، وقال الحسن والسدي ومجاهد وابن عباس: نزلت هذه الاية في أهل الجمل.

وقال قتادة قال الزبير: لقد نزلت وما نرى ان أحدا منا يقع فيها ثم اختلفنا حتى اصابتنا خاصة. وروي ذلك عن الزبير من جهات.

قوله تعالى:

واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون في الارض تخافون أن يتخطفكم الناس فآويكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون (٢٦) آية.

الذكر ضد السهو، وهو إحضار المعنى للنفس. وإنما أمروا بالتعرض له، لان إحضار المعنى بقلوبهم ليس من فعلهم.

وقوله " إذ انتم قليل " فالقلة النقصان عن المقدار في العدد وكان اصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) قليلين في الاصل فلطف الله لهم حتى كثروا وعزوا، وقل اعداؤهم وذلوا وكانوا مستضعفين، فقووا.

والاستضعاف طلب ضعف الشئ بتهوين حاله. والضعف خلاف القوة.

والاستضعاف استجلاب ضعفه بتحقير حاله، فامتن الله عليهم بذلك وبين انهم كانوا قليين فكثرهم وكانوا مستضعفين، فقواهم بلطفه.

وقوله " تخافون أن يتخطفكم الناس " فالتخطف الاخذ بسرعة انتزاع، تخطف تخطفا وخطف خطفا واختطف اختطافا، فبين انهم كانوا خائفين من ان ينال منهم العدو.

وقوله " فآواكم " اي جعل لكم مأوى حريزا ترجعون إليه وتسكنون فيه

(١٠٥)

وقال السدي " آواكم " إلى المدينة. وقوله " وأيدكم بنصره " يعني بالانصار في قول السدي وقيل في المعني بقوله " الناس " قولان:

احدهما – مشركوا قريش في قول عكرمة وقتادة.
وقال وهب بن منية يعني فارس والروم، وقوله " ورزقكم من الطيبات " أي أطعمكم غنيمتكم حلالا طيبا " لعلكم تشكرون " أي لكي تشكروه على هذه النعم المترادفة والا لاء المتضاعفة.
قوله تعالى:
يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أمانا تكم وأنتم تعلمون (٢٧) آية.
هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين ينهاهم ان يخونوا الله والرسول. والخيانة منع الحق الذي قد ضمن التأدية فيه. وهي ضد الامانة. وأصل الخيانة ان تنقص من ائتمنك أمانته، قال زهير:
بارزة الفقاوة لم تخنها * قطاف في الركاب ولاخلاء (١)
أي لم تنقص من فراهتها. والمعنى لاتخونوا مال الله الذي جعله لعباده فلا يخن بعضكم بعضا فيما ائتمنه عليه في قول ابن عباس. وقال الحسن، والسدي:
لاتخونوه كما صنع المنافقون. وقال الجبائي: نهاهم ان يخونوا الغنائم. وقال ابن زيد: الامانة ههنا الدين، نزلت في بعض المنافقين. والامانة مأخوذة من الامن من منع الحق وهي حال يؤمن معها منع الحق الذي تجب فيه التأدية وقوله " وأنتم تعلمون " قيل في معناه قولان:
أحدهما – وأنتم تعلمون انها امانة من غير شبهة.

---

(١) مقاييس اللغة ١ / ٧٩
(*)

والثاني – وانتم تعلمون ما في الخيانة من الذم والعقاب بخلاف الجهال بتلك المنزلة.
وقوله: " وتخونوا " موضعه الجزم بتقدير، ولا تخونوا في قول ابن عباس وقال السدي: هو نصب على الظرف (١) أي إنكم إذا خنتم الرسول فقد خنتم أماناتكم. قال الفراء، ومثله قول الشاعر:
لاتنه عن خلق وتأت مثله * عار عليك إذا فعلت عظيم (٢)
وحكى الفراء في بعض القرآت: " ولا تخونوا أمانتكم " وقال جابر بن عبدالله: نزلت الاية في بعض المنافقين حين انذر أبا سفيان بخروج النبي لاخذ العير. وقال الزهري: نزلت في ابي لبابة في قصة بني قريظة وهو المروي عن أبي جعفر وابي عبدالله (عليهما السلام).
قوله تعالى:
واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم (٢٨) آية.

أمر الله تعالى المكلفين ان يعلموا ويتحققوا ان اموالهم واولادهم فتنة. وإنما يمكنهم معرفة ذلك بالنظر والفكر في الادلة المؤدية إليه، وهو ما يدعوا إليه الهوى في الامـــوال والاولاد، ومـــا يصرف عنه فمن تفقد ذلك وتحرز منه نجاه من مضرته والمراد بالفتنة ههنـــا المحنـــة التـــي يظهر بها ما في النفس من اتباع الهوى او تجنبه فيخلص حاله للجـــزاء بـــالثواب او العقـــاب بحسب الاستحقاق.

---

(١) المقصود من الظرف كونه بعد الواو التي بمعنى (مع)

(٢) قطر الندى ٧٧ الشاهد ٢٣ وقد مر في أماكن كثيرة من هذا الكتاب

(*)

والولد حيوان يتكون من حيوان بخلق الله له، فعلى هذا لم يكن آدم ولدا وكان عيسى ولد مريم.

والمال هو النصاب الذي تتعلق به الزكاة من ذهب او فضة او ابل او بقر او غنم عند بعـــض المفسرين. وأصله الكسر من العين والورق.

و (العظيم) استحقاق الصفة بالغنى. فالكثير عظيم للاستغناء به عن القليل من جنسه، والقليل لا يستغنى (به) عنه.

بين الله تعالى ان الاموال والاولاد في هذه الدنيا محنة وبلاء وان الله تعـــالى عنـــده الثـــواب العظيم على الطاعات وترك المعاصي.

وروي عن ابن مسعود انه قال: ليس احد منكم إلا وهو مشتمل على فتنة لقوله " واعلموا أنما اموالكم واولادكم فتنة " فاسألوا الله تعالى ان يعيذكم منها.

قوله تعالى:

يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سياتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم (٢٩) آية.

هذا خطاب للمؤمنين خاطبهم الله بأنهم ان يتقوا معاصيه ويمتثلوا طاعاته ويتقوا عقابه باجتناب معاصيه يجعل لهم اجرا على ذلك " فرقانا ". وقيل في معنى الفرقان اقوال: – احدها – قـــال ابن زيد وابن اسحاق يجعل هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل.

وقال مجاهد: معناه يجعل لكم محرجا في الدنيا والاخرة.

وقال السدي: معناه يجعل لكم نجاة. وقال الفراء: يجعل لكم فتحاو نصرا

وعزا كقوله: " يوم الفرقان يوم التقى الجمعان " (١) وقال الجبائي: يجعل لكم نصر وعزا وثوابا لكم، وعلى اعدائكم خذلانا وذلا وعقابا كل ذلك يفرق بينكم وبينهم في الدنيا والاخرة.

وانما جاز الشرط في اخبار الله مع اقتضائه شك المخبر منا من حيث ان الله تعالى يعامل عباده في الجزاء معاملة الشاك للمظاهرة في العدل ولذلك جازت صفة الابتلاء والاختبار لما في ذلك من البيان ان الجزاء على ما يظهر من الفعل دون ما في المعلوم مما لم يقع منه. ثم بين انه يضيف إلى ذلك تكفير سيئاتهم وغفران ذنوبهم وسترها عليهم تفضلا منه تعالى.

وقوله " والله ذو الفضل العظيم " قيل في معناه قولان:

احدهما – قال الجبائي: معناه ان من ابتدأكم بالفضل العظيم لانه كريم لنفسه لايمنعكم ما استحقيتموه بطاعاتكم له.

الثاني – انه الذي يملك الفضل العظيم فينبغي ان يطلب من جهته.

قوله تعالى:

وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين (٣٠) آية.

خاطب الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) فقال: واذكر " إذ يمكر بك الذين كفروا " والمكر الفتل إلى جهة الشر في خفى وأصله الالتفاف من قول ذي الرمة.

عجزاء ممكورة خمصانة قلق * عنها الوشاح وتم الجسم والقصب (٢)

اي ملتفة. والمكر والختل والغدر نظائر. والفرق بين المكر والغدر ان الغدر نقض العهد الذي يلزم الوفاء به، والمكر قد يكون ابتداء من غير عقد.

---

(١) سورة ٨ الانفال آية ٤١ (٢) مقايس اللغة ٤ / ١٣٣

(*)

ووصف الله تعالى بأنه ما كر يحتمل وجهين:

احدهما – انه سمى الجزاء على المكر مكرا للازدواج، كقوله " الله يستهزئ بهم " (١) اي يجازيهم على الاستهزاء فيكون التقدير والله خير المجازين على المكر، ذكره الزجاج، والثاني – ان يكون على غير تضمن الحيلة لكن على اصل اللغة. قال ابو علي: ومكره بهم حق وصواب " وهو خير الماكرين " مكرا.

وقوله " ليثبتوك " قيل في معناه قولان:

احدهما – ليثبتوك في الوثاق، في قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة:

والثاني – قال عطا وعبدالله بن كثير، والسدي " ليثبتوك " في حبس وقال ابـــوعلي الجبـــائي: معناه ليخرجوك، يقال: اثبته في الحرب إذا جرحه جراحة ثقيلة.

وقوله " او يخرجوك " قال الفراء: او يخرجوك علي بعير تطرد به حتى تهلـــك او يكفيكمـــوه بعض العرب. وهو قول ابي البختري وهشام.

وكان سبب ذلك أنهم تآمروا في دار الندوة، فقال عمرو بن هشام: قيدوه تتربصون به ريـــب المنون. وقال البختري: أخرجوه عنكم تستريحوا من أذاه لكم. وقال أبوجهل: ما هذا بـــرأي، ولكن اقتلوه بان يجتمع عليه من كل بطن رجل فيضربونه بأسيافهم ضـــربة رجـــل واحـــد، فترضى حينئذ بنو هاشم بالدية فصوب إبليس هذا الرأي وخطأ الاولين وزيفهما، فـــاوحى الله تعالى إلى نبيه (صلى الله عليه وآله) بذلك فامره بالخروج، فخرج إلى الغار، في قول ابن عباس، ومجاهد وقتادة، وهو قوله " ويمكرون ويمكر الله والله خيـــر المـــاكرين " ولا خـــلاف بـــين المفسرين أنه بات علي تلك الليلة، وهي الليلة التي أمر النبي (صلى الله عليه وآله) بالخروج على فراشه إلى أن اصبح، وكانوا يحرسونه إلى الصباح، ولما طلع الفجر ثاروا اليه

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٥

(*)

فاذا علي، قالوا له أين صاحبك؟ قال: لا أدري، فتركوه وخرجوا في أثره.

قوله تعالى:

وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الاولـــين (٣١) آية.

اخبر الله تعالى عن عناد هؤلاء الكفار ومباهتتهم للحق بأنهم بلغوا في ذلك إلى رفع الحق بما ليس فيه شبهة. وهو أنه " اذا تتلى عليهم آياته " يعني القرآن قالوا " لو نشاء لقلنا مثل هـــذا " وقد أبان التحدي كذبهم في ذلك وتخرصهم فيه بما ظهر من عجزهم عن سورة مثله، وانمـــا قالوا " لو نشاء لقلنا مثل هذا " ولم يجز أن يقولوا لو نشاء لقلبنا الجماد حيوانا، لانه يتموه هذا على كثير من الناس ولا يتموه ذلك، على أن قوم فرعون ظنوا أن السحرة يمكنهم قلب الجماد حيوانا.

وقوله " قد سمعنا " معناه أدركناه بآذاننا. والسماع إدراك الصوت بحاسة الاذن، ولو لم نـــذكر الصوت لا نتقض بالحرارة والبرودة والالام واللذة اذا ادرك بها، ولا يسمى سماعا. وعلى هذا

اذا قيل: ما الرؤية بالبصر؟ ينبغي أن يقال: هي ادراك المرئيات بها، لانه قد يدرك الحرارة والبرودة بها. فاذا قلنا المرئيات لم ينتقض بذلك.

ثم أخبر الله تعالى عن قولهم بأن قالوا ليس هذا الذي سمعناه " إلا أساطير الاولين " والاساطير جمع واحده أسطورة في قول الزجاج. وقال غيره: هو جمع أسطر، واسطر جمع سطر، وزيدت الياء للمد، كما قالوا دراهم، وارادوا ما هذا إلا ماسطره من الاحاديث بكتبه سطرا بعد سطر.

قوله تعالى:

وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا

(١١١)

حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم (٣٢) آية بلا خلاف.

تقديره واذكر يا محمد إذ قال هؤلاء الكفار " إن كان هذا " القرآن " هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم " شديد مؤلم.

قال سعيد ابن جبير، ومجاهد: كان الطالب لذلك النضر بن الحارث بن كلدة لانه كان سمع سجع اهل الحيرة وكلام الرهبان، فقتله النبي (صلى الله عليه وآله) يوم بدر صبرا فقال: يا رسول الله من للصبيه؟ قال النار وقيل عقبة بن ابي معيط، والمطعم بن عدي، قتل هؤلاء الثلاثة صبرا من جملة من أسر، وفي النضر نزل قوله " سأل سائل بعذاب واقع للكافرين " (١) يعني ما سأله ههنا. وهذا القول من قائله يجوز أن يكون عنادا، فان المعاند قد تحمله شدة عداوته للحق على اظهار مثل هذا القول. ليوهم انه على بصيرة في أمره. ويجوز أن يكون ذلك لشبهة تمكنت في نفوسهم.

وقال الجبائي: ذلك دليل على اعتقادهم خلاف الحق الذي اتى به النبي (صلى الله عليه وآله) وهو حجة اهل المعارف، لانهم لو عرفوا بطلان ما هم عليه، لما قالوا مثل هذا القول.

فان قالوا كيف طلبوا بالحق من الله العذاب وانما يطلب به الخير والثواب؟.

قلنا: لانهم قالوا ذلك على أنه ليس بحق من الله عندهم. واذا لم يكن حقا من الله لم يصبهم البلاء الذي طلبوه.

فان قيل لم قالوا " امطر علينا حجارة من السماء " والامطار لايكون إلا من السماء؟ قلنا عنه جوابان:

احدهما – أن امطار الحجارة يمكن ان يكون من عل دون السماء.

والثاني – ان يكون على حجة البيان ب (من).

(١) سورة ٧٠ المعارج آية ١ - ٢
(*)

والحجارة واحد الاحجار، وهو ما صلب من الاجسام، يقال استحجر الطين إذا صلب، فصار كالحجر. واكثر ما يقال حجر للمدر، مع ذلك فالياقوت حجر ولذلك يقال الياقوت افضل الحجارة، ولا يقال الياقوت افضل الزجاج، لانه ليس من الزجاج وكل شئ من العذاب يقال امطرت ومن الرحمة يقال مطرت.

وقوله " هو " يجعل عمادا في ظننت واخواتها. ويسميه البصريون صلة زائدة وتوكيدا كزيادة (ما) ولايزاد إلا في كل فعل لا يستغنى عن خبره، وفي لغة تميم يرفع ذلك كله، فيقولون " إن كان هذا هو الحق " وكذلك قوله " ولكن كانوا هم الظالمين " (١) و " تجدوه عند الله هو خيرا واعظم اجرا " (٢) كل ذلك يرفعونه. وعلى الاول ينصب ما بعدها ومثله قوله " ويرى الذين اوتوا العلم " إلى قوله " هو الحق " (٣).

قوله تعالى:

وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون (٣٣) آية اخبر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) على وجه الامتنان عليه واعلامه منزلته عنده انه لايعذب احدا من هؤلاء الكفار بهذا العذاب الذي اقترحوه على وجه الفساد للحق " وانت " يا محمد " فيهم " موجود.

والتعذيب تجديد الالام حالا بعد حال، لان اصله الاستمرار، فالعذب من استمرار الشئ لما فيه من الملاذ. والعذاب من استمراره لما فيه من الالام واللام في قوله " ليعذبهم " لام الجحد. واصلها لام الاضافة. وإنما دخلت في النفي

(١) سورة ٤٣ الزخرف آية ٧٦ (٢) سورة ٧٣ المزمل آية ٢٠ (٣) سورة ٣٤ سبأ آية ٦
(*)

ولم تدخل في الايجاب لتعلق الخبر بحرف النفي، كما دخلت الباء في خبر (ما) ولم تدخل في الايجاب.

وإنما لم يعاقب الله تعالى الخلق مع كون النبي (صلى الله عليه وآله) فيهم على سلامته مما ينزل بهم، لانه تعالى أرسله رحمة للعالمين. وذلك يقتضي ألا يعذبهم وهو فيهم.

وقوله " وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون " قيل في معناه أقوال:

احدها – ان النبي (صلى الله عليه وآله) لما خرج من مكة بقي فيها بقية من المؤمنين يستغفرون، وهو قول ابن عباس، وعطية، وابي مالك، والضحاك، واختاره الجبائي.

وقال آخرون: اراد بذلك لايعذبهم بعذاب الاستئصال في الدنيا، وهم يقولون يارب غفرانك. ويعذبهم على شركهم في الاخرة، وذلك عن ابن عباس في رواية أخرى، وهو قول أبي موسى، ويزيد بن رومان، ومحمد بن مبشر.

الثالث – أنهم لو استغفروا لم يعذبوا، وفي ذلك استدعاء إلى الاستغفار روي ذلك عن ابن عباس في رواية أخرى، وبه قال مجاهد وقتادة والسدي وابن زيد.

وقال الزجاج: معناه لايعذب الله من يؤل إلى الاسلام.

وقال الحسن وعكرمة: هذه الاية منسوخة بالتي بعدها. قال الرماني: هذا غلط، لان الخبر لاينسخ.

قوله تعالى:

وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم

لايعلمون (٣٤) آية.

(ما) في قوله " وما لهم ان لا يعذبهم الله " خرجت مخرج الاستفهام ومعناه إيجاب العذاب، وجاز ذلك، لانه ابلغ في معنى الايجاب، من حيث انه لاجواب – لمن سأل عن مثل هذا – يصح في نفي العذاب، والمعنى لم لا يعذبهم وهذا فعلهم.

وموضع (أن) نصب بمعنى أي شئ لهم في أن لايعذبهم، لكن لما حذف الجار عمل معنى الفعل من الاستقرار، وجاز الحذف مع (أن) ولم يجز مع المصدر لطول (أن) بالصلة اللازمة من الفعل والفاعل، وليس كذلك المصدر. وحكي عن الاخفش ان (أن) زائدة مع عملها.

وقوله " وهم يصدون عن المسجد " والصد المنع، والصد الاعراض عن الشئ من غير حيلولة بينه وبين غيره والمراد ههنا المنع.

وقوله: " وما كانوا اولياءه " جمع ولي وهو الذي يستحق القيام بأمر الشئ ويكون احق به من غيره، فعلى هذا الله تعالى ولي المتقين دون المشركين. وقال ابوجعفر (عليه السلام) والحسن قال المشركون: نحن اولياء المسجد، فرد الله ذلك عليهم، فقال " وما كانوا اولياءه ". ثم اخبر الله تعالى " إن اولياؤه " بمعنى ليس

أولياء المسجد إلا المتقون الذين يتركون معاصي الله ويجتنبونها.

وقال قوم: المعنى إن اولياء الله إلا المتقون والاول احسن: لانه مما يقتضيه الانكار.
وقيل في معنى (لا) قولان: احدهما – ان معناها الجحد اي ما لهم في الامتناع مـــن العـــذاب.
وقيل هي صلة، لان المعنى ايجاب العذاب، كما قال الشاعر:
لو لم تكن غطفان لادنوت لها * إذن للام ذووا احسابها عمرا (١)

---

(١) قائله الفرزدق ديوانه ٢٨٣ والخزانة ٢ / ٨٧ والطبري ٥ / ٣٠٢ و ١٣ / ٥١٩
(*)

والاول احسن، لان المعنى لم لا يعذبهم الله. فان قيل: كيف تجمعون بين الايتين على قول من لا ينسخ الاولى، فان في الاولى نفى ان يعذبهم الله وهم يستغفرون وفي الثانية اثبت ذلك؟ قلنا عنه ثلاثة اجوبة:

احدها – ان يكون أراد وما لهم ان لايعذبهم الله في الاخرة والثاني – ان يكون يعني بالاولى عذاب الاستئصال كما فعل بالامم الماضية وبالثانية اراد عذاب السيف والاسر وغير ذلك ويكون قوله " وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون " اي انه لايعذبهم بعذاب الدنيا، والاخرة إذا تابوا واستغفروا.

الثالث – أنه لايعذبهم مادام النبي فيهم وما داموا يستغفرون وإن كانوا يستحقون العذاب بكفرهم وعنادهم.

وقوله: " ولكن اكثرهم لايعلمون " دليل على بطلان قول من قال المعارف ضرورة.

قوله تعالى:

وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (٣٥) آية.

روى الحسين العجفي عن ابي بكر " صلاتهم " نصبا " إلا مكاء وتصدية " رفع فيها. والصواب ما عليه القراء، لان " صلاتهم " معرفة و " مكاء وتصدية " نكرة ولايجوز ان يجعل اسم كان نكرة وخبره معرفة. ومن قرأ كذلك فلان الصلاة لما كانت مؤنثة ولم يكن في كان علامة التأنيث اضاف الفعل إلى المذكور وهو " مكاء ". وهذا ليس بصحيح، لان " صلاتهم " لما كان مضافا إلى المذكر جاز ان يذكر كما ان المذكر إذا اضيف إلى المؤنث جاز ان يؤنث، نحو قولهم: ذهبت بعض اصابعه.

ومعنى الاية الاخبار من الله تعالى أنه لم تكن صلاة هؤلاء الكفار الصادين عن المسجد الحرام " إلا مكاء " لئلا يظن ظان ان مع كونهم مصلين ومستغفرين لايعذبهم الله، كما قال في الاية الاولى، فبين ان صلاتهم كانت مكاء وتصدية.

والمكاء صفير كصفير المكاء. وهو طائر يكون بالحجاز وله صفير قال الشاعر:

ومكابها فكأنما يمكو بأعصم عاقل (١)

وأصل المكاء جمع الريح للصفير. ويقال مكا يمكوا مكاء إذا صفر بفيه ومنه يمكوا است الدابة إذا انتفخت بالريح. والاست: الكوة، والمكو ان يجمع الرجل يديه ثم يدخلهما في فيه ثم يصيح. ومنه قول عنترة:

وحليل غانية تركت مجدلا * تمكو فريضته كشدق الاعلم (٢)

اي يصفر بالريح لما طعنه والتصدية التصفيق يقال صدى يصدي تصدية إذا صفق بيديه. ومنه الصدى صوت الجبل، ونحوه. ومنه تصدى للملك إذا تعرض له ليكلمه. وقال ابن عباس، وابن عمر، والحسن، وعطية، ومجاهد، وقتادة والسدي: المكاء الصفير، والتصدية التصفيق، قال الراجز:

ضنت بخد وجلت عن خد * فأنا من غرو الهوى أصدي

أي اصفق بيدي تعجبا. والغرو: العجب.

وقال ابوعلي الجبائي: كان بعضهم يتصدى لبعض ليراه بذلك الفعل، وكان يصفر له. وقال سعيد بن جبير وابن زيد: التصدية صدهم عن البيت الحرام. وقيل:

إنهم كانوا يخلطون ويشوشون بذلك على النبي (صلى الله عليه وآله).

وإنما سمي مكاؤهم بأنه صلاة لامرين:

---

(١) مجاز القرآن ١ / ٢٤٦ (٢) ديوانه: ٢٤ من معلقته الشهيرة. واللسان (مكا) وتفسير القرطبي ٧ / ٤٠٠ والطبري ١٣ / ٥٢١.

(*)

احدهما – انهم كانوا يقيمونه فعلهم الصفير والتصفيق مقام الصلاة والدعاء والتسبيح.

والاخر – انهم كانوا يعملون كعمل الصلاة مما فيه هذا.

وقوله " فذوقوا العذاب " قال الحسن، والضحاك، وابن جريج، وابن اسحاق: إن معناه عذاب السيف. وقال ابوعلي الجبائي: يقال لهم في الاخرة " ذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون " في دار الدنيا وهو قول البلخي. والمعنى باشروه وليس المراد به من ذوق الفم.

قوله تعالى:

إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون * والذين كفروا إلى جهنم يحشرون (٣٦)

آية في الكوفي والمدنيين وآيتان في البصري خاصة.

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار بأنهم ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله وغرضهم المنع عن سبيل الله. وسبيل الله ههنا، هو دين الله الذي أتى به محمد (صلى الله عليه وآله) وسمي سبيل الله ههنا، لان بسلوكه واتباعه يبلغ ما عند الله، وإن لم يعلموا أنها سبيل الله لانهم قصدوا إلى الصد عنها، وهي سبيل الله على الحقيقة. ويجوز أن يقال قصد الصد عن سبيل الله، وإن لم

يعلم. ولا يجوز قصد أن يصد من غير أن يعلم، لان (أن) تفسر الوجه الذي منه قصد، فلا يكون إلا مع العلم بالوجه كقولك قصد أن يكذب، وقصد الكذب من غير ان يعلم أن كذب.
وإنما قال " ينفقون " ثم قال " فسينفقونها "، لان الاول معناه ان من

(١١٨)

شأنهم ان ينفقوا للصد، والثاني – معناه انه سيقع الانفاق الذي يكون حسرة بما يرونه من الغلبة. والحسرة الغم بما انكشف من فوت استدراك الخطيئة. والاصل الكشف من قولهم حسر عن ذراعه يحسر حسرا والحاسر خلاف الدارع. وحسر حسرة وهو حسير قال المراد:

ما انا اليوم على شئ خلا * يا بنة القين تولي يحسرا (١)

وكان الانفاق المذكور في الاية القائم به أبوسفيان: صخر بن حرب استأجر يوم أحد ألفين من الاحابيش من كنانة في قول سعيد، وابن ابرى، ومجاهد والحكم ابن عيينة. وفي ذلك قال كعب بن مالك:

وجئنا إلى موج من البحر وسطه * احابيش منهم حاسر ومقنع

ثلاثة آلاف ونحن نصية * ثلاث مئين ان كثرن فأربع (٢)

وقال الضحاك: إنما عنى بالاية الانفاق يوم بدر.

وفي الاية دلالة على نبوة النبي (صلى الله عليه وآله) لانه اخبر بالشئ قبل كونه فكان على ما اخبر به.

قوله تعالى:

ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا في جهنم أولئك هم الخاسرون (٣٧) آية بلا خلاف.

---

(١) اللسان (حسر). الحسر: الندامة. والقين العبد المملوك.

(٢) سيرة ابن هشام ٣ / ١٤١، طبقات فحول الشعراء: ١٨٣. والطبري ١٣ / ٥٣٠ ومقاييس اللغة ٢ / ١٢٩ (*)

(١١٩)

قرأ حمزة والكسائي " ليميز " مضمومة الياء مشددة، والباقون بفتح الياء خفيفا.

اخبر الله تعالى انه يحشر الكفار إلى جهنم " ليميز الخبيث " الذي هو الكافر " من الطيب " الذي هو المؤمن. (والتمييز) هو إخراج الشئ عما خالفه مما ليس منه، وإلحاقه بما هو منه. تقول مازه يميزه، وميزه تمييزا. وامتاز امتيازا وانماز انميازا والخبيث الردئ من كل شئ.

وضده الطيب. ومنه خبث الحديد وخبث الفضة، وخبث الانسان خبثا، وتخبث تخبثا، وتخابث تخابثا وخبثه تخبيثا و (الطيب) المستلذ من الطعام والطيب الحلال من الرزق، والطيب من الولد الذي يفرح به والطيب نقيض الخبيث، وهو الجيد من كل شئ.

وقيل المعنى ليميز الله ما انفقه المؤمنون في طاعة الله مما انفقه المشركون في معاصيه.

وقوله " ويجعل الخبيث بعضه على بعض " معناه إن الكافر يكون على اسوء حال كالمتاع والركام، هوانا، وتحقيرا، وإذلالا.

وقوله " فيركمه جميعا " معناه تراكب بعضه فوق بعضه. كالرمل الركام وهو المتراكب. ركمه يركمه ركما وتراكم تراكما وارتكم ارتكاما. ومنه قوله تعالى في صفة السحاب " ثم يجعله ركاما " (١) وقال الحسن يركمهم الله مع ما انفقوا في جهنم، كما قال " يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم " (٢)

ثم اخبر انه اذا ركمه جميعا يجعله في جهنم واخبر عنهم بأنهم الخاسرون نفوسهم باهلاكهم اياها بارتكاب المعاصي والكفر المؤدي إلى عذاب الابد.

قوله تعالى:

قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن

---

(١) سورة ٢٤ النور آية ٤٣ (٢) سورة ٩ التوبة آية ٣٦

(*)

يعودوا فقد مضت سنت الاولين (٣٨) آية.

أمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) ان يقول للكفار إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف والمعنى إن انابوا عن الكفر والمعاصي وتابوا منها توبة خالصة، لان الكف عن المعاصي مع الاصرار لايوجب الغفران. وإنما اطلق الوعد في الاية بالانتهاء عن المعصية، لان الانتهاء عنها لايكون مع الاصرار عليها، لان الاصرار معصية.

وقوله " وان يعودوا فقد مضت سنة الاولين " معناه وان يعودوا، ويرجعوا إلى المعصية " فقد مضت سنة الاولين " في تعجيل العقاب لهم في الدنيا بعذاب الاستئصال وما جرى مجراه من الاسر والقتل، يوم بدر، وبالنصر من الله، من قول الحسن ومجاهد، والسدي.

والسلوف: التقدم، تقول سلف يسلف سلوفا واسلف إسلافا وتسلف تسلفا وسلفه تسلفا وتسليفا واستسلف استسلافا، والسالفة اعلى العنق، والسلافة اخلص الخمر واجودها. والسلفان

المتزوجان باختين والسنة الطريقة التي يجري عليها الامر، ومنه قولهم هذا مستمر على سنن واحد.

قوله تعالى:

وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فان الله بما يعملون بصير (٣٩) وإن تولوا فاعلموا أن الله مولكم نعم المولى ونعم النصير (٤٠) آيتان.

أمر الله تعالى بهذه الاية نبيه (صلى الله عليه وآله) والمؤمنين ان يقاتلوا الكفار " حتى لاتكون فتنة " وهي الكفر من غير اهل العهد، وما جرى مجراه من البغي، لانهم يدعون الناس إلى مثل حالهم بتعززهم على اهل الحق وتطاولهم فيفتنونهم في دينهم.

وقال ابن عباس، والحسن: معناه حتى لايكون شرك. وقال ابن اسحاق حتى لايفتن مؤمن عن دينه. والفرق بين قوله " حتى لايكون فتنة " وبين قوله حتى لايكون كفر هو ان الذليل والاسير والشريد لايفتن الناس في دينهم لان الذل لايدعوا إلى حال صاحبه كما يدعو العز.

وقوله " ويكون الدين كله لله " معناه ان يجمع اهل الباطل وأهل الحق على الدين الحق فيما يعتقدونه ويعملون به، فيكون الدين كله حينئذ لله بالاجتماع على طاعته وعبادته، والدين ههنا الطاعة بالعبادة.

وقوله " فان انتهوا فان الله بما تعملون بصير " معناه فان رجعوا عن الكفر وانتهوا عنه فان الله يجازيهم مجازاة البصير بهم وبأعمالهم باطنها وظاهرها لايخفى عليه شئ منها.

وقوله " وإن تولوا فاعلموا ان الله مولاكم " قيل في معناه قولان:

احدهما – وان تولى هؤلاء الكفار واعرضوا عن الدين الحق واتباعه فثقوا بالله وتذكروا ما وعدكم به ايها المؤمنون تسكينا لنفوسهم وتمكينا للحق عندهم.

والثاني – فاعلموا ان الله ينصركم عليهم على طريق الامر بعلم هذا ليكونوا على بصيرة في ان الغلبة لهم وقوله " وإن تولوا " شرط. وقوله " فاعلموا أن الله " امر في موضع الجواب، وإنما جاز ذلك لان فيه معنى الخبر، فلم يخرج من ان يجب الثاني بالاول، كأنه قال فواجب عليكم العلم بأن الله مولاكم او فينبغي ان تعلموا ان الله مولاكم.

والمولى ههنا هو الناصر. وهو الذي يوليكم عن الغلبة. والمولى على اقسام بمعنى الناصر وبمعنى الحليف، وبمعنى المعنق والمعتق. وبمعنى الاولى والاحق كما قال لبيد:

فقدت كلا الفرحين يحسب انه * مولى المخافة خلفها وامامها (١)

---

(١) مقاييس اللغة ٢ / ٢١٢

(*)

(١٢٢)

ومنه قول النبي (صلى الله عليه وآلـه) " ايما امراة نكحت بغير إذن مولاها فنكاحها باطـل "، اي من هو اولى بالعقد عليها. وقال الاخطل يمدح عبد الملك بن مروان:

فاصبحت مولاها من الناس كلهم * واحرى قريش ان تهاب وتحمدا (١)

وقال ابوعبيدة: ومنه قوله " النار مولاهم " معناه الاولى بهم واستشهد ببيت لبيد المتقدم ذكره. وقد استوفينا اقسام مولى في غيره هذا الموضع (٢) فلا نطول بذكره ههنا. والتولي عن الدين هو الذهاب عنه إلى خلافه وهو والاعراض بمعنى واحد والتولي في الدين هو الـذهاب إلـى جهة الحق ومتابعة النبي (صلى الله عليه وآله) والنصرة له والمعونة له.

قوله تعالى:

واعلموا أنما غنمتم من شئ فان الله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى المسـاكين وابـن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كـل شئ قدير (٤١) آية.

الغنيمة ما اخذ من اموال اهل الحرب من الكفار بقتال. وهي هبة من الله تعـالى للمسـلمين. والفئ ما اخذ بغير قتال في قول عطا بن السائب، وسفيان الثوري وهو قول الشـافعي، وهـو المروي في اخبارنا.

وقال قوم: الفئ والغنيمة واحد. وقالوا هذه الاية ناسخة للتي في الحشر من قوله " ما افـاء الله على رسوله من اهل القرى، فلله وللرسول ولذي

---

(١) مر هذا البيت في ٣ / ١٨٧ (٢) في ٣ / ١٨٦، ١٨٧.

(١٢٣)

(*)

القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل " (١) لانه بين في هذه الايـة ان الاربعـة اخمـاس للمقاتلة. وعلى القول الاول لايحتاج إلى هذا، وعند اصحابنا ان مال الفئ للامام خاصة يفرقه فيمن شاء بعضه في مؤنة نفسه وذوي قرابته. واليتامى والمساكين وابن السبيل من اهل بيـت رسول الله ليس لسائر الناس فيه شئ. واما خمس الغنيمة، فانه يقسم عندنا ستة اقسام: فسـهم الله، وسهم لرسوله للنبي، وهذان السهمان مع سهم ذي القربى، للقائم مقام النبي (صلى الله عليـه وآله) ينفقها على نفسه وأهل بيته من بني هاشم، وسهم لليتامى: وسهم للمساكين: وسهم لابنـاء السبيل من أهل بيت الرسول لايشركهم فيها باقي الناس لان الله تعالى عوضهم ذلك عما اباح

لفقراء المسلمين ومساكينهم وابناء سبيلهم من الصدقات إذا كانت الصدقات محرمة على أهل بيت الرسول (عليهم السلام) وهو قول علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ومحمد بن على الباقر ابنه (عليهم السلام) رواه الطبري باسناده عنهما.

وقال الحسين بن علي المغربي حاكيا عن الصابوني من اصحابنا، إن هؤلاء الثلاثة فرق لايدخلون في سهم ذي القربى وإن كان عموم اللفظ يقتضيه، لان سهامهم مفردة، وهو الظاهر من المذهب. والذين يستحقون الخمس عندنا من كان من ولد عبدالمطلب، لان هاشما لم يعقب إلا منه: من الطالبيين والعباسيين والحارثيين واللهبيين، فاما ولد عبد مناف من المطلبيين، فلا شئ لهم فيه، وعند اصحابنا الخمس يجب في كل فائدة تحصل للانسان من المكاسب وأرباح التجارات والكنوز والمعادن والغوص وغير ذلك مما ذكرناه في كتب الفقه.

ويمكن الاستدلال على ذلك بهذه الاية، لان جميع ذلك يسمى غنيمة.

وقال ابن عباس، وابراهيم، وقتادة، وعطا: الخمس يقسم خمسة أقسام فسهم الله وسهم الرسول واحد.

وقال قوم: يقسم أربعة أقسام سهم لبني هاشم وثلاثة للذين ذكروا بعد ذلك

---

(١) سورة ٥٩ الحشر آية ٧

(*)

من سائر المسلمين، ذهب اليه الشافعي.

وقال اهل العراق: يقسم الخمس ثلاثة اقسام، لان سهم الرسول صرفه الائمة الاربعة إلى الكراع والسلاح.

وقال مالك: يقسم على ما ذكره الله. ويجوز للامام ان يخرج عنهم حسب ما يراه وإنما جاء على طريق الاولى في بعض الاحوال.

وقال ابوالعالية – وهو رجل من صالحي التابعين – يقسم ستة اقسام، فسهم الله للكعبة، والباقي لمن ذكر بعد ذلك.

وقال ابن عباس ومجاهد: ذو القربى هم بنو هاشم، وقد بينا نحن ان المراد بذي القربى اهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله): وبعد النبي القائم مقامه، وبه قال علي بن الحسين (عليه السلام) وروى جبير بن مطعم عن النبي (صلى الله عليه وآله) انهم بنو هاشم، وبنوا المطلب واختاره الشافعي وقال الحسن وقتادة: سهم الله وسهم رسوله وسهم ذي القربى لولي الامر من بعده وهو مثل مذهبنا.

وقال ابوعلي الجبائي: إن الائمة الاربعة جعلوا سهم الرسول وذي القربى في الكراع والسلاح واجمعوا على ان سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل شائع في الناس بخلاف ما قلناه.

واليتيم من مات أبوه وهو صغيرقبل البلوغ. وكل حيوان يتيم من قيل أمه إلا ابن آدم، فانه من قبل ابيه.

واما ابن السبيل، فهو المنقطع به في سفره. وإنما قيل ابن السبيل بمعنى اخرجه إلى هذا المستقر، كما يخرجه ابوه من مستقره لقي محتاجا.

والمسكين المحتاج الذي من شأنه ان تسكنه الحاجة عما ينهض به الغنى.

وقوله " فأن الله خمسه " قيل في فتح (ان) قولان: احدهما – فعلى ان لله خمسه وحذف حرف الجر فنصب. الثاني – انه عطف على (ان) الاولى وحذف خبر الاولى لدلالة الكلام عليه، وتقديره اعلموا ان ما غنمتم من شئ يجب قسمته واعلموا ان لله خمسه. قال الفراء: إنه جزاء بمنزلة " الم يعلموا انه من يحادد الله ورسوله فان له نار جهنم خالدا " (١) قال الرماني: هذا غلط

لان (ان) لاتدخل على الجزاء إلا مع العماد، كما لاتدخل (ان) إلا على هذا الوجه.

وقوله " إن كنتم آمنتم بالله واما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان " معناه اعلموا أنما غنمتم من شئ لهؤلاء الذين ذكرناهم ان كنتم مؤمنين بالله مصدقين له في اخباره وما انزله على عبده محمد (صلى الله عليه وآله) من القرآن.

وقال الزجاج يجوز ان يكون قوله " إن كنتم آمنتم بالله " متعلقا بقوله " فاعلموا ان الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير. ان كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان " اي فايقنوا ان الله ناصركم إذ كنتم شاهدتم من نصره ما شاهدتم. ومعنى " يوم الفرقان يوم التقى الجمعان " يوم بدر وسمي يوم الفرقان لانه تميز اهل الحق مع قلة عددهم من المشركين مع كثرة عددهم بنصر الله المؤمنين. وقيل كان يوم السابع عشر من شهر رمضان وقيل التاسع عشر، سنة اثنتين من الهجرة؟ وهو المروي عن ابي عبدالله (عليه السلام) ثم قال " والله على كل شئ قدير " اي هو قادر على مجازاة من اطاعه بجزيل الثواب، وعلى عقاب من عصاه بأليم العذاب.

قوله تعالى:

إذا أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولوتو اعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا (٤٢) ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم (٤٣)

(١) سورة ٩ التوبة آية ٦٤
(*)

آيتان في المدنيين والبصري وآية واحدة في الكوفي.

قرأ ابن كثير وابوعمرو (بالعدوة) بكسر العين، الباقون بضمها وهما لغتان قال الراعي في الكسر:

وعينان حمر مآقيهما * كما نظر العدوة الجؤذر (١)

وقال أوس بن حجر في الضم:

وفارس لايحل الحي عدوته * ولوا سراعا وما هموا باقبال (٢)

والعدوة شفير الوادي. وقال البصريون: الكسر اكثر اللغات. وقال احمد ابن يحيي: بالضم اكثر. وقال قوم: هما لغتان سواء، وقرأ نافع وابوبكر عن عاصم وابن كثير في رواية البزي وشبل " حيي " باظهار الياءين. وقرأ الباقون بالادغام وإنما جاز الادغام في (حيي) للزوم الحركة في الثاني يجري مجرى (ردوا) إذا اخبروا عن جماعة قالوا: حيوا فخففوا وقد جاء مدغما، فقالوا حيوا ومن اختار الاظهار، فلامتناع الادغام في مضارعه من يحيي فجرى على شاكلته قال الزجاج، لان الحرف الثاني ينتقل عن لفظ الياء تقول حيي يحيى فاما احيا يحيي فلايجوز فيه الادغام عند البصريين، لان الثاني إذا سكن في الصحيح من المضاعف في نحو لم يردد كان الاظهار أجود فالمعتل بذلك أولى، لان سكونه ألزم فلذلك وجه الاظهار في (يحيي) لانه أحق من (لم يردد) لان السكون له ألزم وقد أجاز الفراء الادغام في يحيي وانشد بيتا لايعرف شاعره:

وكانها بين النساء سبيكة * تمشي بشدة بأنها فتعي (٣)

تقدير معنى الاية واذكروا أيها المؤمنون " إذ انتم بالعدوة " وهي الجهة التي هي نهاية الشئ من احد جانبيه. ومنه قولهم عدوتا الوادي. وهما شفيراه وجانباه. و (الدنيا) بمعنى الادنى إلى المدينة. و (القصوى) بمعنى الاقصى

(١) تفسير الطبري ١٣ / ٥٦٥ (٣) معاني القرآن ١ / ٤١٢
(*)

منها إلى جهة مكة، وذلك ان النبي (صلى الله عليه وآله) واصحابه نزلوا بالجانب الادنى إلى المدينة. وقريش نزلت بالجانب الاقصى منها إلى مكة فنزلا الوادي بهذه الصفة، قد اكتنفا شفيريه. وقوله " والركب اسفل منكم " يعني ابا سفيان واصحابه في موضع اسفل منكم إلى ساحل البحر. وإنما نصب اسفل، لان تقديره بمكان اسفل. فهو في موضع خفض، ونصب لانه لاينصرف وكان يجوز الرفع على تقدير والركب أشد سفلا منكم، ومن نصب يجوز ان يكون اراد والركب مكانا اسفل منكم بجعله ظرفا. والذي حكيناه، هو قول الحسن، وقتادة، وابن اسحاق ومجاهد والسدي.

واصل الدنيا الدنو بالواو، بدلالة قولهم دنوت إلى الشئ أدنو دنوا، فقلبت الواو ياء. ولم تقلب مثل ذلك في القصوى، لانه ذهب بالدنيا مذهب الاسم في قولهم الدنيا والاخرة، وان كان اصلها صفة، فخففت. لان الاسم احق بالتخفيف.

وتقول: ادناه ادناء واستدناه استدناء، وتدانوا تدانيا. وداناه مداناة. و (العلو) قرار تحته قرار. و (السفل) قرار فوقه قرار، تقول: سفل يسفل سفلا، وتسفل تسفلا وتسافل تسافلا وسفل تسفيلا، وسافله مسافلة، وهو الاسفل، وهي السفلى. وقوله " ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد " والمواعدة وعد كل واحد من الاثنين الاخر وتواعدوا تواعدا. و (الاختلاف) مذهب كل واحد من الشيئين في نقيض الاخر، ومنه الاختلاف في الميعاد لذهاب كل واحد من الفريقين فيما يناقض الميعاد من التقدم والتأخر والزيادة والنقصان عما انعقد به الميعاد.

وقيل: اختلافهم في الميعاد بمعنى " لو تواعدتم " أيها المؤمنون على الاجتماع في الموضع الذي اجتمعتم فيه ثم بلغكم كثرة عددهم مع قلة عددكم لتأخر تم فنقضتم الميعاد، في قول ابن اسحاق. ووجه آخر " ولو تواعدتم " من غير لطف الله لكم " لا ختلفتم " بالعوائق والقواطع فذكر الميعاد لتأكيد امره في الاتفاق ولو لا

لطف الله مع ذلك لوقع على الاختلاف كما قال الشاعر:

جرت الرياح على محل ديارهم * فكانما كانوا على ميعاد

وقوله " ليقضي الله امرا كان مفعولا " معناه ليفصل الله امرا كان مفعولا من عز الاسلام وعلو اهله على عبدة الاوثان وغيرهم من الكفار بحسن تدبيره ولطفه.

وقوله " ليهلك من هلك عن بينة " معناه ليهلك من هلك عن قيام حجة عليه بما رأى من المعجزات الباهرات للنبي (صلى الله عليه وآله) في حروبه وغيرها " ويحيى من حي عن بينة " يعني ليستبصر من استبصر عن قيام حجة، فجعل الله المتبع للحق بمنزلة الحي، وجعل الضال بمنزلة الهالك.

وقوله: " وإن الله لسميع عليم " معناه " سميع " لما يقوله القائل في ذلك " عليم " بما يضمره، فهو يجازيه بحسب ما يكون منه.

قوله تعالى إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أريكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الامر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور (٤٤) آية.

التقدير واذكر يا محمد " إذ يريكهم الله في منامك قليلا " والهاء والميم كناية عن الكفار الذين قاتلوه يوم بدر " ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الامر " وهذه الرؤية كانت في المنام عند اكثر المفسرين. والرؤيا في المنام تصور يتوهم معه الرؤية في اليقظة والرؤيا على اربعة اقسام: رؤيا من الله عزوجل، ولها تأويل ورؤيا من وسوسة الشيطان، ورؤيا من غلبة الاخلاط، ورؤيا من الافكار، وكلها أضغاث أحلام إلا الرؤيا من قبل الله تعالى التي هي إلهام في المنام يتصور به الشئ

كأنه يرى في اليقظة. ورؤيا النبي (صلى الله عليه وآله) هذه بشارة له، وللمؤمنين بالغلبة وقال الحسن: معنى " في منامك " في عينك التي تنام بها، وليس من الرؤيا في النوم، وهو قول البلخي، وهو بعيد، لانه خلاف الظاهر من مفهوم الكلام.

قال الرماني: ويجوز أن يريه الله الشئ في المنام على خلاف ما هو به، لان الرؤيا في المنام يخيل له المعنى من غير قطع وإن جاء معه تطلع من الانسان على المعنى وإنما ذلك على مثل تخييل السراب ماء من غير تطلع على أنه ماء، فهذا يجوز ان يفعله الله. ولايجوز ان يلهمه إعتقاد الشئ على خلاف ما هو به. لان ذلك يكون جهلا، ولايجوز أن يفعله الله تعالى.

والنوم ضرب من السهو يزول معه معظم الحس، تقول نام ينام نوما ونومه تنويما وأنامه إنامة وتناوم تناوما واستنام استنامة. و (المنام) موضع النوم والمضطجع موضع الاضطجاع.

و (القلة) نقصان عن عدد، كما أن الكثرة زيادة على عدد يقال: قل يقل قلة وقلله تقليلا، واستقل استقلالا وتقلل تقللا. والشئ يكون قليلا بالاضافة إلى ماهو اكثر منه. ويكون كثيرا بالاضافة إلى ما هو أقل منه. وأقله إقلالا إذا أطاقه فصادفه قليلا في طاقته، فهو مشتق من هذا واستقل من المرض إذا قوي قوة يزول بها المرض اي وجده قليلا في قوته لايعتد به.

وقوله " لفشلتم " فالفشل ضعف الوجل لان الضعف قد يكون لمرض من غير فزع وقد يكون من فزع. فالفشل إنما هو الضعف عن فزع. وفشل يفشل فشلا فهو فاشل، وفشله تفشيلا: إذا نسبه إلى الفشل، وتفاشلوا تفاشلا.

وقوله " ولتنازعتم " فالتنازع الاختلاف الذي يحاول كل واحد منهم نزع صاحبه مما هو عليه تنازعوا تنازعا، ونازعه منازعة ونزع عن الامر ينزع نزوعا، واستنزعه إذا طلب نزوعه. وانتزعه إذا اقتلعه عن مكانه.

وقوله " ولكن الله سلم " فالسلامة النجاة من الافة. سلم يسلم سلامة وأسلمه

(١٣٠)

إسلاما إذا دفعه على السلامة، وأسلم الانسان إذا دخل في السلامة من جهة الدين وسلمه تسليما إذا نجاه. واستسلم استسلاما اذا سلم نفسه للامر، وتسلم تسلما إذا طلب السلامة، واستلم الحجر إذا طلب لمسه على السلامة وسالمه مسالمة، وتسالما تسالما.

وقوله " إنه عليم بذات الصدور " فالصدر الموضع الاجل لكون القلب فيه.

وصدر المجلس أجله، لانه موضع الرئيس، وصدر الدار مشبه بصدر الانسان لانه المستقبل منه كاستقباله من الانسان يقال صدر يصدر صدورا واصدره اصدارا وتصدر تصدرا وصدره تصديرا وصادره مصادرة، وتصادروا تصادرا.

ففائدة الاية إن الله لطف للؤمنين بما لو لم يكن لفشلوا ولاضطرف امرهم واختلفت كلمتهم. ولكن سلمهم الله من ذلك بلطفه لهم واحسانه بهم حتى بلغوا ما ارادوه من عدوهم.

قوله تعالى:

وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الامور (٤٥) آية التقدير اذكروا أيها المؤمنون إذ يريكموهم، فالهاء والميم كناية عن المشركين، والكاف والميم كناية عن المؤمنين، أرى الله تعالى الكفار قليلين في أعين المؤمنين ليشتد بذلك طمعهم فيهم وجرأتهم عليهم، وقلل المؤمنين في أعين الكفار لئلا يتأهبوا ولايستعدوا لقتالهم ولايكترثوا بهم ويظفر بهم المؤمنون. والمراد بالرؤية ههنا الرؤية بالبصر، وهو الادراك بحاسة البصر والرائي هو المدرك. والعين حاسة يدرك بها البصر، والعين مشتركة، فمنها عين الماء، وعين الميزان، وعين الركبة، وعين الذهب، والعين النفس، والالتقاء اجتماع الاتصال، لان الاجتماع

(١٣١)

على وجهين: اجتماع الاتصال واجتماع في معنى من غير اتصال كاجتماع القوم في الدار، وان لم يكن هناك اتصال. ويقال للعسكرين إذا تصافا التقيا لوقوع العين على العين.

فان قيل كيف قللهم الله في أعينهم مع رؤيتهم لهم؟ قلنا: بأنه يتخيلوهم بأعينهم قليلا من غير رؤية على الصحة لجميعهم وذلك بلطف من ألطافه تعالى مما يصد به عن الرؤية من قتام

يستر بعضهم ولا يستر بعضا آخر. وروي عن ابن مسعود انه قال رأيناهم قليلا حتى قلت لمن كان إلى جانبي أتراهم سبعين رجلا؟ فقال لي هم نحو المئة. فلما اسرنا رجلا منهم سألناه كم كانوا، فقال ألفا.

وقوله " ليقضي الله امرا كان مفعولا " إنما كرره في هذه الاية مع ذكره في الاية الاولى، لاختلاف الفائدة، فمعناه في الاية الاولى " ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد. ولكن ليقضي الله امرا كان مفعولا " من الالتقاء على الصفة التي حصلتم عليها. ومعناه في الثانية يقلل كل فريق في عين صاحبه " ليقضي الله امرا كان مفعولا " من اعزاز الدين بجهادكم على ما دبره لكم. وإنما قال " كان مفعولا " والمعنى يكون مفعولا في المستقبل لتحقيق كونه لامحالة حتى صار بمنزلة ما قد كان إذ قدم علم الله انه كائن لامحالة.

وقوله تعالى " والى الله ترجع الامور " اي ترجع الامور إلى ملكه وتدبيره خاصة، ويزول ملك كل من ملكه في دار الدنيا.

قوله تعالى:

يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون (٤٦) آية بلا خلاف.

(١٣٢)

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين خاصة يأمرهم بأنهم اذا لقوا جماعة من الكفار لحربهم أن يثبتوا ويذكروا الله كثيرا، ويستنصروه عليهم لكي يفلحوا ويفوزوا بالظفر بهم، وبالثواب عند الله يوم القيامة. وقد بينا ان معنى الايمان هو التصديق بما أوجبه الله على المكلفين أو ندبهم اليه. والفئة الجماعة المنقطعة من غيرها وأصله من فأوت رأسه بالسيف اذا قطعته. والثبوت حصول الشئ في المكان على استمرار، يقال لمن استمر على صفة: قد ثبت كثبوت الطين. والذكر ضد السهو، وقد يكون الذكر القول من غير سهو. والفئة المذكورة في الاية وان كانت مطلقة، فالمراد بها المشركة او الباغية، لان الله لايأمر المؤمنين بالثبوت لقتال احد الا من هو بهذه الصفة، ولا يأمر بقتال المؤمنين.

قوله تعالى:

وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين (٤٧) آية.

أمر الله تعالى هؤلاء المؤمنين الذين ذكرهم بأن يطيعوا الله ورسوله، ولا يختلفوا فيضعفوا عن الحرب. والعامل في " فتفشلوا " الفاء التي هي بدل من (أن) على معنى جواب النهي كقولك لا تأت زيدا فيهينك، ولذلك عطف بالنصب في قوله " وتذهب ريحكم " عليه.

وقوله " وتذهب ريحكم " معناه كالمثل أي ان لكم ريحا تنصرون بها يقال ذهب ريح فلان اي كان يجري في امره على السعادة بريح تحمله اليها، فلما ذهبت وقف امره، فهذه بلاغة حسنة. وقيل: المعنى ريح النصرة التي يبعثها الله مع من ينصره على من يخذله، في قول قتادة وابن زيد. وقيل: تذهب دولتكم، من قولهم ذهب ريحه، أي ذهبت دولته. في قول ابي عبيدة وابي علي. وقال عبيد

(١٣٣)

ابن الابرص:

كما حميناك يوم النعف من شطب * والفضل للقوم من ريح ومن عدد (١)

اي من ريح عز ومن عدد. وقال أبوجعفر (عليه السلام): هذه الاية نزلت حين أشار خباب بن المنذر على النبي (صلى الله عليه وآله) ان ينتقل من مكانه حتى ينزلوا على الماء ويجيؤهم من خلفهم، فقال بعضهم لاتنغفر معصاتك يا رسول الله. فتنازعوا، فنزلت الاية وعمل النبي (صلى الله عليه وآله) على قول خباب.

قوله تعالى:

ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط (٤٨) آية.

نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الاية ان يكونوا مثل " الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس " وهم قريش، لما خرجت لتحمي العير، فلما نجا ابو سفيان ارسل اليهم ان ارجعوا، فقد سلمت عيركم وهم بالجحفة: فقال أبوجهل والله لانرجع حتى نرد بدرا وننحر جزرا، ونشرب خمرا وتعزف علينا القيان ويرانا من غشينا من اهل الحجاز، ذكره ابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير وابن اسحاق. والبطر الخروج عن موجب النعمة – من شكرها، والقيام بحقها – إلى خلافه. وأصله الشق فمنه البيطار الذي يشق اللحم بالمبضع، وبطر الانسان بطرا وابطره كثرة النعمة عليه إبطارا وبطره تبطيرا. والرئاء اظهار الجميل مع ابطان القبيح تقول: راءى يرائي مراءاة ورياء. والمرائي رجل سوء لما بينا. والنفاق اظهار الايمان مع ابطان الكفر. والصد المنع. وقيل هو جعل ما يدعو إلى الاعراض

---

(١) ديوانه: ٤٩ والطبري ١٣ / ٥٧٥ واعجاز القرآن للباقلاني: ١٣١ و (النعف) ما انحدر من حزونة الجبل و (شطب) اسم جبل.

(١٣٤)

فهؤلاء يصدون عن سبيل الله بما يدعون الناس إلى الاعراض عنها من معادات اهلها وقتالهم عليها وتكذيبهم بما جاء به الداعي اليها. والفرق بين الصد والمنع أن المنع ما يتعذر معه الفعل والصد ما يدعو إلى ترك الفعل.

وقوله " والله بما تعملون محيط " معناه يحتمل أمرين: احدهما - انه يحيط علمه بما يعملونه. الثاني - انه قادر على جزاء ما يعملونه من ثواب أو عقاب.

قوله تعالى:

وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لاغالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني برئ منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب (٤٩) آية.

التقدير: واذكر " إذ زين لهم " يعني المشركين " زين لهم الشيطان اعمالهم بمعنى حسنها في نفوسهم والتزيين هو التحسين. والمعنى أن ابليس حسن للمشركين أعمالهم وحرضهم على قتال محمد، وخروجهم من مكة، وقوى نفوسهم، وقال لهم " لا غالب لكم اليوم من الناس ". تقول غلب يغلب غلبة، فهو غالب، وغالبه مغالبة وتغالبا تغالبا وغلبه تغليبا. والغلبة القهر للمنازع، والملك لامره.

وقوله " وإني جار لكم " حكاية عما قال ابليس للمشركين، فانه قال لهم اني جار لكم، لانهم خافوا بني كنانة لما كان بينهم، فأراد إبليس بأن يسكن خوفهم، والجار هو الدافع عن صاحبه السوء أجاره يجيره جوارا. ومنه قوله " وهو يجير ولا يجار عليه " (١) اي يعقد لمن احب دفع الضرر عنه من كل احد

---

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٨٩

(*)

ولا يعقد عليه، فالجار المجير. وقوله " فلما تراءت الفئتان " معناه، فلما التقتا ورأى بعضهم بعضا " نكص " يعني ابليس " على عقبيه " والنكوص هو الرجوع ققهرى خوفا مما يرى. نكص ينكص نكوصا، قال زهير.

هم يضربون حبيك البيض اذ لحقوا * لاينكصون اذا ما استلحموا وحموا (١)

واختلفوا في ظهور الشيطان لهم حتى رأوه، فقال ابن عباس، والسدي وقتادة، وابن اسحاق: ظهر لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم الكناني المدلجي في جماعة من جنده، وقال لهم: هذه كنانة قد أتتكم نجدة، فلما رأى الملائكة " نكص على عقبيه " فقال الحارث بن هشام

إلى اين يا سراقة، فقال " اني أرى ما لا ترون " وهو قول أبي جعفر وأبي عبدالله (عليهما السلام) وقيل إنه راى جبرائيل بين يدي النبي (صلى الله عليه وآله). وقال ابوعلي الجبائي حوله الله على صورة إنسان علما للنبي (صلى الله عليه وآله) بما يخبر به عنه. وقال الحسن والبلخي: إنما هو يوسوس من غير ان يحول في صورة انسان.

وقوله " اني اخاف الله والله شديد العقاب " حكاية عن قول ابليس حين ولى فقال لقريش اني ارى من الملائكة ما لا ترون اني اخاف الله والله شديد العقاب.

وانما خافه من ان يأخذه في تلك الحال بعقوبته دون ان يكون خاف معصيته فامتنع منها.

قال الحسن: إبليس عدو الله لايخاف الله لكن كلما استؤصل جند من جنوده وقعت بذلك عليه مخافة وذلة. وقال البلخي هو كقولك للرجل جمعت بين الفريقين حتى اذا وقع الشر بينهم خليتهم وانصرفت، وقلت اعملوا ما شئتم وتريد بذلك انك خليت بينهم دون ان يكون هناك قول، والاول هو المشهور في التفاسير.

---

(١) ديوانه ١٥٩ من قصيدته في هرم بن سنان. والطبري ١٤ / ١١ و (حبيك البيض) طرائق حديد. و (البيض) الخوذ من سلاح المحارب. و (حموا) من الحمية، وهي الانفة والغضب.

(*)

(١٣٦)

والواو دخلت في قوله " واذ زين لهم الشيطان " للعطف على خروجهم بطرا ورئاء الناس، فعطف حالهم في تزيين الشيطان اعمالهم على حالهم في خروجهم بطرا.

قوله تعالى:

إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم (٥٠) آية.

العامل في " اذ " يحتمل أن يكون شيئين: احدهما – الابتداء والتقدير ذاك " اذ يقول " والاخر بتقدير اذكر " اذ يقول المنافقون " وهم الذين يبطنون الكفر ويظهرون الايمان " والذين في قلوبهم مرض " الشاكين في الاسلام مع اظهارهم كلمة الايمان، وهم بمكة جماعة خرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا هذا القول، وهم قيس بن الوليد بن المغيرة (١) والحارث بن زمعة وعلي بن أمية والعاص بن المنبه بن الحجاج، هذا قول مجاهد، والشعبي وقال الحسن: المرض الشرك " والذين في قلوبهم مرض " المشركون. وقال ابوعلي فصلوا في الذكر لان المنافقين كانوا يضمرون عداوة النبي (صلى الله عليه وآله) والمؤمنين، وكانوا هؤلاء مرتبتين وكلهم في معنى المنافقين، لان الشك في الاسلام كفر.

وقوله " غر هؤلاء دينهم " معناه ان المسلمين اغتروا بالاسلام. والغرور: اظهار النصح مع إبطان الغش تقول: غره يغره غرورا واغتر به اغترارا ومنه الغرر، لانه عمل بما لايؤمن معه الغرور. وقوله " ومن يتوكل على الله " معناه ومن يسلم لامر الله ويثق به ويرضى بفعله، لان التوكل على الله هو التسليم لامره مع الثقة والرضا به، تقول: وكل امره إلى الله، يكل واتكل عليه يتكل اتكالا وتوكل توكلا وتواكل القوم تواكلا اذا اتكل بعضهم على بعض، ووكل توكيلا. وقوله

---

(١) في بعض النسخ (ابوقيس بن الفاكهة بن المغيرة)

(*)

(١٣٧)

" فان الله عزيز حكيم " معناه انه قادر لايغالب واضع للاشياء مواضعها قوله تعالى:

ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق (٥١) آية.

قرأ ابن عامر " اذ تتوفى " بتأءين فأدغم احدهما في الاخرى هشام عنه.

الباقون بالياء والتاء. من قرأ بالتاء أسند الفعل إلى الملائكة كقوله " اذ قالت الملائكة " (١) ومن قرأ بالياء، فلان التأنيث غير حقيقي.

هذا خطاب من الله تعالى للنبي (صلى الله عليه وآله) يقول الله تعالى له: " ولو ترى " الوقت الذي تتوفى الملائكة الذين كفروا بمعنى انهم يقبضون أرواحهم على استيفائها، لان الموت انما يكون باخراج الروح على تمامها. وجواب " لو " محذوف، وتقديره لرأيت منظرا عظيما او امرا عجيبا او عقابا شديدا، وحذف الجواب في مثل هذا أبلغ، لان الكلام يدل عليه. والمرئي ليس بمذكور في الكلام لكن فيه دلالة عليه لان تقديره: لو رأيت الملائكة يضربون من الكفار الوجوه والادبار، وحذفه ابلغ وأوجز مع أن الكلام يدل عليه. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: معنى أدبارهم استاههم لكنه كنى عنه. وقال الحسن: معناه ظهورهم. وقال ابوعلي: المعنى ستضربهم الملائكة عند الموت. قال الرماني: وهذا غلط، لانه خلاف الظاهر، وخلاف الاجماع المتقدم أنه يوم بدر. وروى الحسن: ان رجلا قال يا رسول الله إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشرك، فقال: ذاك ضرب الملائكة. وروي عن مجاهد ان رجلا قال للنبي (صلى الله عليه وآله) اني حملت على رجل من المشركين فذهبت لاضربه فبدر رأسه.

فقال: سبقك اليه الملائكة. وعن ابن عباس انه كان يوم بدر.

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٤٥
(*)

(١٣٨)

وقوله: " وذوقوا عذاب الحريق " تقديره، ويقولون يعني الملائكة للكفار يقولون لهم ذوقوا عذاب الحريق يوم القيامة وحذف لدلالة الكلام عليه. ومثله قوله " ولو ترى اذا المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا " (١) أي يقولون ربنا أبصرنا، ودل الكلام عليه. والحريق تفريق الاجسام الكبيرة العظيمة بالنار العظيمة يقال: احترق احتراقا واحرق إحراقا وتحرق تحرقا وحرقه تحريقا، وجواب " لو " محذوف، وتقديره لرأيت منظرا هائلا وإنما حذف جواب " لو " لان ذكره يخص وجها ومع الحذف يظن وجوه كثيرة فهو أبلغ.

قوله تعالى:

ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد (٥٢) آية.

قوله " ذلك " إشارة من الملائكة للكفار إلى ماتقدم ذكره من قولهم " ذوقوا عذاب الحريق " قالوا ذلك العذاب " بما قدمت ايديكم " وموضع " بما قدمت ايديكم " يحتمل وجهين من الاعراب: أحدهما – الرفع بأنه خبر ذلك. والثاني – النصب بأنه متصل بمذوف، وتقديره ذلك جزاؤكم " بما قدمت أيديكم " وإنما قيل بما قدمت ايديكم مع أن اليد لاتعمل شيئا لتبين أنه بمنزلة ما يعمل باليد في الجناية، ولذلك لم يذكر القلوب، وإن كان بها معتمد العصيان، لانه قصد إظهار ما يقع به الجنايات في غالب الامر وتعارف الناس. والتقديم ترتيب الشئ أولاء قبل غيره:

قدمه تقديما وتقدم تقدما واستقدم استقداما وتقادم عهده تقادما واقدم على الامر إقداما.

وقوله: " ان الله ليس بظلام للعبيد " العامل في " ان " يحتمل شيئين:

احدهما – أن يكون موضعه نصبا بتقدير وبأن الله او خفضا على الخلاف فيه.

والثاني – ان يكون رفعا بمعنى وذلك ان الله كما تقول ذلك هذا.

---

(١) سورة ٣٢ الم السجدة آية ١٢
(*)

(١٣٩)

وإنما نفى المبالغة في الظلم عنه تعالى دون نفي الظلم رأسا، لانه جاء على جواب من اضاف اليه فعل جميع الظلم، ولان ما ينزل بالكفار لولم يكن باستحقاق لكان ظلما عظيما، ولكان فاعله ظلاما.

قوله تعالى:

كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بـذنوبهم إن الله قـوي شـديد العقاب (٥٣) آية.

العامل في قوله: " كدأب آل فرعون " الابتداء وتقديره دأبهم كدأب آل فرعون، فموضعه رفع، لانه خبر المبتدأ، كما تقول زيد خلفك، فموضع خلفك رفع بأنه خبر المبتدأ، ولفظـه نصـب بالاستقرار، فكذلك الكاف في " كدأب ". والداب العادة والطريقة تقول ما ذلـك دأبـه ودينـه وديدنه.

والمعنى انه جوزي هؤلاء بالقتل والاسر كما جوزي آل فرعون بالغرق.

وقال الزجاج الدأب إدامة الفعل داب يدأب في كذا إذا دام عليه، ودأب يداب دابا ودؤبـا فهـو دائب يفعل كذا اي يجري فيه على عادة. وقال خداش بن زهير العامري:

وما زال ذاك الداب حتى تجادلت * هوازن وارفضت سليم وعامر (١)

وآل فرعون المراد به اتباعه فيما دعاهم اليه من ربوبيته. سموا " آل " لان مرجع امرهم اليه بسبب اكيد. والفرق بين " آل فلان " و " الاصحاب " ان الاصحاب مأخوذ من الصحبة لطلب علم او غيره. كالاصحاب في السفر، وكثر في الموافقة على المذهب، كما يقولـون اصـحاب مالك واصحاب الشافعي يراد به الموافقة في المذهب، لا يوصفون بأنهم آل الشافعي او ابـي حنيفة. والال يرجعون اليه بالسبب الاوكد الاقرب.

---

(١) روح المعاني ١٠ / ١٧، ومجاز القرآن ١ / ٢٤٨.

(*)

وقوله: " إن الله قوي " معناه قادر وقد يكون القوي بمعني الشديد، وذلك لايجوز اطلاقة علـى الله، وكذلك لايوصف بأنه شديد العقاب وإنما وصف عقابه بأنه شديد دون الله تعالى.

فمعني الاية تشبيه حال المشركين في تكذيبهم بآيات الله التى اتى بها محمد (صلى الله عليه وآلـه) بحال آل فرعون في التكذيب بآيات الله التي اتى بها موسى (عليه السلام) لان تعجيـل العقـاب لهؤلاء بالاهلاك كتعجيله لاولئك بعذاب الاستئصال.

قوله تعالى:

ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سـميع علـيم (٥٤) آية.

الاشارة بقوله: " ذلك " إلى ما تقدم ذكره من اخذ الله الكفار بالعقاب فكأنه قال ذلك العقاب المدلول عليه بأن الله لايغير النعمة إلى النقمة إلا بتغيير النفس إلى الحال القبيحة، ف " ذلك " ابتداء وخبره " بان الله " كما يقول القائل: العقاب بذنوب العباد، والكاف في " ذلك " للخطاب و " ذلك " إشارة إلى البعيد و " ذاك " إشارة إلى ما دونه، و " ذا " اشارة إلى ماهو حاضر. وقوله " لم يك " اصله يكون فحذفت الواو للجزم وإلتقاء الساكنين، ثم حذفت النون استخفافا لكثرة الاستعمال مع انه لايقع بالحذف إخلال بالمعنى، لان " كان ويكون " أم الافعال الا ترى أن كل فعل فيه معناها، لانك إذا قلت ضرب معناه كان ضرب: ويضرب معناه يكون يضرب فلما قربت بأنها ام الافعال وكثر الاستعمالها احتمل الحذف ولم يحتمل نظائرها، وذلك مثل لم يجز ولم يصن كما جاز فيما. والتغيير تصيير الشئ على خلاف ما كان بما لو شوهد لشوهد على خلاف ما كان. وانما قيل بما لو شوهد لشوهد على خلاف ما كان للتفريق بينه وبين ما يصير على خلاف ما كان بالحكم فيه بما لم يكن عليه،

(١٤١)

ألا ترى ان المعلوم بعد ان لم يكن معلوما لايتغير بهذا العلم، لانه لو شوهد لم يشاهد على خلاف ما كان، والقدرة شوهدت على خلاف ما يشاهد العجز.

وفي الاية دلالة على بطلان مذهب المجبرة، لانها تدل على انه لايكون العقاب الا بتغيير النفس إلى مالا يجوز ان يغير اليه، وهذا يبين انه لا يحسن من الله العقاب الا لمن فعل قبيحا او اخل بواجب، وذلك يبطل قول من قال: يجوز ان يعاقب الله البرئ بجرم السقيم، وجملة معنى الاية إنا اخذنا هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا من مشركي قريش ببدر بذنوبهم، وتغييرهم نعمة الله عليهم من بعث رسوله وتكذيبهم إياه واخراجهم له من بين اظهرهم، ففعلنا بهم مثل مافعلنا بالماضين من الكفار.

قوله تعالى:

كداب آل فرعون والذين من قبلهم بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين (٥٥) آية انما اعاد قوله: " كداب آل فرعون والذين من قبلهم " لاعلى وجه التكرار بلافائدة بل لوجهين: احدهما – قال ابوعلي: لانه على نوعين مختلفين من العقاب.

وقال الرماني: فيه تصريف القول في الذم بما كانوا عليه من قبح الفعل وتقدير الكلام: دأب هؤلاء الكفار مثل داب آل فرعون. ويحتمل ان يكون كناية عن هؤلاء الكفار " كذبوا بآياتنا ".

والتكذيب نسبة الخبر إلى الكذب، فالتكذيب بالحق مذموم، والتكذيب بالباطل – لانه باطل – ظاهره امره محمود، وانما وجب في التكذيب بآيات الله تعجيل العقوبة، ولم يجب ذلك في

غيره، لما في تعجيل عقوبتهم من الزجر لغيرهم، فيصلحون به مع علم الله بأنه ليس فيهم من يفلح – على مذهب من يقول: لو علم الله ان فيهم

(١٤٢)

من يؤمن، لابقاه. وانما كان التكذيب بآيات الله من اعظم الاجرام، لما يتبعه من تضييع حقوق الله فيما يلزم من طاعاته التي لاتصح الا بالتصديق بآياته التي جاءت بها رسله. اخبر الله انه كما اهلك هؤلاء الكفار بتكذيبهم النبي (صلى الله عليه وآله) كذلك اهلك من الكفار قوما آخرين بتكذيبهم بآيات الله، واغرق آل فرعون بمثل ذلك، ثم اخبر ان كل هؤلاء كانوا ظالمين لنفوسهم بارتكاب معاصي الله وبترك طاعاته.

قوله تعالى:

إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لايؤمنون (٥٦) آية الشر الرامي بالمكاره كشرر النار ومثله الضرر، وضد الشر الخير وضد الضرر النفع. والدابة ما من شأنه ان يدب على الارض لكن بالعرف لايطلق إلا على الخيل، ومن ذلك قوله " وما من دابة في الارض إلا على الله رزقها (١) " وقوله " عند الله " معناه في معلوم الله وفي حكمه. وأصل " عند " أن يكون ظرفا من ظروف المكان إلا أنه قد تصرف فيها على هذا المعنى. والفاء في قوله " فهم لايؤمنون " عطف جملة على جملة، وهو من الصلة، كأنه قال: كفروا مصممين على الكفر " فهم لا يؤمنون " وانما حسن عطف جملة من ابتداء وخبره على جملة من فعل وفاعل، لما فيها من التأدية إلى معنى الحال وذلك ان صلابتهم بالكفر ادى إلى الحال في انهم لايؤمنون.

فاخبر الله تعالى في هذه الاية ان شر خصلة يكون الانسان عليها هو الكفر لما في ذلك من تضييع نعم الله التي توجب اعظم العقاب.

والاية متناولة لمن علم الله منه انه لايؤمن، لان قوله " فهم لا يؤمنون " اخبار عن نفى ايمانهم فيما بعد.

---

(١) سورة ١١ هود آية ٦.

(*)

(١٤٣)

قوله تعالى:

ألذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لايتقون (٥٧) آية.

قال مجاهد: هذه الاية نزلت في بني قريظة، لما نقضت عهد النبي (صلى الله عليه وآله) في ألا يحاربوه ولايمالؤا عليه، فنقضوا عهده، ومالؤا عليه، وعاونوا قريشا يوم الخندق، فانتقم الله منهم. والمعاهدة المعاقدة على أمر يتقدم فيه للوثيقة به بالايمان المؤكدة على ما يعقد عليه، ونقض العهد مثل نقض الوعد لانه حق للمعاهد كما ان ذلك حق للموعود. ونقض العزم هو الرجوع عما عزم عليه. والنقض يكون بشيئين: احدهما – فيما كان من بناء وشبهه. الثاني – في عقد او امر يعزم عليه.

وقوله تعالى " ثم ينقضون " عطف المستقبل على الماضي، لان الغرض ان من شأنهم نقض العهد مرة بعد اخرى في مستقبل اوقاتهم بعد العهد اليهم. وقوله " فهم لايتقون " معناه نقضوا عهدك من غير ان يتقوا عقاب الله عاجلا وآجلا.

قوله تعالى:

فاما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون (٥٨) آية معنى " تثقفن " تصادفن وتلقين. واصله الادراك بسرعة تقول ثقف الكلمة فهو ثقف، وثقفه اذا قومه وثاقفة مثاقفة اذا تدارك كل واحد منهما امر صاحبه بسرعة ودخلت نون التأكيد لما دخلت " ما " ولو لم تدخله لما حسن دخول النون، لان دخول " ما " كدخول القسم في أنه علامة تؤذن أنه من مواضع التأكيد المطلوب من التصديق، لان النون تدخل لتأكيد المطلوب فيما يدل على المطلب، وهي في

ستة مواضع: الامر، والنهي، والاستفهام، والعرض، والقسم، والجزاء مع " ما " وقوله " فشرد بهم من خلفهم " يحتمل معنيين:

احدهما – اذا اسرتهم فنكل بهم تنكيلا يشرد غيرهم من ناقضي العهد خوفا منك، وهو قول الحسن وقتادة وسعيد بن جبير والسدي وابن زيد.

الثاني – افعل بهم من القتل ما يفرق من خلفهم، في قول الزجاج.

والتشريد التفريق على اضطراب، شرد يشرد شرودا وشرده تشريدا وتشرد تشردا. ودابة شرود. والتشريد والتطريد والتبديد والتفريق نظائر.

وقوله " لعلهم يذكرون " معناه لكي يفكروا فيتعظوا وينزجروا عن الكفر والمعاصي. وروي في الشواذ " من خلفهم " والمعنى نكل بهم انت يا محمد من ورائهم والاول اجود. وعليه القراء.

قوله تعالى:

وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لايحب الخائنين (٥٩) آية.

بني المضارع مع نون التأكيد، لان النون لما أبطلت السكون اللازم للجزم الذي هو أمكن في الفعل، كانت على إبطال غيره من الاعراب أقوى. وإنما بني على الفتح لسلامتها من البابين الكسرة والضمة في المؤنث والجمع، في قولهم لاتحسبن يا امرأة، ولا تحسبن يا قوم. وتثبت الالف مع الجازم في (أما تخافن) ولم تثبت مع الجازم في قولك (لا تخف القوم) لان الحركة في هذا عارضة، لان التقاء الساكنين من كلمتين.

أمر الله تعالى نبيه انه متى خاف – ممن بينه وبينه عهد – خيانة أن ينبذ اليه عهده على سواء. والخيانة نقض العهد فيما ائتمن عليه، تقول: خانه يخونه خيانة، واختان

المال اختيانا. وتخونه تخونا وخونه تخوينا. و (النبذ) القاء الخبر إلى من لا يعلمه بما يوجب أنه حرب بنقض عهد أو إقامة على بغي تقول: نبذ ينبذ نبذا وانتبذ انتباذا وتنابذ القوم تنابذا، ونابذه منابذة.

وقوله " على سواء " قيل في معناه قولان: احدهما – على استواء في العلم به أنت وهم في انكم حرب لئلا يتوهموا أنك العهد بنصب الحرب. والثاني – ان معناه على عدل من قول الراجز:

فاضرب وجوه الغدر الاعداء * حتى يحيوك على السواء (١)

أي على العدل. ومنه قيل للوسط سواء، لاعتداله إلى الجهات، كما قال حسان بن ثابت:

يا ويح انصار النبي ورهطه * بعد المغيب في سواء الملحد (٢)

اي في وسطه. وقال الوليد بن مسلم: معناه على مهل وهذا بعيد، لانه لايعرف في اللغة. فان قيل كيف جاز نبذ العهد ونقضه بالخوف من الخيانة؟ قيل: انما فعل ذلك لظهور امارات الخيانة التي دلت على نقض العهد ولم تشتهر ولو اشتهرت لم يجب النبذ، كما حارب رسول الله (صلى الله عليه وآله) أهل مكة، لما نقضوا العهد بقتل خزاعة، وهم في ذمة النبي (صلى الله عليه وآله) فلما فعلوا ذلك فعلا ظاهرا مشهورا أغنى ذلك عن نبذ العهد اليهم، ولو نقضوه على خفى لم يكن بد من نبذ العهد اليهم، لئلا ينسب إلى نقض العهد والغدر.

وقوله " ان الله لايحب الخائنين " معناه انه يبغضهم وانما عبر بحرف النفي، لان صفة النفي تدل على الاثبات إذا كان هناك ما يدل عليه، وهو أبلغ في هذا الموضع لان معناه: انهم حرموا محبة الله بخيانتهم واوجب ذلك بغضه اياهم. ومحبة الله للخلق ارادة منافعهم وبغضه اياهم ارادة عقابهم.

---

(١) تفسير الطبري ١٤ / ٢٧ والقرطبي ٨ / ٣٣ (٢) تفسير القرطبي ٨ / ٣٣ وقد مر في ١ / ٤٠٥ من هذا الكتاب.
(*)

(١٤٦)

والايتان معا نزلتا في بني قريظة، قال الواقدي: نزلت هذه الاية في بني قينقاع، وبهذه الاية سار النبي (صلى الله عليه وآله) اليهم.

قوله تعالى:

ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون (٦٠) آية.

قرأ ابن عامر وحمزة وحفص وأبوجعفر " ولا يحسبن " بالياء. الباقون بالتاء.

وقرأ ابن عامر " انهم " بفتح الهمزة. الباقون بكسرها.

قال أبوعلي الفارسي: من قرأ بالتاء جعل " الذين كفروا " المفعول الاول و " سبقوا " المفعول الثاني، وموضعه النصب، وهو واضح. ومن قرأ بالياء احتمل ثلاثه اشياء:

احدها - (لا يحسبن الذين كفروا) وهو قول أبي الحسن.

الثاني - أن يكون أضمر المفعول الاول وتقديره: ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقونا واياهم سبقوا الثالث - ان يقدر على حذف (أن) كانه قال: ولا يحسبن الذين كفروا ان سبقوا. قال الزجاج يقوي ذلك، ان في قراءة ابن مسعود " إنهم لايعجزون " فعلى هذا يكون ان سبقوا سد مسد المفعولين، كما ان قوله " أحسب الناس أن يتركوا ان يقولوا " (١) كذلك. ومن فتح الهمزة جعل الجملة متعلقة بالجملة الاولى والتقدير ولا تحسبنهم سبقوا، لانهم لايفوتون فهم يجازون على كفرهم. ومن كسر استأنف الكلام، قال ابوعبيدة: سبقوا معناه فاتوا، فانهم لايعجزون اي لايفوتون، ومثله " أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا " ثم استأنف، فقال: " ساءما يحكمون (٢)

---

(١) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٢.
(٢) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٤.
(*)

(١٤٧)

فكذلك ها هنا استأنف الكلام. وانما امتنع الاقتصار على احد المفعولين في (حسب) لان المفعول الثاني خبر عن الاول، والفعل متعلق بما دلت عليه الجملة فهو بخلاف (اعطيت) في هذا.

والحسبان هو الظن. وقال الرماني: هو شك يقوى فيه احدى النقيضين لقوة المعنى في حيز القولين. وأصله الحساب، لان المعنى فيه داخل فيما يحسب به ويعمل عليه. والاحتساب قبول الحساب والاعتداد به وفي المضارع لغتان، فتميم تفتح السين وأهل الحجاز يكسرونها. والسبق تقدم الشئ على طالب اللحوق به: سبق يسبق سبقا وتسابقا تسابقا، وسابقة مسابقة واستبقوا استباقا وسبقه تسبيقا إذا أعطاه السبق.

والسابق والمصلي في صفة الفرس. والاعجاز ايجاد ما يعجز عنه: أعجزه إعجازا وعجزه تعجيزا وعاجزه معاجزة واستعجز استعجازا. وقال ابوعبيدة: معنى " لا يعجزون " لا يفوتون. وقال الحسن: معنى لايعجزون الله لا يفوتونه حتى لا يثقفنهم يوم القيامة. وقال الجبائي: معناه لا يعجزونك حتى يظفرك الله بهم. وقال الزجاج:

المعنى لا يحسبن من أفلت من هذه الحرب قد سبق إلى الحياة. وقال الزجاج:

يجوز أن تكون (لا) صلة على ضعف فيه. والمعنى لايحسبن الذين كفروا انهم يعجزون. اي يفوتون.

قوله تعالى:

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شئ في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لاتظلمون (٦١) آية.

امر الله تعالى المؤمنين ان يعدوا ما قدروا عليه من السلاح وآلة الحرب والخيل وغير ذلك. والاعداد اتخاذ الشئ لغيره مما يحتاج اليه في امره ولو اتخذه له في

نفسه محبة له لم يكن اعدادا وهو مما يعد فيما يحتاج اليه من غيره والاستطاعة معنى تنطاع بها الجوارح للفعل مع انتفاء المنع، تقول: استطاع استطاعة، وطاوع مطاوعة واطاع طاعة، وتطوع تطوعا، وانطاع انطياعا. وقوله تعالى " من قوة " اي مما تقوون به على عدوه. وقيل: معناه من الرمي، ذكره الفراء. ورواه عن النبي (صلى الله عليه وآله) عقبة بن عامر، على ما ذكره الطبري. وقال عكرمة: اراد به الحصون.

وقوله تعالى: " ومن رباط الخيل " فالرباط شد ايسر من العقد. ربطه يربطه ربطا ورباطا وارتبطه ارتباطا ورابطه مرابطة.

وقوله " ترهبون به عدو الله وعدوكم " فالهاء في (به) راجعة إلى الرباط وذكره لانه على لفظ الواحد وان كان في معنى الجمع، لانه كالجراب والقراب والذراع. والارهاب ازعاج النفس

بالخوف تقول: ارهبه ارهابا ورهبه ترهيبا ورهب رهبة وترهب ترهبا واسترهبه استرهابا، وقال طفيل:

ويل ام حي دفعتم في نحورهم * بني كلاب غداة الرعب والرهب (١)

والعدو المراصد بالمكاره لتعديتها إلى صاحبها والعدو ضد الولي.

وقوله " وآخرين من دونهم " لاتعلمونهم تقديره وترهبون آخرين، فهو نصب ب (ترهبون) يجوز ان يكون نصبا بقوله: (وأعدوا لهم) وللاخرين من دونهم. وقيل في المعنيين بذلك خمسة اقوال: احدها – قال مجاهد: هم بنو قريظة وقال السدي. هم اهل فارس. وقال الحسن وابن زيد: هم المنافقون. الرابع – الجن، وهو اختيار الطبري، قال: لان الاعداد للاعداء دخل فيه جميع المتظاهرين بالعداوة فلم يبق إلا من لايشاهد. الخامس – قال الجبائي: كل من لا تعرفون عداوته داخل فيه. ومعنى " لاتعلمونهم " لاتعرفونهم فلذلك لم يكن معه المفعول الثاني.

وقوله: " الله يعلمهم " معناه يعرفهم كما قال الشاعر:

---

(١) ديوانه: ٦٥ ومجاز القرآن ١ / ٢٤٩.

(*)

فان الله يعلمني ووهبا * وإنا سوف نلقاه كلانا (١)

وقوله تعالى: " وما تنفقوا من شئ في سبيل الله يوف اليكم وانتم لاتظلمون " يعني ما من شئ تنفقونه في الجهاد إلا والله يوفيكم ثوابه على ذلك بأتم الجزاء ولا تبخسون، فمعنى الاية الامر باعداد السلاح والكراع لاخافة اعداء الله بما يملا صدورهم من الاستعداد لقتالهم مع تضمن اخلاف ما انفق في سبيل الله بأحوج ما يكون صاحبه اليه بما تربح فيه تجارته.

قوله تعالى:

وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم (٦٢) آية.

قرأ ابوبكر عن عاصم " السلم " بكسر السين. الباقون بفتحها وفي ذلك ثلاث لغات:

الفتح والكسر مع سكون اللام، وفتح السين واللام معا ومعناها المسالمة ولذلك أنث قال رجل من اليمن جاهلي:

أنا بل انني سلم * لاهلك فاقبلي سلمى (٢)

قال ابوالحسن: السلم فيها الكسر والفتح لغتان. وقال غيره: السلم بفتح السين واللام على ثلاثة أوجه. تقول: أخذت الاسير سلما اي على الاستسلام. والسلم السلف على السلامة. والسلم شجر واحده سلمة، تقول له بالسلامة.

وقوله: " وان جنحوا للسلم " معناه ان مالوا إلى المسالمة، تقول: جنح يجنح جنوحا وجنحت السفينة إذا مالت إلى الوقوف، ومنه جناح الطائر لانه يميل به في

---

(١) قائله النمر بن ثولب العلكي. الاقتضاب: ٣٠٣، والمفصل للزمخشري: ٨٨ وتفسير الطبري ١٤ / ٣٩.

(٢) مجاز القرآن ١ / ٢٥٠ والتاج واللسان (سلم).

(*)

احد شقيه. ولا جناح عليه في كذا اي لاميل إلى مأثم، قال ابوزيد: جنح يجنح جنوحا إذا اعطى بيده او عدل إلى ما يحب القوم، وجنح العدو والخيل، وجنحت الابل إذا اخفضت في السير. وليس في الاية ما يدل على ان الكفار إذا ما لو إلى الهدنة وجب اجابتهم اليها على كل حال، لان الاحوال تختلف في ذلك، فتارة تقتضي الاجابة، وتارة لاتقتضي، وذلك إذا وترروا المسلمين بأمر يقتضي الغلظة مع حصول العدة والقوة.

فان قيل: اذا جازت الهدنة مع الكفار فهلا جاز المكافة في أمر الامامة حتى يجوز تسليمها إلى من لا يستحقها؟ قلنا: تسليم الامامة إلى من لا يستحقها فساد في الدين كفساد تسليم النبوة إلى مثله. وقوله " وتوكل على الله " اي فوض امرك اليه تعالى وثق بأنه لايدبره الا على ما تقتضيه الحكمة.

واختلفوا هل في الاية نسخ؟ فقال الحسن وقتادة وابن زيد: نسخها قوله:

" اقتلوا المشركين " (١) وقال قوم: ليست منسوخة، لانها في الموادعة لاهل الكتاب والاخرى في عباد الاوثان، والصحيح أنها ليست منسوخة، لان قوله: " اقتلوا المشركين " نزلت في سنة تسع وبعث بها رسول الله إلى مكة ثم صالح اهل نجران بعد ذلك على الفي حلة: ألف في صفر وألف في رجب. وقوله " إنه هو السميع العليم " معناه انه يسمع دعاء من يدعوه عليم بما تقتضي المصلحة من اجابته وحسن تدبيره قوله تعالى:

وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هوالذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الارض

---

(١) سورة ٩ التوبة آية ٦.

(*)

(١٥١)

جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم (٦٣) آيتان في الكوفي والمدني، وآية في البصري.

هذا خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) يقول له: " ان يريدوا " يعني الكفار. وقيل هم بنو قريظة، ومعناه ان قصدوا بالصلح خديعتك. والخديعة اظهار المحبوب في الامر للاستجابة له مع ابطان خلافه: خدع خدعا وخديعة واختدعه اختداعا وتخادع له تخادعا. وانخدع انخداعا. وقوله " فان حسبك الله " معناه، فان الله كافيك يقال: اعطاني ما احسبني اي كفاني. واصله الحساب، وانما اعطاه بحساب ما يكفيه. وقوله " هو الذي ايدك بنصره " وبالمؤمنين " فالتأييد التكمين من الفعل على اتم ما يصح فيه، تقول: ايده تأييدا وتأيد تأيدا. والايد القوة. والمعنى ان الله قواه بالنصر من عنده، بالمؤمنين الذين ينصرونه على اعدائه. وقوله " وألف بين قلوبهم " والتأليف الجمع على تشاكل، فلما جمعت قلوبهم على تشاكل فيما تحبه وتنازع اليه كانت قد الفت، ولذلك قيل: هذه الكلمة تأتلف مع هذه، ولا تأتلف. والمراد بالمؤمنين الانصار وبتأليف قلوبهم ما كان بين الاوس والخزرج من العداوة والقتال، هذا قول ابي جعفر (عليه السلام) والسدي وبشر بن ثابت الانصاري وابن اسحاق. وقال مجاهد: هو في كل متحابين في الله. وانما كان الجمع على المحبة تأليفا بين القلوب، لانه مأخوذ من الالفة وهي الاجتماع على الموافقة في المحبة، ولا يجوز في الجمع على البغضاء ان يمسى بذلك. وقوله " لو انفقت ما في الارض جميعا " فالانفاق اخراج الشئ عن الملك. والمعنى " لو انفقت ما في الارض جميعا " لتجمعهم على الالفة ماتم لك ذاك، ولكن الله الف بينهم بلطف من الطافه وحسن تدبيره، وبالاسلام الذي هداهم الله اليه. ونصب " جميعا " على الحال.

وقوله " انه عزيز حكيم " معناه قادر لا يمتنع عليه شئ يريد فعله " حكيم عليم " لايفعل الا ما تقتضيه الحكمة فعلى ذلك جمع قلوبهم على الالفة.

(١٥٢)

قوله تعالى:

يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين (٦٤) آية.

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله) يقول له: يكفيك ان يكون ناصرك على اعدائك الله تعالى، والذين اتبعوك من المؤمنين من المهاجرين والانصار، وانما كرر قوله " حسبك " مع انه قد ذكر فيما قبل، لان المعنى هناك إن أرادوا اخداعك كفاك الله امرهم.

وهاهنا معناه عام في كل ما يحتاج فيه إلى كفاية الله اياه. وقوله " ومن اتبعك " يحتمل اعرابه وجهين:

احدهما – ان يكون نصبا. والمعنى ويكفي من اتبعك على التأويل، لان الكاف في موضع خفض بالاضافة لكنه مفعول به في المعنى، فعطف على المعنى، وليس ذلك بكثير. واجاز الفراء الرفع لقوله " إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين " ومثله قوله " انا منجوك واهلك " (١) وقال الشاعر:

اذا كانت الهيجاء وانشقت العصا * فحسبك والضحاك سيف مهند (٢)

وهو معنى قول الشعبي وابن زيد. وقال الحسن: هو عطف على اسم الله، فيكون رفعا. والكسائي، والفراء، والزجاج أجازوا الوجهين وحمل عليهما معا ابوعلي الجبائي. والاتباع موافقة الداعي فيما يدعوا اليه من اجل دعائه.

والمؤمنون يوافقون النبي (صلى الله عليه وآله) في كل ما دعا اليه. وقال الواقدي: نزلت هذه الاية في بني قريظة وبني النضير لما قالوا له: نحن نسلم ونتبعك.

قوله تعالى:

يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم

---

(١) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٣٣.

(٢) القرطبي ٨ / ٤٢ ومعاني القرآن ١ / ٤١٧ وتفسير القاسمي ٨ / ٣٠٣

(*)

عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون (٦٥) آية.

وهذا ايضا خطاب للنبى (صلى الله عليه وآله) يأمره الله بأن يحرض المؤمنين على قتال المشركين.

والتحريض والحث نظائر، وهو الدعاء الاكيد بتحريك النفس على أمر من الامور. وضده التفتير. والمعنى حثهم على القتال. والتحريض الحث على الشئ الذي يعلم معه انه حارض إن خالف وتأخر. والحارض هو الذي قارب الهلاك. ومنه قوله:

" حتى تكون حرضا " اي حتى تذوب غما على ذلك وتقارب الهلاك " او تكون من الهلالكين " (١) وحارض فلان على أمره إذا واظب عليه. والتحريض ترغيب في الفعل بما يبعث على المبادرة اليه مع الصبر عليه. والقتال محاولة الصد والمنع بما فيه تعرض للقتل. والمجاهدة

ان يقصد إلى قتل المشركين بقتاله، ومن يدفع عن نفسه فليس كذلك. والصبر هو حبس النفس عما تنازع اليه من صد ما ينبغي أن يكون عليه وضده الجزع، وقال الشاعر:

فان تصبروا فالصبر خير مغبة * وان تجزعا فالامر ما تريان (٢)

والغلبة الظفر بالبغية في المحاربة قتلا او اسرا او هزيمة. وقد يقال في الظفر بالبغية في المنازعة بالغلبة. ومعنى " لايفقهون " هاهنا انهم على جهالة، خلاف من يقاتل على بصيرة، وهو يرجوبه ثواب الاخرة. وقال قوم: معناه لايعلمون ما لهم من استحقاق الثواب بالقتال. وقوله " ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين " وان كان بلفظ الخبر، فالمراد به الامر، ويدل على ذلك قوله " الان خفف الله عنكم " لان التخفيف لايكون الا بعد المشقة.

---

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٨٥ (٢) مجمع البيان ٢ / ٥٥٦

(*)

(١٥٤)

قوله تعالى:

ألان خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين (٦٦) آية.

قرأ اهل الكوفة " إن يكن.. مئة. وان يكن.. الف " بالياء فيهما وافقهم اهل البصرة في الاولى. وقرأ اهل الكوفة الا الكسائي " ضعفا " بفتح الضاد الباقون بضمها، ولكنهم سكنوا العين الا ابا جعفر، فانه فتحها ومد وهمز على وزن " فعلاء " على الجمع. ومن قرأ " ان يكن " بالياء فلان المراد به المذكر بدلالة قوله " يغلبوا " وكذلك ماوصف به المئة بقوله " صابرة " لانهم رجال: حملا على المعنى كما حمل على المعنى في قوله " فله عشر أمثالها " (١) فأنث لما كانت في المعنى حسنات. ومن قرأ بالتاء فلان اللفظ التأنيث. ومن قرأ الاول بالتاء والثاني بالياء فلان القراءة بالتاء في الاولى أشد مشاكلة لقوله " مئة صابرة " وليس كذلك في الاخرى، لانه اخبر عنهم بقوله " يغلبوا ". وقال سيبويه يقال: ضعف ضعفا فهو ضعيف. قال وقالوا الفقر كما قالوا الضعف، فعل ذلك انهما لغتان.

هذه الاية نسخت حكم ما تقدمها، لان في الاولى كان وجوب ثبات الواحد للعشرة والعشرة للمئة، فلما علم الله تعالى ان ذلك يشق عليهم وتغيرت المصلحة في ذلك نقلهم إلى ثبات الواحد للاثنين والمئة للمئتين، فخفف ذلك عنهم، وهو قول ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد والسدي وعطا والبلخي والجبائي والرماني، وجميع المفسرين. والتخفيف رفع المشقة

بالخفة. والخفة نقيض الثقل والخفة والسهولة بمعنى واحد. والضعف نقصان القوة، وهو من الضعف لانه ذهاب بعض القوة

---

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٦٠ (*)

وقوله " باذن الله " فالاذن الاطلاق في الفعل، لانه يسمع بالاذن، ومنه الاذان والايذان والاستئذان، وقوله " الان " مبني مع الالف واللام لانه خرج عن التمكن بشبه الحرف، لانه ينكر تارة ويعرف أخرى، فاستبهم استبهام الحروف بأنه للفصل بين الزمانين على انتقال معناه إلى الذي يليه من الوقت كما ينتقل امس، فالامس والغد والان نظائر واحكامها مختلفة لعلل لزمتها.

وقوله تعالى " والله مع الصابرين " معناه انه معهم بالمعونة لهم. والمعنى ان معونة الله مع الصابرين وحقيقة " مع " ان تكون للمصاحبة للجهة بالمعونة وذلك لايجوز عليه تعالى. وقيل هذه الاية نزلت بعد الاولى بمدة.

قوله تعالى:

ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الاخرة والله عزيز حكيم (٦٧) آية.

قرأ اهل البصرة وابن شاهي " ان تكون " بالتاء. الباقون بالياء. وقرأ ابو جعفر " أسارى " ومن الاسارى – بفتح الهمزة منهما وبألف بعد السين – وافقه ابو عمرو في الثاني. الباقون بفتح الهمزة وسكون السين من غير الف فيهما.

من قرأ بالتاء فلان لفظ الاسرى لفظ التأنيث، فحمله على اللفظ.

ومن قرأ بالياء فلان الفعل متقدم والاسرى المراد به المذكورون.

وايضا فقد وقع الفصل بين الفعل والفاعل وكل واحد من ذلك إذا انفرد يذكر الفعل معه، مثل جاء الرجل وحضر القاضي امرأة، فاذا اجتمعت هذه الاشياء كان التذكير اولى. واختار الاخفش التذكير. وقال ابوعلي الفارسي: الاسرى اقيس من الاسارى لان اسير فعيل بمعنى مفعول، وما كان كذلك لا يجمع بالواو

والنون، ولا بالالف والتاء. وإنما يجمع على فعلى مثل جريح وجرحى وقتيل وقتلى وعفير وعفرى، ولديغ ولدغى، وكذلك لك من اصيب في بدنه مثل مريض ومرضى واحمق وحمقى وسكران وسكرى. ومن قرأ اسارى شبهه بكسالى وقالوا كسلى شبهوه باسرى. واسارى في

جمع اسير ليس على بابه، وقال ابوالحسن: الاسرى مالم يكن موثقا والاسارى موثوقون. قال: والعرب لاتعرف ذلك بل هما عندهم سواء. وقال الازهري: الاسارى جمع اسرى فهو جمع الجمع، والاسر الشد على المحارب بما يصير به في قبضة الاخذ له. واصله الشد، يقال: قتب مأسور اي مشدود وكانوا يشدون الاسير بالفداء.

والمعنى: ما كان لنبي ان يحبس كافرا للفداء والمن حتى يثخن في الارض، والاثخان في الارض تغليظ الحال بكثرة القتل. وقال مجاهد: الاثخان القتل.

والثخن والغلظ والكثافة نظائر. وقوله " يريدون عرض الدنيا " يعني تريدون الفداء والعرض متاع الدنيا وسماه عرضا لقلة لبثه لانه بمعنى العرض في اللغة.

وقوله " والله يريد الاخرة " معناه والله يريد عمل الاخرة من الطاعات التي تؤدي إلى الثواب وإرادة الله لنا خير من إرادتنا لانفسنا.

وقوله " والله عزيز حكيم " معناه يريد عمل الاخرة، فانه يعزكم ويرشدكم إلى اصلاحكم، لانه عزيز حكيم، فلاتخافوا قهرا مع إعزازه اياكم.

وهذه الاية نزلت في اسارى بدر قبل ان يكثر الاسلام، فلما كثر المسلمون قال الله تعالى " فاما منا بعد وإما فداء " (١) وهو قول ابن عباس وقتادة. وقال فادوهم بأربعة الاف، وفي الاية دليل على بطلان مذهب المجبرة لانه تعالى فصل إرادة نفسه من إرادتهم، ولو كان يريد ما ارادوه لم يصح هذا الفعل من التفصيل فان قيل: كيف يكون القتل فيهم كان اصلح وقد اسلم منهم جماعة، ومن علم الله من حاله انه يؤمن يجب تبقيته؟ ! قلنا: في ذلك خلاف، فمن قال:

---

(١) سورة ٤٧ محمد آية ٤

(*)

لايجب ذلك لا يلزمه السؤال. ومن قال: ذلك اوجب قال: ان الله اراد ان يأمرهم بأخذ الفداء وإنما عاتبهم على ذلك لانهم بادروا اليه قبل ان يؤمروا به.

قوله تعالى:

لو لا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم (٦٨) آية.

قيل في معنى قوله " لو لا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم " قولان:

قال الحسن لو لا ما كتبه الله في اللوح المحفوظ من انه لا يعذبهم على ذلك.

وقال غيره: لو لا ما كتب الله فيه انه يغفر لاهل بدر ماتقدم وما تأخر.

الثاني – قال مجاهد: يعني ماذكره من قوله " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا " (١) فكأنه قال: لا اعذب إلا بعد المظاهرة في البيان وتكرير الحجة به.

وقال قوم " لو لا ماكتبه الله " من ان الفدية ستحل لهم فيما بعد، ذهب اليه سعيد ابن جبير. ومعنى الاية " لو لا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم " من فداء الاسرى والغنيمة عذاب عظيم، لانهم اخذوه قبل ان يؤذن لهم. وقد كان سبق ان الله سيحله لهم في قول ابن عباس والحسن، وقال الجبائي: والمعنى " لو لا كتاب من الله سبق " وهو القرآن الذي آمنتم به واستحقيتم لذلك غفران الصغائر لمسكم فيما اخذتم به من الفداء عذاب عظيم. ولايجوز ان يكون المراد به الا الصغائر لانهم قبل الغفران لم يكونوا فساقا اجماعا. قال الجبائي: وقد كان من النبي (صلى الله عليه وآله) في هذا معصية اجماعا من غير تعيين ما هي، واظن انها في ترك قتل الاسرى وهذا الذي ذكره غير صحيح، لانه لا إجماع في ذلك بل عندنا لايجوز على النبي (صلى الله عليه وآله) فعل شئ من القبائح صغيرا كان او كبيرا لما في ذلك من التنفير عنه على ما بيناه

---

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ١٥

(*)

في غير موضع. واكثر المفسرين على ان النبي (صلى الله عليه وآله) لم يقع منه خلاف لامر الله وقد روي ان النبي (صلى الله عليه وآله) كره اخذ الفداء حتى راى سعد بن معاذ كراهية ذلك في وجهه، فقال يا رسول الله هذا اول حرب لقينا فيه المشركين اردت ان يثخن فيهم القتل حتى لايعود احد بعد هذا إلى خلافك وقتالك، فقال رسول الله: قد كرهت ما كرهت، ولكن رايت ما صنع القوم، فالمعصية في ذلك كانت من قوم من الصحابة الذين مالوا إلى الدنيا واخذ الفداء. وقد قال البلخي ايضا إن اجلاء الصحابة براء من ذلك. وروي عن النبي صلى الله عليه اله انه قال إن الغنائم احلت لي ولم تحل لنبي قبلي.

ومعنى " لو لا " امتناع الثاني لوقوع الاول كقولك: لو لا زيد بالمكان الذي هو به لاتيتك، فامتنع الاتيان لمكان زيد. والسبق يكون تقدما في الزمان والمكان والرتبة بأن يكون له وإن لم يكن فيها. والمس مماسة يقع معها إدراك، وهو كاللمس في الحقيقة. والعظيم ما يصغر فيه قدر غيره، ويكون ذلك بعظم الجثة تارة وبعظم الشأن أخرى. والعظيم هو المستحق للصفة بأن قدر غيره صغير عنده.

وقال أبوجعفر (عليه السلام) كان الفداء يوم بدر كل رجل من المشركين بأربعين أوقية من فضة والاوقية أبعون مثقالا إلا العباس فان فداءه كان مئة اوقية وكان أخذ منه حين أسر اثنين وعشرين اوقية ذهبا، فقال النبي (صلى الله عليه وآله) ذاك غنيمة ففاد نفسك وابني اخيك عقيل ونوفل بن الحارث، فقال: ليس معي، فقال: اين الذهب الذي سلمته إلى ام الفضل وقلت: ان حدث بي حدث، فهو لك وللفضل وعبدالله وميثم، فقال من اخبرك بهذا؟ قال: الله، قال: اشهد انك رسول الله، والله ما اطلع على هذا احد إلا الله تعالى.

قوله تعالى:

فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور

رحيم (٦٩) آية.

أباح الله تعالى للمؤمنين بهذه الاية أن يأكلوا مما غنموه من اموال المشركين بالقهر من دار الحرب. ولفظه وإن كان لفظ الامر. فالمراد به الاباحة ورفع الحظر.

والغنيمة ما أخذ من دار الحرب بالقهر. والفئ ما رجع إلى المسلمين، وانتقل اليهم من المشركين. والاكل تناول الطعام بالفم مع المضغ والبلع، فمتى فعل الصائم هذا فقد أكل في الحقيقة. والفرق بين الحلال والمباح ان الحلال من حل العقد في التحريم والمباح من التوسعة في الفعل وان اجتمعا في الحل والطيب المستلذ، وشبه الحلال به فسمي طيبا. واللذة نيل المشتهى. قال الزجاج: الفاء في قوله " فكلوا " على تقدير قد أحللت لكم الفداء فكلوه.

وقوله " واتقوا الله " معناه اتقوا معاصيه فان الله غفور رحيم لمن اطاعه وترك معاصيه.

قوله تعالى:

يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الاسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم (٧٠) آية قرأ ابوعمرو وحده من السبعة وابوجعفر " الاسارى " الباقون " الاسرى " وابوعمرو جمع المذهبين في الاول والثاني. وحمله الباقون على النظير في المعنى.

وقد فسرنا فيما مضي الاسير من اخذ من دار الحرب من أهلها، ولو اخذ مسلم لكان قد فك اسره. خاطب الله بهذه الاية نبيه (صلى الله عليه وآله) وامره ان يقول لمن حصل في يده من الاسرى يعني من حصل في وثاقه وسماه في يده لانه بمنزلة ما

قبض على يده بالاستيلاء عليه ولذلك يقال في الملك المتنازع فيه لمن اليد؟ وقوله " ان يعلم الله في قلوبكم خيرا " يعني اسلاما. وقيل معناه إن يعلم منكم خيرا في المستقبل بأن يفعلوه فيعلمه الله موجودا، لان ما لم يفعل لا يعلمه موجودا والخير النفع العظيم، وهو هاهنا البصيرة في دين الله وحسن النية في امر الله. وقوله " يؤتكم خيرا " يعني يعطيكم خيرا " مما اخذ منكم " من الفداء. وقال الحسن اطلقهم بالفداء، ولو لم يسلمو لم يتركهم.

وقوله " ويغفر لكم " يعني زيادة مما يؤتيهم يغفر لهم معاصيهم ويسترها عليهم لانه غفور رحيم. وروي عن العباس انه قال: كان معي عشرون اوقية فأخذت مني فاعطاني مكانها عشرين عبدا ووعدني بالمغفرة. وقال العباس في نزلت وفي اصحابي هذه الاية، وهو قول ابن عباس والضحاك وقتادة وغيرهم:

قوله تعالى:

وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم (٧١) آية.

معنى الاية ان هؤلاء الاسارى ان علم الله في قلوبهم خيرا اخلف عليهم خيرا مما اخذ منهم. وان عزموا على الخيانة، ونقض العهد وفعلوا خلاف ما وقع عليه العقد من تأدية فرض الله، فقد خانوا الله من قبل هذا. والمعنى فقد خانوا أولياء الله، لان الله لايمكن ان يخان، لانه عالم بالاشياء كلها لايخفى عليه خافية.

والخيانة هاهنا نقض الطاعة لله ورسوله التى شهدت بها الدلالة. وقوله " فامكن منهم " المعنى لما خانوا بأن خرجوا إلى بدر وقاتلوا مع المشركين، فقد امكن الله منهم بان غلبوا واسروا. فان خانوا ثانيا فيمكن الله منهم مثل ذلك. والامكان هو القدرة على الشئ مع ارتفاع المانع، وما لو حرص عليه صاحبه اتم الحرص لم

يصح ان يقع منه لايكون امكانا، فالامكان ينافي المنع والالجاء كما ينافي العجز القدرة.

وقوله " والله عليم حكيم " معناه عالم بما تقولونه وما في نفوسكم وبجميع الاشياء " حكيم " فيما يفعله. والحكيم هو العالم بوجوه الحكمة في الفعل مما يصرف عن خلافها والاصل في الحكمة المنع فهي تمنع الفعل من الخلل والفساد.

قوله تعالى:

إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله الذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شئ حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير (٧٢) آية.

قرأ حمزة " ولايتهم " بكسر الواو. الباقون بفتحها. قال الزجاج: إنما جاز الكسر لانه يشبه الصناعة كالخياطة والقصارة والحياكة، وقال الشاعر في الفتح:

دعيهم فهم ألب علي ولاية * وحفرهم ان يعلموا ذاك دائب (١)

قال ابوعبيدة: بفتح الواو مصدر المولى تقول: مولى بين الولاية وإذا كسرت فهو من وليت الشئ. قال ابوالحسن: يفتح الواو من الولاية إلا الولاية في السلطان بكسر الواو، وكسر الواو في الاخرى لغة. وقرأ الاعمش بكسر الواو من الولاية في الدين هنا. قال ابوعلي الفارسي: الولاية هاهنا في الدين والفتح أجود. قال ابوالحسن. وهي قراءة الناس. وعن الاعمش أنه كسر الواو، وهي لغة. وليست

---

(١) معاني القرآن ١ / ٤١٩

(*)

بذلك. قال المبرد عن الاصمعي: ان الاعمش لحن في كسره لذلك. قال ابوعلي:

إذا كان ذلك لغة لايكون لحنا. قال الفراء: والكسر أحب الي، لانها ولاية المواريث. وقال الازهري: في النصرة والنسب بفتح الواو. وفي الامارة بكسرها.

اخبر الله تعالى في هذه الاية عن احوال المؤمنين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة بقوله " إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله " وعن احوال الانصار بقوله " والذين آووا ونصروا " يعني النبي (صلى الله عليه وآله). ثم قال " اولئك " يعني المهاجرين والانصار " بعضهم اولياء بعض " والهجرة فراق الوطن إلى غيره من البلاد فرارا من المفتنين في الدين، لانهم هجروا دار الكفار إلى دار الاسلام. والجهاد تحمل المشاق في قتال اعداء الدين جاهد جهادا وجهده الامر جهدا واجتهد اجتهادا، وجاهد مجاهدة. والايواء ضم الانسان صاحبه اليه بانزاله عنده وتقريبه له، تقول: آواه يؤويه ايواء واوى يأوي اويا، وأويت معناه رجعت إلى المأوى. والولاية عقد النصرة للموافقة في الديانة.

ثم اخبر الله تعالى عن الذين آمنوا ولم يهاجروا من مكة إلى المدينة فقال " والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شئ " وقيل في معناه قولان:

احدهما - ولاية القرابة نفاها عنهم لانهم كانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الرحم - في قول ابن عباس والحسن وقتادة والسدي - وعن ابي جعفر (عليه السلام) انهم كانوا يتوارثون بالمؤاخاة الاولى.

الثاني – انه نفي الولاية التي يكونون بها يدا واحدة في الحل والعقد، فنفى عن هؤلاء ما اثبته للاولين حتى يهاجروا. ثم قال " وإن استنصروكم " اي طلبوا نصركم " في الدين " يعني الذين آمنوا ولم يهاجروا " فعليكم النصر " اي نصرهم بسبب الايمان الذي يجب علكيم ان تنصروهم على الكفار " إلا على قوم بينكم " وبينهم ميثاق، يعني موادعة ومهادنة تقتضيه من جهة ان عقدهم بخلاف عقدهم.

(١٦٣)

وقيل انه نسخ ذلك بقوله " والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض " (١).

وقوله " والله بما تعملون بصير " يعني عالم بما يعملونه.

قوله تعالى:

والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير (٧٣) آية.

اخبر الله تعالى عن الكافرين أن بعضهم اولياء بعض بمعنى النصرة، لانه ينصر بعضهم بعضا. وقوله " الا تفعلوه " الهاء عائدة إلى معنى ما أمروا به في الاية الاولى والثانية، ومخرجه مخرج الخبر والمراد به الامر، وتقديره الا تفعلوا ما امرتم به من التناصر والتعاون والبراءة من الكفار " تكن فتنة في الارض وفساد كبير " على المؤمنين الذين لم يهاجروا. فالفتنة هاهنا المحنة بالميل إلى الضلال لانه إذا لم يتوال المؤمن المؤمن على ظاهر حاله من الايمان والفضل، ولم يدعه إلى التبري من الضلال ادى ذلك إلى الضلال. والفساد ضد الصلاح وهو الانقلاب إلى الضرر القبيح. والصلاح جريان الشئ على استقامة. والولي هو المختص بالعقد على النصرة في وقت الحاجة، وقد يعقد بالعزم، وقد يعقد بالحكم. وقيل في معنى قوله " والذين كفروا بعضهم اولياء بعض " قولان: احدهما – في الميراث، في قول ابن عباس، وابي مالك. والثاني – قال قتادة وابن اسحق في النصرة.

قوله تعالى والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق

---

(١) سورة ٩ التوبة آية ٧٢

(*)

(١٦٤)

كريم (٧٤) آية.

اخبر الله تعالى في هذه الاية ان الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله وهاجروا من ديارهم وأوطانهم، يعني من مكة إلى المدينة، وجاهدوا مع ذلك في سبيل الله وقتال اعدائه. والذين

آووا من الانصار ومعناه ضموهم اليهم ونصروا النبي (صلى الله عليه وآله) بأنهم المؤمنون حقا، وقيل في معناه قولان: احدهما انهم المؤمنون الذين حققوا ايمانهم لما يقتضيه من الهجرة والنصرة بخلاف من اقام بدار الشرك. الثاني – قال ابو علي الجبائي: معناه انهم المؤمنون حقا، لان الله حقق ايمانهم بالبشارة التي بشرهم بها، ولو لم يهاجروا ولم ينصروا لم يكن مثل هذا.

واختلفوا في هل تصح الهجرة في هذا الزمان أو لا؟ فقال قوم: لا تصح لان النبي (صلى الله عليه وآله) قال: لاهجرة بعد الفتح ولان الهجرة انتقال من دار الكفر إلى دار الاسلام على هجر الاوطان، وليس يقع مثل هذا في هذا الزمان لاتساع بلاد الاسلام إلا أن يكون نادرا لايعتد به.

وقال الحسن: بقيت هجرة الاعراب إلى الامصار إلى يوم القيامة.

والاقوى أن يكون حكم الهجرة باقيا، لان من أسلم في دار الحرب ثم هاجر إلى دار الاسلام كان مهاجرا، وسمي الجهاد في سبيل الله لانه طريق إلى ثواب الله في دار كرامته.

وقوله " لهم مغفرة ورزق كريم " اخبار منه تعالى أن لهؤلاء المغفرة لذنوبهم والرزق الكريم يعني العظيم الواسع والكريم الذي يصح منه الكرم من غير مانع.

والكرم الجود العظيم والشرف قال الشاعر:

تلك المكارم لاقعبان من لبن * شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

وقيل: الرزق الكريم هنا طعام الجنة لانه لا يستحيل إلى أجوافهم نجوا بل يصير كالمسك ريحا.

(١٦٥)

قوله تعالى:

والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فاولئك منكم وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شئ عليم (٧٥) آية.

اخبر الله تعالى بأن الذين هاجروا بعد هجرة من هاجر، وقيل أراد بعد الفتح وجاهدوا مع المؤمنين بأن قال " فأولئك منكم " ومعناه حكمهم حكمكم في وجوب موالاتهم ومواريثهم ونصرتهم. وقوله " وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله " قيل في معنى " كتاب الله " قولان:

احدهما – في كتاب الله من اللوح المحفوظ، كما قال " ما أصاب من مصيبة في الارض، ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها " (١).

والثاني – قال الزجاج: يعني في حكم الله.

ومعنى " أولوا " ذووا، واحده ذو، ولا واحد له من لفظه.

وفي الاية دلالة على ان من كان قرباه أقرب إلى الميت كان أولى بالميراث سواء كان عصبة اولم يكن او له تسمية او لم يكن لان مع كونه اقرب تبطل التسمية. ومن وافقنا في توريث ذوي الارحام يستثني العصبة، وذوي السهام.

وهذه الاية نسخت حكم التوارث بالنصرة والهجرة فانهم كانوا لايورثون الاعراب من المهاجرين على ما ذكره في الايات الاول. ومن قال: الولاية في الاية الاولى ولاية النصرة دون الميراث يقول: ليست هذه ناسخة لها بل هما محكمتان.

ودخلت الفاء في قوله: " فاولئك " كما تقول الذي يأتيني فله درهم، لان فيه معنى المجازات وقال مجاهد: في هذه الايات الثلاث ذكر ما ولاية رسول الله بين

---

(١) سورة ٥٧ الحديد آية ٢٢

(*)

(١٦٦)

المهاجرين والانصار في الميراث، ثم نسخ ذلك بآخرها من قوله " وأولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله " وقال عبدالله بن الزبير نزلت في العصبات كان الرجل يعاقد الرجل يقول ترثني وارثك فنزلت " وأولو الارحام " إلى آخرها.

وقال الحسن: والذين آمنوا من بعد يعني بعد فتح مكة. وقوله " منكم " معناه مؤمنون مثلكم، ولاهجرة بعد فتح مكة، وقال: الهجرة إلى الامصار قائمة إلى يوم القيامة. وكان الحسن يمنع ان يتزوج المهاجر إلى اعرابية. وروي عن عمر انه قال: لاتنكحوا أهل مكة، فانهم اعراب.

وأكثر هذه السورة في قصة بدر. وكانت في صبيحة السابع عشر من شهر رمضان على رأس ثمانية عشر شهرا من الهجرة، من شهد هذه الواقعة فله الفضل.

(١٦٧)

٩ – سورة براءة وتسمى سورة التوبة مدنية وهي مئة وتسع وعشرون آية في الكوفي وثلاثون في البصري والمدنيين قال مجاهد وقتادة وعثمان: هي آخر ما نزلت على النبي (صلى الله عليه وآله) بالمدينة وروي عن حذيفة انه قال: كيف يسمونها سورة التوبة وهي سورة العذاب؟ ! وروي عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس سورة التوبة قال: تلك الفاضحة ما زالت تنزل وفيهم حتى خشينا الاتدع احدا. قال وسورة الانفال نزلت في بدر، وسورة الحشر في بني النضير.

قوله تعالى:

براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين (١) آية.

قيل في علة ترك افتتاح هذه السورة ب (بسم الله الرحمن الرحيم) قولان:
احدهما – ما روي عن ابي بن كعب أنه ضمت هذه السورة إلى الانفال بالمقاربة، فكانتا كسورة واحدة لان الاولى في ذكر العهود والاخرى في رفع لعهود. وقال عثمان لاشتباه قصتهما، لان الاولى في ذكر العهود والاخرى في رفع لعهود. وقال المبرد: لان " بسم الله الرحمن الرحيم " أمان وبراءة نزلت لرفع الامان.
ويحتمل رفع " براءة " وجهين:
احدهما – ان يكون خبرا لمبتدأ محذوف وتقديره هذه الايات براءة.

(١٦٨)

والثاني – ان يكون مبتدأ وخبره الظرف في قوله " إلى الذين ". والاول اجود لانه يدل على حصول المدرك كما تقول لما تراه حاضرا: حسن والله اي هذا حسن.
ومعنى البراءة انقطاع برئ براءة وابرأه ابراءا وتبرأ تبرؤا وبرئت من المرض وبرأت أبرأ وأبرؤ وبرأ تبريئا. وروى أهل اللغة برأت أبرؤ برءا، ولم يجئ من المهموز (فعلت أفعل) إلا في هذا الحرف الواحد وبريت القلم أبريه بريا بغير همز، وبراه السير إذا هزله. وبرئ له يبرئ أذا تعرض له، وباراه إذا عارضه وأبرأت البعير إذا جعلت لانفه براه بالالف.
ومعنى الاية برئ الله من المشركين ورسوله " إلا الذين عاهدتم من المشركين " من اعطائتم الامان، والعهود والوفاء لهم بها إلا إذا نكثوا، لانهم كانوا ينكثون ما كان بينهم وبين النبي (صلى الله عليه وآله)، فأمر الله تعالى النبي (صلى الله عليه وآله) ان ينبذ ايضا اليهم عهدهم. وقوله " إلا الذين عاهدتم من المشركين " فالعهد العقد الذي يتقدم به لتوثيق الامر عهد عهدا وعاهد معاهدة وتعاهد الامر تعاهدا وتعهده تعهدا وقوله:
" عاهدتم " انما جاء بلفظ الخطاب، لان فيه دلالة على الامر بالنبذ إلى المشركين برفع الامان ولو لا ذلك لجاز عاقدنا، لان معاقدة النبي (صلى الله عليه وآله) انما هي عن الله عزوجل. ويجوز رفع الامان والبراءة من غير نقض العهد إذا كان مشروطا إلى ان يرفعه الله اليهم.
قوله تعالى:
فسيحوا في الارض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين (٢) آية.
السيح السير في الارض على مهل تقول: ساح يسيح سيحا وسياحة وسيوحا

(١٦٩)

وسيحانا وإنساح الماء إنسياحا وسيحه تسييحا.

امر الله تعالى في هذه الاية ان يقال لهؤلاء المشركين أن يسيحوا في الارض أربعة اشهر آمنين وإنما احلهم هذه الاشهر لانها الاشهر الحرم إلى آخر المحرم من أول شوال، في قول ابن عباس والزهري. وقال الفراء: كانت المدة إلى آخر المحرم لانه كان فيهم من كان مدته خمسين ليلة، وهو من لم يكن له عهد من النبي (صلى الله عليه وآله) فجعل الله ذلك له. قال: ومعنى الاشهر الحرم المحرم وحده وإنما جمعه لانه متصل بذي الحجة وذي القعدة فكأنه قال: فاذا انقضت الثلاثة أشهر.

وقال ابوعبدالله (عليه السلام) اول الاربعة الاشهر يوم النحر وآخرها العاشر من شهر ربيع الاخر، وهو قول محمد بن كعب القرظي ومجاهد، وقال الحسن: إنما جعل لهم هذه المدة، لان منهم من كان عهده اكثر من اربعة اشهر فحط اليها. ومنهم من كان اقل فرفع اليها. وقال ابوعلي الجبائي: كان يوم النحر لعشرين من ذي القعدة إلى عشرين من ربيع الاول، لان الحج كان تلك السنة في ذلك الوقت ثم صار في السنة الثانية في ذي الحجة وفيها حجة الوداع، وكان سبب ذلك النسئ الذي كان في الجاهلية.

وقرأ براءة على الناس يوم النحر بمكة علي بن ابي طالب (عليه السلام) لان أبا بكر كان على الموسم في تلك السنة فاتبعه النبي (صلى الله عليه وآله) بعلي (عليه السلام)، وقال:

لايبلغ عني الارجل منى – في قول الحسن وقتادة ومجاهد والجبائي – وروى أصحابنا ان النبي (صلى الله عليه وآله) كان ولاه ايضا الموسم، وأنه حين أخذ البراءة من أبي بكر رجع أو بكر فقال: يا رسول الله انزل في قرآن؟ فقال: لا، ولكن لايؤدي إلا أنا او رجل مني. وروى الشعبي عن محرز بن ابي هريرة: قال: قال ابوهريرة: كنت أنادي مع علي (عليه السلام) حين أذن المشركين فكان اذا اضمحل صوته مما ينادي دعوت مكانه قال فقلت يا ابه اي شئ كنتم تقولون؟ قال: كنا نقول لايحج بعد عامنا هذا

مشرك – قال وما حج بعد عامنا مشرك – ولا يطوف بالبيت عريان ولايدخل الجنة الا مؤمن ومن كانت بينه وبين رسول الله (صلى الله عليه وآله) مدة فان اجله إلى اربعة اشهر فاذا انقضت اربعة اشهر فان الله برئ من المشركين ورسوله. وفتحت مكة سنة ثمان ونزلت براءة سنة تسع وحج رسول الله (صلى الله عليه وآله) حجة الوداع سنة عشر. وقوله " واعلموا انكم غير معجزي الله " معناه انكم غير فائتين كما يفوت ما يعجز عنه لانكم حيث ما كنتم في سلطان الله وملكه والاعجاز ايجاد العجز والعجز ضد القدرة عند من أثبته معنى.

وقوله " وان الله مخزي الكافرين " فالاخزاء الاذلال بما فيه الفضيحة والعار.

والخزي النكال ضح.

قوله تعالى:

وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الاكبر أن الله برئ من المشركين ورسوله (٣) فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم (٤) آية في الكوفي والمدني، وآيتان في البصري.

الاذان الاعلام في قول ابن زيد والزجاج والجبائي، تقول: أذنني فلان كذا فأذنت اي اعلمني فعلمت. وقال بعضهم: معناه النداء الذي يسمع بالاذن.

وقال الفراء والزجاج: انما ارتفع لانه عطف على قوله " براءة " وقيل معناه عليكم اذان، لان فيه معنى الامر. والحج المقصد إلى اعمال المناسك على ما امر الله به وقد بينا شرائط الحج واركانه وفرائضه في كتب الفقه، ولانطول بذكره هاهنا والحج الاكبر قال عطا، ومجاهد، وعامر وبشر بن عبادة: هو ما فيه الوقوف

بعرفه، والاصغر العمرة، وقال مجاهد: الحج الاكبر هو القران، والحج الاصغر هو الافراد.

وقيل في معنى " يوم الحج الاكبر " ثلاثة اقوال:

احدها – ما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه قال: عرفة، وهو المروي عن عمر وابن عباس بخلاف فيه وبه قال عطا ومجاهد وابن الزبير وابوحنيفة.

الثاني – في رواية اخرى عن النبي (صلى الله عليه وآله) وعلي (عليه السلام) وابن عباس وسعيد ابن جبير، وعبدالله بن ابي أوفى، وابراهيم ومجاهد أنه يوم النحر، وهو المروي عن ابي عبدالله (عليه السلام). وسمي بالحج الاكبر لانه حج فيه المشركون والمسلمون ولم يحج بعدها مشرك.

الثالث – قال مجاهد وشعبة: هو جميع ايام الحج.

اعلم الله تعالى في هذه الاية المشركين انه ورسوله برئ من المشركين وانه ان تبتم ورجعتم إلى الايمان وطاعة الرسول " فهو خير لكم " وان اعرضتم وتوليتم فاعلموا انكم لا تفوتون الله وان الله يبشر الكافرين بعذاب اليم اي شديد مؤلم.

قال الحسن الحج الاكبر ثلاثة ايام الحج اجتمعت في تلك الايام الثلاثة اعياد المسلمين واعياد اليهود واعياد النصارى، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم يكن فيما خلا ولايكون إلى يوم القيامة.

قوله تعالى:

إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين (٥) آية اجماعا.

استثنى الله تعالى من براءته عزوجل، وبراءة ورسوله (صلى الله عليه وآلـه) من المشركين مـن كان لهم العهد، في قول الزجاج. وقال الفراء: هذا استثناء في موضع نصب، وهو

(١٧٢)

قوم من بني كنانة كان قد بقي من اجلهم تسعة اشهر، فقال الله تعالى " فأتموا اليهم عهدهم إلى مدتهم " لاتحطوهم إلى الاربعة اشهر، وقال مجاهد: عنى بذلك جماعة من خـزاءة ومـدلج. وقال ابن عباس: توجه ذلك إلى كل من كان بينه وبين رسول الله عهد قبل براءة. وينبغي أن يكون ابن عباس اراد بذلك من كان بينه وبينه عقد هدنة او إلى قوم من المشركين لم يتعرضوا له (صلى الله عليه وآله) بعداوة ولاظاهروا عليه عدوه، لان النبي (صلى الله عليه وآله) صالح اهـل هجر واهل البحرين وايلى ودومة الجندل، وادرج، واهل معنا، وهم ناس من اليهود في توجهه إلى تبوك او في مرجعه منها، وله عهود الصلح والحرب غير هذه، ولم ينبذ اليهم بنقض عهد، ولا حاربهم بعد ان صاروا اهل ذمة إلى ان مضى لسبيله. ووفى لهم بذلك من بعده، فمن حمل ذلك على جميع العهود فقد اخطأ. وقال الحسن: هذا استثناء من قوله تعالى " اقتلوا المشـركين "، " إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام " ثم نقلت إلى هاهنا وباقي الناس على خلافه.

وقوله " ثم لم ينقصوكم شيئا " النقصان حط العدة عن عدة، والزيادة الحاق العدة بعدة. والمعنى ثم لم ينقصوكم من شروطكم العهد شيئا، ولم يظاهروا عليكم أحدا فالمظاهرة المعاونـة علـى العدو للظهور عليه فهؤلاء إن لم يعاونوا عليكم احدا من اعدائكم ولا نقصوكم شيئا من حقكـم في عهدهم فأتموا اليهم عهدهم إلى مدتهم، وهو أمن من الله تعالى إلى ان يبلغوا المـدة التـي وافقهم عليها. قال قتادة: وهم مشركوا قريش كانوا عاهدوه في الحديبية وبقي من مدتهم اربعة اشهر بعد يوم النحر. والاتمام بلوغ الحد في العدة من غير زيادة ولانقصان فهنا معناه امضاء الامر على ما تقدم به العهد إلى انقضاء اجل العقد. والمدد زمان طويل الفسحة، واشتقاقه مـن مددت له في الاجل للمهلة. والمعنى إلى انقضاء مدتهم.

وقرأ عطاء " ثم لم ينقضوكم " بالضاد المعجمة وهي شاذة (وأن) بفتح الهمزة، لان تقديره بأن الله برئ عمن المشركين، ولا يجوز أن يكون المراد نبذ العهد إلى

(١٧٣)

مكة، لان مكة فتحت سنة ثمان وصارت دار الاسلام، ونبذ العهد كان في سنة تسع فعلم بذلك ان المراد غيرهم.

قوله تعالى:

فإذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلوة وآتوا الزكوة فخلوا سبيلهم إن الله عفور رحيم (٦) آية.

الانسلاخ اخراج الشئ مما لابسه، وكذلك سلخ الشاة إذا نزع الجلد عنها وسلخنا شهر كذا نسلخه سلخا وسلوخا. وقيل في الاشهر الحرم قولان:

احدهما – رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ثلاثة سرد وواحد فرد الثاني – الاشهر الاربعة التي جعل لهم ان يسيحوا فيها آمنين، وهي عشرون من ذي الحجة، والمحرم، وصفر، وشهر ربيع الاول، وعشر من ربيع الاخر، في قول الحسن والسدي وغيرهما.

امر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) والمؤمنين انه اذا انقضت مدة هؤلاء المعاهدين، وهي الاربعة اشهر ان يقتلوا المشركين حيث وجدوهم. قال الفراء: سواء كان في الاشهر الحرم او غيرها وسواء في الحل او في الحرم، وان يأخذوهم، ويحصروهم والحصر المنع من الخروج عن محيط واحصر الرجل إحصارا وحاصره العدو محاصرة وحصارا، وحصر في كلامه حصرا وانحصر الشئ انحصارا. والحصر والحبس والاسر نظائر. وقوله " واقعدوا لهم كل مرصد " يعني كل موضع يرقب فيه العدو والمرصد الطريق ومثله المرقب والمربأ، يقال: رصده يرصده رصدا، ونصب كل

مرصد على تقدير على كل مرصد – على قول الاخفش – كما قال الشاعر:

نغالي اللحم للاضياف نيا * ونرخصه اذا نضج القدور (١)

اي نغالي باللحم. وقال الزجاج هو ظرف كقولك ذهبت مذهبا وقال الشاعر:

إن المنية للفتى بالمرصد (٢)

فجعله بمنزلة المحدود، والمرصد مبهم، والطريق محدود، فهذا فرق ما بينهما واستدل بهذه الاية على ان تارك الصلاة متعمدا يجب قتله، لان الله تعالى اوجب الامتناع من قتل المشركين بشرطين: احدهما – ان يتوبوا من الشرك.

والثاني – ان يقيموا الصلاة، فاذا لم يقيموا الصلاة وجب قتلهم.

قوله تعالى:

وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون (٧) آية قوله " احد " ليست التي تقع في النفي في مثل قولك (ما جاءني احد)

لان الايجاب لايصح فيه اعم العام الذي هو هو على الجملة والتفصيل كقولك:

ليسوا مجتمعين، ولامتفرقين. ولايصح مثل ذلك في الايجاب، ويصح في الاستفهام لان فيه معنى النفي، ولولا ذلك لم يصح جوابه ب " لا " والتقدير وإن استجارك احد من المشركين

استجارك فاضمر الفعل، ولم يجز في الجواب ان يقول: إن يقوم احد زيد يذهب، لقــوة " إن " إنها للفعل خاصة ومثله انشد الاخفش:

لاتجزعي إن منفسا اهلكته * فاذا هلكت فعند ذلك فاجزعي (٣)

---

(١) مر تخريج هذا البيت في ١ / ٤٧٠ تعليقة ٣ (٢) تفسـير القرطبـي ٨ / ٧٣ ومجـاز القـرآن ١ / ٢٥٣ (٣) القرطبي ٨ / ٧٧. نسبه للنمير بن تولب.

(*)

فاخبر، ثم جزم على جواب الجزاء، لانها شرط وليس كذلك الجواب، لانه قد يكون بالفاء ولا يجوز اضمار الفعل في شئ من حروف المجازاة إلا في " إن " لانها ام الباب، وهي الاصــل الذي يلزمه، قال الشاعر:

فان انت تفعل فللفاعلي * ن انت المجيرين تلك الغمارا (١)

واما قول الشاعر:

فمتى واغل ينبهم يحيو * ه ويعطف عليه كأس الساقي

فانما هو ضرورة، لايجوز مثله في الكلام قال الفراء " استجارك " في موضع جزم، وانه فرق بين الجازم والمجزوم ب " احد " وذلك جائز في " ان " خاصة وقد يفرق بينهما وبين المجزوم بالمنصوب والمرفوع، فالمنصوب مثل قولك:

إن اخاك ضربت ظلمت، والمرفوع مثل قوله تعالى " إن امرؤ هلك ليس له ولد " (٢)

امر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) انه متى استجارك احد من المشركين الذين امرتك بقتالهم اي طلب منه الجار في رفع الاذى عن صاحبه. وقيل: المعنى ان استأمنك احد فأمنه " حتــى يسمع كلام الله " والمشرك يصح ان يسمع كلام الله على الحقيقة لان حكاية كــلام الله يطلــق عليه الاسم بأنه كلام الله لظهور الامر فيه، ولايحتاج ان يقدر اصل له، كما يقال: كلام سيبويه وغيره. ومن ظن ان الحكاية تفارق المحكي لاجل هذا الظاهر فقد غلط، لان المراد ما ذكرناه فيما يقال في العرف انه كلام الله. وقوله " ثم ابلغه مأمنه " فالابلاغ النصيير إلى منتهى الحد. والابلاغ والاداء نظائر. وفي الاية دلالة على بطلان قول من قال: المعارف ضرورية لانهــا لو كانت كذلك لما كان لطلب ما هو عالم به معنى. ومعنى قوله " لا يعلمون " اخبــار عــن جهلهم في افعالهم، لا انهم لايعقلون، وإنما اراد لا ينتفعون بمثله.

ولا يعرفون مالهم وعليهم من الثواب والعقاب.

(١) معاني القرآن ١ / ٤٢٢. نسبه للكميت.
(٢) سورة ٤ النساء آية ١٧٥
(*)

(١٧٦)

قوله تعالى:

كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين (٨) آية.

قال الفراء: هذا على التعجب كما تقول: كيف تستبقي مثلك؟ ! اي لا ينبغي ان يستبقى، وفي قراءة عبدالله: كيف يكون لهم عهد عند الله، ولا ذمة، فادخل الكلام " لا " مع الواو، ولا معنى الاول جحد. وقال غيره: في الكلام حذف لان الكلام خرج مخرج الانكار عليهم. وتقديره كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله مع اضمار الغدر في عهدم، فجاء الانكار ان يكون لهم عهد مع ما ينبذ من العهد على ذلك، وذلك يقتضي اضمار الغدر فميا وقع من العهد.

ثم استثنى من ذلك " الذين عاهدتم عند المسجد الحرام " فكان ذلك ايجابا فيهم لان ما قبله في معنى النفي، والتقدير ليس للمشركين عهد الا الذين. وموضع " الذين " يحتمل الجر والنصب. وحكى الكسائي: اين كنت لتنجو مني اي ماكنت.

و " المسجد " الموضع المهيأ لصلاة الجماعة، والمراد هاهنا مسجد مكة خاصة واصله موضع السجود كالمجلس موضع الجلوس و " الحرام " المحظور بعض احواله فالخمر حرام لحظر شربها وسائر انواع التصرف فيها. والام حرام بحظر نكاحها والمسجد الحرام لحظر صيده وسفك الدم فيه وابتذاله ما يبتذل به غيره. وقوله " فما استقاموا لكم " معناه ما استمروا لكم على العهد. والاستقامة الاستمرار على جهة الصواب. ومتى كان الاستمرار على وجه الخطأ لايسمى استقامة. ومعنى " فاستقيموا لهم " استمروا لهم على العهد مثلهم والمراد بالذين عوهدوا عند المسجد

ـ١٧٧ـ

لحرام، قيل فيهم ثلاثة اقوال: قال مجاهد: هم خزاعة. وقال ابن اسحاق: هم قوم من بني كنانة. وقال ابن عباس: هم قريش.

وقوله " ان الله يحب المتقين " اخبار منه تعالى انه يحب من يتقي معاصيه ويعمل بطاعاته وانه يريد ثوابه ومنافعه. وفي الاية دليل على ان تمكين الحربي من المقام في دار الاسلام بعد قضاء حاجته ليس بجائز.

قوله تعالى:

كيف وإن يظهروا عليكم لايرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون (٩) آية.

تقدير الاية كيف لهم عهد وكيف لاتقتلونهم وحذف، لان قوله في الاية لاولى " كيف يكون للمشركين عهد " دل على ذلك ومثله قول الشاعر:

وخبر تماني أنما الموت في القرى * فكيف وهاتا هضبة وقليب (١)

ويروى وهذي اي كيف مات وليس في قرية. وقال الحطيئة في حذف الفعل بعد كيف:

فكيف ولم أعلمهم خذلوكم * على معظم ولا اديمكم قدوا (٢)

أي كيف تلومونني على مدح قوم وتذمونهم. والمعنى كيف لهم يعني لهؤلاء المشركين عهد، وهم إن يظهروا عليكم بمعنى يعلوا عليكم بالغلبة، لان الظهور هو العلو بالغلبة. واصله خروج الشئ إلى حيث يصح ان يدرك " لايرقبوا فيكم " معناه لايراعون فيكم، والرقوب هو العمل في الامر على ماتقدم به العهد. والمراقبة

---

(١) قائله كعب بن سعد الغنوي. الاصمعيات ٩٩ وتفسير الطبري ١٤ / ١٤٥ وأمالي القالي ٢ / ١٥١ ومعاني القرآن ١ / ٤٢٤ (٢) معاني القرآن ١ / ٤٢٤

(*)

والمراعاة نظائر في اللغة. وقوله: " إلا ولا ذمة " قيل في معنى الئل ستة اقوال:

اولها – قال مجاهد وابن زيد: إن معناه العهد. والثاني – في رواية اخرى عن مجاهد أنه اسم الله. ومنه قول أبي بكر لما سمع كلام مسيلمة: لم يخرج هذا من إل، فأين يذهب بكم. الثالث – قال ابن عباس: هو القرابة. الرابع – قال الحسن: هو الجوار. الخامس – قال قتادة: هو الحلف. السادس – قال ابوعبيدة:

هو التميز. والاصل في جميع ذلك العهد وهو مأخوذ من الاليل وهو البريق، يقال: أل يؤل إذا لمع والالة الحربة للمعانها، وأذن مؤللة مشبهة بالحربة في تحديدها وقال الزجاج: اصله التحديد قال الشاعر:

وجدناهم كاذبا إلهم * وذو الال والعهد لايكذب (١)

أي ذو العهد، وقال ابن مقبل:

أفسد الناس خلوف خلفوا. * قطعوا الال واعرق الرحم (٢)

يعني القرابة، وقال حسان:

لعمرك إن إلك في قريش * كال السقب من رأل النعام (٣)

وقوله " يرضونكم بأفواههم " معناه يقولون قولا يرضيكم بذلك في الظاهر وتأبى قلوبهم أن يذعنوا لكم بتصديق ما يبدونه لكم. ثم اخبر الله تعالى عن حالهم لان الفاسق هو الخارج من الشئ من قولهم فسقت الرطبة. وإنما كان اكثر هم بهذه الصفة ولم يكن جميعهم وإن كانوا كلهم فاسقين لان المراد به رؤساءهم.

---

(١) تفسير الطبري ١٤ / ١٤٨، ١٤٩ (٣) ديوانه: ٤٠٧ واللسان (ألا) وتفسير الطبري ١٤ / ١٤٩ (*)

قوله تعالى:

اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون (١٠) آية.

قيل في من نزلت هذه الاية بسببه قولان:

قال مجاهد: نزلت في ابي سفيان لما جمعهم على طعامه فاطعم حلفاءه وترك حلفاء النبي (صلى الله عليه وآله). وقال ابوعلي الجبائي: نزلت في قوم من اليهود دخلوا في العهد فيما دلت عليه هذه الصفة. ومعنى " اشتروا بآيات الله " استبدلوا بحجج الله وبيناته العظيمة الشأن " ثمنا قليلا " اي عرضا قليلا. واصل الاشتراء استبدال ما كان من المتاع بالثمن، ونقيضه البيع، وهو العقد على تسليم المتاع بالثمن.

والثمن ما كان من العين والورق - في الاصل - ثم قيل لما اخذوه بدل آيات الله ثمن، لانه بمنزلته في أنه يستبدل به. وقوله " فصدوا عن سبيله " اي صدوا عن الاسلام، ومعنى هذه الفاء كمعنى جواب الجزاء، لان اشتراءهم هذا اداهم إلى الصد عن سبيل الله. والصد هو المنع. ثم اخبر تعالى عنهم انهم بئس ما كانوا يعملونه من هذا الاستبدال.

قوله تعالى:

لايرقبون في مؤمن إلا ولاذمة وأولئك هم المعتدون (١١) آية.

قد بينا ان المراقبة هي المراعاة لما تقدم من العهد الذي يلزم الديانة، لئلا يقع اخلال بشئ منه. والئل العهد. والذمة عقد الجوار، وهما متقاربان. وفصل بينهما بأن الذمة عقد قوم يذم نقضه. والئل الذي هو العهد عقد يدعو إلى الوفاء والبيان الذي فيه، لانه يلوح المعنى الذي يدعوا إلى الوفاء إذا ضل كل واحد

منهما يقتضي هذا. وانما اعيد ذكر " لايرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة " لانه في صفة " والذين اشتروا بآيات الله ثمنا " والاول في صفة جميع الناقضين للعهد. وقال في الثاني " فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين "، فلذلك كرر بوصفين مختلفين. وقال الجبائي: لانه في صفة اليهود خاصة، والاول في صفة الناقضين عامة، وإنما ذموا بترك المراقبة، لان مع تركها الغالب ان يقع إخلال بما تقدم من العقد، فلزمت المراقبة لهذه العلة. وترك المراقبة في عهد المؤمن أعظم منها في ترك عهد غيره لكثرة الزواجر عن الغدر بالمؤمن، لانه ليس من شأنه الغدر.

اخبر الله تعالى عن هؤلاء المشركين انهم لايراعون في المؤمن عقد العهد ولاذمة الجواز، وانهم مع ذلك معتدون. والاعتداء الخروج من الحق واصله المجاوزة، ومنه التعدي وهو تجاوز الحد ومعاداة القوم مجاوزة الحد في البغضة وكذلك العداوة. والاستعداء طلب معاملة العدو في الايقاع به، والعدو مجاوزة حد السعي. والغرض بالاية حث المسلمين على قتالهم، وأن لا يبقوا عليهم كما انهم لو ظهروا على المسلمين لم يبقوا عليهم.

قوله تعالى:

فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكوة فاخوانكم في الدين ونفصل الايات لقوم يعلمون (١٢) آية.

شرط الله لهؤلاء المشركين بأنهم إن تابوا ورجعوا عما هم عليه من الشرك إلى طاعة الله والاعتراف بوحدانيته، والاقرار بالنبي (صلى الله عليه وآله)، وأقاموا الصلاة المفروضة على ما شرعها الله واعطوا الزكاة الواجبة عليهم، فانهم يكونون اخوان المؤمنين في الدين، والايمان وتقديره فهم اخوانكم. والتوبة هي الندم على القبيح لقبحه مع العزم على ترك العود إلى مثله في القبح، وفي الناس من قال إلى مثله في صفته

فمن قال ذلك قال توبة المجبوب من الزنا هي الندم على الزنا مع العزم على ترك المعاودة إلى مثله على ما يصح ويجوز من الامكان، وهو انه لو رد الله عزوجل عضوه مازنى، فاما من نسي الذنب فان توبته صحيحة لايؤاخذ بالذنب، لانه مكلف قد ادى جميع ما عليه في الحال، فقد تخلص بذلك من العقاب. فان قيل لم شرط مع التوبة من الشرك وحصول الايمان ايتاء الزكاة؟ مع انه ليس كل مسلم عليه الزكاة ! قلنا: انما يجب عليه بشرط الامكان فاذا اقر بحكم الزكاة مع التعذر عليه دخل في حكم الصفة التي يجب بها.

وقوله " ونفصل الايات " معناه نبينها ونميزها بخاصة لكل واحد منها بما يتميز به من غيرها حتى يظهر مدلولها على اتم ما يكون من الظهور فيها " لقوم يعلمون " ذلك ويثبتونه دون الجهال الذين لا يعقلون عن الله.

قوله تعالى:

وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لاأيمان لهم لعلهم ينتهون (١٣) آية.

قرأ أهل الكوفة وابن عامر " أئمة " بهمزتين، إلا هشاما عن ابن عامر فانه فصل بين الهمزتين بالف. والباقون بهمزة واحدة وياء بعدها. وفصل بينهما بالف ابوجعفر والمرى عن المسيبي والسوسنجرذي عن يزيد بن اسماعيل. وقرأ ابن عامر والحسن " لا إيمان لهم " بكسر الالف. الباقون بفتحها. والكسر يحتمل وجهين: احدهما – انهم ارتدوا، ولا إسلام لهم، ذكره الزجاج قال: ويجوز " لاإيمان لهم " على المصدر، وتقديره لاتأمنوهم بعد نكثهم العهد. والاخر – لانهم كفروا " لا إيمان لهم " ويحتمل أن يكون المراد أنهم آمنوا إيمانا لايفون به فلا إيمان لهم. ومن فتح الهمزة فلقوله: " وان نكثوا ايمانهم " ولقوله

" عهدهم " وأثبت لهم الايمان. فان قيل كيف نفى فقال " إنهم لاأيمان لهم " وقد اثبتها في الاول من الاية بقوله " وان كثوا أيمانهم "؟ ! قلنا: اليمين التي اثبتها هي ما حلفوا بها وعقدوا عليها، ولم يفوا، وانما المراد به انهم لاأيمان لهم يفون بها، ويتمسكون بموجبها. وقال ابوعلي النحوي " أئمة " على وزن " افعلة " جمع إمام نحو مثال وامثلة فصار أئمة، واجتمع همزتان الف أفعلة، والهمزة التي هي فاء الفعل، والتي هي فاء الفعل ساكنة فنقل اليها حركة التي بعدها ليمكن النطق بها. فمن خففها اتى بالهمزتين الاولى مفتوحة والثانية مكسورة. ومن كره ذلك قلب الثانية ياء ولم يجعلها بين بين، لان همزة بين بين في تقدير التحقيق وذلك مكروه عندهم. وقال الرماني: انما جاز اجتماع الهمزتين في كلمة، لئلا يجتمع على الكلمة تغيير الادغام والانقلاب مع خفة التحقيق لاجل ما بعده من السكون، وهو مذهب ابن ابي اسحاق من البصريين. والباقون لايجيزونه، ذكره الزجاج، قال لانه يلزم عليه ان يقرأ " أأم " بهمزتين وذلك باطل بالاتفاق. وعلى هذا القول هذا أأم بهمزتين، قال: وانما قلبت الهمزة في أئمة على حركتها دون حركة ما قبلها، لان الحركة إنما نقلها إلى الهمزة لبيان زنة الكلمة، فلو ذهبت تقلبها على ما قبلها لكان مناقضا للغرض فيها واذا بنيت من الامامة هذا افعل من هذا قلت هذا أوم من هذا في قول المازني – لان اصله كان أأم فلم يمكنه ان يبدل منها الفاء لاجتماع

الساكنين، فجعلها واوا كما قالوا في جمع آدم أوادم. قال الزجاج: وهو القياس وهذا ايم من هذا في قول الاخفش، قال: لانها صارت الياء في أيمة بدلا لازما.

وقوله " وان نكثوا ايمانهم " فالنكث نقض العهد الذي جعل لتوثيق الامر وذلك بالخلاف لما تقدم من العزم. و " الايمان " جمع يمين، وهو القسم والقسم هو قول عقد بالمعنى لتأكيده، وتغليظ الامره فيه نحو والله ليكونن وتالله ما كان، فيجوز أن يكون من اعطى صفقة بمينه، ويجوز أن يكون من يمن

التيسير في فعله. وقوله " وطعنوا في دينكم " فالطعن هو الاعتماد بالعيب. واصله الطعن بالرمح، ونحوه في الشئ لنقض بنيته.

وقوله " فقاتلوا أئمة الكفر " امر من الله تعالى بقتال أئمة الكفر، وهم رؤساء الضلال والكفار، والامام هو المتقدم الاتباع، فأئمة الكفر رؤساء الكفر والامام في الخير مهتد هاد، وفي الشر ضال مضل، كما قال تعالى " وجعلناهم ائمة يدعون إلى النار " (١) والمني بائمة الكفر رؤساء قريش، في قول ابن عباس ومجاهد. وقال قتادة: هم ابوجهل بن هشام، وأمية بن خلف وعتبة بن ربيعة وابو سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو، وهم الذين هموا باخراجه، وكان حذيفة يقول: لم يأت أهل هذه الاية.

وروي عن ابي جعفر (عليه السلام) انها نزلت في اهل الجمل وروي ذلك عن علي (عليه السلام) وعمار، وغيرهما. ويقول حذيفة قال يزيد بن وهب: قوله " انهم لاأيمان لهم " معناه لاتأمنوهم. ومن كسر معناه، لانهم كفروا لا إيمان لهم.

وقوله " لعلهم ينتهون " معناه لكي ينتهوا.

وفي الاية دلالة على ان الذمي إذا اظهر الطعن في الاسلام فانه يجب قتله، لان عهده معقود على أن لايطعن في الاسلام، فاذا طعن فقد نكث عهده.

قوله تعالى:

ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين (١٤) آية.

قوله " ألا " كلمة موضوعة للتحضيض على الفعل، وأصلها " لا " دخلت عليها

---

(١) سورة ٢٨ القصص آية ٤١.

(*)

الف الاستفهام، فصارت تحضيضا كما انها إذا دخلت على " ليس " صارت تقريـــرا و " ألا " موافقة للتحضيض بالاستقبال و " أليس " إنما هي للحال، فهي موافقة للحال بهذا المعنى. وإذا قال: " ألا تقاتلون " كان معناه التحضيض على قتالهم وإذا قال: " الا قاتلتم " كان ذلك تأنيبـــا، لان ما يلزم اذا ترك ذم على تركه ويحض على فعله قبل وقته. حض الله تعالى المؤمنين على قتال الكفار الذين " نكثوا ايمانهم وهموا باخراج الرسول " من مكة اي قصدوه. والهم مقاربـــه الفعل بالعزم من غير اتباع له، وقد ذموا بهذا الهم ففيه دليل على العزم وقد يستعمل الهم على مقاربة العزم.

وقوله " وهم بدؤكم اول مرة " فالبدوء فعل ما لم يتكرر والمرة الفعلة من المر، والمرة والكرة والدفعة نظائر. ومعنى " بدؤكم اول مرة " بدؤا حلفاء النبي (صلى الله عليه وآلـــه) بالقتـــال مـــن خزاعة، في قول الزجاج، وقال ابن اسحاق والجبائي:

بدؤوا بنقض العهد. وقال الطبري: بدؤهم بخروجهم إلى بدر، لقتالهم.

وقوله " اتخشونهم " معناه اتخافونهم. ثم قال: " والله احق ان تخشوه " اي تخـــافوه " ان كنـــتم مؤمنين " وفي ذلك غاية الفصاحة لانه جمع بين التقريع والتشجيع. والمعنى أتخشون ان ينالكم من قتالهم مكروه، فالله احق ان تخشوا عقابه في ارتكاب معاصيه إن كنتم مصـــدقين بعقابـــه وثوابه.

قوله تعالى:

قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين (١٥) ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم (١٦) آيتان.

هذه امر من الله تعالى للمؤمنين بأن يقاتلوا هؤلاء الناقضين للعهد البادئين

(١٨٥)

بقتال حلفاء النبي (صلى الله عليه وآله) من خزاعة، فانهم اذا قاتلوهم يعذب الله الكفار بأيديهم يعني بأيدي المؤمنين الذين يقاتلونهم، وينصركم ايها المؤمنون ينصركم الله " عليهم ويشف " بذلك " صدور قوم مؤمنين " وفي ذلك دليل على انه اشتد غضب جماعة المؤمنين لله، فوعدهم الله النصر، في قول قتادة والزجاج. وفيها دلالة على نبوة النبي (صلى الله عليه وآله) لانه وعده النصر فكان الامر على ما قال. وقوله " ويذهب غيظ قلوبهم " قيل المراد بهم خزاعة الذين قاتلوهم، في قول السدي وغيره، لانهم كانوا حلفاء النبي (صلى الله عليه وآله). والتعذيب ايقاع العذاب لصاحبه والعذاب الم يستمر به، قال عبيد ابن الابرص:

والمرء ما عاش في تكذيب * طول الحياة له تعذيب

ومعنى " يعذبهم الله بأيديكم " اي انكم اذا تناولتموهم بالسلاح من السيوف والنبل والرماح انزل الله بهم العذاب. وقال ابوعلي: ذلك مجاوز والمعنى انه لما كان ذلك بأمر الله اضافه إلى نفسه، وهو احسن من الاول.

وقوله " ويخزهم " معناه يذلهم والاخزاء الاذلال بما فيه الفضيحة على صاحبه خزي خزيا واخزاه الله إخزاء. ويجوز في " ويخزهم " ثلاثة أوجه من الاعراب:

الجزم باللفظ وعليه القراء. والنصب على الظرف، والرفع على الاستئناف ولم يقرأ بهما.

وقوله " ويشف صدور قوم مؤمنين " فالشفاء سلامة النفس بما يزيل عنها الاذى، فكلما وافق النفس وأزال عنها الهم فهو شفاء وقيل " ويشف صدور قوم مؤمنين " يعني خزاعة، لانهم نقضوا العهد بقتالهم – في قول مجاهد والسدي – والصدور جمع الصدر وهو الموضع الاجل الذي يصدر عنه الامر، ومنه الايراد والاصدار.

وقوله " ويذهب غيظ قلوبهم " معناه يبطل غيظهم ويعدمه. والاذهاب جعل الشي ء يذهب والذهاب الانتقال عن الشئ، والمجئ الانتقال إلى الشئ، والغيظ نقض الطبع بانزعاج النفس. تقول: غاظه يغيظه غيظا واغتاظ اغتياظا وغايظه مغايظة.

(١٨٦)

وقوله " ويتوب الله على من يشاء " معناه يقبل الله توبة من يشاء من عباده.

ووجه اتصال قوله " ويتوب الله على من يشاء " بما قبله من وجهين:

احدهما – بشارتهم بأن فيهم من يتوب ويرجع عن الكفر إلى الايمان.

والاخر – انه ليس في قتالهم اقتطاع لاحد منهم عن التوبة.

ورفع " ويتوب " بخروجه عن موجب القتال فاستأنفه.

وقوله " والله عليم حكيم " معناه عليم بتوبتهم إذا تابوا حكيم في أمركم بقتالهم إذا نكثوا قبل أن يتوبوا ويرجعوا، لان أفعاله كلها صواب وحكمة.

قوله تعالى:

أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون (١٧) آية.

قوله " ام حسبتم " من الاستفهام الذي يتوسط الكلام فيجعل ب (أم) ليفرق بينه وبين الاستفهام المبتدأ الذي لم يتصل بكلام ولو كان المراد الابتداء لكان اما بالالف أو ب (هل) كقوله " هل اتى على الانسان " (١) والمعنى ظننتم أن تتركوا. والظن والحسبان نظائر، والحسبان قوة المعنى في النفس من غير قطع، وهو مشتق من الحساب لدخوله فيما يحتسب به " ان تتركوا " معنى الترك هو ضد ينافي الفعل المبتدأ في محل القدرة عليه. ويستعمل بمعنى (ألا يفعل) كقوله " وتركهم في ظلمات لا يبصرون " (٢) وقوله " ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم " إذا قيل: لما يفعل، فهو نفي للفعل مع تقريب لوقوعه. وإذا قيل: لم يفعل، فهو نفي بعد اطماع في

---

(١) سورة ٧٦ الدهر آية ١. (٢) سورة ٢ البقرة آية ١٧

(*)

وقوعه. والمعنى ولما يجاهدوا ويمتنعوا ان يتخذوا وليجة ويعلم الله ذلك منكم فجاء مجئ نفي العلم لنفي المعلوم، لانه متى كان علم الله انه كائن. وكان ابلغ وأوجز، لانه اتى على طريقة نفي صفات الله تعالى.

وقوله " ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجه " تقديره ولما يعلم الله الذين آمنوا لم يتخذوا من دون الله ولا رسوله وليجه، فالوليجة الدخيلة في القوم من غيرهم تقول: ولج يلج ولوجا وأولج إيلاجا وتولج تولجا بمعنى الدخول.

والوليجة والدخيلة والبطانة نظائر. وكل شئ دخل في شئ وليس منه فهو وليجة، قال طرفة:

فان القوافي يتلجن موالجا * تضايق عنها ان تولجها الابر (١)

وقال آخر:

متخذا من ضعوات تولجا * متخذا فيها ايادا دولجا (٢)

يعني الكأس. وقال الفراء: نهوا ان يتخذوا بطانة يفشون اليهم اسرارهم.

وقال الجبائي: اتخاذ الوليجة من دون الله ودون رسوله هو النفاق. نهوا أن يكونوا منافقين، وهو قول الحسن، فانه قال: الوليجة هي الكفر والنفاق. وفي الاية دلالة على انه لايجوز ان

يتخذ من الفساق وليجة، لان في ذلك تأليفا بالفسق يجري مجرى الدعاء اليه مع ان الواجب معاداة الفساق والبراءة منهم، ومع ذلك فهو غير مأمون على الاسرار والاطلاع عليها. قال الزجاج: كانت براءة تسمى الحافرة، لانها حفرت عن قلوب المنافقين، لانه لما فرض القتال تميز المؤمنون من المنافقين ومن يوالي المؤمنين ممن يوالي اعداءهم.

قوله تعالى:

ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم

(١، ٢) مجاز القرآن ١ / ٢٥٤ واللسان (ولج)

(*)

بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون (١٨) آية.

قرأ ابن كثير وابوعمرو " مسجد الله " على التوحيد. الباقون على الجمع، فمن قرأ على التوحيد، قال الحسن اراد به المسجد الحرام وبه قال الجبائي. ويحتمل ان يكون اراد المساجد كلها، لان لفظ الجنس يدل على القليل والكثير. ومن قرأ على الجمع يحتمل ان يكون اراد جميع المساجد. ويحتمل ان يكون اراد المسجد الحرام. وإنما جمع لان كل موضع منه مسجد يسجد عليه. والقراءتان متناسبتان.

والاصل في المسجد هو موضع السجود في العرف يعبر به عن البيت المهيأ لصلاة الجماعة فيه.

اخبر الله تعالى انه ليس لمشرك ان يعمر مسجد الله. والعمارة ان يجدد منه ما استرم من الابنية، ومنه قولهم: اعتمر اذا زار، لانه يجدد بالزيارة ما استرم من الحال. وقوله " شاهدين على أنفسهم بالكفر " نصب على الحال، فالشهادة خبر عن علم مشاهد بأن يشاهد المعنى او يظهر ظهور ما يشاهد كظهور المعنى في شهادة أن لا إله إلا الله. والمعني بذلك أحد شيئين:

احدهما – ان فيما يخبرون به دليلا على كفرهم، لان أنهم يقولون نحن كفار، ولكن كما يقال للرجل ان كلامك ليشهد انك ظالم – هذا قول الحسن.

والثاني – قال السدي: ان النصراني إذا سئل ما انت؟ قال نصراني واليهودي يقول انا يهودي وعابد الوثن يقول مشرك فذلك شهادتهم على انفسهم بالكفر.

وقال الكلبي: معناه شاهدين على النبي بالكفر، وهو من انفسهم. وقوله " اولئك حبطت اعمالهم وفي النار هم خالدون " اخبار منه تعالى ان اعمال هؤلاء الذين شهدوا على انفسهم بالكفر

باطلة بمنزلة ما لم يعمل، لانهم اوقعوها على وجه لايستحق بها الثـواب، وانهـم مـع ذلـك مخلدون في نار جهنم معذبون بأنواع العذاب.

(١٨٩)

قوله تعالى:

إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الاخر وأقام الصلوة وآتى الزكوة ولم يخـش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين (١٩) آية اخبر الله تعالى في هذه الاية انـه ينبغـي الا " يعمر مساجد الله " إلا " من آمن بالله " واقر بوحدانيته واعترف باليوم الاخر يعني يوم القيامة ثم اقام بعد ذلك " الصلاة " بحدودها. وأعطى " الزكاة " الواجبة – ان وجبت عليه – مستحقيها ولم يخف سوى الله احدا من المخلوقين، فاذا فعلوا ذلك فانهم " يكونون من المهتـدين " إلـى الجنة ونيل ثوابها، لان عسى من الله واجبة ليست على طريق الشك، وهو قول ابـن عبـاس والحسن. وقال قوم: انما قال عسى ليكونوا على طريق الحذر، مما يحبط اعمالهم، ويدخل في عمارة المساجد عمارتها بالصلاة فيها، والذكر لله. والعبادة له، لان تجديد احوال الطاعـة لله من أو كد الاسباب التي تكون بها عامرة، كما ان اهمالها من اوكد الاسباب في اخرابها، وذكر قوله " وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله " بعد ذكر قوله " من آمن بالله واليوم الاخر " يدل على ان الايمان لايقع على افعال الجوارح، لانه لو كان الايمان متناولا لذلك اجمع لمـا جاز عطفف ما دخل فيه عليه. ومن حمل ذلك على ان المراد به التفصيل وزيادة البيان فيمـا يشتمل على الايمان تارك للظاهر. والخشية انزعاج النفس لتوقع ما لايؤمن من الضرر تقول: خشي يخشى خشية فهو خاش، ومثله خاف يخاف خوفا ومخافة، فهو خائف. والخاشي نقيض الامن. والاهتداء المذكور في الاية هو التمسك بطاعة الله التي تؤدي إلى الجنة وفاعلها يسمى مهتديا.

(١٩٠)

قوله تعالى:

أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الاخر وجاهد في سبيل الله لا يستون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين (٢٠) آية.

خاطب الله تعالى بهذه الاية قوما جعلوا القيام بسقي الحجيج وعمارة المسجد الحرام من الكفار مع مقاومهم على الكفر مساويا أو افضل من ايمان من آمن بالله واليوم الاخر وجاهد في سبيل الله، فأخبر تعالى انهما لايستويان عند الله في الفضل لان الذي آمن بالله واليوم الاخر وجاهـد في سبيل الله افضل ممن يسقي الحجيج ولم يفعل ذلك. وفي الاية حذف احد امرين: احدهما –

ان يكون تقديره كايمان من آمن بالله وأقام الاسم مقام المصدر، لان اصل السقاية مصدر كما قال الشاعر:

لعمرك ما الفتيان ان تنبت اللحى * ولكنما الفتيان كل فتى ندى (١)

اي فتيان نبات. والسقاية آلة تتخذ لسقي الماء. وقيل كانوا يسقون الحجيج الماء والشراب. وبيت البئر سقاية ايضا قال الرماني المشبه لايجوز ان يكون مجاهدا في سبيل الله لانه لايعرف الله فيتبع امره في ذلك والمجاهد اذا عرف الله صح ان يكون مطيعا بالجهاد لاتباعه امر الله فيه. وروي عن ابي جعفر وابي عبدالله (عليهما السلام) ان الاية نزلت في امير المؤمنين (عليه السلام) والعباس. وروى الطبري باسناده عن ابن عباس انها نزلت في العباس حين قال يوم بدر: إن سبقتمونا إلى الاسلام والهجرة لم تسبقونا إلى سقاية الحاج وسدنة البيت، فأنزل الله الاية. وروى الطبري باسناده عن الحسن انها نزلت في علي والعباس وعثمان وشيبة. وقال الشعبي: نزلت في علي والعباس، وبه قال ابن وهب والسدي.

---

(١) تفسير الطبري ١٤ / ١٧٢ ومعاني القرآن ١ / ٤٢٧

(*)

(١٩١)

وقوله " والله لا يهدي القوم الظالمين " اخبار منه تعالى انه لايهدي احدا ممن ظلم نفسه وكفر بآيات الله، وجحد وحدانيته إلى الجنة كما انه يهدي اليها من كان عارفا بذلك فاعلا لطاعته مجتنبا لمعصيته.

واختلفوا في سبب نزول الاية فقال قوم: سأل المشركون اليهود فقالوا:

نحن سقاة الحجيج وعمار المسجد الحرام أفنحن أفضل ام محمد واصحابه؟ فقالت اليهود لهم: انتم افضل، عنادا للنبي (صلى الله عليه وآله) والمؤمنين. وقال آخرون: تفاخر المسلمون الذين جاهدوا والذين لم يجاهدوا. فنزلت الاية، ذكره الزجاج.

قوله تعالى:

ألذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون (٢١) آية.

موضع " الذين " رفع بالابتداء وخبره اعظم درجة. اخبر الله تعالى ان الذين آمنوا يعني صدقوا بالله واعترفوا بوحدانيته، وأقروا بنبوة نبيه، وهاجروا عن اوطانهم التي هي دار الكفر إلى دار الاسلام، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله. ومعناه يتضاعف فضلهم عند الله مع شرف الجنس.

ولو قال اعلى درجة افاد شرف الجنس فقط.

وقوله " اولئك هم الفائزون " اخبار منه تعالى ان من وصفه هم الذين يظفرون بالبغية ويدركون الطلبة، لان الفوز هو الظفر بالبغية وهو والفلاح والنجاح نظائر.

وقيل: إنه يلحق بمثل منزلة المجاهدين من لم يجاهد بأن يجاهد في طلب العلم الديني فيتعلمه ويعلم غيره ويدعو اليه والى الله. وربما كانت هذه المنزلة فوق تلك فان قيل كيف قال " اعظم درجة " من الكفار بالساقية والسدانة؟ قلنا: على ما روينا عن ابي جعفر وابي عبدالله (عليهما السلام) وابن عباس وغيرهم لايتوجه السؤال عن

ذلك لان المفاضلة جرت بينهم، لان لجميعهم الفضل عند الله ومن لا يقول ذلك يجيب بجوابين: احدهما – انه على تقدير ان لهم بذلك منزلة كما قال تعالى " اصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا " (١) هذا قول الحسن وأبي علي. والثاني – قال الزجاج المعنى اعظم من غيرهم درجة. و (الذي) يجوز وصفها ولا يجوز وصف " من " اذا كانت بمعنى الذي، لان " من " تكون تارة معرفة موصولة فلذلك افترقا. وقيل معنى " الفائزي " انهم الظافرون بثواب الله الذي استحقوه على طاعتهم.

قوله تعالى:

يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم (٢٢) آية.

في الاية اخبار من الله تعالى بالبشارة واعلام للذين آمنوا وهاجروا برحمة من جهته تعالى، والبشرى والبشارة الدلالة على ما يظهر به السرور في بشرة الوجه تقول بشرته أبشره بشرى وابشر ابشارا واستبشر استبشارا وتباشر تباشرا وبشره تبشيرا فاما باشره مباشرة، فبمعنى لاقاه ببشر ورضوان. وهو معنى يستحق بالاحسان، يدعو إلى الحمد على ما كان، ويضاد سخط الغضبان، تقول: رضي رضا ورضوانا وأرضاه إرضاء وترضاه ترضيا وارتضاه ارتضاء واسترضاه استرضاء وتراضوه تراضيا.

وقوله " وجنات " يعني البساتين التي يجنها الشجر، وأما الرياض فهي الموطأة للخضرة التي قد ينبت فيها نبات الزهر ومنه الرياضة لانها توطئة لتقريب العمل.

وقوله " لهم فيها نعيم مقيم " فالنعيم لين العيش اللذيذ، وهو مشتق من النعمة

---

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٢٤

(*)

وهي اللين، وأما النعمة بكسر النون، فهي منفعة يستحق بها الشكر لانها كنعم العيش والمقيم الدائم بخلاف الراحل فكأنه قال: المقيم ابدا.

قوله تعالى:

خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم (٢٣) آية.

" خالدين " نصب على الحال من الهاء والميم في قوله: " لهم " والخلود في العرف الدوام في الشئ كالخلود في الجنة مأخوذ من قولهم: خلد هذا الكتاب في الديوان على تقدير الدوام من غير انقطاع. والابد الزمان المستقبل من غير آخر كما أن (قط) للماضي تقول: ما رأيته قط، ولا أراه ابدا وجمع الابد آباد وأبود تقول لا أفعل ذلك أبدا، وتأبد المنزل اذا اقفر وأتى على الابد، والا وابد الوحوش سميت بذلك لطول أعمارها وبقائها. وقيل: لم يمت وحش حتف أنفه وانما يموت بآفة، وجاء فلان بأبدة اي بداهية وأتان آبد تسكن القفر متأبدة.

وقوله " ان الله عنده أجر عظيم " اخبار منه تعالى ان عنده الجزاء أي في مقدوره الجزاء الذي يستحق بالاعمال تقول: أجره يأجره أجرا وآجره إجارة واستأجره استئجارا ومنه الاجير.

وقوله " عظيم " يعني كبير متضاعف لاتبلغه نعمة غيره من الخلق، والابد قطعة من الدهر متتابعة في اللغة قال الحر بن البعيث:

أهاج عليك الشوق اطلاق ذمنة * بناصفة البردين أو جانب الهجل

اتى ابد من دون حدثان عهدها * وجرت عليها كل نافحة شمل (١)

ومن الدليل على أن الايد قطعة من الدهر أنه ورد مجموعا في كلامهم. قالت صفية بنت عبدالمطلب تخاطب ولدها الزبير:

وخالجت آباد الدهور عليكم * وأسماء لم تشعر بذلك أيم

---

(١) اللسان " شمل "

(*)

فلو كان زبر مشركا لعذرته * ولكن زبرا يزعم الناس مسلم

ويقال: تأبد الربيع إذا مر عليه قطعة من الدهر وليس يعنون انه مر عليه أبد لاغاية له قال مزاحم العقيلي:

أتعرف بالغريق دارا تأبدت * من الحي واستبقت عليها العواصف

فأما الخلود، فليس في كلام العرب ما يدل على انه بقاء لاغاية له وإنما يخبرون به عن البقاء إلى مدة كما قال المخبل السعدي:

الا رمادا هامدا دفعت * عنه الرياح خوالد سحم (١)

اراد دفع الرياح عن النؤي إلى هذا الوقت هذه الاثافي التي بقيت إلى هذا الوقت.

قوله تعالى:

يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الايمان ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون (٢٤) آية.

روي عن ابي جعفر وابي عبدالله (عليهما السلام) ان هذه الاية نزلت في حاطب بن بلتعة حيث كتب إلى قريش بخبر النبي (صلى الله عليه وآله) حين أراد فتح مكة.

هذه خطاب من الله تعالى للمؤمنين ينهاهم فيه عن اتخاذ آبائهم وإخوانهم أولياء متى استحبوا الكفر. وآثروه على الايمان. و " الاتخاذ " هو الافتعال من اخذ الشئ. والاتخاذ اعداد الشئ لامر من الامور.

واتخاذهم اولياء: هو ان يعتقدوا موالاتهم ووجوب نصرتهم فيما ينوبهم، وليس ذلك بمانع من صلتهم. والاحسان اليهم، لانه تعالى حث على ذلك، فقال: " وان جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا

---

(١) مر هذا البيت في ٢ / ٢٨

(*)

معروفا (١). والاب والوالد نظائر. والاخ الشقيق في النسب من قبل الاب والام، وكل من رجع مع آخر إلى واحد في النسب من والد ووالد ة، فهو أخ.

والاولياء جمع ولي وهو من كان مختصا بايلاء التصرف في وقت الحاجة. وقال الحسن: من تولى المشرك. فهو مشرك. وهذا إذا كان راضيا بشركه، ويكون سبيله سبيل من يتولى الفاسق أن يكون فاسقا.

وقوله " إن استحبوا الكفر على الايمان " معناه إن طلبوا محبة الكفر على الايمان. وقد يكون استحب بمعنى أحب كما ان استجاب بمعنى اجاب. ثم اخبر تعالى ان من استحق الكفار على المؤمنين فانهم أيضا ظالمون نفوسهم والباخسون حظها من الثواب، لانهم وضعوا الموالاة في غير موضعها.

قوله تعالى قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشير تكم وأموال اقتر فتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لايهدي القوم الفاسقين (٢٥) آية.

قرأ ابوبكر عن عاصم و " عشيراتكم " على الجمع. الباقون على التوحيد.
من جمع فلان كل واحد من المخاطبين له عشيرة، فاذا جمع قال وعشيراتكم.
ومن افرد قال العشيرة تقع على الجمع. وقال ابوالحسن: العرب لاتجمع العشيرة عشيرات. وانما تقول عشائر.

---

(١) سورة ٣١ لقمان آية ١٥
(*)

(١٩٦)

أمر تعالى بهذه الاية نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يخاطب هؤلاء الذين تخلفوا عن الهجرة إلى دار الاسلام. وأقاموا بدار الكفر، وقال الجبائي: هو خطاب للمؤمنين أجمع وتحذير لهم من ترك الجهاد وحث لهم عليه، فأمره أن يقول لهم " إن كان (باؤكم " الذين ولدوكم " وأبناؤكم " الذين ولدتموهم، وهم الاولاد الذكور " وأزواجكم " جمع زوجة وهي المرأة التي عقد عليها عقدة نكاح صحيح، لان ملك اليمين والمعقود عليها عقد شبهة لاتسمى زوجة " وعشيرتكم " وهي الجماعة التي ترجع إلى عقد كعقد العشرة. ومنه المعاشرة، وهي الاجتماع على عقد يعم.
ومنه العشار النوق التي أتى على حملها عشرة أشهر " وأموال جمع مال " اقترفتموها " أي اقتطعتموها واكتسبتموها، ومثله الاحتراف. والاقتراف اقتطاع الشئ عن مكانه إلى غيره " وتجارة تخشون كسادها " يعني ما اشتريتموه طلبا للربح تخافون خسرانها ووقوفها " ومساكن " جمع مسكن وهي المواضع التي تسكنونها وترضونها " أحب اليكم من الله ورسوله " يعني آثر في نفسوكم وأقرب إلى قلوبكم. والمحبة إرادة خاصة للشئ فمن أحب الجهاد فقد أراد فعله ومن أحب الله أراد شكره وعبادته ومن أحب النبي أراد إجلاله وإعظامه. والذي اقتضى نزول هذه الاية محبتهم التي منعتهم الهجرة. وقوله " فتربصوا " اي فتثبتوا. والتربص التثبت في الشئ حتى يجئ وقته. والتربص والتنظر والتوقف نظائر في اللغة. ونقيضه التعجل بالامر.
وقال مجاهد قوله " حتى يأتي الله بأمره " من عقوبة عاجلة أو آجلة. وقوله " والله لا يهدي القوم الفاسقين " معناه إنه لايهديهم إلى الثواب والجنة لانه تعالى قد هداهم إلى الايمان فقال " وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى " (١)
قوله تعالى:
لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم

---

(١) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ١٧
(*)

(١٩٧)

كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين (٢٦) آية.
أقسم الله تعالى في هذه الاية - لان لام " لقد " لام القسم - بأنه نصر المؤمنين في مواطن كثيرة ومواطن في موضع جر ب " في " وانما نصب، لانه لاينصرف لانه جمع لانظير له في الاحاد، فلا ينصرف. وجر كثيرة على المواضع وأنثه على اللفظ. ومواطن جمع موطن. ومعنى النصر الغلبة على العدو. والمعونة قد تكون في حمل الثقيل، وتكون في شراء متاع وتكون في قضاء حاجة، ولايكون النصر إلا المعونة على العدو خاصة. والمواطن هو الموضع الذي يقيم فيه صاحبه وإنما قد أقاموا في هذه المواطن للقتال. ومعنى كثيرة روي عن أبي عبدالله (عليه السلام) انها كانت ثمانين موطنا، والكثيرة عدة زائدة على غيرها فهي كثيرة بالاضافة إلى ما دونها قليلة بالاضافة إلى ما فوقها.
وقوله " ويوم حنين "، وحنين اسم واد بين مكة والطائف في قول قتادة.
وقال عروة: هو واد إلى جانب ذي المجاز، فلذلك صرف، ويجوز ترك صرفه على انه اسم للبقعة قال الشاعر:
نصروا نبيهم وشدوا أزره * بحنين يوم تواكل الابطال (١)
وقوله " إذ أعجبتكم كثرتكم " فالاعجاب السرور بما يتعجب منه، والعجب السرور بالنفس على الفخر بما يتعجب منه. وقال قتادة: إنه كان سبب انهزام المسلمين يوم حنين أن بعضهم قال حين رأى كثرة المسلمين يوم حنين لانهم كانوا اثني عشر ألفا، فقال: لن نغلب اليوم عن قلة. فانهزموا بعد ساعة. وقيل: إنهم كانوا عشرة آلاف. وقال بعضهم: ثمانية آلاف والاول أشهر. ولما انهزموا لم يبق مع النبي (صلى الله عليه وآله) الا تسعة نفر من بني هاشم وأيمن ابن ام ايمن. والعباس بن عبد

---

(١) قائله حسان ديوانه ٣٣٤ ومعاني القرآن ١ / ٤٢٩ واللسان (حنن)
(*)

(١٩٨)

المطلب. وابوسفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعلي بن ابي طالب (عليه السلام) في آخرين، فأخذ النبي (صلى الله عليه وآله) كفا من الحصباء فرماهم به، وقال شاهت الوجوه فانهزم المشركون.

وقوله " فلم تغن عنكم شيئا " معناه لم تغن كثرتكم شيئا، والاغناء اعطاء ما يرفع الحاجة. ولذلك قيل في الدعاء أغناك الله " فلم تغن عنكم شيئا " معناه لم تعطلكم مايرفع حاجتكم.

وقوله " وضاقت عليكم الارض بما رحبت " معناه ليس فيها موضع يصلح لكم لفراركم عن عدوكم. والضيق مقدار ناقص عن مقدار، والرحب السعة في المكان وقد يكون في الرزق. والسعة في النفقة.

وقوله " ثم وليتم مدبرين " فالادبار الذهاب إلى جهة الخلف والاقبال إلى جهة القدام. والمعنى وليتم عن عدوكم منهزمين. وتقديره وليتموهم الادبار.

وكانت غزوة حنين عقيب الفتح في شهر رمضان أو في شوال سنة ثمان.

فان قيل كيف قال انه نصرهم في مواطن كثيرة؟ والمؤمنون منصورون في جميع الاحوال؟ قلنا عنه جوابان: أحدهما – ان ذلك اخبار بأنه نصرهم دفعات كثيرة ولا يدل على انه لم ينصرهم في موضع آخر، والثاني – لانهم لما انهزموا لم يكونوا منصورين وكان ذلك منهم خطأ وإن وقع مكفرا.

قوله تعالى:

ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين (٢٧) آية.

(١٩٩)

اخبر الله تعالى أنه حين انهزم المسلمون وبقي النبي (صلى الله عليه وآله) في نفر من قومه أنه أنزل السكينة، وهي الرحمة التي تسكن اليها النفس ويزول معها الخوف حتى رجعوا اليهم. وقاتلوهم وهزمهم الله تعالى بأن أنزل النصر وأنزل السكينة. وقيل السكينة هي الطمأنينة والامنة. وقال الحسن: هي الوقار قال الشاعر:

لله قبر غالها ماذا يجن * لقد اجن سكينة ووقارا (١)

وقوله " وأنزل جنودا لم تروها " والجنود هي الجموع التي تصلح للحروب.

والمراد بها هاهنا الملائكة، جند واجناد وجنود، فانزل الله الملائكة مددا للمؤمنين وقال الجبائي: إنما نزلت الملائكة يوم حنين من جهة الخاطر الذي يشجع قلوبهم ويجبن عنهم اعداءهم، ولم تقاتل إلايوم بدر خاصة.

وقوله " وعذب الذين كفروا " معناه – هاهنا – القتل والاسر وسلب الاموال مع الاذلال والصغار. ثم قال " وذلك " يعني ذلك العذاب " جزاء الكافرين " من جحد نعم الله وانكر وحدانيته، وجحد نبوة نبيه مع ما أعده لهم من عذاب النار.

قوله تعالى:

ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم (٢٨) آية معنى (ثم) هاهنا العطف على الفعل الاول، وقد ذكرت (ثم) في ثلاثة مواضع متقاربة: فالاول – عطف على ما قبلها. والثانية – عطف على " وليتم مدبرين، ثم انزل الله سكينته " والثالثة – عطف على (أنزل.. ثم يتوب) وانما حسن عطف المستقبل على الماضي لانه مشاكله فان الاول تذكير بنعمه والثاني وعد بنعمه.

والتوبة هي الندم على ما مضى من القبيح، والعزم على أن لايعود إلى مثله إما في

---

(١) مجاز القرآن ١ / ٢٨٦

(*)

الجنس او في القبح على الخلاف فيه، فشرط الندم بالعزم، لان الندم إنما هو على الماضي والعزم على ما يستقبل، فلو لم يجتمعا لم تكن توبة. ومعنى " ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء " انه يقبل التوبة من بعد هزيمة من انهزم. ويجوز أن يكون المراد بعد كفر من كفر يقبل توبة من يتوب ويرجع إلى طاعة الله والاسلام ويندم على ما فعل من القبيح " على من يشاء " وإنما علقه بالمشيئة، لان قبول التوبة واسقاط العقاب عندها تفضل – عندنا – ولو كان ذلك واجبا لما جاز تعلق ذلك بالمشيئة كما لم يعلق الثواب على الطاعة والعوض على الالم في موضع بالمشيئة. ومن خالف في ذلك قال: إنما علقها بالمشيئة، لان منهم من له لطف يؤمن عنده فالله تعالى يشاء أن يلطف له مع صرف العمل في ترك التوبة إلى الله.

وقوله " والله غفور رحيم " معناه انه ستار للذنوب لا يفضح احدا على معاصيه بل يسترها عليه إذا تاب منها، وهو رحيم بعباده.

قوله تعالى:

يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس لا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم علية فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم (٢٩) آية.

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين يخبرهم فيه أن المشركين انجاس ويأمرهم ان يمنعوا المشركين من أن يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا أي الذي أشار اليه، وهي سنة تسع من الهجرة التي نبذ فيها براءة المشركين. وكانت بعده حجة الوداع – وهو قول قتادة وغيره من المفسرين – والمراد بالمسجد الحرام الحرم كله – في قول عطاء وغيره – وكل شئ مستقذر في اللغة يسمى نجسا، فاذا استعمل مفرد قيل: نجس – بفتح النون والجيم معا – ويقع على الذكر والانثى سواء. وظاهر

الاية يقتضي أن الكفار أنجاس، ولا يجوز مع ذلك أن يمكنوا من دخول شئ من المساجد، لان شركهم أجري مجرى القذر الذي يجب تجنبه، وعلى هذا من باشر يد كافر، وجب عليه ان يغسل يده إذا كانت يده او يد المشرك رطبة. وإن كانت ايديهما يا بستين مسحها بالحائط. وقال الحسن: من صافح مشركا فليتوضأ، ولم يفصل.

واختلفوا في هل يجوز دخولهم المسجد الحرام بعد تلك السنة أم لا؟ فروي عن جابر ابن عبدالله، وقتادة أنه لايدخله احد إلا أن يكون عبدا او أحدا من اهل الذمة. وقال عمر بن عبدالعزيز: لا يجوز لهم دخول المسجد الحرام، ولا يدخل احد من اليهود والنصارى شيئا من المساجد بحال. وهذا هو الذي نذهب اليه. وقال الطبري وقتادة: سموا انجاسا، لانهم لايغتسلون من جنابة.

وقوله " فان خفتم عيلة " فالعيلة الفقر، تقول: عال يعيل إذا افتقر قال الشاعر:

وما يدري الفقير متى غناه * وما يدري الغني متى يعيل (١)

وكانوا خافوا انقطاع المتاجر بمنع المشركين، فقال الله تعالى " وإن خفتم عيلة " يعني فقرا بانقطاعهم، فالله يغنيكم من فضله إن شاء – في قول قتادة ومجاهد – وإنما علقه بالمشيئة لاحد أمرين: أحدهما – لان منهم من لا يبلغ هذا المعنى الموعود به، لانه يجوز ان يموت قبله – في قول ابي علي – والثاني – لتنقطع الامال إلى الله تعالى، كما قال " لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمين " (٢). وقوله " أن الله عليم حكيم " معناه عالم بمصالحكم حكيم في منع المشركين من دخول المسجد الحرام.

قوله تعالى:

قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ولايحرمون

---

(١) مر هذا البيت في ٣ / ١٠٩ وهو في مجاز القرآن ١ / ٢٥٥ (٢) سورة ٤٨ الفتح آية ٢٧.

(*)

ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون (٣٠) آية.

قوله تعالى " قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولابالليوم الاخر " امر من الله تعالى لنبيه وللمؤمنين بأن يقاتلوا الذين لايعترفون بتوحيد الله، ولا يقرون باليوم الاخر والبعث والنشور. وذلك يدل على صحة مذهبنا في اليهود والنصارى وأمثالهم انه لايجوز أن يكونوا عارفين بالله وإن

أقروا بذلك بلسانهم. وانما يجور أن يكونوا معتقدين لذلك اعتقادا ليس بعلم. والاية صريحة بأن هؤلاء الذين هم أهل الكتاب الذين تؤخذ منهم الجزية لايؤمنون بالله ولا باليوم الاخر وانه يجب قتالهم " حتى يعطوا الجزية عن يد ". ومن قال: إنهم يجوز أن يكونوا عارفين بالله تعالى، قال: الاية خرجت مخرج الذم لهم، لانهم بمنزلة من لا يقربه في عظم الجرم. كما انهم بمنزلة المشركين في عبادة الله بالكفر. وقال الجبائي:

لانهم يضيفون اليه ما لا يليق به فكأنهم لايعرفونه. وانما جمعت هذه الاوصاف لهم ولم يذكروا بالكفار من اهل الكتاب للتحريص على قتالهم بما هو عليه من صفات الذم التي توجب البراءة منهم والعداوة لهم.

وقوله " ولا يدينون دين الحق " يدل على ان دين اليهودية والنصرانية غير دين الحق، وذلك يقوي انهم غير عارفين بالله، لانهم لو كانوا عارفين كانوا في ذلك محقين، فأما اعتقادهم لشريعة التوارة فانما وصف بأنه غير حق لامرين:

احدهما – انها نسخت فالعمل بها بعد النسخ باطل غير حق. الثاني – ان التوراة التي هي معهم مغيرة مبدلة لقوله " يحرفون الكلم عن مواضعه " (١) ويقلبونه عن معانيه.

وقوله " ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله " معناه انهم لايعترفون بالاسلام.

---

(١) سورة ٤ النساء آية ٤٥ وسورة ٥ المائدة آية ١٤

(*)

الذي هو الدين الحق، ولا يسلمون لامر الله الذي بعث به نبيه محمد (صلى الله عليه وآله) في تحريم حرامه وتحليل حلاله. والدين في الاصل الطاعة قال زهير:

لئن حللت بجو في بني اسد * في دين عمرو وحالت بيننا فدك (١)

وقوله " حتى يعطوا الجزية عن يد " فالجزية عطية عقوبة جزاء على الكفر بالله على ما وضعه رسول الله (صلى الله عليه وآله) على أهل الذمة – وهو على وزن جلسة، وقعدة – لنوع من الجزاء. وإنما قيل " عن يد " ليفارق حال الغصب على اقرار أحد. وقال ابوعلي: معناه يعطونا من ايديهم يجيئون بها بنفوسهم لاينوب عنهم فيها غيرهم إذا قدروا عليه. فيكون أذل لهم. وقال قوم: معناه عن نقد كما يقال: باع يدا بيد. وقال آخرون: معناه عن يد لكم عليهم ونعمة تسدونها اليهم بقبول الجزية منهم. وقال الحسين بن علي المغربي: معناه عن قهر، وهو قول الزجاج.

وقوله " وهم صاغرون " فالصغار الذل والنكال الذي يصغر قدر صاحبه، صغر يصغر صغارا، فهو صاغر. وقيل: الصغار اعطاء الجزية قائما، والاخذ جالس ذهب اليه عكرمة والجزية لاتؤخذ عندنا إلا من اليهود والنصارى والمجوس. وأما غيرهم فلايقبل منهم غير الاسلام أو السبي. وانما كان كذلك لماعلم الله تعالى من المصلحة في اقرار هؤلاء على كفرهم ومنع ذلك في غيرهم، لان هؤلاء على كفرهم يقرون بألسنتهم بالتوحيد وبعض الانبياء، وان لم يكونوا على الحقيقة عارفين. واولئك يجحدون ذلك كله، فلذلك فرق بينهما.

فان قيل: اعطاء الجزية منهم لايخلوا أن يكون طاعة او معصية، فان كان معصية فكيف أمر الله بها؟ وإن كان طاعة وجب أن يكونوا مطيعين لله.

قلنا: إعطاؤهم ليس بمعصية. وأما كونها طاعة لله فليس كذلك، لانهم انما يعطونها دفعا للقتل عن انفسهم لاطاعة لله. فان الكافر لايقع منه طاعة عندنا

---

(١) ديوانه ١٨٣ ومجاز القرآن ١ ٢٨٦ وتفسير الطبري ١٤ ١٩٨

(*)

بحال، لانه لو فعل طاعة لله لاستحق الثواب والاحباط باطل، فكان يجب ان يكون مستحقا للثواب وذلك خلاف الاجماع.

قوله تعالى:

وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهؤن قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون (٣١) آية.

قرأ " عزير " بالتنوين عاصم والكسائي وعبدالوارث عن ابي عمرو. الباقون بترك التنوين. وقرأ عاصم وحده " يضاهؤن " بالهمزة. الباقون بغير همزة.

من ترك التنوين في " عزير " قيل في وجه ذلك ثلاثة أقوال: أحدها – انه اعجمي معرفة لاينصرف. والثاني – لان ابن هاهنا صفة بن علمين والخبر محذوف والتقدير معبودنا أو نبينا عزير ابن الله. الثالث – انه حذف التنوين لالتقاء الساكنين تشبيها بحرف اللين، كما قال الشاعر:

فالفيته غير مستعتب * ولا ذاكر الله إلا قليلا (١)

هذا الوجه قول الفراء: وعند سيبويه هو ضرورة في الشعر قال أبوعلي:

من نونه جعله مبتدأ وجعل ابنا خبره، ولابد مع ذلك من التنوين في حال السعة والاختيار، لان ابا عمرو وغيره يصرف عجميا كان او عربيا.

ومن حذف التنوين يحتمل وجهين: أحدهما – أنه جعل الموصوف والصفة بمنزلة اسم واحد، كما يقال: لارجل ظريف. وحذف التنوين ولم يحرك لالتقاء الساكنين، كما يحرك يازيد العاقل، لان الساكنين كأنهما التقيا في تضاعيف كلمة واحدة، فحذف الاول منهما ولم يحرك لكثرة الاستعمال. والوجه الاخر –

---

(١) مر تخريجه في ٢ / ٧٦ تعليقة ٣

(*)

أن يجعل مبتدأ والاخر الخبر مثل من نون وحذف التنوين لالتقاء الساكنين، وعلى هذا قراءة من قرأ " قل هو الله احد الله " فحذف التنوين لالتقاء الساكنين.

فان قيل كيف أخبر الله عن اليهود بانهم يقولون عزير ابن الله واليهود تنكر هذا؟ ! قلنا: إنما اخبر الله بذلك عنهم، لان منهم من كان يذهب اليه، والدليل على ذلك ان اليهود في وقت ما انزل الله القرآن سمعت هذه الاية فلم تنكرها. وهو كقولك: الخوارج تقول بتعذيب الاطفال، وإنما يقول بذلك الازارقة منهم خاصة.

قال ابن عباس: القائل لذلك جماعة جاءوا إلى النبي (صلى الله عليه وآله)، فقالوا له ذلك، وهم سلام ابن مشكم، ونعمان بن اوفى، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، فانزل الله فيهم الاية.

وقوله " ذلك قولهم بأفواههم " معنا انه لايرجع إلى معنى صحيح: فهو لا يجاوز افواههم، لان المعنى الصحيح ما رجع إلى ضرورة العقل او حجته او برهانه او دليل سمعي. وقوله " يضاهؤن قول الذين كفروا من قبل " معناه يشابهون. ومنه قولهم امرأة ضهياء التي لاتحيض، ولايخرج ثدياها اي اشبهت الرجال. وقال أبوعلي الفارسي: ليست يضاهؤن من قولهم امرأة ضهياء، لان هذه الهمزة زائدة غير اصلية لانه ليس في الكلام شئ على وزن (فعيآء) ويشبه ان يكون ذلك لغة، كما قالوا ارجأت وأرجيت. واختار الزجاج أن تكون الهمزة أصلية، كما جاء كثير من الاشياء على وزن لايطرد نحو (كنهبل) وهو الشجر العظام، وكذلك (قر نفل) لانظيرله. ووزنه (فعنلل).

وقال ابن عباس " الذين كفروا " اراد به عبدة الاوثان، وقال الفراء: يشابهونهم في عبادة اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى. وقال قوم في قولهم: الملائكة بنات الله. وقال الزجاج: شابهوهم في تقليدهم اسلافهم في هذا القول.

وقوله " قاتلهم الله " قيل في معناه ثلاثة اقوال: احدها – قال ابن عباس معناه لعنهم الله. الثاني – معناه قتلهم الله كقولهم عافاه الله من السوء. الثالث –

(٢٠٦)

كالمقاتل لغيره في عداوة الله.

وقوله " انى يؤفكون " معناه كيف يصرفون عن الحق إلى الافك الذي هو الكذب، ورجل مأفوك عن الخير وارض مأفوكة صرف عنها المطر قال الشاعر:

أنى الم بك الخيال تطيف قوله تعالى:

اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون (٣٢) آية.

اخبر الله تعالى عن هؤلاء اليهود والنصارى الذين حكى حكايتهم انهم اتخذوا احبارهم، وهو جمع حبر، وهو العالم الذي صناعته تحبير المعاني بحسن البيان وقيل حبر وحبر – بفتح الباء وكسرها – حكاه الفراء. والرهبان جمع راهب وهو الخاشي الذي يظهر عليه للناس الخشية. وقد كثر استعماله في متنسكي النصارى وروي عنه (صلى الله عليه وآله) أن معنى اتخاذهم أربابا أنهم قبلوا منهم التحريم والتحليل بخلاف ما أمر الله تعالى، وهو المروي عن ابي جعفر وابي عبدالله (عليهما السلام)، فسمى الله ذلك اتخاذهم إياهم أربابا من حيث كان التحريم والتحليل لايسوغ إلا الله تعالى. وهو قول أكثر المفسرين.

وقوله " والمسيح ابن مريم " عطف على الارباب أي واتخذوا عيسى ربا.

وقوله " وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا " معناه ان الله تعالى لم يأمر هؤلاء اليهود والنصارى وغيرهم إلا بعبادة الله وحده لاشريك له. ثم أخبر فقال " لا إله إلا هو سبحانه " يعني تنزيها عما يشركون. ومعنى سبحانه براءة الله من السوء كما قال الشاعر:

(٢٠٧)

أقول لما جاءني فخره * سبحان من علقمة الفاخر (١)

والاية تدل على أن المشرك مع الله في التحليل والتحريم على مخالفة امر الله كالمشرك في عبادة الله، لان استحلال ما حرم الله كفر بالاجماع. وكل كافر مشرك ولا يلزم على ذلك أن يكون من قبل من الشيطان باغوائه فارتكب المعاصي أن يكون كافرا على ما استدل به بعض الخوارج، لانه إذا قبل من الشيطان ما يعتقد انه معصية ولا يقصد بذلك طاعة الشيطان ولا تعظيمه يكون فاسقا، ولايكون كافرا. وليس كذلك من ذكره الله تعالى في الاية، لانهم كانوا يقبلون تحريم علمائهم واحبارهم ويقصدون بذلك تعظيمهم. ولا يلزم على ذلك قبول المعاصي من العالم، لان العامي يعتد بالرجوع إلى العالم فيقبل منه ما أدى اجتهاده اليه وعلمه، فاذا قصد العالم وافتاه بغير ما علمه فهو المخطئ دون المستفتي. وليس كذلك هؤلاء، لانهم ما

كانوا تعبدوا بالرجوع إلى الاحبار والقبول منهم لانهم لو كانوا تعبدوا بذلك لما ذمهم الله على ذلك.

قوله تعالى:

يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولوكره الكافرون (٣٣) آية.

اخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى انهم " يريدون ان يطفؤا نور الله بافواههم " والاطفاء اذهاب نور النار. ثم استعمل في اذهاب كل نور. و " نور الله " القرآن والاسلام، في قول المفسرين: السدي والحسن. وقال الجبائي: نور الله: الدلالة والبرهان، لانه يهتدى بها كما يهتدى بالانوار.

وواحد الافواه فم في الاستعمال، وأصله فوه فحذفت الهاء وأبدلت من الواو

---

(١) قائله الاعشى. وقد مر تخريجه في ٣ / ٨١

(*)

ميم، لانه حرف صحيح من مخرج الواو مشاكل لها. ولما سمى الله تعالى الحجج والبراهين نورا سمى معارضتهم له اطفاء. وأضاف ذلك إلى الافواه، لان الاطفاء يكون بالافواه، وهو النفخ، وهذا من عجيب البيان مع ما فيه من تصغير شأنهم وتضعيف كيدهم، لان النفخ يؤثر في الانوار الضعيفة دون الاقباس العظيمة ذكره الحسين بن علي المغربي. وقوله " ويأبي الله الا ان يتم نوره " الاباء الامتناع مما طلب من المعنى. قال الشاعر:

وإن أرادوا ظلمنا أبينا أي منعناهم من الظلم، وليس الاباء من الكراهة في شئ على ما يقول المجبرة لانهم يقولون: فلان يأبى الضيم، فيمدحونه، ولا مدحة في كراهة الضيم لتساوي الضعيف والقوي في ذلك. وإنما المدح في المنع خاصة، ولذلك مدح عورة بن الورد بأنه أبى للضيم بمعنى أنه ممتنع منه، وقوله (وإن ارادوا ظلمنا أبينا) يدل على ذلك لانه لامدحة في ان يكرهوا ظلم من يظلمهم. وإنما المدحة في منع من أراد ظلمهم. والمنع في الاية يمنع الله إلا إتمام نوره. وإن كره الكافرون. ولايجوز على قياس " ويأبى الله إلا أن يتم نوره " أن تقول: ضربت إلا أخاك، لان في الاباء معنى النفي، فكأنه قال: لايمكنهم الله إلا أن يتم نوره. وإذا لم يكن في اللفظ مستثنى منه لم تدخل " إلا " في الايجاب، وتدخل في النفي على تقدير الحذف قال الشاعر:

وهل لي أم غيرها ان تركتها * أبى الله إلا أن اكون لها ابنما (١)

والتقدير في الاية ويأبى الله كل شئ الا اتمام نوره. في قول الزجاج، وأنكر أن يكون في الاية معنى الجحد.

---

(١) تفسير القرطبي ٨ / ١٢١ ومعاني القرآن ٤٣٣١.
(*)

(٢٠٩)

قوله تعالى:

هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٣٤) آية.

اخبر الله تعالى انه " هو الذي ارسل رسوله " (صلى الله عليه وآله) وحمله الرسالة التي يؤديها إلى امته " بالهدى " يعني بالحجج والبينات والبيان لما يؤديهم العمل به إلى ابواب الجنة. و " دين الحق " هوالاسلام وما تضمنه من الشرائع، لانه الذي يستحق عليه الجزاء بالثواب. وكل دين سواه باطل لانه يستحق به العقاب. ومن شأن الرسول أن يكون أفضل من جميع أمته من حيث يجب عليهم طاعته وامتثال ما يأمرهم به بما هو مصلحة لهم، ولانه رئيس لهم في الدين، ويقبح تقديم المفضول على الفاضل فيما كان أفضل فيه.

وقوله " ليظهره على الدين كله " معناه ليعلي دين الاسلام على جميع الاديان بالحكم والغلبة والقهر لهم. وقال البلخي: ظهوره على جميع الاديان بالحكم، لان جميع الاديان نال المسلمون منهم وغزوا فيهم وأخذوا سبيهم وجزيتهم.

وفي الاية دلالة على صدق نبوته (صلى الله عليه وآله) لانها تضمنت الوعد بظهور الاسلام على جميع الاديان، وقد صح ظهوره عليها. وقال ابوجعفر (عليه السلام) ان ذلك يكون عند خروج القائم (عليه السلام). وقال ابن عباس: إن الهاء في " ليظهره " عائدة إلى الرسول (صلى الله عليه وآله) أي ليعلمه الله الاديان كلها حتى لايخفى عليه شئ منها.

قوله تعالى:

يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين

(٢١٠)

يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم (٣٥) آية.

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين يعلمهم أن كثيرا من احبار اليهود وعلمائهم ورؤسائهم، وكثيرا من رهبان النصارى ليأكلون أموال الناس بالباطل من حيث كانوا يأخذون الرشا في الاحكام – في قول اسحاق والجبائي – وأكل المال بالباطل تملكه من الجهات التي يحرم منها اخذه. وقيل في معنى " ليأكلون اموال الناس بالباطل " وجهان: احدهما – انهم يتملكون. وفوضع يأكلون موضعه لان الاكل غرضهم. والثاني – يأكلون اموال الناس من الطعام، فكأنهم يأكلون الاموال، لانها من المأكول، كما قول الشاعر:

ذر الا كلين الماء لوما فما أرى * ينالون خيرا بعد أكلهم الماء (١)

اي ثمن الماء. وقوله " ويصدون عن سبيل الله " معناه يمنعون غيرهم من اتباع الاسلام الذي هو سبيل الله التي دعاهم إلى سلوكها. والغرض بذلك التحذير من اتباعهم والتهوين على المسلمين مخالفتهم.

وقوله " والذين يكنزون الذهب والفضة، ولا ينفقونها في سبيل الله " معناه الذين يخبؤن أموالهم من غير ان يخرجوا زكاتها، لانهم لو اخرجوا زكاتها وكنزوا ما بقي لم يكونوا ملومين بلا خلاف. وهو قول ابن عباس: وجابر، وابن عمر، والحسن والسدي، والجبائي. قال: وهو إجماع. واصل الكنز كبس الشئ بعضه على بعض.

ومنه قولهم كنز التمر والطعام قال الهذلي:

لادر دري إن أطعمت نازلكم * قرف الحتي وعندي البر مكنوز (٢)

---

(١) اللسان (أكل) وروايته (من) بدل (ذر) و (ظلما) بدل (لوما).

(٢) مقاييس اللغة ٢ / ١٣٦ واللسان " كنز ".

(*)

الحتي سويق المقل. وقوله " ولا ينفقونها في سبيل الله " إنما لم يقل ولا ينفقونهما لاحد أمرين: احدهما – ان تكون الكناية عائدة إلى مدلول عليه وتقديره ولاينفقون الكنوز أو الاموال. والاخر – ان يكون اكتفى بأحدهما عن الاخر للايجاز ومثله " وإذا رأوا تجارة او لهوا انفضوا اليها " (١) وقال حسان:

إن شرخ الشباب والشعر الاس * ود ما لم يعاص كان جنونا (٢)

وقال الاخر:

نحن ما عندنا وانت بما * عندك راض والرأي مختلف (٣)

وكان يجب ان يقول راضيان. ومعنى البيت نحن بما عندنا راضون وأنت بما عندك راض وحذف الخبر من الاول لدلالة الثاني عليه كما حذف المفعول في الثاني لدلالة الاول عليه في قوله " والذاكرين الله كثيرا والذاكرات " (٤) والتقدير والذاكرات الله. ومثل ذلك الاية. وتقديرها والذين يكنزون الذهب ولا ينفقونه في سبيل الله ويكنزون الفضة ولا ينفقونها في سبيل الله. وموضع " والذين يكنزون " يحتمل وجهين من الاعراب: أحدهما – ان يكون نصبا بالعطف على اسم (إن)

وتقديره: يأكلون والذين يكنزون الذهب: والثاني – ان يكون رفعا على الاستئناف.

وقال ابن عمر كل ما اخرجت زكاته فليس بكنز، وبه قال عكرمة. وقال الجبائي وغيره: " الذين يكنزون " نزلت في مانعي الزكاة من أهل الصلاة. وقال قوم: نزلت في المشركين، والاولى أن تحمل الاية على العموم في الفريقين.

وقوله " فبشرهم بعذاب اليم " قيل في معناه قولان:

أحدهما – ان اصل البشرى مما يظهر في بشرة الوجه من فرح او غم، إلا

---

(١) سورة ٦٢ الجمعة آية ١١ (٢) تفسير القرطبي ٨ / ١٢٨ ومجاز القرآن ١ / ٢٥٨ (٣) تفسير القرطبي ٨ / ١٢٨ ومعاني القرآن ١ / ٤٣٤، ٤٤٥.

(٤) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٣٥.

(*)

انه كثر استعماله في الفرح كما قال الجعدي.

وأراني طربا في إثرهم * طرب الواله اء كالمختبل (١)

لان أصل الطرب ما يستخف من سرور او حزن.

والثاني – انه وضع الوعيد بالعذاب الاليم موضع البشرى بالنعيم. وروي عن علي (عليه السلام) انه قال: كلما زاد على أربعة الاف، فهو كنز. أديت زكاته او لم تؤد، وما دونها فهو نفقة. وقال أبوذر: من ترك بيضاء او صفراء كوي بها وسئل رسول الله (صلى الله عليه وآله) عند نزول هذه الاية أي مال يتخذ، فقال: لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة تعين احدكم على دينه.

قوله تعالى:

يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون (٣٦) آية.

قوله " يوم يحمى " متعلق بقوله " فبشرهم بعذاب اليم " في يوم يحمى عليها.

ومعناه انه يدخل الذهب والفضة إلى النار فيوقد عليها يعني على الكنوز التى كنزوا فالهاء في قوله " عليها " عائدة على الكنوز او الفضة.

والاحماء جعل الشئ حارا في الاحساس، وهو فوق السخان، وضده النبريد تقول: حمى حما وأحماه احماء إذا امتنع من حر النار.

وقوله " فتكوى " فالكي إلصاق الشئ الحار بالعضو من البدن. ومنه قولهم اخر الداء الكي لغلظ أمره كقطع العضو إذا عظم فساده تقول: كواه يكويه؟؟؟

---

(١) مقاييس اللغة ٣ / ٤٤٥ واللسان (خيل).

(*)

واكتوى اكتواء. وقوله " جباههم " جمع جبهة وهي صفحة اعلى الوجه فوق الحاجبين.

وجبهه بالمكروه يجبهه جبها إذا استقبله به " وجنوبهم " جمع جنب والجنب والضلع والابطل نظائر " وظهورهم " جمع ظهر، وهو الصفحة العليا من خلف، المقابلة للبطن يقال: كتب في ظهر الدرج وبطنه إذا كتب في جانبيه. والمعنى ان الله يحمي هذه الكنوز بالنار ليكوي بها جباه من كنزها ولم يخرج حق الله منها وجنوبهم وظهورهم، فيكون ذلك اشد لعذابهم وأعظم لخزيهم.

وقوله " هذا ما كنزتم " اي يقال لهم: هذا ما ذخرتموه لانفسكم " فذقوا ما كنتم تكنزون " ومعناه فاطعموا جزاء ما كنتم تدخرونه من منع الزكوات والحقوق الواجبة في أموالكم.

قوله تعالى:

إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والارض منها أربعة ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين (٣٧) آية.

قرأ ابوجعفر " اثنا عشر " و " أحد عشر " و " تسعة عشر " بسكون الشين فيهن إلا أن النهرواني روى عنه حذف الالف التي قبل العين.

لما ذكر الله تعالى وعيد الظالم لنفسه بكنز المال من غير اخراج الزكاة وغيرها من الحقوق التي لله منه اقتضى ذلك ان يذكر النهي عن مثل حاله، وهو الظلم في الاشهر الحرم التي تؤدي إلى مثل حاله او شر منها في سوء المنقلب، فأخبر تعالى " ان عدة الشهور " في السنة على ما تعبد الله المسلمين بأن يجعلوه لسنتهم دون ما يعتبره مخالفوا الاسلام " إثنا عشر شهرا " وانما قسمت السنة اثني عشر شهرا لتوافق أمر

الاهلة مع نزول الشمس في اثني عشر برجا تجري على حساب متفق، كما قال:
" الشمس والقمر بحسبان " (١) والشهر مأخوذ من شهرة أمره لحاجة الناس اليه في معاملاتهم ومحل ديونهم وحجهم وصومهم، وغير ذلك من مصالحهم المتعلقة بالشريعة.
وقوله " في كتاب الله " معناه فيما كتبه الله في اللوح المحفوظ وفي الكتب المنزلة على أنبيائه.
وقوله " يوم خلق السماوات والارض " متصل ب " عند الله " والعامل فيها الاستقرار. ثم بين أمر هذه الاثني عشر شهرا " منها أربعة حرم " وهي ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب: ثلاثة سرد وواحد فرد كما يعتقده العرب.
ومعنى " حرم " انه يعظم انتهاك المحارم فيها اكثر مما يعظم في غيرها، وكانت العرب تعظمها حتى ان الرجل لو لقي قاتل أبيه لم يهجه لحرمته. وانما جعل الله تعالى بعض الشهور اعظم حرمة من بعض لما علم في ذلك من المصلحة في الكف عن الظلم فيها، فعظم منزلتها، وانه ربما أدى ذلك إلى ترك الظلم اصلالا نطفاء النائرة تلك المدة وانكسار الحمية، فان الاشياء تجر إلى اشكالها.
وقوله " ذلك الدين القيم " معناه التدين بذلك هو الدين المستقيم.
وقوله " فلا تظلموا فيهن أنفسكم " نهي منه تعالى لخلقه عن أن يظلموا انفسهم لان من فعل قبيحا يستحق عليه العقاب، فقد ظلم نفسه بذلك بادخال الضرر عليها وقال ابومسلم: معناه لاتدعوا قتال عدوكم في هذه الاشهر بأجمعكم، ولا تمتنعوا من أحد الا من دخل تحت الجزية والصغار، وكان من أهلها بدلالة قوله " وقاتلوا المشركين كافة " وكافة مشتقة من كفة الشئ وهي طرفه وانما أخذ من أن الشئ إذا انتهى إلى ذلك كف عن الزيادة، ولا يثنى كافة ولا يجمع.
وقوله " وقاتلوا المشركين كافة " امر منه تعالى بقتال المشركين أجمع: امر

---

(١) سورة ٥٥ الرحمان آية ٥
(*)

الله تعالى المؤمنين بأن يقاتلوهم كمأن المشركين يقاتلونهم كذلك، والضمير في قوله " فيهن " يحتمل أن يكون عائدا على الشهور كلها على ما قال ابن عباس، ويحتمل أن يعود على الاربعة الحرم على ما قال قتادة لعظم أمرها. واختار الفراء رجوعه إلى الاشهر الحرم. قال

لانه لو رجع إلى الاثني عشر لقال فيها. والصحيح ان الجميع جائز وانما خص الاربعة اشهر بذلك في قول قتادة لتعاظم الظلم لان أن الظلم يجوز فعله على حال من الاحوال.

وقوله " ذلك الدين القيم " معناه ذلك الحساب الصحيح هو الدين القيم لا ما كانت عليه العرب من النسئ. وقيل: معناه ذلك التدين هو الدين القيم. وقوله " كافة " نصب على المصدر، ولايدخل عليها الالف واللام، لانه من المصادر التي لاتتصرف لوقوعه موقع معا وجمعا بمعنى المصدر الذي هو في موضع الحال المذكورة، فهو في لزوم النكرة نظير أجمعين في لزوم المعرفة.

وقوله " واعلموا ان الله مع المتقين " لمعاصيهم وما يؤدي إلى عقابه ويكون معهم بالنصرة والولاية دون الاجتماع في مكان او محل، لان الله لايجوز عليه ذلك لانه من امارت الحدث.

قوله تعالى:

إنما النسئ زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطؤا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لايهدي القوم الكافرين (٣٨) آية قرأ ابوجعفر وابن فرج عن البزي " انما النسي " من غير همز قلب الهمزة ياء وادغم الياء الاولى فيها فلذلك شدد.. الباقون " النسئ " ممدود مهموز على وزن فعيل. وروي عن ابن مجاهد وابن مسعود عن عبيد بن عقيل عن شبل عن ابن كثير

" النسء " على وزن النسع. وقرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر " يضل " بضم الياء وفتح الضاد. وقرأ يعقوب بضم الياء وكسر الضاد. الباقون بفتح الياء وكسر الضاد قال ابوعلي: وجه قراءة ابن كثير اذا قرأت على وزن النسع ان (النسئ)

التأخير. قال ابوزيد: نسأت الابل في ظمئها يوما او يومين او اكثر من ذلك، والمصدر " النسئ " ويقال: الابل نسأتها على الحوض وأنا أنسأنها نسئأ إذا اخرتها عنه. قال: وما روي عن ابن كثير من قراءته بالياء فذلك على ابدال الياء من الهمزة، ولا أعلمها لغة في التأخير، كما ان ارجيت لغة في ارجأت. وما روي فيه من التشديد فعلى تخفيف الهمز، لان النسي بتشديد الياء على وزن فعيل بالتخفيف قياسي. وسيبويه لايجيز نحو هذا القلب الذي في النسئ الافي ضرورة الشعر. وابن زيد يراه ويروي كثيرا عن العرب. ومن قرأ بالمد والهمز فلانه اكثر هذا في المعنى. قال أبوزيد: أنسأته الدين إنساء إذا أخترته واسم ذلك النسيئة والنسأ. وكان النسئ في الشهور تأخير حرمة شهر إلى شهر ليست له تلك الحرمة فيحرمون بهذا التأخير ما أحل الله ويحلون ما حرم الله. والنسئ مصدر كالنذير والنكير وعذير الحي. ولايجوز أن يكون (فعيلا) بمعنى مفعول لانه حمل على ذلك كأن معناه انما المؤخر زيادة في

الكفر. المؤخر الشهر وليس الشهر نفسه بزيادة في الكفر، وانما الزيادة في الكفر تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر ليست له تلك الحرمة. وقال ابوعبيدة فيما روى عن الثوري من قوله: انما النسئ زيادة في الكفر، قال: كانوا قد وكلوا قوما من بني كنانة يقال لهم:

بنوا فقيم وكانوا يؤخرون المحرم وذلك نساء الشهور لايفعلون ذلك الا في ذي الحجة اذا اجتمعت العرب للموسم، فينادي مناد أن افعلوا ذلك لحاجة او لحرب، وليس كل سنة يفعلون ذلك، فان ارادوا ان يحلوا المحرم نادوا هذا صفر وان المحرم الاكبر صفر، وربما جعلوا صفرا محرما مع ذي القعدة حتى يذهب الناس إلى منازلهم إذا نادى المنادي بذلك، وكانوا يسمون المحرم صفرا ويقدمون ويقدمون صفرا سنة ويؤخرونه.

(٢١٧)

وقال الفراء: والذي يتقدم به رجل بني كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة وكان رئيس الموسم، فيقول: أنا الذي لا أعاب ولا أجاب ولايرد لي قضاء فيقولون:

نعم صدقت انسئنا شهرا اوأخر عنا حرمة المحرم واجعلها في صفر وأحل المحرم فيفعل ذلك. وانما دعاهم إلى ذلك توالي ثلاثة اشهر حرم لايغيرون فيها وكان معاشهم في الغارة. والذي كان ينسأها حين جاء الاسلام هو جنادة بن عوف بن ابي امية وكان في بني معدإن قبل بنو كنانة قال الشاعر:

ألسنا الناسئين على معد * شهور الحل نجعلها حراما (١)

وقال ابن عباس كانوا يجعلون المحرم صفرا وقال ابوعلي: كانوا يؤخرون الحج في كل سنة شهرا وكان الذين ينسؤن بنو سليم، وغطفان، وهو ازن، ووافق حج المشركين في السنة التي حج فيها ابوبكر في ذي القعدة، فلما حج النبي (صلى الله عليه وآله) في العام المقبل وافق ذلك في ذي الحجة فلذلك قال: ألا إن الزمان قد استدركه كهيئة يوم خلق السماوات والارض وقال مجاهد: فكان النسئ المنهي عنه في الاية تأخير الاشهر الحرم عما رتبها الله، وكانوا في الجاهلية يعملون ذلك وكان الحج يقع في غير وقته واعتقاد حرمة الشهر في غير أوانه، فبين تعالى أن ذلك زيادة في الكفر.

قال ابوعلي: من قرأ " يضل " بفتح الياء وكسر الضاد قال الذين كفروا لايخلوا أن يكونوا مضلين لغيرهم أوضالين هم في انفسهم فاذا كان كذلك لم يكن في حسن اسناد الضلال في قوله " يضل " اشكال، ألا ترى أن المضل لغيره ضال بفعله اضلال غيره كما ان الضال في نفسه الذي لم يضله غيره لايمتنع اسناد الضلال اليه ومن ضم الياء وكسر الضاد فمعناه ان كبراءهم واتباعهم يضلونهم بأمرهم اياهم بحملهم على هذا التاخير في الشهور. وروي في

التفسير ان رجلا من كنانة يقال له ابوثمامة كان يقول للناس في منصرفهم من الحج إن آلهتكم قد اقسمت

---

(١) قائله الكميت. تفسير القرطبي ٨ / ١٣٨

(*)

لنحر من. وربما قال لنحلن هذا الشهر يعني المحرم فيحلونه ويحرمون صفرا وان حرموه احلوا صفرا وكانوا يسمونهما الصفرين فهذا اضلال من هذا المنادي.

ومن قرأ بضم الياء وفتح الضاد – وقيل انها قراءة ابن مسعود – يقوي ذلك قوله " زين لهم سواء اعمالهم " اي زين ذلك لهم حاملوهم عليه وداعوهم اليه. وعلى هذه القراءة يكون " الذين كفروا " في موضع رفع بانهم فاعلون والمفعول به محذوف وتقديره يضل منسؤا الشهور الذين كفروا تابعيهم والاخذين لهم بذلك.

ومعنى قوله " ليواطئوا " فالمواطأة موافقة امر التوطئة المعنى ليواطئوا العدة في الاربعة اشهر.

وقوله " زين لهم اعمالهم " قال الحسن وأبوعلي المزين لهم انفسهم والشيطان وقيل: زين بالشهوة وليجتنبوا المشتهى فذكر ذلك للتحذير والاعتراف به. والتزيين يكون بمعنى الفعل له ويكون بمعنى تقبل الطبع. وإنما سمي انساؤهم زيادة في الكفر من حيث أنهم اعتقدوا أن ذلك صحيح وصواب فلذلك كان كفرا فلا حجة في ذلك ان تكون افعال الجوارح كفرا.

وقوله " والله لا يهدي القوم الكافرين " معناه انه لايهديهم إلى طريق الجنة اذ كانوا كفارا مستحقين لعذاب الابد.

قوله تعالى:

يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الارض أرضيتم بالحيوة الدنيا من الاخرة فما متاع الحيوة الدنيا في الاخرة إلا قليل (٣٩) آية.

هذا خطاب من الله تعالى لجماعة من المؤمنين وعتاب وتوبيخ لهم بأنهم إذا قيل لهم على لسان رسوله " انفروا في سبيل الله " ومعناه اخرجوا في سبيل الله يعني الجهاد

وسماه سبيل الله، لان القيام به موصل إلى معنى الجنة ورضا الله تعالى والنفر الخروج إلى الشئ لامر هيج عليه وضده الهدوء تقول: نفر إلى الثغر ينفر نفرا ونفيرا ولايقال النفور إلا

في المكروه كنفور الدابة عما تخاف، وقوله " اثاقلتم إلى الارض " اصله تثاقلتم وادغمت التاء في الثاء لمناسبتها لها وادخلت الف الوصل ليمكن الابتداء بها ومثله اداركوا قال الشاعر:

تولى الضجيع إذا ما استافها خصرا * عذب المذاق إذا ما اتابع القبل (١)

والتثاقل تعاطي اظهار ثقل النفس ومثله التباطئ وضده التسرع. ومعنى " اثاقلتم إلى الارض " قيل فيه قولان:

احدهما – إلى المقام بارضكم ووطنكم.

الثاني – لما اخرج من الارض من الثمر والزرع. قال الحسن ومجاهد:

دعوا إلى الخروج إلى غزوة تبوك بعد فتح مكة وغزوة الطائف، وكان ايام ادراك الثمرة ومحبة القعود في الظل فعاتبهم الله على ذلك. والاية مخصوصة بقوم من المؤمنين دون جميعهم، لان من المعلوم ان جميعهم لم يكن بهذه الصفة من التثاقل في الجهاد، وهو قول الجبائي وغيره. فقال الله تعالى لهم على جهة التوبيخ، والتعنيف ارضيتم بالحياة الدنيا على الاخرة، آثرتم الحياة الدنيا الفانية على الحياة الاخرة الباقية. وهو استفهام، والمراد به الانكار. والرضا هو الارادة غير انها لاتوصف بذلك إلا اذا تعلقت بما مضى من الفعل والارادة توصف بما لم يوجد بعد قال تعالى مخبرا " فما متاع الحياة الدنيا في الاخرة الا قليل " اي ليس الانتفاع بما يظهر للحواس الاقيل ومنه قولهم: تمتع بالرياض والمناظر الحسان. ويقال للاشياء التي لها أثمان: متاع تشبيها بالانتفاع به.

---

(١) معاني القرآن ١ / ٤٣٨ والطبري ١٤ / ٢٥٢ (استاف) الشئ قرب منه وشمه، و (القبل) – بضم القاف – جمع قبلة.

(*)

(٢٢٠)

قوله تعالى:

إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شئ قدير (٤٠) آية.

هذا تحذير من الله تعالى لهؤلاء الذين استبطأهم ووصفهم بالتثاقل عن سبيل الله بقوله " إلا تنفروا " أي إن لم تخرجواالى سبيل الله التي دعيتم اليها من الجهاد " يعذبكم عذابا اليما ويستبدل قوما غيركم " يقومون بنصرة نبيه ولا يتثاقلون فيه.

والاستبدال جعل أحد الشيئين بدل الاخر مع الطلب له والتعذيب بطول وقت العذاب، لانه من الاستمرار وقد يكون عقابا وغير عقاب.

وقوله " ولاتضروه شيئا " قيل فيمن يرجع اليه قولان: احدهما – انه يعود على اسم الله في قول الحسن. قال: لانه غني بنفسه عن جميع الاشياء والاخر – قال الزجاج: إنها تعود إلى النبي (صلى الله عليه وآله) لان الله عصمه من جميع الناس وقوله " والله على كل شئ قدير " معناه قادر على الاستبدال بكم وعلى غيره من الاشياء. وفيه مبالغة.

قوله تعالى:

إلا تنصروه فقد نصره الله إذا أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم (٤١) آية.

قرأ يعقوب وجده " وكلمة الله هي العليا " بالنصب على تقدير وجعل كلمة الله هي العليا ومن رفع استأنف، وهو أبلغ لانه يفيد أن كلمة الله العليا على كل حال.

وهذا ايضا زجر آخر وتهديد لمن خاطبه في الاية الاولى بانهم إن لم ينصروا النبي (صلى الله عليه وآله) ولم يقاتلوا معه ولم يجاهدوا عدوه " فقد نصره الله " أي قد فعل الله به النصر حين اخرجه الكفار من مكة " ثاني اثنين ". وهو نصب على الحال اي هو ومعه آخر، وهو ابوبكر في وقت كونهما في الغار من حيث " قال لصاحبه " يعني ابا بكر " لاتحزن " اي لا تخف. ولا تجزع " ان الله معنا " أي ينصرنا. والنصرة على ضربين: احدهما – يكون نعمة على من ينصره. والاخر – لايكون كذلك، فنصرة المؤمنين تكون إحسانا من الناصر إلى نفسه لان ذلك طاعة لله ولم تكن نعمة على النبي (صلى الله عليه وآله). والثاني – من ينصر غيره لينفعه بما تدعوا اليه الحكمة كان ذلك نعمة عليه مثل نصرة الله لنبيه (صلى الله عليه وآله) ومعنى " ثاني اثنين " أحد اثنين يقولون هذا ثاني اثنين، وثالث ثلاثة، ورابع أربعة، وخامس خمسة، لانه مشتق من المضاف اليه. وقد يقولون خامس اربعة أي خمس الاربعة بمصيره فيهم بعد أن لم يكن.

والغار ثقب عظيم في الجبل. قيل: وهو جبل بمكة يقال له ثور، في قول قتادة.

وقال مجاهد: مكث النبي (صلى الله عليه وآله) في الغار مع ابي بكر ثلاثا. وقال الحسن: أنبت الله على باب الغار ثمامة، وهي شجيرة صغيرة. وقال غيره: الهم العنكبوت؟؟؟؟ على باب الغار. وأصل الغار الدخول إلى عمق الخباء. ومنه قوله " إن أصبح ماؤكم غورا " (١) وغارت عينه تغور غورا اذا دخلت في رأسه. ومنه أغار على القوم إذا أخرجهم من أخبيتهم بهجومه عليهم.

وقوله " فأنزل الله سكينته عليه " قيل فيمن تعود الهاء اليه قولان: احدهما – قال الزجاج: إنها تعود إلى النبي (صلى الله عليه وآله). والثاني – قال الجبائي: تعود على أبي بكر

---

(١) سورة ٦٧ الملك آية ٣٠

(*)

لانه كن الخائف واحتاج إلى الامن لان من وعد بالنصر فهو ساكن القلب. والاول أصح، لان جميع الكنايات قبل هذا وبعده راجعة إلى النبي (صلى الله عليه وآله) ألا ترى أن قوله " إلا تنصروه " الهاء راجعة إلى النبي (صلى الله عليه وآله) بلا خلاف، وقوله " فقد نصره الله " فالهاء أيضا راجعة إلى النبي (صلى الله عليه وآله) وقوله " اذا اخرجه " يعني النبي (صلى الله عليه وآله) " اذ يقول لصاحبه " يعني صاحب النبي صلى الله عليه اله ثم قال " فأنزل الله سكينته عليه " وقال بعده " وأيده بجنود " يعني النبي (صلى الله عليه وآله) فلا يليق أن يتخلل ذلك كله كناية عن غيره وتأييد الله إياه بالجنود ما كان من تقوية الملائكة لقلبه بالبشارة بالنصر من ربه ومن القاء اليأس في قلوب المشركين حتى انصرفوا خائبين.

وقوله " وجعل كلمة الذين كفروا السفلى " أي جعلها نازلة دنية وأراد بذلك أن يسفل وعيدهم النبي (صلى الله عليه وآله) وتخويفهم إياه فأبطل وعيدهم ونصر رسول الله والمؤمنين عليهم فعبر عن ذلك بأنه جعل كلمتهم كذلك، لانه خلق كلمتهم كما قال " وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا " (١).

وقيل: إن كلمة الذين كفروا الشرك، وكلمة الله التوحيد، وهي قول:

لااله الا الله. وقيل: كلمتهم هو ما تغامزوا عليه ومن قتله. و " كلمة الله " ما وعد به من النصر والنجاة. ثم أخبر ان " كلمة الله هي العليا " المرتفة اي هي المنصورة بغير جعل جاعل، لانها لايجوز أن تدعو إلى خلاف الحكمة. وقوله " والله عزيز " معناه قادر لايقهر " حكيم " واضع الاشياء مواضعها ليس فيها وجه من وجوه القبح.

وليس في الاية ما يدل على تفضيل أبي بكر، لان قوله " ثاني اثنين " مجرد الاخبار أن النبي (صلى الله عليه وآله) خرج ومعه غيره، وكذلك قوله " اذ هما في الغار " خبر عن كونهما فيه، وقوله " اذ يقول لصاحبه " لامدح فيه أيضا، لان تسمية الصاحب لاتفيد فضيلة ألا ترى أن الله تعالى قال في صفة المؤمن والكافر " قال له صاحبه وهو

---

(١) سورة ٤٣ الزخرف آية ١٩.

(*)

يحاوره أكفرت بالذي خلقك " (١) وقد يسمون البهيمة بأنها صاحب الانسان كقول الشاعر (وصاحبي بازل شمول) وقد يقول الرجل المسلم لغيره: ارسل اليك صاحبي اليهودي، ولايدل ذلك على الفضل، وقوله " لاتحزن " إن لم يكن ذما فليس بمدح بل هو نهي محض عن الخوف، وقوله " إن الله معنا " قيل إن المراد به النبي (صلى الله عليه وآله)، ولو أريد به أبوبكر معه لم يكن فيه فضيلة، لانه يحتمل أن يكون ذلك على وجه التهديد، كما يقول القائل لغيره إذا رآه يفعل القبيح لاتفعل إن الله معنا يريد أن متطلع علينا، عالم بحالنا. والسكينة قد بينا أنها نزلت على النبي (صلى الله عليه وآله) بما بيناه من ان التأييد بجنود الملائكة كان يختص بالنبي (صلى الله عليه وآله) فأين موضع الفضلية للرجل لولا العناد، ولم نذكر هذا للطعن على ابي بكر بل بينا أن الاستدلال بالاية على الفضل غير صحيح.

قوله تعالى:

إنفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (٤٢) آية.

هذا امر من الله تعالى للمؤمنين أن ينفروا إلى جهاد المشركين خفافا وثقالا وقيل في معنى " خفافا وثقالا " ثمانية أقوال: احدها – قال الحسن ومجاهد والضحاك والجبائي: إن معناه شبانا وشيوخا. وثانيها – قال صالح: معناه أغنياء وفقراء. وثالثها – قال ابن عباس وقتادة: نشاطا وغير نشاط. ورابعها – قال ابوعمرو: ركبانا ومشاة. وخامسها – قال ابن زيد: ذا صنعة وغير ذي صنعة.

وسادسها – قال الحكم: مشاغيل وغير مشاغيل. وسابعها – قال الفراء: ذو العيال، والميسرة: هم الثقال، وذو العسرة وقلة العيال هم الخفاف. وثامنها – ان يحمل

---

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٣٨

(*)

على عمومه فيدخل فيه جميع ذلك، وهو الاولى والاليق بالظاهر، وهو اختيار الطبري، والرماني ويكون ذلك على حال خفة النفير وثقله لان هذا الذي ذكر يجري مجرى التمثيل لما يعمل هذا العمل به.

وقوله " وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم " أمر من الله لهم بأن يجاهدوا في قتال اعدائه بأموالهم وأنفسهم. والجهاد بالمال واجب كالجهاد الانفس، وهو الانفاق في سبيل الله، وظاهر الاية يدل

على وجوب ذلك بحسب الامكان. فمن لم يطق الجهاد إلا بالمال فعليه ذلك يعين به من ليس له مال.

وظاهر الاية يقتضي وجوب مجاهدة البغاة كما يجب مجاهدة الكفار، لانه جهاد في سبيل الله، ولقوله " فقاتلوا التي تبغي حتى تفئ إلى امر الله " (١) فأوجب قتال البغاة إلى حين يرجعوا إلى الحق. وقوله " ذلكم خير لكم " إشارة إلى الجهاد وتقديره ذلك الجهاد خير لكم. وإنما قال " خير لكم " وان لم يكن في ترك الجهاد خير، لاحد أمرين: احدهما - خير من تركه إلى المباح. والثاني - ان فيه الخير لكم لافي تركه، فلايكون خير بمعنى أفعل من كذا.

وقوله " إن كنتم تعلمون " معناه إن كنتم تعلمون الخير في الجملة فاعلموا أن هذا خير. وقال أبوعلي: معناه " ان كنتم تعلمون " صدق الله فيما وعد به من الثواب الدائم.

وقال أبوالضحى: أول ما نزل من سورة براءة " انفروا ".

وقال مجاهد: أول ما نزل قوله " لقد نصركم الله.

وقال ابن عباس: نسخ هذه الاية قوله " وما كان المؤمنون لينفروا كافة " (٢).

وقال جعفر بن قيس: هذا ليس بمنسوخ، لان المنسوخ مالا يجوز فعله.

وهذا ليس بصحيح، لانه يجوز أن يكون وجوبه زال إلى الندب او الاباحة.

---

(١) سورة ٤٩ الحجرات آية ٩ (٢) سورة ٩ التوبة آية ١٢٣

(*)

(٢٢٥)

قوله تعالى:

لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لا تبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون (٤٣) آية.

هذه الاية في قوم تخلفوا عن النبي (صلى الله عليه وآله) ولم يخرجوا معه إلى غزوة تبوك.

وحسن الكناية عنهم وإن لم يجر لهم ذكر لكونهم داخلين في جملة الذين أمروا بالخروج مع النبي (صلى الله عليه وآله) إلى الجهاد وأن ينفروا معه. والمعنى لو كان المدعو اليه عرضا قريبا من الغنيمة وما يطمع فيه من المال " وسفرا قاصدا " معناه سفرا سهلا باقتصاده من غير طول في آخره. وسمي العدل قصدا، لانه مما ينبغي أن يقصد " لاتبعوك " يعني خرجوا معك وبادروا إلى اتباعك " ولكن بعدت عليهم الشقة " اي بعدت عليهم المسافة، لانهم دعوا إلى الخروج إلى تبوك ناحية الشام، فالشقة القطعة من الارض التي يشق ركوبها على صاحبها

لبعدها. ويحتمل أن يكون من الشق ويحتمل ان يكون من المشقة. والشقة السفر والمشاقة. وقريش يضمون الشين، وقيس يكسرونها. وقريش يضمون العين من (بعدت).

وقوله " وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم " اخبار منه تعالى ان هؤلاء الذين ذكرهم يحلفون ويقسمون على وجه الاعتذار اليك ويقولون فيما بعد " لو استطعنا لخرجنا معكم " اي لو قدرنا وتمكنا من الخروج لخرجنا معكم ثم اخبر تعالى انهم " يهلكون أنفسهم " بذلك واخبر تعالى انه يعلم انهم يكذبون في هذا الخبر الذي أقسموا عليه. وفي الاية دلالة على أن الاستطاعة قبل الفعل لانهم لايخلون من احد امرين: إما أن يكونوا مستطيعين من الخروج وقادرين عليه ولم يخرجوا اولم يكونوا قادرين عليه وإنما حلفوا أنهم لو قدروا في المسقبل

لخرجوا، فان كان الاول فقد ثبت ان القدرة قبل الفعل، وإن كان المراد الثاني فقد أكذبهم الله في ذلك وبين انه لو فعل لهم الاستطاعة لما خرجوا، وفي ذلك أيضا تقدم القدرة على المقدور، وليس لهم أن يجعلوا الاستطاعة على آلة السفر وعدة الجهاد، لان ذلك ترك الظاهر من غير ضرورة فان حقيقة الاستطاعة القدرة وإنما يشبه غيرها بها على ضرب من المجاز، على انه إذا كان عدم الالة والعدة يعذر صاحبه في التأخر فمن ليس فيه قدرة اولى بأن يكون معذورا وفي الاية دلالة على النبوة لانه اخبر انهم سيحلفون في المستقبل على ذلك بالله " لو استطعنا لخرجنا معكم " فجاؤا فيما بعد وحلفوا على ما اخبر به.

قوله تعالى:

عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين (٤٤) آية.

هذه خطاب فيه بعض العتاب للنبي (صلى الله عليه وآله) في إذنه من استأذنه في التأخر فأذن له، فأخبر الله بأنه كان الاولى ان لاتأذن لهم وتلزمهم الخروج معك حتى اذا لم يخرجوا ظهر نفاقهم، لانه متى أذن لهم ثم تأخروا لم يعلم بالنفاق كان تأخر هم أم بغيره. وكان الذين استأذنوه منافقين. وحقيقة العفو الصفح عن الذنب، ومثله الغفران، وهو ترك المؤاخذة على الاجرام. وقد كان يجوز أن يعفو الله عن جميع المعاصي كفرا كان او غيره، غير أنه أخبر أنه لايعفو عن عقاب الكفر، لاجماع الامة على ذلك، وما عداه من الفسق باق على ما كان عليه من الجواز.

وانما قال " عفا الله عنك " على غير لفظ المتكلم لانه أفخم من الكناية لان هذا الاسم من اسماء التعظيم كما أن قولك إن رأي الامير افخم من قولك إني رأيت.

وقال ابوعلى الجبائي: في الاية دلالة على ان النبي (صلى الله عليه وآله) كان وقع منه ذنب

في هذا الاذن. قال: لانه لايجوز أن يقال لم فعلت ما جعلت لك فعله؟ كما لايجوز أن يقول لم فعلت ما أمرتك بفعله. وهذا الذي ذكره غير صحيح، لان قوله " عفا الله عنك " إنما هي كلمة عتاب له (صلى الله عليه وآله) لم فعل ما كان الاولى به أن لايفعله، لانه وان كان له فعله من حيث لم يكن محظورا فان الاولى ان لايفعله، كما يقول القائل لغيره إذا رآه يعاتب أخاله: لم عاتبته وكلمته بما يشق عليه؟ وان كان له معاتبته وكلامه بما يثقل عليه. وكيف يكون ذلك معصية وقد قال الله في موضع آخر:

" فان استاذنوك لبعض شأنهم فاذن لمن شئت منهم " وإنما اراد الله أنه كان ينبغي أن ينتظر تاكيد الوحي فيه. ومن قال هذا ناسخ لذلك فعليه الدلالة.

وقوله " لم أذنت " فالاذن رفع التبعة، عاتب الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) لم أذن لقوم من المتأخرين عن الخروج معه إلى تبوك وإن كان له اذنهم لكن كان الاولى ان لايأذن " حتى يتبين لك " حتى يظهر لك " الذين صدقوا " في قولهم لو استطعنا لخرجنا معكم، لانه كان فيهم من اعتل بالمرض والعجز وعدم الحمولة " وتعلم الكاذبين " منهم في هذا القول.

قوله تعالى:

لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الاخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين (٤٥) آية.

أخبر الله تعالى نبيه بعلامة المنافقين والكاذبين بأن بين أنه لايستأذن احد النبي (صلى الله عليه وآله) في التأخر عنه والخروج معه إلى جهاد أعدائه ولايسأله الاذن في التأخر القوم الذين يؤمنون بالله ويصدقون به ويقرون بوحدانيته ويعترفون باليوم الاخر. والاستئذان طلب الاذن من الاذن. ومعنى قوله " أن يجاهدوا " فيه حذف وتقديره لان لا يجاهدوا بحذف (لا) لان ذمهم قد دل عليه – هذا قول ابي علي

الجبائي – وقال الحسن: تقديره كراهية أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم. وقال الزجاج: هو في موضع نصب، لان تقديره في أن يجاهدوا، فلما حذف حرف الجر انتصب، وعند سيبويه وغيره هو في موضع الجر.

وقوله " والله عليم بالمتقين " اخبار منه تعالى بانه يعلم من يتقي معصية الله ويخاف عقابه، ومن لايتقيه. قال ابن عباس هذا تعيير للمنافقين حين استأذنوه في القعود عن الجهاد وعذر للمؤمنين، فقال: لم يذهبوا حتى يسأذنوه. والمعنى انه لم يخرجهم من صفة المتقين إلا انه علم أنهم ليسوا منهم.

فان قيل أي الجهادين أفضل: أجهاد السيف أم جهاد العلم؟ قيل: هـذا بحسـب الحاجـة اليـه والمصلحة فيه، وكذلك الجهاد بالمال والجهاد بالنفس. وإنما يقع التفاضل مع استواء الاحـوال الا بمقدار الخصلة الزائدة من خصال الفضل. وأجاز الرماني الجهاد مع الفسـاق إذا عـاونوا على حق في قتال الكفار لانهم يطيعون في ذلك الفعل كما هم مطيعون في الصلاة والصـيام وغير ذلك من شريعة الاسلام. والظاهر من مذهب أصحابنا أنه لايجوز ذلك إلا ما كان على وجه الدفع عن النفس وعن بيضة الاسلام.

قوله تعالى:

إنما يستأذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الاخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يتـرددون (٤٦) آية.

أخبر الله تعالى في هذه الاية بانه إنما يستأذن النبي (صلى الله عليه وآله) في التأخر عن الجهـاد والقعود عن القتال معه القوم " الذين لايؤمنون بالله " اي لا يصدقون بالله ولايعترفـون بـه " واليوم الاخر " يعني بالبعث والنشور " وارتابت قلوبهم " يعني اضطربت وشكت. والارتيـاب هو الاضطراب في الاعتقاد بالتقدم مرة والتأخر اخرى. والريبة

شك معه تهمة: رابني ريبا وريبة وارتاب ارتيابا، واستراب استرابة.

وقوله " فهم في ريبهم يترددون " معناه فهم في شكهم يذهبون ويرجعون والتردد هو التصرف بالذهاب والرجوع مرات متقاربة، مثل المتحير، رده ردا ورده ترديدا، وتردد ترددا وارتـد ارتدادا، وراده مرادة، وتراد القوم ترادادا، واسترده استردادا. وقوله " في ريـبهم يتـرددون " يدل على بطلان قول من يقول: إن المعارف ضرورة، لانه تعالى أخبـر أنهـم فـي شـكهم يترددون، صفة الشاك المتحير في دينه الذي ليس على بصيرة من أمره. وقيل في معنى اليوم الاخر قولان:

احدهما – انه آخر يوم من أيام الدنيا والمؤذن بالكرة الاخيرة.

الثاني – وهو الاقوى – انه يوم الجزاء والحساب وهو يوم القيامة وهو الاظهر من مفهوم هذه اللفظة.

قوله تعالى:

ولو أرادوا الخروج لاعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مـع القاعـدين (٤٧) آية.

اخبر الله تعالى ان هؤلاء المنافقين لو ارادوا الخروج مع النبي (صلى الله عليه وآله) نصـرة لـه ورغبة في جهاد الكفار كما أراد المؤمنون ذلك لاعدوا للخروج عدة، وهو ما يتهيأ لهم معهـا

الخروج، ولكن لم يكن لهم في ذلك نية وكان عزمهم على أن النبي (صلى الله عليه وآله) ان لم يأذن لهم في الاقامة فخرجوا، أفسدوا عليك وضربوا بين أصحابك، وأفسدوا قلوبهم، فكره الله خروجهم على هذا الوجه، لان ذلك كفر ومعصية. والله لا يكره الخروج الذي أمرهم به، وهو أن يخرجوا لنصرة نبيه وقتال عدوه والجهاد في سبيله كما خرج المؤمنون كذلك، فثبطهم الله عن الخروج الذي عزموا عليه ولم يثبطهم عن الخروج الذي أمرهم به، لان الاول كفر. والثاني طاعة.

وقوله " وقيل اقعدوا مع القاعدين " يحتمل شيئين: أحدهما – أن يكون

القائلون لهم ذلك أصحابهم الذين نهوهم عن الخروج مع النبي نصرة له ورغبة في الجهاد. والثاني – ان يكون ذلك من قول النبي (صلى الله عليه وآله) لهم على وجه التهديد لاعلى وجه الاذن، ويجوز أن يكون إذنه لهم في القعود الذي عاتبه الله عليه. وأنه كان الاولى أن لايأذن لهم فيه، ولا يجوز أن يكون ذلك من قول الله، لانه لو كان كذلك لكان مباحا لهم التأخر. اللهم إلا أن يكون ذلك على وجه التهديد، فيجوز أن يكون ذلك من قول الله. والعدة والاهبة والالة نظائر. والانبعاث الانطلاق بسرعة في الامر، ولذلك يقال: فلان لاينبعث في الحاجة أي ليس له نفاذ فيها.

والتثبط التوقف عن الامر بالتزهيد فيه ومثله التعقيل. وقوله " مع القاعدين " يعني مع النساء والصبيان والمرضى والزمنى، ومن ليس به حراك. وقال ابن اسحاق:

كان الذين استأذنوه اشرافا ورؤساء كعبد الله بن أبي بن ابي سلول والحد بن قيس.

وزاد مجاهد رفاعة بن التابوت وأوس بن قبطي.

قوله تعالى:

لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولا وضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين (٤٨) آية.

بين الله تعالى في هذه الاية الوجوه في كراهية انبعاثهم ووجه الحكمة في تثبيطهم عن ذلك وهو ما علم من ان في خروجهم مفسدة للمؤمنين، لانه قال " لوخرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا " قال الفراء: لو قال ما زادكم يريد خروجهم لكان جائزا، وهذا من سعة العربية. والخبال الفساد، والخبال الموت، والخبال لاضطراب في الرأي بتزيين أمر لقوم وتقبيحه لاخرين ليختلفوا وتفترق كلمتهم.

قوله " ولا وضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة " والايضاع الاسراع في السير بطرح العلق

(٢٣١)

قال الشاعر:

أرانا موضعين لامر غيب * ونسحر بالطعام وبالشراب (١)

وقال آخر:

ياليتني فيها جذع * أخب فيها وأضع (٢)

وربما قالوا للراكب: وضع بغير الف، ومنه وضعت الناقة تضع وضعا، وأوضعتها إيضاعا. ومعنى الايضاع هاهنا إسراعهم في الدخول بينهم للتضريب بنقل الكلام على وجه التخويف. قال الحسن: معناه مشوا بينكم بالنميمة، لافساد ذات بينكم. وقوله " وفيكم سماعون لهم " قيل في معناه قولان:

احدهما – قال قتادة وابن اسحاق: فيكم القابلون منهم عند سماع قولهم، وقوله " إلا خبالا " استثناء منقطع وتقديره ما زادوكم قوة ولكن طلبوا لكم الخبال ويحتمل أن يكون المعنى إنهم على خبال في الرأي فيعقده حتى يصير خبالا فعلى هذا يكون الاستثناء متصلا.

الثاني – قال مجاهد وابن زيد: لهم عيون منهم ينقلون أخباركم إلى المشركين.

وقوله " يبغونكم الفتنة " معناه يطلبون لكم المحنة باختلاف الكلمة والفرقة.

قال الحسن: يبغونكم أن تكونوا مشركين. وأصل الفتنة إخراج خبث الذهب بالنار، تقول: بغيتك كذا بمعني بغيت لك ومثله جلبتك وجلبت لك و " خلالكم " أي بينكم مشتق من التخلل، وهي الفرج تكون بين القوم في الصفوف وغيرها، ومنه قول النبي (صلى الله عليه وآله) تراصوا في الصفوف لايتخللكم اولاد الخذف.

وقوله: " والله عليم بالظالمين " معناه – هاهنا – عالم بمن يستأذن

---

(١) مر تخريجه في ١ / ٣٧٢ (٢) قائله دريد بن الصمة قاله يوم حنين: اللسان (وضع) وسيرة ابن هشام ٤ / ٨٢ وتفسير الطبري ١٤ / ٢٧٨

(*)

(٢٣٢)

النبي (صلى الله عليه وآله) في التأخر شكا في الاسلام ونفاقا، وعالما بمن سمع حديث المؤمن وينقله إلى المنافقن فان هؤلاء ظالمون انفسهم وباخسون لها حظها من الثواب.

قوله تعالى:

لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لكم الامور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون (٤٩) آية.

اقسم الله تعالى أن هؤلاء المنافقين " ابتغوا " أي طلبوا إفساد ذات بينكم وافترق كلمتكم في يوم أحد حتى انصرف عبدالله بن أبي بأصحابه وخذل النبي (صلى الله عليه وآله) وكان هو وجماعة من المنافقين يبغون للاسلام الغوائل قبل هذا، فسلم الله المؤمنين من فتنتهم وصرفها عنهم. وقوله " وقلبوا لك الامور " فالتقليب هو تصريف الشئ بجعل أسفله أعلاه مرة بعد أخرى، فهؤلاء صرفوا القول في المعنى للحيلة والمكيدة وقوله " حتى جاء الحق " أي حتى اتى الحق " وظهر أمر الله وهم كارهون " أي في حال كراهتهم لذلك، فهي جملة موضع الحال. والظهور خروج الشئ إلى حيث يقع عليه الادراك وقد يظهر المعنى للنفس إذا حصل العلم به.

قوله تعالى:

ومنهم من يقول ائذن لي ولاتفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين (٥٠) آية.

قال ابن عباس ومجاهد وابن زيد: نزلت هذه الاية في ألحد بن قيس، وذلك ان النبي (صلى الله عليه وآله) لما دعا الناس إلى الخروج إلى غزوة تبوك لقتال الروم جاءه ألحد ابن قيس، فقال: يا رسول الله إني رجل مستهتر بالنساء فلا تفتني ببنات الاصفر، قال الفراء: سمي الروم أصفر، لان حبشيا غلب على ناحية الروم، وكان له بنات

قد أخذن من بياض الروم وسواد الحبشة فكن صفرا لعسا، فنزلت هذه الاية فيه.

وقال الحسن وقتادة وأبوعبيدة وأبوعلي والزجاج: معنى ولا تفتني ولاتؤثمني بالعصيان في المخالفة التي توجب الفرقة، فتضمنت الاية ان من جملة المنافقين من استأذن النبي (صلى الله عليه وآله) في التأخر عن الخروج، والاذن رفع التبعة في الفعل، وهو والاباحة بمعنى، وقال له " لاتفتني " اي لا تؤثمني بأن تكلفني المشقة في ذلك فأهم بالعصيان أو لا تفتني ببنات أصفر على ما حكيناه، فقال الله تعالى " ألا في الفتنة سقطوا " أي وقعوا في الكفر والمعصية بهذا القول وبهذا الفعل. والسقوط الوقوع إلى جهة السفل ووقوع الفعل حدوثه وسقوطه أيضا. وقوله " وإن جهنم لمحيطة بالكافرين " اخبار منه تعالى أن جهنم مطيفة بما فيها من جميع جهاتها بالكافرين.

والاحاطة والاطافة والاحداق نظائر في اللغة. ولا يدل ذلك على انها لا تحيط بغير الكفار من الفساق الا ترى أنها تحيط بالزبانية والمتولين للعقاب، فلا تعلق للخوارج بذلك.

قوله تعالى:

إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون (٥١) آية.

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) بأن هؤلاء المنافقين الذين ذكر هم متى نال النبي (صلى الله عليه وآله) والمؤمنين حسنة أي نعمة من الله تعالى وظفر باعدائهم وغنيمة ينالونها ساءهم ذلك وأحزنهم، وإن تصبهم مصيبة أي آفة في النفس او الاهل او المال – وأصلها الصوب – وهو الجري إلى الشئ، يقال: صاب يصوب صوبا، ومنه صوب الاناء إذا ميله للجري، والصواب اصابة الحق " يقولوا " يعني هؤلاء المنافقين " قد أخذنا أمرنا من قبل " ومعناه قد حذرنا واحترزنا، في قول مجاهد وغيره، ومعناه

(٢٣٤)

اخذنا امرنا من مواضع الهلكة فسلمنا مما وقعوا فيه " ويتولوا " اي يعرضوا " وهم فرحون " يعني فرحين بتأخرهم وسلامتهم مما نال المؤمنين من المصيبة. والاصابة وقوع الشئ بما قصدبه.

قوله تعالى:

قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولينا وعلى الله فليتوكل المؤمنون (٥٢) آية.

امر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) ان يقول لهؤلاء المنافقين الذين يفرحون بمصيبات المؤمنين وسلامتهم منها " لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا " وقيل في معناه قولان:

احدهما – ان كل ما يصيبنا من خير أو شر فهو مما كتبه الله في اللوح المحفوظ من أمرنا، وليس على ما تظنون وتتوهمون من اهمالنا من غير أن نرجع في أمرنا إلى تدبير ربنا، هذا قول الحسن. الثاني – قال الجبائي والزجاج: يحتمل أن يكون معناه لن يصيبنا في عاقبة أمرنا إلا ما كتب الله لنا في القرآن من النصر الذي وعدنا. وقال البلخي: يجوز ان يكون (كتب) بمعنى علم ويجوز ان يكون بمعنى حكم، والاولان أقوى. فان قيل: ما الفائدة في كتب ما يكون من افعال العباد قبل كونها؟ قلنا في ذلك مصلحة للملائكة ما يقابلون به فيجدونه متفقا في الصحة، مع ان تصور كثرته اهول في النفس وأملا للصدر.

وقوله: " هو مولانا " يحتمل معنيين: احدهما – انه مالكنا ونحن عبيده.

والثاني – فان الله يتولى حياطتنا ودفع الضرر عنا.

وقوله " وعلى الله فليتوكل المؤمنون " امر منه تعالى للمؤمنين ان يتوكلوا عليه تعالى دون غيره. والتوكل تغويض الامر إلى الله والرضا بتدبيره والثقة بحسن اختياره. كما قال " ومن يتوكل على الله فهو حسبه " (١) وحرف الجر الذي في

---

(١) سورة ٦٣ الطلاق آية ٣.

(*)

معنى الظرف متعلق بالامر في قوله " فليتوكل " وتقديره فليتوكل على الله المؤمنون وانما جاز تقديمه لانه لايلبس، ولا يجوز تقديمه على حرف الجزاء لانه يلبس بالجزاء في الجواب.

قوله تعالى:

قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون (٥٣) آية.

روى ابن فليح والبزي إلا النقاش " هل تربصون " بتشديد التاء، وجهه أنه أراد تتربصون فادغم احد التاءين في الاخرى.

امر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) ان يقول لهؤلاء المنافقين " هل تربصون بنا " والتربص التمسك بما ينتظر به مجئ حينه ولذلك قيل تربص بالطعام إذا تمسك به إلى حين زيادة سعره، وقوله " إلا احدى الحسنيين " واحدى الشيئين واحدد منهما، واحد العشر واحد منها، واحدى النساء معناه واحدة منهن. والحسنيان عظيمان في الحسن من النعم ومعانيهما هاهنا إما الغلبة بنصر الله عزوجل والشهادة المودية إلى الجنة، في قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وغيرهم. و (هل) حرف من حروف الاستفهام والمراد هاهنا التقريع بالتربص المؤدي صاحبه إلى كل ما يكرهه من خيبته وفوز خصمه. وقوله " ونحن نتربص بكم " أي قل لهؤلاء: ونحن ايضا نتوقع بكم ان يوقع بكم عذابا " من عنده " يهلككم به " او بأيدينا " بأن ينصرنا عليكم فيقتلكم بأيدينا. وقوله " فتربصوا " صورته صورة الامر والمراد به التهديد كما قال: " اعملوا ما شئتم " (١) " واستفزز من استطعت " (٢) وانما قلنا ذلك لان

---

(١) سورة ٤١ حم السجدة آية ٤٠ (٢) سورة ١٧ الاسرى آية ٦٤

(*)

تربص المنافقين بالمؤمنين تمسك بما يؤدي إلى الهلاك وذلك قبيح لايريده الله ولا يأمر به.

وقال الفراء: العرب تدغم لام هل وبل في التاء خاصة وهو كثير في كلامهم قوله تعالى:

قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين (٥٤) آية.

أمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) ان يقول لهؤلاء المنافقين " انفقوا " وصورته صورة الامر وفيه ضرب من التهديد وهو مثل قوله " فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " (١)

وانما هو بيان عن توسعة التمكين من الطاعة والمعصية، وقال قوم: معناه الخبر الذي تدخل (إن) فيه للجزاء كما قال كثير:

اسيئي بنا او احسني لاملومة * لدينا ولامقلية ان تقلت (٢)

كأنه قال: إن أحسنت أو أسأت لم تلامي، وإنما حسن ان يأتي بصيغة الامر على معنى الخبر بتوسعة التمكين لانه بمنزلة الامر في طلب فعل ما يتمكن الذي قد عرفه المخاطب، كأنه قيل اعمل بحسب مايوجبه الحق فيما مكنت من الامرين.

ووجه آخر أن كل واحد من الضربين كالمأمور به في انه لايعود وبال العائد الاعلى المأمور.

وقوله " طوعا " فالطوع الانقياد بارادة لمن عمل عليها. والكره فعل الشئ بكراهة حمل عليها.

وقوله " لن يتقبل منكم " معناه لايجب لكم به الثواب على ذلك مثل تقبل الهدية ووجوب المكافاة وتقبل التوبة وايجاب الثواب عليها، ومثله في كل طاعة.

وقوله " إنكم كنتم قوما فاسقين " اخبار منه تعالى وخطاب لهؤلاء المنافقين بأنهم كانوا فاسقين متمردين عن طاعة الله، فلذلك لم يقبل نفقاتهم وإنما كانوا ينفقون

---

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٢٩. (٢) معاني القرآن ١ / ٤٤١ وقد مر في ١ / ٣٢٧

(*)

أموالهم في سبيل الله المرياء دفعا عن انفسهم.

قوله تعالى:

وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولايأتون الصلوة إلاوهم كسالى ولاينفقون إلا وهم كارهون (٥٥) آية.

قرأ اهل الكوفة الا عاصما " ان يقبل " بالياء. الباقون بالتاء. وجه قراءة من قرأ بالياء ان التأنيث ليس بحقيقي فجاز أن يذكر كقوله " فمن جاء موعظة " (١)

ومن قرأ بالتاء فعلى ظاهر التأنيث.

والمنع أمر يضاد الفعل وينافيه. والمعنى هاهنا أن هؤلاء المنافقين منعوا انفسهم ان يفعل بهم قبول نفقاتهم، كما يقول القائل: منعته بري وعطائي.

وقوله " ان تقبل " في موضع نصب، وتقديره وما منعهم من أن تقبل وحذف (من). وقوله " إلا أنهم كفروا بالله ورسوله " انهم في موضع رفع والعامل في اعراب انهم يحتمل احد امرين: احدهما – ما منعهم من ذلك إلا كفرهم.

والثاني – أن يكون تقديره ما منعهم الله منه إلا لانهم كفروا بالله. وعندنا ان الكافر لايقع منه الانفاق على وجه يكون طاعة، لانه لو أوقعها على ذلك الوجه لاستحق الثواب. والاحباط باطل، فكان يؤدي إلى ان يكون مستحقا للثواب.

وذلك خلاف الاجماع وعند من خالفنا من المعتزلة وغيرهم يصح ذلك، غير انه ينحبط بكفره فأما الصلاة فلا يصح أن تقع منهم على وجه تكون طاعة بلا خلاف، لان الصلاة طريقها الشرع فمن لايعترف بالشرع لايصح أن يوقعها طاعة، وليس كذلك الانفاق، لان العقل دال على حسنه غير انهم وإن علموا ذلك لايقع منهم

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٧٥

(*)

كذلك على ما بيناه.

وقوله " ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى " اي يقومون اليها على وجه الكسل وذلك ذم لهم بانهم يصلون الصلاة على غير الوجه الذي امروا به، من النفاق الذي يبعث على الكسل عنها دون الايمان الذي يبعث على النشاط لها.

وقوله " ولا ينفقون إلا وهم كارهون " اخبار منه تعالى بأنهم لاينفقون ما ينفقونه لكونه طاعة بل ينفقونه كارهين لذلك وذلك يقوي ما قلناه.

قوله تعالى:

فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحيوة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون (٥٦) آية.

هذا نهي للنبي (صلى الله عليه وآله) والمراد به المؤمنون والمعنى: لا يروق ناظر كم ايها المؤمنون ظاهر حسنها يعني اموال المنافقين والكفار واولادهم تستحسنونه بالطبع البشري. وانما قلنا ذلك. لان النبي (صلى الله عليه وآله) مع زهده لايجوز ان يعجب بها اعجاب مشته لها. وقوله " إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا " وقيل في معنى ذلك وجوه: احدها – قال ابن عباس وقتادة والفراء: ان فيه التقديم والتأخير والتقدير فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم في الحياة الدنيا انما يريد الله ليعذبهم بها في الاخرة، فيكون الظرف على هذا متعلقا بأموالهم وأولادهم، ومثله قوله تعالى " فالقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون " (١) وتقديره فالقه اليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم الثاني – قال ابن زيد: معناه انما يريد الله ليعذبهم بحفظها والمصائب فيها مع حرمان النفقة بها. والثالث – قال الجبائي: تقديره انما

---

(١) سورة ٢٧ النمل آية ٢٨

(*)

يريد الله ليعذبهم في الحياة الدنيا عند تمكن المؤمنين من اخذها وغنمها فيتحسرون عليها ويكون ذلك جزاء على كفرهم نعم الله تعالى بها. والرابع – قال البلخي والزجاج: ان معناه فلا تعجبك اموالهم، فانها وبال عليهم، لان الله يعذبهم بها اي بما يكلفهم من انفاقها في الوجوه التي امرهم بها فتزهق انفسهم لشدة ذلك عليهم لانفاقهم، وهم مع هذا كله كافرون وعاقبتهم النار فيكون قوله " وهم كافرون " اخبارا عن سوء احوالهم وقلة نفع المال والولد لهم ولايكون عطفا على ما مضى.

والخامس – أن يكون المعنى أن مفارقتها وتركها والخروج عنها بالموت صعب عليهم شديد، لانهم يفارقون النعم ولايدرون إلى ماذا يصيرون بعد الموت فيكون حينئذ عذابا عليهم. بمعنى ان مفارقتها غم وعذاب. ومعنى " وتزهق انفسهم " اي تهلك وتذهب بالموت يقال: زهق بضاعة فلان اي ذهبت اجمع. السادس – قال الحسن: اخبر الله تعالى عن عاقبتهم انهم

يموتون على النفاق. وقال: ليعذبهم بزكاتها وانفاقها في سبيل الله، وهو قول البلخي ايضا والزجاج مع اعتقادهم ان ذلك ليس بقربة، فيكون ذلك عذابا أليما.

واللام في قوله " ليعذبهم " يحتمل ان يكون بمعنى (أن) والتقدير إنما يريد الله أن يعذبهم. والزهق الخروج بصعوبة. وأصله الهلاك، ومنه قوله " قل جاء " الحق وزهق الباطل " (١) وكل هالك زاهق، زهق يزهق زهوقا. والزاهق من الدواب السمين الشديد السمن، لانه هالك يثقل بدنه في السير والكر والفر. وزهق فلان بين ايدي القوم إذا زهق سابقا لهم حتى يهلك منهم. والاعجاب السرور بما يعجب منه تقول: اعجبني حديثه اي سرني بظرف حديثه.

وليس في الاية ما يدل على ان الله تعالى اراد الكفر على ما يقوله المجبرة، لان قوله " وهم كافرون " في موضع الحال كقولك اريد ان تذمه وهو كافر واريد ان تضربه وهو عاص وأنت لاتريد كفره ولاعصيانه بل تريد ذمه في حال

---

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ٨١

(*)

كفره وعصيانه، وتقديره الاية إنما يريد الله عذابهم وازهاق انفسهم اي اهلاكها في حال كونهم كافرين، كما يقول القائل للطبيب: اختلف الي كل يوم وأنا مريض، وهو لايريد المرض، ويقول لغلامه: اختلف الي وأنا محبوس، ولايريد حبس نفسه.

قوله تعالى:

ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون (٥٧) آية.

اخبر الله تعالى عن هؤلاء المنافقين انهم يقسمون بالله انهم لمنكم يعني من المؤمنين وعلى دينهم الذي يدينون به. ثم قال الله تعالى مكذبا لهم " وما هم منكم " اي ليسوا مؤمنين مثلكم ولا مطيعين لله في اتباع دينه كما انتم كذلك، ولكنهم قوم يفرقون اخبار منه تعالى ان هؤلاء المنافقين يفرقون من اظهار الكفر لئلا يقتلوا والفرق انزعاج النفس بتوقع الضرر. وأصله من مفارقة الامن إلى حال الانزعاج.

قوله تعالى:

لو يجدون ملجا أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون (٥٨) آية.

قرأ يعقوب " أو مدخلا " بفتح الميم وتخفيف الدال وسكونها. وقرأ شاذ " مدخلا " بضم الميم وسكون الدال.

اخبر الله تعالى عن هؤلاء المنافقين انهم لو وجدوا ملجأ. ومعناه لو ادركوا مطلوبهم، يقال: وجدت الضالة وجدانا ووجدت على الرجل وجدا وموجدة.

والملجأ الموضع الذي يتحصن فيه ومثله المعقل والموئل، والمعتصم والمنتصر. وقال

(٢٤١)

ابن عباس: معناه هاهنا حرزا. وقال مجاهد: أي حصنا، ومثله يستعمل في الناصر والمساعد. وقوله " أو مغارات " اي لو وجدوا مغارات، وهي جمع مغارة وهي المداخل الساتر من دخل فيه. وقال ابن عباس: معناه المغارات والغيران والغار الثقب الواسع في الجبل، ومنه غارت العين من الماء إذا غابت في الارض، وغارت عينه إذا دخلت في رأسه. والمدخل المسلك الذي يتدسس بالدخول فيه وهو مفتعل من الدخول كالمتلج من الولوج. وأصله متدخل. وقال ابن عباس وأبوجعفر (عليه السلام) والفراء: المدخل الاسراب في الارض. وقوله " لولوا اليه وهم يجمحون " فالجماح مضي الماء مسرعا على وجهه لايرده شئ عنه. وقال الزجاج: فرس جموع، وهو الذي إذا حمل لم يرده اللجام. وقيل: هو المشئ بين المشيين قال مهلهل:

لقد جمحت جماحا في دمائهم * حتى رأيت ذوي أجسامهم جمدوا وقال الزجاج: معنى (مدخلا) اي لو وجدوا قوما يدخلون في جملتهم أو قوما يدخلونهم في جملتهم يعتصمون بهم لفعلوا.

قوله تعالى:

ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذاهم يسخطون (٥٩) آية.

قرأ يعقوب " يلمزك " بضم الميم. الباقون بكسرها، وهما لغتان، وهذه الاية فيها اخبار أن من جملة المنافقين الذين ذكرهم من يلمزك يا محمد (صلى الله عليه وآله) في الصدقات اي يعيبك. وفي قول الحسن. واللمز العيب على وجه المساترة، والهمز العيب – بكسر العين وغمزها – في قول الزجاج – تقول: لمزه يلمزه ويلمزه – بالكسر والضم – وهي صفتهم قال الشاعر:

(٢٤٢)

إذا لقيتك تبدي لي مكاشرة * وان تغيبت كنت الهامز اللمزه (١)

وقال رؤبة:

قالت بين عنقي وجمزي * في ظل عصري باطلي ولمزي (٢)

وقال ابوعبيدة: يلزمك معناه يعيبك. وقال قتادة: معناه يطعن عليك.

والهمز الغيبة. ومنه قوله " هماز مشاء بنميم " (٣). وقيل لاعرابي: أتهمز الفأزة؟ قال: الهر يهمزها، فأوقع الهمز على الاكل، والهمز كاللمز، ومنه قوله " أيحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتا " (٤) والصدقات جمع صدقة وهي العطية للفقير على وجه البر والصلة، والصدقة الواجبة في الاموال حرام على رسول الله وأهل بيته كأنهم جعلوا في تقدير الاغنياء، فأما البر على وجه التطوع فهو مباح لهم.

وقوله " فان أعطوا منها رضوا " يعني من الصدقات رضوا بذلك وحمدوك عليه وان لم يعطوا منها إذا هم يسخطون " يعني إذا لم يعطوا ما طلبوه من الصدقات سخطوا وغضبوا. والصدقة محرمة على من كان غنيا.

واختلفوا في حد الغني، فقال قوم: هو من ملك نصابا من المال. وقال آخرون:

هو من كانت له مادة تكفيه، ملك النصاب أو لم يملك، والذي كان يلمز النبي صلى الله عليه اله في الصدقات بلتعة بن حاطب، وكان يقول: إنما يعطي محمد الصدقات من يشاء فربما أعطاه النبي (صلى الله عليه وآله) فيرضى وربما منعه فسخط، فتلكم فيه، فنزلت الاية فيه.

قوله تعالى:

ولو أنهم رضوا ما آتيهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا

---

(١) قائله زياد الاعجم مجاز القرآن ١ / ٢٦٣ واللسان " همز " ومقاييس اللغة ٦ / ٦٦ وتفسير الطبري ١٤ / ٣٠١ وفيه اختلاف كثير في الرواية.

(٢) ديوانه: ٦٤ وتفسير الطبري ١٤ / ٣٠٠ (٣) سورة ٦٨ القلم آية ١١ (٤) سورة ٤٩ الحجرات آية ١٢ (*)

الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون (٦٠) آية.

اخبر الله تعالى في هذه الاية ان هؤلاء المنافقين الذين طلبوا منك الصدقات وعابوك بها لو رضوا بما اعطاهم الله ورسوله " وقالوا " مع ذلك " حسبنا الله " اي كفانا الله وانه سيعطينا الله من فضله وانعامه ويعطينا رسوله مثل ذلك وقالوا " انا إلى الله راغبون " والجواب محذوف والتقدير لكان خيرا لهم وأعود عليهم وحذف الجواب في مثل هذا ابلغ لانه لتأكيد الخبر به استغنى عن ذكره.

قوله تعالى:

إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم (٦١) آية.

اخبر الله تعالى في هذه الاية انه ليست الصدقات التي هي زكاة الاموال إلا للفقراء والمساكين ومن ذكرهم في الاية.

واختلفوا في الفرق بين الفقير والمسكين، فقال ابن عباس والحسن وجابر وابن زيد والزهري ومجاهد: الفقير المتعفف الذي لايسأل، والمسكين الذي يسأل، ذهبوا إلى أنه مشتق من المسكنة بالمسألة. وروى أبوهريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال (ليس المسكين الذي ترده الاكلة والاكلتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى فيغنيه ولايسأل الناس إلحافا) وقال قتادة: الفقير ذو الزمانة من اهل الحاجة. والمسكين من كان صحيحا محتاجا.

وقال قوم: هما بمعنى واحد إلا انه ذكر بالصفتين لتأكيد امره قال الشاعر:

انا الفقير كانت حلوبته * وفق العيال فلم يترك له سبد (١)

---

(١) اللسان (وفق). الحلوبة: الناقة التي تحلب (وفق العيال) على قدر = (*)

ويسمى المحتاج فقيرا تشبيهابأن الحاجة كأنها قد كسرت فقار ظهره يقال:

فقر الرجل فقرا وأفقره الله افقارا وافتقر افتقارا، وتفاقر تفاقرا. وسمي المسكين بذلك تشبيها بأن الحاجة كأنها سكنته عن حال اهل السعة والثروة. قال الله تعالى " أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر " (١) فمن قال: المسكين أحسن حالا احتج بهذه الاية. ومن قال هما سواء قال: السفينة كانت مشتركة بين جماعة لكل واحد منهم الشئ اليسير.

وقوله " والعاملين عليها " يعني سعاة الزكاة وجباتها، وهو قول الزهري وابن زيد وغيرهم.

وقوله " والمؤلفة قلوبهم " معناه أقوام أشراف كانوا في زمن النبي (صلى الله عليه وآله) فكان يتألفهم على الاسلام ويستعين بهم على قتال غيرهم ويعطيهم سهما من الزكاة. وهل هو ثابت في جميع الاحوال ام في وقت دون وقت؟ فقال الحسن والشعبي:

ان هذا كان خاصا على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله). وروى جابر عن ابي جعفر محمد بن علي (عليهما السلام) ذلك. واختار الجبائي انه ثابت في كل عصر الا ان من شرطه ان يكون هناك امام عدل يتألفهم على ذلك.

وقوله " وفي الرقاب " يعني المكاتبين واجاز اصحابنا ان يشترى به عبد مؤمن إذا كان في شدة ويعتق من مال الزكاة، ويكون ولاؤه لارباب الزكاة، وهو قول ابن عباس وجعفر بن مبشر.

وقوله " والغارمين " قال مجاهد وقتادة والزهري وجميع المفسرين، وهو قول ابي جعفر (عليه السلام) انهم الذين ركبتهم الديون في غير معصية ولا إسراف فتقضى عنهم ديونهم، و " في سبيل الله " يعني الجهاد بلا خلاف. ويدخل فيه عند أصحابنا جميع مصالح المسلمين، وهو قول ابن عمر وعطاء. وبه قال البلخي، فانه قال: تبنى به المساجد والقناطر وغير ذلك، وهو قول جعفر بن مبشر. و " ابن السبيل " وهو المسافر

= حاجتهم و (السبد) كناية عن القليل وأصله الوبر وهو الشعر الضعيف.

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٨٠.

(*)

المنقطع به فانه يعطى من الزكاة وان كان غنيا في بلده من غير ان يكون دينا عليه، وهو قول مجاهد وقتادة قال الشاعر:

انا ابن الحرب ربتني وليدا * إلى ان شبت واكتهلت لداتي (١)

وقال بعضهم: جعل الله الزكاة لامرين: احدهما - سد خلة. والاخر - تقوية ومعونة لعز الاسلام. واستدل بذلك على ان المؤلفة قلوبهم في كل زمان.

واختلفوا في مقدار ما يعطى الجابي للصدقة، فقال مجاهد والضحاك: يعطى الثمن بلا زيادة. وقال عبدالله بن عمر بن العاص والحسن وابن زيد: هو على قدر عمالته، وهو المروي في اخبارنا. وقال ابن عباس وحذيفة وعمر بن الخطاب وعطاء وابراهيم وسعيد بن جبير، وهو قول ابن جعفر وابي عبدالله (عليهما السلام) ان لقاسم الزكاة ان يضعها في اي الاصناف شاء. وكان بعض المتأخرين لا يضعها الا في سبعة أصناف لان المؤلفة قد انقرضوا. وان قسمها الانسان عن نفسه، ففي ستة لانه بطل سهم العامل، وزعم انه لايجزي في كل صنف أقل من ثلاثة. وعندنا ان سهم المؤلفة والسعاة وسهم الجهاد قد سقط اليوم، ويقسم في الخمسة الباقية كما يشاء رب المال وان وضعها في فرقة منهم جاز.

وقوله " فريضة من الله " نصب على المصدر اي فرض ذلك فريضة وكان يجوز الرفع على الابتداء ولم يقرأ به، ومعناه ان ما فرضه الله وقدره واجب عليكم.

وقوله " والله عليم حكيم " معناه عالم بمصالحكم حكيم فيما يوجبه عليكم من اخراج الصدقات وغير ذلك.

قوله تعالى:

ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين

(١) تفسير الطبري ١٤ / ٣٢٠
(*)

(٢٤٦)

يؤذون رسول الله لهم عذاب اليم (٦٢) آية.
قرأ نافع " أذن خير " بالتخفيف الباقون بالتثقيل. وكلهم أضاف. ورفع " ورحمة " الا أبا عمرو فانه جر (ورحمة) وكان يجوز النصب على (ورحمة) يفعل ذلك، ولم يقرأ بـه أحـدا، قـال أبوعلي: تخفيف " أذن " من أذن قياس مطرد نحو طنب وطنب، وعنق وعنق وظفـر وظفـر لان ذلك تخفيف وتثقيل لاتفاقهما في الوزن وفي جمع التكسير تقول: آذان وأطنـاب وأعنـاق وأظفار، فأما الاذن في الاية فانه يجوز ان يطلق على الجملة وان كان عبارة عـن جارحـة فيها، كما قال الخليل في الناب من الابل سميت به لمكان الناب البازل، فسميت الجملة كلها به. ويجوز أن يكون (فعلا) من اذن ياذن اذا استمع. ومعناه انه كثير الاستماع مثل شـلل وأنـف وشحح، قال ابوزيد: رجل اذن ويقن اذا كان يصدق بكل ما يسمع فكما ان (يقن)
صفة كبطل كذلك (اذن) كشلل، ويقولون: اذن يأذن اذا استمع، ومنه قوله " وأذنت لربها " (١) اي استمعت، وقوله " ائذن لي " (٢) اي استمع. وفي الحديث (ما اذن الله لشئ كأذنـه لنبـي يتغنى بالقرآن) قال الشاعر:
في سماع يأذن الشيخ له * وحديث مثل ما ذي مشار (٣)
والمعنى – في الاضافة – مستمع خير لكم وصلاح ومصغ اليه، لامستمع شر وفساد. ومـن رفع (رحمة) فالمعنى فيه أذن خير ورحمة اي مستمع خير ورحمة فجعله للرحمة لكثرة هـذا المعنى فيه، كما قال " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " (٤)
ويجوز ان يقدر حذف المضاف من المصدر. وأما من جر فعطفه على (خير) كأنه قـال اذن خير ورحمة، وتقديره مستمع خير ورحمة. وجاز هذا كما جاز مستمع

(١) سورة ٨٤ الانشقاق آية ٢ (٢) سورة ٩ التوبة آية ٥٠ (٣) اللسان (اذن) نسبه إلى (عدي) والماذي المشـار: العسل المصفى (٤) سورة ٢١ الانبياء آية ١٠٧.
(*)

(٢٤٧)

خير، لان الرحمة من الخير وإنما خص تشريفا، كما قال " اقرأ باسم ربك الذي خلق " ثم قال " خلق الانسان من علق " (١) وان كان قوله تعالى " خلق " عم الانسان وغيره. والبعد بـين

الجار وما عطف عليه لا يمنع من العطف ألا ترى ان من قرأ " وقيله يارب " انما جعله عطفا على " وعنده علم الساعة " (٢) وعلم قيله.

وروي ان الاعمش قرأ قل " اذن خير ورحمة " وهي قراءة ابن مسعود.

اخبر الله تعالى في هذه الاية ان من جمله هؤلاء – المنافقين الذين وصفهم وذكرهم – من يؤذي النبي (صلى الله عليه وآله) والاذى هو ضرر ربما تنفر منه النفس في عاجل الامر وانهم يقولون هو اذن يعنون النبي (صلى الله عليه وآله). ومعنى (اذن) انه يصغي إلى كل احد فيقبل ما يقوله – في قول ابن عباس وقتادة ومجاهد والضحاك – وقيل اصله من اذن اذا استمع على ما بيناه قال عدي بن زيد:

ايها القلب تعلل بددن * ان همي في سماع واذن (٣)

وقيل السبب في ذلك: ان قوما من المنافقين تكلموا بما ارادوه، وقالوا ان بلغه اعتذرنا اليه، فانه اذن يسمع ما يقال له، فقال الله تعالى " قل " يا محمد " اذن خير لكم " لااذن شر، وليس بمعنى أفعل. وانما معناه أذن صلاح ولو رفع خيرا لكان معناه أصلح، وهي قراءة الحسن والاعشى والبرجمي. وانما قال بعد ذلك " يؤمن بالله " لان معناه انه لايمانه بالله يعمل بالحق فيما يسمع من غيره. وقيل يصغي إلى الوحي من قبل الله.

وقوله " ويؤمن للمؤمنين " قال ابن عباس: معناه ويصدق المؤمنين. وقيل دخلت اللام كما دخلت في قوله " درف لكم " (٤) وتقديره ردفكم، واللام مقحمة ومثله " لربهم يرهبون " (٥) ومعناه يرهبون ربهم. واللام مقحمة.

---

(١) سورة ٩٦ العلق ٢. (٢) سورة ٤٣ الزخرف آية ٨٨، ٨٥ (٣) اللسان (اذن) وامالي المرتضى ١ / ٣٣ وتفسير الطبرى ١٤ / ٣٢٥ (٤) سورة ٢٧ النمل آية ٧٢ (٥) سورة ٧ الاعراف آية ١٥٣.

(*)

وقال قوم: دخلت اللام للفرق بين إيمان التصديق وايمان الامان.

وقوله " ورحمة للذين آمنوا منكم " يعني ان النبي (صلى الله عليه وآله) رحمة للمؤمنين منكم وانما خص المؤمنين بالذكر وان كان رحمة للكفار أيضا من حيث انتفع المؤمنون به دون غيرهم من الكفار. ثم قال " والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب اليم " اي مؤلم موجع جزاء لهم على أذاهم للنبي (صلى الله عليه وآله).

وقال ابن اسحاق: نزلت هذه الاية في نبتل بن الحارث كان يقول: إني لانال من محمد ما شئت، ثم آتيه اعتذر اليه وأحلف له فيقبل، فجاء جبرائيل إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله)

فقال: انه يجلس اليك رجل ادلم ثائر شعر الرأس اسفع الخدين احمر العينين كأنهما قدر ان من صفر كبده اغلظ من كبد الجمل ينقل حديثك إلى المنافقين فاحذره وكان ذلك صفة نبتل بن الحارث من منافقي الانصار، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) من اختار أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث، ذكره ابن اسحاق.

قوله تعالى:

يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين (٦٣) آية.

اخبر الله تعالى أن هؤلاء المنافقين يقسمون بالله أنهم على دينكم وأن الذي بلغكم عنهم باطل " ليرضوكم " ومعناه يريدون بذلك رضاكم لتحمدوهم عليه. ثم قال تعالى " والله ورسوله أحق أن يرضوه " أي الله ورسوله أولى بأن يطلبوا مرضاتهما " ان كانوا مؤمنين " مصدقين بالله مقرين بنبوة نبيه، والفرق بين الاحق والاصلح ان الاحق قد يكون موضعه غير الفعل كقولك: زيد أحق بالمال، والاصلح لا يقع هذا الموقع لانه من صفات الفعل وتقول: الله أحق أن يطاع ولا تقول اصلح، وقيل في رد ضمير الواحد في قوله " والله ورسوله أحق أن يرضوه " قولان:

احدهما أنه لما كان رضى رسول الله رضى الله ترك ذكره، لانه دال عليه والتقدير والله احق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه كما قال الشاعر:

نحن بما عندك وانت بما * عندك ارض والرأي مختلف (١)

والثاني – أنه لايذكر على طريق المجمل مع غيره تعظيما له بافراد الذكر المعظم بما لايجوز إلا له، ولذلك قال النبي (صلى الله عليه وآله) لمن سمعه يقول: من أطاع الله ورسول هدى (ومن يعصمه فقد غوى) وانما أراد ما قلناه.

قوله تعالى:

ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزي العظيم (٦٤) آية.

يقول الله تعالى على وجه التهديد والتقريع والتوبيخ لهؤلاء المنافقين " ألم يعلموا " أي أو ما علموا " انه من يحادد الله " اي يتجاوز حدود الله التي أمر المكلفين ان لا يتجاوزوها، فالمحادة مجاوزة الحد بالمشاقة ومثله المباعدة. والمعنى مصيرهم في حد غير حد أولياء الله. فالمخالفة والمحادة والمجانبة والمعاداة نظائر في اللغة.

وانما قال: لمن لايعلم " ألم يعلموا " لاحد أمرين: أحدهما – على وجه الاستبطاء لهم والتخلف عن علمه. والاخر – انه يجب ان تعلموا الان هذه الاخبار. وقال الجبائي: معناه ألم يخبرهم النبي (صلى الله عليه وآله) بذلك.

وقوله " فان لم نار جهنم خالدا فيها " يحتمل أن يكون على التكرير، لان الاولى للتأكيد مع طول الكلام، وتقديره فله نار جهنم أو فان له نار جهنم.

قال الزجاج: ولو قرئ (فان) بكسر الهمزة على وجه الاستئناف كان جائزا، غير أنه لم يقرأ به احد. وقوله " ذلك الخزي العظيم " معناه ذلك الذي ذكرناه

---

(١) انظر ١ / ١٧٢. و ٥ / ٢١١

(*)

من أن له نار جهنم هو الخزي يعني الهوان بما يستحى من مثله. تقول: خزي خزيا اذا انقمع للهوان فأخزاه إخزاء وخزيا.

قوله تعالى:

يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزؤا إن الله مخرج ما تحذرون (٦٥) آية.

قيل في معنى يحذر المنافقون قولان:

احدهما – قال الحسن ومجاهد واختاره الجبائي: ان معناه الخبر عنهم بأنهم كانوا يحذرون ان تنزل فيهم آية يفتضحون بها لانهم كانوا شاكين، حتى قال بعضهم: لوددت ان اضرب كل واحد منكم مئة ولاينزل فيكم قرآن، ذكره ابوجعفر وقال: نزلت في رجل يقال له مخشى بن الحمير الاشجعي.

الثاني – قال الزجاج: انه تهديد ومعناه ليحذروا، وحسن ذلك لان موضوع الكلام على التهديد. والحذر اعداد ما يتقي الضرر، ومثله الخوف والفزع تقول:

حذرت حذرا وتحذر تحذرا وحاذره محاذرة وحذارا وحذره تحذيرا. والمنافق الذي يظهر من الايمان خلاف ما يبطنه من الكفر واشتق ذلك من نافقاء اليربوع لانه يخفي بابا ويظهر بابا ليكون إذا أتي من احدهما خرج من الاخر.

وقوله " تنبئهم بما في قلوبهم " أي تخبرهم، غير أن (تنبئهم) يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل بمنزلة أعلمت. وقوله " قل استهزؤا " أمر للنبي (صلى الله عليه وآله) أن يقول لهؤلاء المنافقين (استهزؤا) اي اطلبوا الهزء. والهزء إظهار شئ وابطان خلافه للتهزئ به، وهو بصورة الامر والمراد به التهديد. وقوله " ان الله مخرج ما تحذرون " إخبار من الله تعالى أن الذي تخافون من ظهوره فان الله يظهره بأن يبين لنبيه (صلى الله عليه وآله) باطن حالهم ونفاقهم.

قوله تعالى:

ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبا لله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن (٦٦) آية.

خاطب الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) فأقسم، لان اللام لام القسم بأنك يا محمد (صلى الله عليه وآلـه) إن سألت هؤلاء المنافقين عما تكلموا به " ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب " قال الحسن وقتادة: هؤلاء قالوا في غزاة تبوك: أيرجو هذا الرجل ان يفتح قصور الشام وحصونها - هيهات هيهات - فأطلع الله نبيه (صلى الله عليه وآله) على ما قالوه، فلما سألهم النبي عن ذلك على وجه التأنيب لهم والتقبيح لفعلهم: لم طعنتم في الدين بالباطل والزور؟ فأجابوا بما لا عذر فيه بل هو وبال عليهم: بأنا كنا نخوض ونلعب.

والخوض دخول القدم فيما كان مائعا من الماء أو الطين هذا في الاصل ثم كثر حتى صار في كل دخول منه أذى وتلويث. واللعب فعل ما فيه سقوط المنزلة لتحصيل اللذة من غير مراعاة الحكمة كفعل الصبي، وقالوا: ملاعب الاسنة اي انه لشجاعته يقدم على الاسنة كفعل الصبي الذي لايفكر في عاقبة امره. فقال الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآلـه): " قل " لهم " أبا لله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن " قال ابوعلي:

ذكر الاستهزاء هاهنا مجاز، لانه جعل الهزء بالمؤمنين وبآيات الله هزءا بالله.

والهزء ايهام امر على خلاف ما هو به استصغارا لصاحبه.

قوله تعالى:

لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين (٦٧) آية.

قرأ عاصم " ان نعف " بنون مفتوحة وضم الفاء " نعذب " بالنون وكسر

الذال " طائفة " بالنصب. الباقون بضم الياء في (يعف تعذب طائفة) بضم التاء ورفع طائفة. من قرأ بالنون فلقوله " ثم عفونا عنكم " (١). ومن قرأ بالتاء فالمعنى ذاك بعينه. وأما " تعذب " فمن قرأ بالتاء، فلان الفعل في اللفظ مسند إلى مؤنث.

قوله تعالى: " لاتعتذروا " صورته صورة النهي والمراد به التهديد. والمراد ان الله تعالى امر نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يقول لهؤلاء المنافقين الذين يحلفون بأنهم ما قالوه إلا لعبا وخوضا على وجه النهزئ بآيات الله " لاتعتذروا " بالمعاذير الكاذبة فانكم بما فعلتموه " قد كفرتم " بعد أن كنتم مظهرين الايمان الذي يحكم لمن اظهره بأنه مؤمن، ولايجوز ان يكونوا مؤمنين على الحقيقة مستحقين للثواب ثم يرتدون، لما قلناه في غير موضع: ان المؤمن لايجوز عندنا أن يكفر لانه كان يؤدي إلى اجتماع استحقاق الثواب الدائم والعقاب الدائم، لبطلان التحابط.

والاجماع يمنع من ذلك. والاعتذار اظهار مايقتضي العذر، والعذر مايسقط الذم عن الجناية.
وقوله " إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة " اخبار منه تعالى أن ان عفا عن قوم منهم إذا تابوا يعذب طائفة أخرى لم يتوبوا. والعفو رفع التبعة عما وقع من المعصية وترك العقوبة عليها. ومثله الصفح والغفران. وقوله " بانهم كانوا مجرمين " معناه انه انما يعذب الطائفة التي يعذبها لكونها مجرمة مذنبة مرتكبة لما يستحق به العقاب. والاجرام الانقطاع عن الحق إلى الباطل. واصله الصرم تقول:
جرم الثمر يجرمه جرما وجراما إذا صرمه. والجرم مصرم الحق بالباطل وتجرمت السنة اذا تصرمت قال لبيد:
دمن تجرم بعد عهد انيسها * حجج خلون حلالها وحرامها (٢)
قال الزجاج والفراء: نزلت الاية في ثلاثة نفر فهرئ إثنان وضحك واحد

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٥٢. (٢) اللسان " جرم "
(*)

قال ابن اسحاق: كان الذي عفا عنه مخشى بن حصين الاشجعي حليف بني سلمة لانه انكر منهم بعض ما سمع فجعلت طائفة للواحد ويراد بها نفس طائفة. وأما في اللغة فيقال للجماعة طائفة، لانهم يطيفون بالشئ. وقوله تعالى " وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين " (١) يجوز أن يراد به واحد على ما فسرناه.
قوله تعالى:
المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون (٦٨) آية.
أخبر الله تعالى بأن المنافقين الذين يظهرون الايمان ويسرون الكفر بعضهم من بعض. والمعنى إن بعضهم يضاف إلى بعض بالاجتماع على النفاق، كما يقول القائل لغيره: أنت مني وأنا منك والمعنى إن أمرنا واحد لاينفصل. وقيل: بعضهم من بعض فيما يلحقهم من مقت الله وعذابه أي منازلهم متساوية في ذلك. ثم أخبر أن هؤلاء المنافقين يأمرون غيرهم بالمنكر الذي نهى الله عنه وتوعد عليه من الكفر بالله ونبيه وجحد آياته " وينهون عن المعروف " يعني الافعال الحسنة التي أمر الله بها وحث عليها، وانهم يقبضون ايديهم اي يمسكون أموالهم عن انفاقها عن طاعة الله ومرضاته وهو قول قتادة، وقال الحسن ومجاهد: أراد إمساكها عن الانفاق في سبيل الله.

وقال الجبائي: أراد به إمساك الايدي عن الجهاد في سبيله الله.
وقوله " نسوا الله فنسيهم " معناه تركوا امر الله يعني صار بمنزلة المنسي بالسهو عنه فجازاهم الله بأن صيرهم بمنزلة المنسي من ثوابه ورحمته، وذكر ذلك لازدواج الكلام. وقال قتادة: اي نسوا من الخير ولم ينسوا من الشر. ثم اخبر

---

(١) سورة ٢٤ النور آية ٢
(*)

تعالى فقال " إن المنافقين " الذين يخادعون المؤمنين باظهار الايمان مع ابطانهم الكفر " هم الفاسقون " الخارجون عن الايمان بالله وبرسوله وعن طاعاته.
قوله تعالى:
وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم (٦٩) آية.
اخبر الله تعالى بأنه " وعد المنافقين والمنافقات " الذين يظهرون الاسلام ويبطنون الكفر " نار جهنم " يعاقبون فيها أبد الابدين وكذلك الكفار الذين يتولونهم، وهم على ظاهر الكفر. فلذلك أفردهم بالذكر ليعلم أن الفريقين معا يتناولهم الوعيد وتقول: وعدته بالشر وعيدا ووعدته بالخير وعدا وأوعدته إيعادا وتوعدته توعدا في الشر لابالخير، وواعدته مواعدة، وتواعدوا تواعدا وقوله " هي حسبهم " يعني نار جهنم والعقاب فيها كافيهم، ولعنهم الله يعني أبعدهم الله من جنته وخيره " ولهم " مع ذلك " عذاب مقيم " ومعناه دائم لايزول وقيل معنى " هي حسبهم " أي هي كفاية ذنوبهم، ووفاء لجزاء عملهم. واللعن الابعاد من الرحمة عقابا على المعصية، ولذلك لايقال لعن البهيمة كما لايدعا لها بالعفو قوله تعالى:
كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والاخرة وأولئك هم الخاسرون (٧٠) آية.

الكاف في قوله " كالذين " في موضع نصب، والتقدير احذروا أن يحل بكم من العذاب والعقوبة كالذين. ويحتمل أن يكون المراد وعدكم الله على الكفر كما وعد الذين من قبلكم، فشبه المنافقين في عدولهم عن أمر الله للاستمتاع بلذات الدنيا بمن قبلكم مع أن عاقبة امر

الفريقين يؤل إلى العقاب مع أن الاولين كانوا أشد من هؤلاء قوة في ابدانهم وأطول اعمـــارا واكثر اموالا وأشد تمكينا فلم يقدروا ان يدفعوا عن نفوسهم ماحل بهم من عقاب الله.

وقوله " فاستمتعوا بخلاقهم " فالاستمتاع هو طلب المتعة وهي فعل ما فيه اللذة مـــن المآكـــل والمشارب والمناكح. ومعناه انهم تمتعوا بنصيبهم من الخير العاجل وباعوا بذلك الخير الاجل فهلكوا بشر استبدال، كما تمتعتم ايها المنافقون بخلاقكم اي بنصيبكم والخلاق النصيب ســـواء كان عاجلا او آجلا.

وقوله " وخضتم كالذي خاضوا " خطاب للمنافقين بأن قيل لهم خضتم في الباطل والكذب على الله كالذين تابعوهم على ذلك من المنافقين وغيرهم من الكفار " حبطت اعمالهم " لانهم كـــانوا أو قعوها على خلاف ما أمرهم الله به فلم يستحقوا عليها ثوابا بل استحقوا عليها العقاب، فلذلك كانوا خاسرين أنفسهم ومهلكين لها بفعل المعاصي المؤدي إلى الهلاك وروي عن ابن عبـــاس انه قال في هذه الاية:

ما أشبه الليلة بالبارحة كذلك من قبلكم هؤلاء بنوا اسرائيل لشبهنا بهم لا أعلـــم إلا انـــه قـــال (والذي نفسي بيده لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم حجر ضب لدخلتموه) ومثله روي عـــن ابي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله) وعن ابي سعيد الخدري مثله.

قوله تعالى:

ألم يأتهم نبا الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكـــات أتتهم رسلهم

بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (٧١)

آية في الكوفي والبصري وآيتان في المدنيين آخر الاولى " وثمود " قولـــه " ألـــم " صـــورته صورة الاستفهام، والمراد به التقرير والتحذير. وإنما حسن في الاستفهام أن يخرج إلى معنى التقرير لان الاحتجاج بما يلزمهم الاقرار به فقال الله تعالى مخاطبا لنبيه: ألـــم يـــأت هـــؤلاء المنافقين الذين وصفهم خبر من كان قبلهم من قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وأصـــحاب مدين، على وجه الاحتجاج عليهم فيتعظوا، لان الامم الماضية والقرون الســـالفة إذا كـــان الله تعالى إنما أهلكها ودمرها لتكذيبهم رسلها كان تذلك واجبا في كل أمة يساوونهم في هذه العلة، فأقل احوالهم ألا يأمنوا أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك. قال الرماني: والحكمة تقتضـــي إذا تساوى جماعة في استحقاق العقاب ان لايجوز العفو عن بعضهم دون بعض مع تساويهم فـــي الاحوال. وانما يجوز العدول من قوم إلى قوم في الواحد منا للحاجة وهذا يتم على قول مـــن

يقول بالاصلح، ومن لايقول بذلك يقول: هو متفضل بذلك وله ان يتفضل على من يشاء ولا يلزم ان يفعل ذلك بكل مكلف.

وقوله " والمؤتفكات " قال الحسن وقتادة: هى ثلاث قريات لقوم لوط ولذلك جمعها بالالف والتاء. وقال في موضع آخر " والمؤتفكة أهوى " (١) فجاء به على طريق الجنس. قال الزجاج: معناه ائتفكت بأهلها انقلبت. ومدين ابن ابراهيم اسم له. وقوله " اتتهم رسلهم بالبينات " معناه جاءت هؤلاء المذكورين الرسل من عند الله معها حجج ودلالات على صدقها فكذبوا بها فأهلكهم الله، وحذف لدلالة الكلام عليه. ثم قال " فما كان الله ليظلمهم " اي لم يكن الله ظالما لهم بهذا الاهلاك " ولكن كانوا انفسهم يظلمون " بأن فعلوا من الكفر والمعاصي ما استحقوا به الهلاك.

---

(١) سورة ٥٣ النجم آية ٥٣

(*)

وقيل ان الله تعالى اهلك قوم نوح بالغرق. واهلك عادا بالريح الصرصر العاتية. وأهلك ثمود بالرجفة والصاعقة. وأهلك قوم ابراهيم بالتشتيت وسلب الملك والنعمة. وأهلك اصحاب مدين بعذاب يوم الظلة. وأهلك قوم لوط بانقلاب الارض، كل ذلك عدل منه على من ظلم نفسه وعصى الله واستحق عقابه.

قوله تعالى:

والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم (٧٢) آية.

لما ذكر الله تعالى المنافقين ووصفهم بأن بعضهم من بعض بالاتفاق والتعاضد اقتضى ان يذكر المؤمنين. ويصفهم بضد أوصافهم، فقال تعالى " والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض " أي يلزم كل واحد منهم نصرة صاحبه وان يواليه وقال الرماني: العقل يدل على وجوب موالاة المؤمنين بعضهم بعضا، لانها تجري مجرى استحقاق الحمد على طاعة الله والذم على معصيته. ولايجوز ان يرد الشرع بخلاف ذلك. وإذا قلنا: المؤمن ولي الله معناه أنه ينصر أولياء الله وينصر دينه، والله وليه بمعنى أولى بتدبيره وتصريفه وفرض طاعته عليه. ثم قال " يأمرون بالمعروف " يعني المؤمنين يأمرون بما اوجب الله فعله أو رغب فيه عقلا أو

شرعا وهو المعروف " وينهون عن المنكر " وهو ما نهى الله تعالى عنه وزهد فيه إما عقلا أو شرعا.

ويضيفون إلى ذلك إقامة الصلاة اي إتيانها بكمالها والمداومة عليها ويخرجون زكاة اموالهم حسب ما أوجبها الله عليهم، ويضعونها حيث امر الله بوضعها فيه ويطيعون

(٢٥٨)

الله ورسوله اي يمتثلون امرهما ويتبعون ارادتها ورضاهما.

ثم قال " اولئك سيرحمهم الله " يعني المؤمنين الذين وصفهم ان ستنالهم في القيامة رحمته. ثم اخبر عن نفسه فقال " ان الله عزيز حكيم " فالعزيز معناه قادر لايغلبه احد من الكفار والمنافقين، حكيم في عقاب المنافقين واثابة المؤمنين. وغير ذلك من الافعال. وإنكار المنكر يجب بلا خلاف سمعا وعليه الاجماع وكذلك الامر بالمعروف واجب، فأما العقل فلا يدل على وجوبهما أصلا. لانه لو أوجب ذلك لوجب ان يمنع الله من المنكر، لكن يجب على المكلف اظهار كراهة المنكر الذي يقوم مقام النهي عنه. وفي الاية دلالة على ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الاعيان لان الله تعالى جعل ذلك من صفات المؤمنين، ولم يخص قوما دون قوم.

قوله تعالى:

وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم (٧٣) آية.

اخبر الله تعالى بأنه كما وعد المنافقين بنار جهنم والخلود فيها كذلك " وعد الله المؤمنين " المعترفين بوحدانيته وصدق رسله وكذلك " المؤمنات جنات " يعني بساتين يجنها الشجر " تجري من تحتها الانهار " وتقديره تجري من تحت اشجارها الانهار. وقيل: أنهار الجنة أخاديد في الارض. فلذلك قال " من تحتها " وانهم فيها خالدون اي دائمون " ومساكن طيبة " معناه وعدهم مساكن طيبة. والمسكن الموضع الذي يسكن وروى الحسن انها قصور من اللؤلؤ والياقوت الاحمر والزبرجد الاخضر مبنية بهذه الجواهر. وقوله " في جنات عدن " فالعدن الاقامة والخلود:

(٢٥٩)

ومنه المعدن قال الاعشى:

وان يستضافوا إلى حكمه * يضافوا إلى راجح قد عدن (١)

وروي أنها جنة لايسكنها إلا النبيون والشهداء والصالحون.

وقوله " ورضوان من الله اكبر " قال الرماني: الرضوان معنى يدعو إلى الحمد بالاجابة يستحق مثله بالطاعة فيما تقتضيه الحكمة. وانما رفع (رضوان)
لانه استأنفه للتعظيم كما يقول القائل: اعطيتك ووصلتك ثم يقول: وحسن رأي فيك ورضاي عنك خير من جميع ذلك. وقوله " ذلك هو الفوز العظيم " معناه هذا النعيم الذي وصفه هو النجاح العظيم الذي لاشئ فوقه ولااعظم منه.
قوله تعالى:
يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأويهم جهنم وبئس المصير (٧٤) آية.
امر الله تعالى في هذه الاية نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يجاهد الكفار والمنافقين. والجهاد هو ممارسة الامر الشاق والجهاد يجب باليد واللسان والقلب، فمن امكنه الجميع وجب عليه جميعه. ومن لم يقدر باليد فباللسان فان لم يقدر فبالقلب. واختلفوا في كيفية جهاد الكفار والمنافقين. فقال ابن عباس: جهاد الكفار بالسيف وجهاد المنافقين باللسان والوعظ والتخويف، وهو قول الجبائي. وقال الحسن وقتادة:
جهاد الكفار بالسيف وجهاد المنافقين باقامة الحدود عليهم. وكانوا اكثر من يصيب الحدود. وقال ابن مسعود: هو بالانواع الثلاثة حسب الامكان فان لم يقدر فليكفهر في وجوههم وهو الاعم.

---

(١) ديوانه: ١٦ وروايته (هادن قد رزن) بدل " راجح قد عدن " وتفسير الطبري ١٤ / ٣٥٠، واللسان " وزن " ومجاز القرآن ١ / ٢٦٤
(*)

وروي في قراءة اهل البيت (عليهم السلام) " جاهد الكفار بالمنافقين ".
وقوله " واغلظ عليهم " امر منه تعالى لنبيه ان يقوي قلبه على احلال الالم بهم واسماعهم الكلام الغليظ الشديد ولا يرق عليهم. ثم قال " ومأواهم جهنم " اي منزلهم جهنم ومقامهم. والمأوى منزل مقام، لامنزل ارتحال. ومثله المثوى والمسكن وقوله " وبئس المصير " اخبار منه تعالى ان مرجع هؤلاء ومآلهم بئس المرجع والمآل.
قوله تعالى:
يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغنيهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذبا أليما في الدنيا والاخرة وما لهم في الارض من ولي ولا نصير (٧٥) آية.

اختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الاية، فقال عروة وابن اسحاق ومجاهد:
إنها نزلت في الخلاس بن سويد بن الصامت بأنه قال: فان كان ما جاء به محمد حقا لنحن شر من الحمير، ثم حلف بالله أنه ما قال. وقال قتادة: نزلت في عبدالله بن ابي بن سلول حين قال " لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل " (١)
وقال الحسن: كان ذلك في جماعة من المنافقين. وقال الواقدي والزجاج: نزلت في اهل العقبة فانهم ائتمروا أن يغتالوا رسول الله في عقبة في الطريق عند مرجعهم من تبوك. وأرادوا ان يقطعوا اتساع راحلته، واطلعه الله على ذلك. وكان ذلك

---

(١) سورة ٦٣ المنافقون آية ٨
(*)

من معجزاته (صلى الله عليه وآله) لانه لايمكن معرفة مثل ذلك إلا بوحي من الله تعالى، فسار رسول الله في العقبة وحده وأمر الناس كلهم بسلوك بطن الوادي وكانوا اثني عشر رجلا أو خمسة عشر رجلا على الخلاف فيه. وعرفهم واحدا واحدا عمار بن ياسر وحذيفة، وكان احدهما يقود ناقة رسول الله والاخر يسوقها، والحديث مشروح في كتاب الواقدي. وقال ابوجعفر (عليه السلام) كانوا ثمانية من قريش واربعة من العرب وقوله " وهموا بما لم ينالوا " قيل فيه ثلاثة اقوال:
احدهما – قال مجاهد: هم المنافقون بما لم يبلغوه من التنفير برسول الله.
الثاني – قال قتادة: هموا بما ذكر في قوله " ليخرجن الاعز منها الاذل " فلم يبلغوا ذلك.
والثالث – عن مجاهد أنهم هموا بقتل من أنكر عليهم ذلك. وقال بعضهم:
كان المنافقون قالوا: لو رجعنا وضعنا التاج على رأس عبدالله ابن ابي، فلما اوقفوا على ذلك حلفوا بأنهم ما قالوا ذلك ولا هموا به، فاخبر الله تعالى عن حالهم انهم يحلفون بالله ما قالوا، ثم اقسم تعالى بانهم قالوا ذلك، لان لام لقد لام القسم وانهم قالوا كلمة الكفر، وهي كل كلمة فيها جحد لنعم الله او بلغت منزلتها في العظم، وكانوا يطعنون في الاسلام والنبوة، وأخبر انهم هموا بما لم يبلغوه. والهم مقاربة الفعل بتغليبه في النفس تقول: هم بالشئ يهم هما، ومنه قوله " ولقد همت به وهم بها لولا رأى " (١) وليس الهم من العزم في شئ إلا ان يبلغ نهاية العزم في النفس. والنيل لحوق الامر. ومنه قوله (نال السيف ونال ما اشتهى او قدر او تمنى) فهؤلاء قدروا في انفسهم من كيد الاسلام مالم يبلغوه.

وقوله " وما نقموا إلا ان اغناهم الله ورسوله من فضله " يعني ما فتح الله عليهم من الفتوح وأخذ الغنائم واستغنوا بعد أن كانوا محتاجين وقيل في معناه قولان: احدهما – انهم عملوا بضد الواجب فجعلوا موضع شكر الغنى أن نقموا

---

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٢٤.

(*)

(٢٦٢)

قال الشاعر:

مانقموا من بني أمية إلا * انهم يحلمون ان غضبوا (١)

والاخر – انهم بطروا النعمة بالغنى فنقموا بطرا واشرافهم لايفلحون بهذه الحال ولابعدها. والفضل الزيادة في الخير على مقدارما. والتفضل هو الزيادة من الخير الذي كان للقادر عليه ان يفعله وأن لايفعله.

ثم قال تعالى " فان يتوبوا " هؤلاء المنافقون ويرجعوا إلى الحق " يك خيرا لهم " في دينهم ودنياهم " فانهم ينالون بذلك رضى الله ورسوله والجنة " وإن يتولوا " اي يعرضوا عن الرجوع إلى الحق وسلوك الطريق الصحيح " يعذبهم الله عذابا أليما " اي مؤلما " في الدنيا " بما ينالهم من الحسرة والغم وسوء الذكر وانواع المصائب وفي " الاخرة " بعذاب النار " وما لهم في الارض " اي ليس لهم في الارض " من ولي " اي محب " ولا نصير " يعني من ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله. وقيل: إن خلاسا تاب بعد ذلك، وقال: استثنى الله تعالى لي التوبة فقبل الله توبته.

قوله تعالى:

ومنهم من عاهد الله لئن آتينا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين (٧٦) آية.

اخبر الله تعالى أن من جملة المنافقين الذين تقدم ذكرهم " من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن " أي منه " ولنكونن من الصالحين " بانفاقه في طاعة الله وصلة الرحم والمواساة وأن يعمل الاعمال الصالحة التي يكون بها صالحا.

وقيل: نزلت الاية في بلنعة بن حاطب كان محتاجا فنذر لئن استغنى ليصدقن فأصاب اثني عشر الف درهم، فلم يتصدق، ولم يكن من الصالحين. هكذا قال

---

(١) مر تخريجه في ٣ / ٥٥٩

(*)

الواقدي. وقال ابن اسحاق: هما بلتعة ومقنب بن قشير. وقيل: سبب ذلك أنه قتل مولى له فأخذ ديته اثني عشر ألف درهم: أعطاه النبي (صلى الله عليه وآله).

فان قيل: كيف يصح أن يعاهد الله من لايعرفه؟ قلنا: إذا وصفه بأخص صفاته جاز منه أن يصرف عهده اليه وإن جاز أن يكون غير عارف وقال الجبائي: كانوا عارفين، وانما كفروا بالنبي (صلى الله عليه وآله).

والمعاهدة هي أن يقول علي عهد الله لافعلن كذا، فانه يكون قد عقد على نفسه وجوب ماذكره، لان الله تعالى حكم بذلك وقدر وجوبه عليه في الشرع.

والاية دالة على وجوب الوفاء بالعهد. واللام الاولى من قوله " لئن آتانا من فضله " والثانية من قوله " لنصدقن " جميعهما لام القسم غير أن الاولى وقعت موقع الجواب، والتقدير علينا عهد الله لنصدقن إن آتانا من فضله. ولا يجوز أن تكون اللام الاولى لام الابتداء، لان لام الابتداء لاتدخل إلا على الاسم المبتدأ، لانها تقطع ما قبلها أن يعمل فيما بعدها إلا في باب (إن) فانها زحلقت إلى الخبر لئلا يجتمع تأكيدان، ويجوز ان يقول: ان رزقني الله مالا صلحت بفعل الصلاة والصوم لان ذلك واجب عليه آتاه ما لا أولم يؤته.

قوله تعالى:

فلما آتيهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون (٧٧) آية أخبر الله تعالى عن هؤلاء المنافقين الذين عاهدوا الله، وقالوا متى آتانا الله من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين أنه آتاهم ما اقترحوه ورزقهم ما تمنوه من الاموال، وانهم لما آتاهم ذلك شحت نفوسهم عن الوفاء بالعهد.

ومعنى (لما) معنى (اذا) إلا أن (لما) الغالب عليها الجزاء، وهي إسم، لانها تقع في جواب (متى) على تقدير الوقت كقولك: متى كان هذا، فيقول السامع: لما كان ذلك. و (لما) و (لو) لايكونان إلا لما مضى بخلاف (إن)

و (إذا) فانهما لما يستقبل الا أن (لو) على تقدير نفي وجوب الثاني لانتفاء الاول و (لما) يدل على وقوع الثاني لوقوع الاول.

والبخل منع النائل لشدة الاعطاء، ثم صار في اسماء الذي منع الواجب، لان من منع الزكاة فهو بخيل. قال الرماني: ولايجوز أن يكون البخل منع الواجب بمشقة الاعطاء قال الزهير:

ان البخيل ملوم حيث كان ول * كن الجواد على علاته هرم (١)

قال: لانه يلزم على ذلك ان يكون الجود هو بذل الواجب من غير مشقة.

وإنما قال زهير ما قاله لان البخل صفة نقص. قال الرماني: ومن منع ما لا يضره بذله ولاينفعه منعه مما تدعو اليه الحكمة فهو بخيل، لانه لايقع المنع على هذه الصفة إلا لشدة في النفس، وإن لم يرجع إلى ضرر، وقال عبدالله بن عمر والحسن ومحمد ابن كعب القرظي: يعرف المنافق بثلاث خصال: إذا حدث كذب، وإذا وعد خلف وإذا ائتمن خان. وخالفهم عطاء ابن ابي رياح في ذلك وقال: إن النبي (صلى الله عليه وآله) إنما قال ذلك في قوم من المنافقين. وروي ان الحسن رجع إلى قول عطاء. وقوله " وتولوا " اي أعرضوا عما عاهدوا الله عليه. وقوله " وهم معرضون " اخبار منه بأنهم معرضون عن الحق بالكلية.

قوله تعالى فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون (٧٨) آية.

بين الله تعالى أنه أعقب هؤلاء المنافقين ومعناه أورثهم وأداهم إلى نفاق في

---

(١) اللسان (هرم).

(*)

قلوبهم بخلهم بما آتاهم الله من فضله مع الاعراض عن أمر الله، وهو قول الحسن وقال مجاهد: معناه أعقبهم ذلك بحرمان التوبة كما حرم ابليس، وجعل ذلك إمارة ودلالة على أنهم لايتوبون أبدا لاحد شيئين: من قال: اعقبهم بخلهم رد الضمير اليه. والمعنى يلقون جزاء بخلهم. ومن ذهب إلى ان الله أعقبهم رد الضمير إلى اسم الله.

وقوله " بما أخلفوا الله ما وعدوه " فالاخلاف نقض ما تقدم به العقد من وعد أو عزم وأصله الخلاف، لانه فعل خلاف ما تقدم به العقد. والوعد متى كان بأمر واجب أو ندب أو أمر حسن قبح الاخلاف، وان كان الوعد وعدا بقبيح كان إخلافه حسنا. وقوله " وبما كانوا يكذبون " يقوي قول من قال: إن الضمير عائد إلى الله لانه بين انه فعل ذلك جزاء على اخلافهم وعده وجزاء على ما كانوا يكذبون في اخبارهم عليه.

قوله تعالى:

ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجويهم وأن الله علام الغيوب (٧٩) آية.

الالف في قوله " ألم يعلموا " الف استفهام والمراد به الانكار. يقول الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) " ألم يعلموا " هؤلاء المنافقون " أن الله يعلم سرهم " يعني ما يخفون في أنفسهم وما يتناجون بينهم، والمعنى انه يجب عليهم أنت يعلموا ذلك. تقول:

اسره إسرارا، واستسر استسرارا، وساره مسارة وسرارا، وتسارا إسرارا، والاسرار اخفاء المعنى في النفس والنجوى رفع الحديث باظهار المعنى لمن يسلم عنده من اخراجه إلى عدو فيه لانه من النجاة تقول: ناجاه مناجاة، وتناجوا تناجيا فكأن هؤلاء المنافقون يسرون في أنفسهم الكفر ويتناجون به بينهم. وقيل: السر والنجوى

(٢٦٦)

واحد مكرر باختلاف اللفظين كما يقول القائل: آمرك بالوفاء وأنهاك عن الغدر والمعنى واحد مكرر باختلاف اللفظين. وقوله " ان الله علام الغيوب " معناه يعلم كل ما غاب عن العباد مما غاب عن احساسهم او ادراكهم من موجود أو معدوم من كل وجه يصح ان يعلم منه، لانها صفة مبالغة واقتضى ذكر العمل – هاهنا – حال المنافقين في كفرهم سرا وإظهارهم الايمان جهرا، فقيل لهم ان المجازي لكم يعلم سركم ونجواكم، كما قال: ذو الرمة في معنى واحد بلفظين مختلفين:

لمياء في شفتيها حوة لعس * وفي اللثات وفي انيابها شنب

فاللعس حوة وكرر لاختلاف اللفظين، ويمكن ان يكون لما ذكر الحوة خشي أن يتوهم السامع سوادا قبيحا فبين انه لعس لانه يستحسن ذلك.

قوله تعالى:

ألذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم (٨٠) آية.

قيل: نزلت هذه الاية في علية بن زيد الحارثي وزيد بن اسلم العجلاني فجاء عليه بصاع نم تمر فنثره في الصدقة، وقال: يا رسول الله عملت في النخل بصاعين فصاعا تركته لاهلي وصاعا اقرضته ربي، وجاء زيد بن أسلم بصدقة فقال: معتب ابن قشير وعبدالله بن نهيك إنما أراد الرياء. وقال قتادة وغيره من المفسرين:

إن هذه الاية نزلت حجاب بن عثمان، لانه أتى النبي (صلى الله عليه وآله) بصاع من تمر وقال: يا رسول الله إني عملت في النخل بصاعين من تمر فتركت للعيال صاعا واهديت لله صاعا. وجاء عبدالرحمن بن عوف بأربعة آلاف دينار وهي شطر ماله للصدقة، فقال المنافقون: إن عبدالرحمن لعظيم الرياء، وقالوا في الاخر: إن

(٢٦٧)

الله لغني عما أتى به، فأنزل الله تعالى الاية فقال " الذين يلمزون المطوعين " أي ينسبونهم إلى النقص في النفس يقولون: لمزه يلمزه لمزا إذا انتقصه وعابه والمطوعين على وزن

(المتفعلين) وتقديره المتطوعين. فأدغمت التاء في الطاء، ومعناه المتقلين من طاعة الله بما ليس بواجب عليهم، لان الخير قد يكون واجبا وقد يكون ندبا وقد يكون مباحا ولايستحق المدح الا على الواجب والندب دون المباح، وقوله " والذين لايجدون الاجهدهم " والجهد هو الحمل على النفس بما يشق تقول:

جهده يجهده جهدا وجهدا – بالضم والفتح – كالوجد والوجد والضعف والضعف. وقال الشعبي: الجهد في العمل والجهد في القوت. وقوله " فيسخرون منهم " يعني المنافقين يهزؤون بالمطوعين " سخر الله منهم " اي يجازيهم على سخريتهم بأنواع العذاب " ولهم عذاب اليم " اي مؤلم موجع. ولما كان ضرر سخريتهم عائدا عليهم جاز ان يقال " سخر الله منهم " لانه يفعل السخرية.

قوله تعالى:

إستغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لايهدي القوم الفاسقين (٨١) آية.

قوله " استغفر لهم " صيغته صيغة الامر والمراد به المبالغة في الاياس من المغفرة انه لو طلبها طلبة المأمور بها أو تركها ترك المنهي عنها لكان ذلك سواء في ان الله لايفعلها، كما قال في موضع آخر " سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم " (١). والاستغفار طلب المغفرة من الله تعالى بالدعاء بها والمغفرة ستر المعصية برفع العقوبة عليها. وتعليق الاستغفار بالسبعين مرة، والمراد

---

(١) سورة ٦٣ المنافقون آية ٦

(*)

به المبالغة لا العدد المخصوص، ويجري ذلك مجرى قول القائل: لو قلت ألف مرة ما قبلت، والمراد بذلك إني لا أقبل منك، وكذلك الاية المراد بها نفي الغفران جملة. وما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال (والله لازيدن على السبعين) خبر واحد لايلتفت اليه، ولان في ذلك ان النبي (صلى الله عليه وآله) استغفر للكفار وذلك لايجوز بالاجماع.

وقد روي أنه قال (لو علمت اني لوزدت على السبعين مرة لغفر لفعلت).

وكان سبب نزول هذه الاية ان النبي (صلى الله عليه وآله) كان اذا مات ميت صلى عليه واستغفر له، ولم يكن بمنزلة المنافقين بعد، فأعلمه الله تعالى ان في جملة من تصلي عليهم من هو منافق وإن استغفاره له لاينفع قل ذلك ام كثر، ثم نهى الله نبيه أن يصلي على أحد منهم وأن

يستغفر له حين عرفه اياهم بقوله " ولا تصل على أحد منهم مات ابدا ولا تقم على قبره " (١) الاية. وقوله " ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله " اشارة منه تعالى إلى ان ارتفاع الغفران انما كان لانهم كفروا بالله وجحدوا نعمه، وكفروا برسوله فجحدوا نبوته " والله لايهدي القوم الفاسقين " فمعناه انه لايهديهم إلى طريق الجنة والثواب. فأما الهداية إلى الايمان بالاقرار بالتوحيد لله والاعتراف بنبوة النبي (صلى الله عليه وآله) فقد هدى الله اليه كل مكلف متمكن من النظر والاستدلال، بأن نصب له على ذلك الدلالة وأوضحها له.

قوله تعالى:

فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لاتنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون (٨٢) آية.

اخبر الله تعالى بأن جماعة من المنافقين الذين خلفهم النبي (صلى الله عليه وآله) ولم يخرجهم

---

(١) سورة ٩ التوبة آية ٨٥.

(*)

معه إلى تبوك لما استأذنوه في التأخر فأذن لهم، فرحوا بقعودهم خلاف رسول الله.

والمخلف المتروك خلف من مضى، ومثله المؤخر عمن مضى تقول: خلف تخليفا وتخلف تخلفا. والفرح ضد الغم، والغم ضيق الصدر بفوت المشتهى، وعند البصريين من المعتزلة هو اعتقاد وصول الضرر اليه في المستقبل او دفع الضرر المظنون والمعلوم عنه. ومعنى خلاف رسول الله قال أبوعبيدة: بعد رسول الله وأنشد:

عقب الربيع خلافهم فكأنما * بسط الشواطب بينهن حصيرا (١)

وقال غيره: معناه المصدر من قولك خالف خلافا وهو نصب على المصدر.

وقوله " وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله " اخبار منه تعالى ان هؤلاء المخلفين فرحوا بالتأخر وكرهوا إنفاق أموالهم والجهاد بنفوسهم في سبيل الله، فالجهاد بالمال هو تحمل لمشقة الانفاق في وجوه البر، والجهاد بالنفس هو تعريضها لما يشق عليها اتباعا لامر الله. وقوله " لاتنفروا في الحر " معناه انهم قالوا لنظرائهم ومن يقبل منهم: لاتخرجوا في الوقت الحار، فقال الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) قل لهم " نار جهنم اشد حرا لو كانوا يفقهون " لانهم توقوا بالقعود عن الخروج حر الشمس، فخالفوا بذلك أمر الله وأمر رسوله، واستحقوا حر نار جهنم، وكفى بهذا الاختيار جهلا ممن اختاره. وقوله " لو كانوا يفقهون " معناه لو كانوا يفقهون وعظ الله وتحذيره وتزهيده في معاصيه.

قوله تعالى:
فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون (٨٣) آية.

---

(١) قائله الحارث بن خالد المخزومي. الاغاني ٣ / ٣٣٣ وروايته (الرذاذ) بدل (الربيع) واللسان (عقب)، (خلف).
(*)

قوله " فليضحكوا " صيغته صيغة الامر والمراد به التهديد، وإنما قلنا: إنه بصورة الامر، لان اللام ساكنة ولو كانت لام الاضافة لكانت مكسورة لانها تؤذن بعملها للجزاء المناسب لها، فلذلك الزمت الحركة. والمراد بالاية الاخبار عن حال هؤلاء المنافقين وأنها في وجه الضحك كحال المأمور منه فيما يؤل اليه من خير أو شر على صاحبه، فلذلك دخله معنى التهدد، والضحك حال تفتح وانبساط يظهر في وجه الانسان عن تعجب مع فرح، والضحاك هو الانسان خاصة. والبكاء حال يظهر عن غم في الوجه مع جري الدموع على الخد، وهو ضد الضحك تقول:
بكا بكاءا، وأبكاه الله ابكاءا، وبكاه تبكية وتباكى تباكيا واستبكى استبكاءا ومعنى الاية أن يقال لهؤلاء المنافقين: فاضحكوا بقليل تمتعكم في الدنيا فانكم ستبكون كثيرا يوم القيامة إذا حصلتم في العقاب الدائم " جزاء بما كانوا يكسبون " نصب (جزاء) على المصدر أي تجزون على معاصيكم، ذلك جزاء على أفعالكم التي اكتسبتموها.
قوله تعالى:
فان رجعك الله إلى طائفة منهم فاستاذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين (٨٤) آية.
قال الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) " فان رجعك الله " يعني ان ردك الله " إلى طائفة منهم يعني جماعة. فالرجوع هو تصيير الشئ إلى المكان الذي كان فيه، تقول:
رجعته رجعا كقولك رددته ردا، وقد يكون التصيير إلى الحال التي كان عليها كرجوع الماء إلى حال البرودة. والطائفة الجماعة التي من شأنها أن تطوف ولهذا لايقال في جماعة الحجارة طائفة، وقد يسمى الواحد بأنه طائفة بمعنى نفس طائفة

والاول اظهر. وقوله " فاستأذنوك للخروج " اي طلبوا منك الاذن في الخروج في غزوة أخرى، والاذن رفع التبعة في الفعل وأصله أن يكون بقول يسمع بالاذن.

والخروج الانتقال عن محيط، فقال الله لنبيه (صلى الله عليه وآله) قل لهم حينئذ " لن تخرجوا معي أبدا " اي لا يقع منكم الخروج أبدا، فالابد الزمان المستقبل من غير انتهاء إلى حد، ونظير للماضي (قط) إلا انه مبني كما بني أمس لتضمنه حروف التعريف واعرب (الابد) كما اعرب (غد) لان المستقبل أحق بالتنكير.

وقوله " ولن تقاتلوا معي عدوا " اخبار بأنهم لايفعلون ذلك ابدا ولا يختارونه. وقوله " إنكم رضيتم بالقعود " أول مرة فاقعدوا مع الخالفين " معناه اخبار منه تعالى انهم رضوا بالقعود أول مرة فينبغي ان يقعدوا مع الخالفين. وقيل في معناه ثلاثة اقوال: احدها – قال الحسن وقتادة: هم النساء والصبيان. وقال ابن عباس: هم من تأخر من المنافقين. وقال الجبائي: هم كل من تأخر لمرض او نقص وقيل: معناه مع اهل الفساد مشتقا من قولم: خلف خلوفا اي تغير إلى الفساد.

وقيل: الخالف كل من تأخر عن الشاخص.

قوله تعالى:

ولاتصل على أحد منهم مات أبدا ولاتقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون (٨٥) آية.

هذا نهي من الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) عن أن يصلي على أحد من المنافقين او يقوم على قبره ومعناه أن يتولى دفنه او ينزل في قبر كما يقال: قام فلان بامر فلان.

وقال ابن عباس وابن عمر وقتادة وجابر: صلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) على عبدالله ابن أبي بن ابي سلول والبسه قمصيه قبل أن ينهي عن الصلاة على المنافقين. وقال أنس: أراد أن يصلي عليه فأخذ جبرائيل بثوبه. وقال له " لاتصل على احد

منهم مات أبدا ولاتقم على قبره ".

والصلاة على الاموات فرض على الكفايات إذا قام به قوم سقط عن الباقين.

واقل من يسقط به الفرض واحد وهي دعاء ليس فيها قراءة ولاتسبيح، وفيه خلاف.

وفيها خمس تكبيرات عندنا، وعند الفقهاء أربع تكبيرات، فالتكبيرة الاولى يشهد بعدها الشهادتين ويكبر بالثانية، ويصلي بعدها على النبي (صلى الله عليه وآله) ويكبر الثالثة ويدعو للمؤمنين والمؤمنات، ويكبر الرابعة ويدعوا للميت إن كان مؤمنا وعليه إن كان منافقا، ويكبر الخامسة ويقف يومي إلى يمينه حتى ترفع الجنازة، وليس فيها تسليم. وسمعت أبا الطيب

الطبري وكان امام أصحاب الشافعي يقول: الخلاف بيننا وبينكم في عبارة، لان عندكم ينصرف بالخامسة. وعندنا بالتسليم، فجعلتم مكان التسليم التكبير. وذلك خلاف في عبارة.

وقوله " مات " موضع (مات) جر لانه صفة ل (أحد) لان تقديره على احد ميت منهم و " أبدا " منصوب متصل، و (أحد) هذه هي التي تكون في النفي دون الايجاب لانه يصح النهي عن الصلاة عليهم مجتمعين ومتفرقين، كما يصح في النفي ولايمكن في الايجاب لانه كنفي الضدين في حال واحدة، فانه لايصح اثباتها في حال أصلا. والقبر حفرة يدفن فيها الميت، تقول: قبرته اقبره قبرا فأنا قابر وهو مقبور وأقبرت فلانا اقبارا اذا جعلته بقبره.

وقوله " إنهم كفروا بالله ورسوله " والمعنى انما نهيتك عن الصلاة عليهم لانهم كفروا بالله ورسوله، فهي للتعليل، وانما كسرت لتحقيق الاخبار بأنهم على الصفة التي ذكرها وأنهم " ماتوا وهم فاسقون " اي خارجون عن طاعة الله إلى معصيته.

قوله تعالى:

ولاتعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم

في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون (٨٦) آية قد مضى تفسير مثل هذه الاية فلا وجه لاعادته (١) وبينا أنه خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) والمراد به الامة، ينهاهم الله أن يعجبوا بما اعطى الله الكفار من الاموال والاولاد في الدنيا حتى يدعوهم ذلك إلى الصلاة عليهم، ولا ينبغي ان يغتروا بذلك فانما يريد الله ان يعذبهم بها في الدنيا، لانهم لاينفقونها في طاعة الله ولايخرجون حق الله منها. ويجوز أن يعذبهم بها في الدنيا بما يلحقهم فيها من المصائب والغموم وبما يأخذها المسلمون على وجه الغنيمة وبما يشق عليهم من إخرجها في الزكاة والانفاق في سبيل الله مع اعتقادهم بطلان الاسلام وتشدد ذلك عليهم ويكون عذابا لهم، وان نفوسهم تزهق اي تهلك بالموت " وهم كافرون " أي في حال كفرهم، فلذلك عذبهم الله في الاخرة. والاعجاب هو ايجاد السرور بما يتعجب منه من عظيم الاحسان، تقول: اعجبني امره اعجابا اذا سررت بموضع التعجب منه والزهق خروج النفس بمشقة شديدة ومنه قوله " فاذا هو زاهق " (٢) أي هالك.

وقيل: في وجه حسن تكرار هذه الاية دفعتين قولان:

احدهما – قال ابوعلي: يجوز أن تكون الايتان في فريقين من المنافقين كما يقول القائل: لايعجبك حال زيد ولا يعجبك حال عمرو.

الثاني – أن يكون الغرض البيان عن قوة هذا المعنى فيما ينبغي ان يحذر منه مع أنه للتذكير في موطنين بعد احدهما عن الاخر، فيجب العناية به، وليس ذلك بقبيح، لان الواحد منا يحسن به أن يقوم في مقام بعد مقام، ويكرر الوعظ والزجر والتخويف ولايكون ذلك قبيحا.

---

(١) في تفسير آية ٥٦ من هذه السورة (٢) سورة ٢١ الانبياء آية ١٨
(*)

قوله تعالى وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا ومع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين (٨٧) آية.

بين الله تعالى في هذه الاية أنه إذا أنزل سورة من القرآن على النبي (صلى الله عليه وآله) " أن آمنوا " ومعناه بأن آمنوا فحذفت الباء وجعل " أن آمنوا " في موضع نصب والتقدير بالايمان على وجه الامر ولايجوز الحذف مع صريح المصدر، وإنما جاز مع (أن) للزوم الصلة والحمل على التأويل في اللفظ كما حمل على المعنى.

وهذا خطاب للمؤمنين وأمر لهم بأن يدوموا على الايمان ويتمسكوا به في مستقبل الاوقات ويدخل فيه المنافق ويتناوله الامر بأن يستأنف الايمان ويترك النفاق ثم يجاهدا بعد ذلك بنفوسهم وأموالهم لانه لاينفعهم الجهاد مع النفاق.

وقوله " استأذنك أولوا الطول " معناه أن ذوي الغنى من المنافقين إذا انزلت السورة يأمرهم فيها بالايمان والجهاد يستأذنون النبي (صلى الله عليه وآله) في القعود والتأخر عنه. مع اعتقادهم بطلان الاسلام فيشد ذلك عليهم ويكون عذابا لهم – وهو قول الحسن وابن عباس – فانهما قالا: إنما لحق هؤلاء الذم لانهم أقوى على الجهاد.

وقوله " وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين " اخبار منه تعالى أن هؤلاء المنافقين من ذوي الغنى يقولون للنبي (صلى الله عليه وآله): اتركنا نكن مع القاعدين من الصبيان والزمنى والمرضى الذين لا يقدرون على الخروج. قال الرماني: والسورة جملة من القرآن تشتمل على آيات قد احاطت بها كما يحبط سور القصر بما فيه، وسؤر الهر بقيته من الماء. والجهاد بالقتال دفعا عن النفس معلوم حسنه عقلا لانه مركوز في العقل وجوب التحرز من المضار، وليس في العقل ما يدل على انه يجب على الانسان ان يمنع غيره من الظلم وإنما يعلم ذلك سمعا.

قوله تعالى:

رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون (٨٨) آية.
اخبر الله تعالى بأن هؤلاء الذين قالوا " ذرنا نكن مع القاعدين " من المنافقين رضوا لنفوسهم أن يكونوا مع الخوالف وهم النساء والصبيان والمرضى والمقعدون.
قال الزجاج: الخوالف النساء لتخلفهن عن الجهاد، ويجوز أن يكون جمع خالفة في الرجال، والخالف والخالفة الذي هو غير نجيب، ولم يأت في (فاعل) (فواعل)
صفة إلا حرفين قولهم: فارس وفوارس. وهالك وهوالك.
وقوله " وطبع على قلوبهم " قيل في معناه قولان:
احدهما – انه تعالى يجعل نكته سوداء في قلب المنافق والكافر لتكون علامة للملائكة يعرفون بها أنه ممن لا يفلح أبدا.
الثاني – أن يكون المراد بذلك الذم لها بأنها كالمطبوع عليها فلا يدخلها صبر ولاينتفي عنها شر، لان حال الذم لها يقتضي صفات الذم، كما أن حال المدح يقتضي صفات المدح، كما قال جرير في قصيدة أولها:
أتصحوا أم فؤادك غير صاح * عشية هم صحبك بالرواح
ألستم خير من ركب المطايا * واندى العالمين بطون راح (١)
ولا تحمل الا على المدح دون الاستفهام. والطبع في اللغة هو الختم تقول:
طبعه وختمه بمعنى واحد.
قوله تعالى:
لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم

---

(١) مر تخريجه في ١ / ١٣٢، ٤٠٠ وقد مر في ٢ / ٣٢٧
(*)

وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون (٨٩) آية.
لما أخبر الله تعالى عن حال المتأخرين عن النبي (صلى الله عليه وآله) والقاعدين عن الجهاد معه وأنهم منافقون قد طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون. أخبر عن الرسول (صلى الله عليه وآله) ومن معه من المؤمنين المطيعين لله ورسوله بأنهم يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم بالاموال التي ينفقونها في مرضاة الله وعدة الجهاد ويقاتلون الكفار بنفوسهم. ثم اخبر عما أعدلهم من الجزاء على أفعالهم تلك وانقيادهم لله ورسوله، فقال " أولئك " يعني النبي والذين معه " لهم الخيرات " في الجنة ونعيمها وخيراتها، وانهم المفلحون ايضا الفائزون بكرامة الله. والخيرات

هي المنافع التي تسكن النفس اليها وترتاح بها من النساء الحسان وغيره من نعيم الجنان واحده خيرة – هذا قول ابي عبيدة – وقال رجل من بني عدي:

ولقد طعنت مجامع الربلات * ربلات هند خيرة الملكات (١)

والفلاح النجاح بالوصول إلى البغية من نجح الحاجة وهو قضاؤها.

قوله تعالى:

أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم (٩٠) آية.

بين الله تعالى انه " أعد " لهؤلاء المؤمنين والرسول " جنات " يعني بساتين " تجري من تحتها " ومعناه من تحت اشجارها " الانهار ". والاعداد جعل الشئ مهيئا لغيره تقول: اعد إعدادا واستعد له استعدادا وهو من العدد، لانه قد عد الله جميع ما يحتاج إلى تقديمه له من الامور ومثله الاتخاذ. والوجه في اعداد ذلك قبل مجئ وقت الجزاء أن تصوره لذلك ادعى إلى الطاعة وآكد في الحرص عليها.

---

(١) مجاز القرآن ١ / ٢٦٧ واللسان (خير) الربلة لحمة الفخذ

(*)

ويحتمل أن يكون المراد أنه سيجعل لهم جنات تجري من تحتها الانهار غير أنه ترك للظاهر. وقوله " ذلك الفوز العظيم " اشارة إلى ما أعده لهم واخبار منه بأنه الفوز العظيم. والفوز النجاة من الهلكة إلى حال النعمة، وسميت المهلكة مفازة تفاؤلا بالنجاة وإنما وصفه بالعظيم لانه حاصل على جهة الدوام.

قوله تعالى:

وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم (٩١) آية.

قرأ يعقوب وقتيبة (المعذرون) بسكون العين وتخفيف الذال. الباقون بفتح العين وتشديد الذال، وجه قراءة من قرأ بالتخفيف أنه اراد جاءوا بعذر.

ومن قرأ بالتشديد احتمل أمرين: احدهما – انه اراد المعتذرون، كان لهم عذر أولم يكن، وإنما أدغم التاء في الذال لقرب مخرجهما مثل قوله " يذكرون ويدكرون " وغير ذلك، وأصله يتذكرون. الثاني – انه أراد المقصرون، والمعذر المقصر، والمعذر المبالغ الذي له عذر. وأما المعتذر فانه يقال لمن له عذر ولمن لا عذر له قال لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما * ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر (١)

معناه جاء بعذر. وقال الزجاج: يجوز أن يكون المعذرون الذين يعتذرون فيوهمون أن لهم عذرا ولاعذر لهم وروي عن ابن عباس انه قرأ بالتخفيف، وقال:
لعن الله المعذرين أراد من يعتذر بغير عذر، وبالتخفيف من بلغ أقصى العذر.

---

(١) ديوانه القصيدة: ٢١، وخزانة الادب ٢ / ٢١٧ وتفسير الطبري ١ / ١١٩ ١٤ / ١١٧ واللسان (عذر).
(*)

وأصل التعذير التقصير مع طلب إقامة العذر، عذر في الامر تعذيرا اذا لم يبالغ فيه. والفرق بين الاعتذار والتعذير، أن الاعتذار قد يكون بعذر من غير تصحيح الامر، والتعذير تقصير يطلب معه اقامة العذر فيه. واختلفوا في معنى " وجاء المعذرون " على قولين: قال قتادة واختاره الجبائي: انه من عذر في الامر تعذيرا إذا قصر. وقال مجاهد: جاء أهل العذر جملة على معنى المعتذرين. وقال الحسن:
اعتذروا بالكذب. وقال قوم: إنما جاء بنو عفار، خفاف بن ايماء بن رخصة وقومه.
ومعنى الاية أن قوما من الاعراب جاءوا إلى النبي (صلى الله عليه وآله) يظهرون أنهم مؤمنون ولم يكن لهم في الايمان والجهاد نية فيعرفون نفوسهم عليه وغرضهم أن يأذن النبي (صلى الله عليه وآله) لهم في التخلف، فجعلوا عرضهم أنفسهم عليه عذرا في التخلف عن الجهاد وقوله " وقعد الذين كذبوا الله ورسوله " يعني المنافقين، لانهم الذين كذبوا الله ورسوله فيما كانوا يظهرون من الايمان، فقال الله " سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم " اي ينالهم عذاب مؤلم موجع في الاخرة.
قوله تعالى:
ليس على الضعفاء ولاعلى المرضى ولا على الذين لايجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ماعلى المحسنين من سبيل والله غفور رحيم (٩٢) آية.
عذر الله تعالى في هذه الاية من ذكره ووصفه، فقال " ليس على الضعفاء " وهو جمع ضعيف، وهو الذي قوته ناقصة بالزمانة وغيرها " ولا على المرضى " وهو جمع مريض وهم الاعلاء " ولا على الذين لايجدون ما ينفقون " يعني من ليس معه نفقة الخروج وآلة السفر " حرج " يعني ضيق وجناح. وأصل الضيق الذي يتعذر معه الامر. وقوله " اذا نصحوا لله ورسوله " شرط تعالى في رفع الجناح والاسم عن

المذكورين ان ينصحوا الله ورسوله بأن يخلصوا العمل من الغش، يقال: نصح في عمله نصحا، وناصح نفسه مناصحة، ومنه التوبة النصوح. ثم قال " ماعلى المحسنين من سبيل " أي ليس على من فعل الحسن الجميل طريق. والاحسان هو ايصال النفع إلى الغير لينتفع به مع تعريه من وجوه القبح. ويصح أن يحسن الانسان إلى نفسه ويحمل على ذلك، وهو إذا فعل الافعال الجميلة التي يستحق بها المدح والثواب.

وقوله " والله غفور رحيم " معناه ساتر على ذوي الاعذار بقبول العذر منهم " رحيم " بهم لا يلزمهم فوق طاقتهم. وقال قتادة: نزلت هذه الاية في عابد بن عمرو المزني وغيره. وقال ابن عباس: نزلت في عبدالله بن معقل المزني، فانه وجماعة معه جاءوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقالوا له: احملنا فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لاأجد ما احملكم عليه.

قوله تعالى ولاعلى الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ماينفقون (٩٣) آية.

هذه الاية عطف على الاولى والتقدير ليس على الذين جاءوك – وسألوك حملهم حيث لم يكن لهم حملان، فقلت لهم يا محمد " لا أجد ما أحملكم عليه " اي ليس لي حملان فحينئذ " تولوا وأعينهم تفيض من الدمع " يبكون " حزنا أن لايجدوا ما ينفقون " في هذا الطريق ويتابعونك – حرج وأثم ولا ضيق وإنما حذف لدلالة الكلام عليه. والحمل إعطاء المركوب من فرس أو بعير أو غير ذلك تقول حمله يحمله حملا إذا أعطاه ما يحمل عليه. وحمل على ظهره حملا، وحمله الامر تحميلا وتحمل تحملا، واحتمله احتمالا، وتحامل تحاملا. واللام في قوله " لتحملهم "

لام الغرض، والمعنى جاؤك وأرادوا منك حملهم وتقول: وجدت في المال وجدا وجدة، ووجدت الضالة وجدانا ووجدت عليه – من الموجدة – وجدا. والفيض الجري عن امتلاء من حزن قلوبهم، والحزن ألم في القلب لفوت أمر مأخوذ من حزن الارض وهي الغليظة المسلك.

وقال مجاهد: نزلت هذه الاية في نفر من مزينة، وقال محمد بن كعب القرظي وابن اسحاق: نزلت في سبعة نفر من قبائل شتى. وقال الحسن: نزلت في ابي موسى واصحابه. وقال الواقدي: البكاؤن سبعة من فقراء الانصار، فلما بكوا حمل عثمان منهم رجلين، والعباس بن عبدالمطلب رجلين، ويامين بن كعب بن نسيل النصري من بني النضير ثلاثة، ومن جملة البكائين عبدالله بن معقل. وقال الواقدي:

كان الناس بتبوك ثلاثين الفا، وعشرة آلاف فارس.

قوله تعالى.

إنما السبيل على الذين يستأذنوك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله علـــى قلوبهم فهم لا يعلمون (٩٤) آية.

بين الله تعالى في هذه الاية ان السبيل والطريق بالعقاب والحرج انما هو للذين يطلبـــون الاذن من رسول الله في المقام، وهم مع ذلك اغنياء يتمكنون من الجهاد في ســـبيل الله، الراضـــين بكونهم مع الخوالف من النساء والصبيان ومن لاحراك به. ثم قال: وطبع الله علـــى قلـــوبهم بمعنى وسم قلوبهم بسمة تعرفها الملائكة فيميزون بينهم وبين غيرهم من المؤمنين، ويحتمـــل أن يكون المراد انه بمنزلة المطبوع في أن لايدخلها الايمان كما لو طبعوا على الكفر. ومثلـــه قوله " صم بكم عمي " ومعناه لترك تلفظهم بالحق وعدولهم عن سماع الحق وانصرافهم عـــن النظر إلى الصحيح كأنهم صم بكم عمي، وهم لا يعلمون ذلك، ولايدرون إلى ما يصير أمرهم من

عقاب الابد، ولايعرفون ما يلزمهم من احكام الشرع ما يعرفه المؤمنون. وقال البلخي: معناه لالفهم للخلاف والمعصية كأنهم لايعلمون، والتقدير ان حكم هؤلاء المذكورين بهذه الاوصاف بخلاف من قد تحصن من العقاب بالايمان، لانهم قد فتحوا على انفسهم ابواب العذاب.

قوله تعالى:

يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لاتعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون (٩٥) آية.

اخبر الله تعالى ان هؤلاء القوم الذين تأخروا عن الخروج مع النبي (صلى الله عليه وآله) من غير عذر كان يبيحهم ذلك اذا عاد النبي (صلى الله عليه وآله) والمؤمنون إنهم كانوا يجيؤن اليهم ويعتذرون اليهم عن تأخرهم بالاباطيل والكذب، فقال الله تعالى لنبيه: قل يا محمد لهم " لا تعتذروا " فلسنا نصدقكم على ما تقولون، فان الله تعالى قد اخبرنا من اخباركم واعلمنا من امركم ما قد علمنا به كذبكم " وسيرى الله عملكم ورسوله " أي سيعلم الله فيما بعد عملكم هل تتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه؟ ويحتمل أن يكون المراد أنه يحل في الظهور محل ما يرى " ثم تردون " اي ترجعون إلى من يعلم الغيب والشهادة يعني السر والعلانية الذي لايخفى عليه بواطن أموركم " فينبئكم " بما كنتم تعملون " أي فيخبركم باعمالكم كلها حسنها وقبيحها فيجازيكم عليها أجمع.

والاعتذار اظهار ما يقتضي العذر ويمكن ان يكون صحيحا ويمكن ان يكون فاسدا كاعتذار هؤلاء المنافقين. والفرق بين الاعتذار والتوبة ان التوبة اقلاع عن

سيئة قد وقعت، والاعتذار اظهار مايقتضي انها لم تقع، ولذلك يجوز ان يتوب إلى الله ولا يجوز ان يعتذر اليه. والاعتذار الذي له قبول هو ما كان صاحبه محقا، فأما الاعتذار بالباطل فهو أسوء لحال صاحبه قال الشاعر:

إذا اعتذر الجاني محا العذر ذنبه * وكل امرئ لايقبل العذر مذنب (١)

قوله تعالى:

سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأويهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون (٩٦) آية.

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الذين يعتذرون بالباطل إلى النبي والمؤمنين في تأخرهم عن الخروج معهم أنهم سيقسمون أيضا على ذلك للمؤمنين " اذا انقلبتم اليهم " يعني اذا رجعتم اليهم " لتعرضوا عنهم " اي لتصفحوا عنهم ولا توبخوهم ولا تعنفوهم. ثم أمر الله تعالى

المؤمنين والنبي (صلى الله عليه وآلـه) أن يعرضوا عنهم اعراض المقت وبين " انهم رجس " اي هم كالنتن في قبحه وهم انجاس ويقال: رجس نجس علـى الاتبـاع، وان " مـأواهم " يعنـي مصيرهم ومآلهم ومستقرهم " جهنم جزاء " اي مكافاة على ما كانوا يكسبونه من المعاصـي. والجزاء مقابلة العمل بما يقتضيه من خير او شر. قال احمد بن يحيى ثعلب: اللام في قولـه " لتعرضوا عنهم " ليست لام غرض وانما معناه لاعراضكم، وانما علق – هاهنا – بذلك لـئلا يتوهم أنه اذا رضي المؤمنون فقد رضي الله عنهم أيضا فذكر ذلك ليزول هـذه الالبـاس لان المنافقين لم يحلفوا لهم لكي يعرضوا، ولكنهم حلفوا تبرئا من النفاق ولاعراض المسلمين عنهم وأنشد:

سموت ولم تكن أهلا لتسمو * ولكن المضيع قد يصاب

---

(١) العقد الفريد ٢ / ١٥

(*)

أراد ما كنت للسمو.

قوله تعالى:

يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين (٩٧) آية.

بين الله تعالى أن هؤلاء المنافقين يقسمون بالله طلبا لمرضاتكم عنهم " فـان ترضـوا " ايهـا المؤمنون " عنهم فان الله لايرضى عن القوم الفاسقين " الخارجين من طاعته إلـى معصـيته، والمعنى انه لاينفعهم رضاكم مع سخط الله عليهم وارتفاع رضاه عنهم:

رضي المؤمنون عنهم او لم يرضوا، وانما علق هاهنا بذلك لئلا يتوهم أنه اذا رضى المؤمنون فقد رضي الله عنهم أيضا، فذكر ذلك ليزول هذا الالباس ولان المراد بذلك انـه اذا كـان الله لايرضى عنهم فينبغي لكم ايضا أن لاترضوا عنهم.

قوله تعالى:

الاعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر لايعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم (٩٨) آية.

أخبر الله تعالى في هذه الاية أن الاعراب الجفاة الذين لايعرفون الله ورسوله حق معرفتهمـا أشد كفرا ونفاقا وجحودا لنعم الله، وأعظم نفاقا من غيرهم. وقيل:

انها نزلت في اعراب كانوا حول المدينة من اسد وغطفان، فكفرهم اشد، لانهم أقصى وأجفى من أهل المدن، ولانهم أبعد عن سماع التنزيل ومخالطة أهل العلم والفضل، ويقـال: رجـل

عربي إذا كان من العرب وإن سكن البلاد، وإعرابي اذا كان ساكنا في البادية. وروي أن زيد بن صوحان كانت يده اليسرى قد قطعت يوم اليمامة وكان قاعدا يوما يروي الحديث والى جانبه إعرابي، فقال له: ان حديثك

يعجبني وان يدك تريبني فقال زيد: إنها الشمال، فقال: والله ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال، فقال زيد: صدق الله، وقرأ " الاعراب أشد كفرا " الاية.

وقوله " وأجدر " معناه أخلق وأولى وأقرب إلى " أن " لايعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله " من الشرائع والاحكام. وموضع (أن) نصب لان تقديره أجدر بأن، فحذف الباء فانتصب، وتقديره أجدر بترك العلم غير أن الباء لا تحذف مع المصدر الصريح، وإنما تحذف مع (أن) للزوم العلم بها وحملها على التأويل.

و (أجدر) مأخوذ من جدر الحائط. وقوله " والله عليم حكيم " معناه عالم بأحوالهم وبواطنهم حكيم فيما يحكم به عليهم من الكفر وغير ذلك من أفعاله.

قوله تعالى:

ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم (٩٩) آية.

قرأ ابن كثير وابوعمرو " دائرة السوء " بضم السين. الباقون بفتح السين.

من فتح أراد المصدر، وإنما أضاف الدائرة إلى السوء تأكيدا كما يقال: عيني رأسه وشمس النهار، تقول: سؤته أسوءه سوءا ومساءة ومسائية، وقوله " ما كان أبوك امرأ سوء " (١) لايجوز فيه غير فتح السين، وكذلك في قوله " وظننتم ظن السوء " (٢) لان الضم بمعنى الاسم، وتقديره عليهم دائرة العذاب والبلاء.

أخبر الله تعالى ان من جملة هؤلاء المنافقين من الاعراب من يتخذ ما ينفقه في الجهاد وغيره من طرق الخير " مغرما " اي غرما من قولهم: غرمته غرما وغرامة.

والغرم لزوم نائبة في المال من غير جناية، ومنه قوله " من مغرم مثقلون " (٣)

---

(١) سورة ١٩ مريم آية ٢٨. (٢) سورة ٤٨ الفتح آية ١٢ (٣) سورة ٥٢ الطور آية ٤٠ وسورة ٦٨ القلم آية ٤٦.

(*)

وأصل المغرم لزوم الامر، ومنه قوله " إن عذابها كان غراما " (١) أي لازما، وحب غـــرام أي لازم، والغريم كل واحد من المتداينين، وغرمته كذا الزمته إياه في ماله. وقوله " ويتربص بكم الدوائر " فالتربص التمسك بالشئ لعاقبة ومنه التربص بالطعام لزيـــادة الســـعر، فهـــؤلاء يتربصون بالمؤمنين لعاقبة من الدوائر.

والدائرة جمعها دوائر وهي العواقب المذمومة. وقال الفراء والزجاج: كانوا يتربصـــون بهـــم الموت والقتل، وإنما خص رفع النعمة بالدوائر دون رفع النقمة، لان النعمة أغلب واعـــم لان كل واحد لايخلو من نعم الله وليس كذلك النقمة، لانها خاصة. والنعمة عامة. وقد قيـــل: دارت لهم الدنيا بخلاف دارت عليهم. ثم قال تعالى " عليهم دائرة السوء " يعني على هؤلاء المنافقين دائرة العذاب والبلاء – في قراءة من قرأ بالضم – وقوله " والله سميع عليم " معناه – هاهنا – انه يسمع ما يقوله هؤلاء المنافقون ويعلم بواطن أمورهم، ولايخفى عليه شئ من حالهم وحال غيرهم.

قوله تعالى:

ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الاخر ويتخذ ماينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم (١٠٠) آية.

قرأ ورش واسماعيل " قربة " بضم الراء، اتبع الضمة التي قبلها. وقال ابو علي: لايجـــوز ان يكون اتباعا لما قبله لان ذلك إنما يجوز في الوقف آخر الكلم وإنما الضمة فيها الاصل، وإنما خففت في قولهم: رسل وطنب، فقالوا: رسل وطنب فاذا جمع فلا يجوز فيه غير ضم الـــراء، لان الحركة الاصلية لابدمن ردها في الجمع.

---

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٦٥.

(*)

لما ذكر الله تعالى ان من جملة الاعراب من يتخذ انفاقه في سبيل الله مغرمـــا ذكـــر ان مـــن جملتهم ايضا " من يؤمن بالله " اي يصدق به وباليوم الاخر يعني يوم القيامة وانه يتخذ ماينفقه في سبيل الله قربات عند الله. قال الزجاج: يجوز في (قربات) ثلاثـــة اوجـــه – ضـــم الـــراء وإسكانها وفتحها – وما قرى ء إلا بالضم، والقربة هي طلب الثواب والكرامة من الله تعـــالى بحسن الطاعة، وهي تدني من رحمة الله والتقدير انه يتخذ نفقته وصلوات الرسول اي دعـــاءه له قربة إلى الله. وقال ابن عباس والحسن: معنى وصلوات الرسول استغفاره لهم، وقال قتادة: معناه دعاؤه بالخير والبركة قال الاعشى:

تقول بنتي وقد قربت مرتحلا * يا رب جنب ابي الاوصاب والوجعا
عليك مثل الذي صليت فاغتمضي * نوما فان لجنب المرء مضطجعا (١)

ثم قال " ألا إنها " يعني صلوات الرسول " قربة لهم " اي تقربهم إلى ثواب الله. ويحتمل ان يكون المراد ان نفقتهم قربة إلى الله. وقوله " سيدخلهم الله في رحمته " وعد منه لهم بان يرحمهم ويدخلهم فيها، وفيه مبالغة " فان الرحمة وسعتهم وغمرتهم، ولو قال فيهم رحمة الله لافاد انهم اتسعوا للرحمة من الله تعالى وقوله " إن الله غفور رحيم " معناه إنه يستر كثيرا على العصاة ذنوبهم ولا يفضحهم بها لرحمته بخلقه " وغفور رحيم " جميعا من الفاظ المبالغة فيما وصف به نفسه من المغفرة والرحمة.

قوله تعالى:

والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم

---

(١) ديوانه ٧٢٠ القصيدة ١٣ وقد مر البيت الثاني في ١ / ١٩٣
(*)

جنات تجري تحتها الانهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم (١٠١) آية.

قرأ ابن كثير وحده " جنات تجري من تحتها " باثبات (من) وكذلك هو في مصاحف اهل مكة. الباقون بحذف (من) ونصبوا تحتها على الظرف وقرأ يعقوب " والانصار والذين " بضم الراء. الباقون بجرها. من رفع عطف على قوله " والسابقون الاولون " ورفع على الابتداء والخبر قوله " رضي الله عنهم " ومن جر عطفه على " المهاجرين " كأنه قال: من المهاجرين ومن الانصار. ومن اثبت (من) فلان في القرآن مواضع لا تحصى " جنات تجري من تحتها " ومن أسقطها تبع مصحف غير أهل مكة. والمعنى واحد.

اخبر الله تعالى أن الذين سبقوا أولا إلى الايمان بالله ورسوله والاقرار بهما من الذين هاجروا من مكة إلى المدينة والى الحبشة، ومن الانصار الذين سبقوا اولا غيرهم إلى الاسلام من نظرائهم من أهل المدينة، والذين تبعوا هؤلاء بأفعال الخير والدخول في الاسلام بعدهم وسلوكهم منهاجهم. وقال الفراء: يدخل في ذلك من يجئ بعدهم إلى يوم القيامة. وقال الزجاج: مثله.

ثم اخبر أن الله رضي عنهم ورضي أفعالهم ورضوا هم ايضا عن الله لما أجزل لهم من الثواب على طاعاتهم وإيمانهم به وبنبيه. والسبق كون الشئ قبل غيره.

ومنه قيل في الخيل السابق، والمصلي هو الذي يجئ في اثر السابق يتبع صلاه.
وإنما كان السابق إلى الخير أفضل لانه داع اليه بسبقه – والثاني تابع – فهو امام فيه وكذلك من سبق إلى الشر كان اسوء حالا لهذه العلة. والاتباع طلب الثاني لحال الاول أن يكون على مثلها على ما يصح ويجوز، ومثله الاقتداء. والاحسان هو النفع الواصل إلى الغير مع تعريه من وجوه القبح. فأما قولهم أحسن فمن فعله فقد يكون بفعل النفع وبفعل الضرر، لانه تعالى اذا فعل في الاخرة العقاب يقال

إنه أحسن لكن لايقال: أحسن اليه. وقوله " واعد لهم جنات تجري تحتها الانهار " اخبار منه تعالى انه مع رضاه عنهم ورضاهم عنه أعد لهم الجنات يعني البساتين التي تجري تحت اشجارها الانهار، وقيل: ان انهارها اخاديد في الارض فلذلك قال:
تحتها " خالدين فيها ابدا " اي يبقون فيها ببقاء الله لا يفنون، منعمين. وقوله " ذلك الفوز العظيم " معناه إن ذلك النعيم الذي ذكره هو الفلاح العظيم الذي تصغر في جنبه كل نعمة.
واختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الاية، فقال ابوموسى وسعيد بن المسيب وابن سيرين وقتادة: نزلت فيمن صلى القبلتين، وقال الشعبي: نزلت فيمن بايع بيعة الرضوان وهي بيعة الحديبية، وقال: من اسلم بعد ذلك وهاجر فليس من المهاجرين الاولين. وقال ابوعلي الجبائي: نزلت في الذين أسلموا قبل الهجرة.
وروي أن عمر قرأ " والانصار " بالرفع " الذين اتبعوهم " باسقاط الواو، فقال أبي: والذين اتبعوهم بأمير المؤمنين فرجعوا إلى قوله.
قوله تعالى:
وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم (١٠٢) آية.
معنى قوله " وممن حولكم " من جملة من حولكم يعني حول مدينتكم وحول الشئ المحيط به، وهو مأخوذ من حال يحول إذا دار بالانقلاب. ومنه المحالة لانها تدور في المحول. وقوله " من الاعراب " والاعراب هم الذين يسكنون البادية إذا كانوا مطبوعين على العربية وليس واحدهم عربا، لان العرب قد يكونوا حاضرة والاعراب بادية. وقوله " منافقون " معناه من يظهر الايمان ويبطن الكفر " ومن

أهل المدينة " أيضا منافقون، وانما حذف لدلالة الاول عليه " مردوا على النفاق " يقال: مرد على الشئ يمرد مرودا فهو مارد ومريد إذا عتا وطغى وأعيا خبثا، ومنه (شيطان مارد، ومريد) وقال ابن زيد: معناه أقاموا عليه لم يتوبوا كما تاب غيرهم. وقال ابن اسحاق: معناه لجوا فيه وأبوا غيره. وقال الفراء: معناه مرنوا عليه وتجرءوا عليه وقال الزجاج: فيه تقديم وتأخير والتقدير وممن حولكم من الاعراب منافقون مردوا على النفاق ومن اهل المدينة ايضا مثل ذلك. وأصل المرود الملاسة. ومنه قوله " صرح ممرد من قوارير " (١) اي مملس ومنه الامرد الذي لا شعر على وجهه، والمرودة والمرداء الرملة التي لاتنبت شيئا، والتمراد بيت صغير يتخذ للحمام مملس بالطين، والمرداء الصخرة الملساء. " لاتعلمهم " معناه لاتعرفهم يا محمد " نحن نعلمهم " اي نعرفهم.

وقوله " سنعذبهم مرتين " قيل في معناه أقوال:

احدها – قال الحسن وقتادة والجبائي: يعني في الدنيا وفي القبر. وقال ابن عباس: نعذبهم في الدنيا بالفضيحة لان النبي (صلى الله عليه وآله) ذكر رجلا منهم واخرجهم من المسجد يوم الجمعة في خطبته قال: اخرجوا فانكم منافقون، والاخرى في القبر.

وقال مجاهد: يعني في الدنيا بالقتل والسبي والجوع. وفي رواية اخرى عن ابن عباس: أن إحداهما اقامة الحدود عليهم، والاخرى عذاب القبر، وقال الحسن:

إحداهما أخذ الزكاة منهم: والاخرى عذاب القبر، وقال ابن اسحاق: إحداهما غيظهم من اهل الاسلام، والاخرى عذاب القبر. وكل ذلك محتمل غير أنا نعلم ان المرتين معا قبل ان يردوا إلى عذاب النار يوم القيامة. وقوله " ثم يردون إلى عذاب عظيم " معناه ثم يرجعون يوم القيامة إلى عذاب عظيم مؤبد في النار. وروي أن الاية نزلت في عيينة بن حصين واصحابه.

---

(١) سورة ٢٧ النمل آية ٤٤.

(*)

قوله تعالى:

وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطلوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم (١٠٣) آية.

روي عن ابن عباس أنه قال: نزلت هذه الاية في عشرة أنفس تخلفوا عن غزوة تبوك فيهم أبولبابة، فربط سبعة منهم أنفسهم إلى سواري المسجد إلى أن قبلت توبتهم. وقيل: كانوا سبعة منهم ابولبابة. وقال ابوجعفر (عليه السلام): نزلت في ابي لبابة. ولم يذكر غيره، وكان سبب

نزولها فيه ما جرى منه في غزوة بني قريظة وبه قال مجاهد. وقال الزهري: نزلت في أبـــي لبابة خاصة حين تأخر عن تبوك.

واكثر المفسرين ذكروا أن أبا لبابة كان من جملة المتأخرين عن تبوك. وروي عن ابن عباس أنها نزلت في قوم من الاعراب. وقيل: نزلت في خمسة عشر نفسا ممن تأخر عن تبوك.

هذه الاية عطف على قوله " ومن أهل المدينة " أي ومنهم " آخرون " اعترفوا بـــذنوبهم " أي أقروا بها مع معرفتهم بها فان الاعتراف هو الاقرار بالشئ عن معرفة. والاقرار مشتق مـــن قر الشئ إذا ثبت. والاعتراف من المعرفة. وقوله " خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا " معنـــاه انهم يفعلون افعالا جميلة، ويفعلون افعالا سيئة قبيحة، فيجتمعان، وذلك يدل على بطلان القول بالاحباط، لانه لو كان صحيحا لكان أحدهما إذا طرا على الاخر أحبطه، فلا يجتمعان، فكيـــف يكون خلطا.

وقوله " عسى الله ان يتوب عليهم " قال الحسن وكثير من المفسرين: إن (عسى) من الله واجبة. وقال قوم: انما قال (عسى) حتى يكونوا على طمع واشفاق فيكون ذلك أبعد من الاتكال على العفو واهمال التوبة، والتقدير في قوله " خلطوا عملا صالحا وآخـــر ســـيئا " اي بآخر سئ ومثله قولك: خلطت الماء واللبن

اي بالبن. وقد يستعمل ذلك في الجمع من غير امتزاج كقولهم: خلطت الدارهم والدنانير. وقال قوم: هو يجري مجرى قولهم: استوى الماء والخشبة اي مع الخشبة. وقال اهل اللغة: خلط في الخير مخففا وخلط في الشر مشددا. وقوله " ان الله غفور رحيم " تعليل لقبـــول التوبـــة مـــن العصاة لانه غفور رحيم.

قوله تعالى:

خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم (١٠٤) آية.

قرأ اهل الكوفة الا ابابكر " إن صلاتك " على التوحيد ونصب التاء الباقون على الجمع وكسر التاء، لانه جمع السلامة. فمن قرأ على التوحيد فلانه مصدر يقع على القليـــل والكثيـــر، فـــلا يحتاج إلى جمعه. ومثله " لصوت الحمير " (١)

ومما ورد في القرآن بلفظ التوحيد والمراد به الجمع قوله " وما كان صلاتهم عنـــد البيـــت إلا مكاء " (٢) وقوله " أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة " (٣) ومن جمع فلاختلاف الصلاة، كمـــا ان قوله " ان انكر الاصوات " (٤) جمع لاختلاف ضروبه والصلاة في اللغة الدعاء قال الاعشى في الخمر:

وقابلها الريح في دنها * وصلى على دنها وارتسم (٥)

ومعنى " صل عليهم " ادع لهم، فان دعاءك سكن لهم بمعنى تسكن اليه

---

(١) سورة ٣١ لقمان آية ١٩ (٢) سورة ٨ الانفال آية ٣٥ (٣) سورة ٤ النساء آية ٧٦ وسورة ٢٢ الحج آية ٧٨ وسورة ٢٤ النور آية ٥٦ وسورة ٥٨ المجادلة آية ١٣ وسورة ٧٣ المزمل آية ٢٠ (٤) سورة ٣١ لقمان آية ١٩

(٥) ديوانه: ٢٩ القصيدة ٤ وقد سلف في ١ / ٥٦، ١٩٣

(*)

نفوسهم وتطيب به، ولفظ التوحيد – هاهنا – أحسن لان المراد دعاء النبي (صلى الله عليه وآله) لهم لأداء الصلوات، والجمع على ضروب دعائه. وقولهم: صلى الله على رسول الله وعلى ملائكته، ولايقال: إنه دعاء لهم من الله كما لايقال في نحو (ويل للمكذبين)

أنه دعاء عليهم، لكن المعنى أن هؤلاء ممن يستحق عندكم أن يقال فيهم هذا اللغو من الكلام. ومثله قوله " بل عجبت ويسخرون " (١) فيمن ضم التاء هذا مذهب سيبويه، وذكر الفراء وغيره أن هؤلاء الذين تابوا وأقلعوا قالوا للرسول: خذ من أموالنا ما تريد، فقال رسول الله: لا أفعل حتى يؤذن لي فيه، فأنزل الله " خذ من أموالهم صدقة " فأخذ منهم بعضا وترك الباقي وروي ذلك عن ابن عباس وزيد بن اسلم وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك، وهي في أبي لبابة وجد بن قيس وأوس وحذام. وقوله " خذ من اموالهم صدقة " امر من الله تعالى أن يأخذ من المالكين لنصاب الزكاة: الورق إذا بلغ مئتين، والذهب إذا بلغ عشرين مثقالا، والابل إذا بلغت خمسا، والبقر إذا بلغت ثلاثين، والغنم إذا بلغت أربعين، والغلات اذا بلغت خمسة أوسق. وقوله " خذ من أموالهم " يدل على أن الاخذ من اختلاف الاموال، لانه جمعه. ولو قال: خذ من مالهم أفاد وجوب الاخذ من جنس واحد متفق. و (من)

دخلت للتبعيض، فكأنه قال: خذ بعض مختلف الاموال. وظاهر الاية لا يدل على انه يجب أنه يأخذ من كل صنف لانه لو اخذ من صنف واحد لكان قد اخذ بعض الاموال وإنما يعلم ذلك بدليل آخر. والصدقة عطية ماله قيمة للفقر والحاجة. والبر عطية لاجتلاب المودة. ومثله الصلة.

وقوله " تطهرهم وتزكيهم بها " انما ارتفع (تطهرهم) لاحد امرين:

احدهما – ان تكون صفة للصدقة وتكون التاء للتأنيث، وقوله " بها " تبيين له والتقدير صدقة مطهرة.

---

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ١٢
(*)

والثاني – أن تكون التاء خطابا للنبي (صلى الله عليه وآله) والتقدير فانك تطهرهم بها، وهو صفة للصدقة ايضا الا انه اجتزاء بذكر (بها) في الثاني عن الاول. وقيل: انه يجوز ان يكون على الاستئناف، وحمله على الاتصال أولى، ولا يجوز ان يكون جوابا للامر لانه لو كان كذلك لكان مجزوما. وقوله " وتزكيهم " تقديره وأنت تزكيهم على الاستئناف. وقيل في هذه الصدقة قولان: قال الحسن: انها هي كفارة الذنوب التي أصابوها، وقال أبوعلي: هي الزكاة الواجبة. وأصل التطهير إزالة النجس، والمراد – هاهنا – إزالة النجس: الذنوب بما يكفرهم من الطاعة. وقوله " وصل عليهم " أمر من الله تعالى للنبي أن يدعو لمن يأخذ منه الصدقة. وقال الجبائي: يجب ذلك على كل ساع يجمع الزكوات ان يدعوا لصاحبها بالخير والبركة، كما فعل رسول الله (صلى الله عليه وآله). وقوله " والله سميع عليم " معناه انه تعالى يسمع دعاءك لهم بنياتهم في الصدقة التي يخرجونها.

قوله تعالى:

ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم (١٠٥) آية.

الالف في قوله " ألم يعلموا " الف استفهام والمراد بها التنبيه على ما يجب ان يعلم المخاطب اذا رجع إلى نفسه وفكر فيما نبه عليه علم وجوبا. وإنما وجب ان يعلم ان الله يقبل التوبة، لانه اذا علم ذلك كان ذلك داعيا له إلى فعل التوبة والتمسك بها والمسارعة اليها، وما هذه صورته وجب عليه ان يعلمه ليتخلص به من العقاب ويحصل له الثواب. وسبب ذلك انهم لما سألوا النبي (صلى الله عليه وآله) ان يأخذ من ما لهم ما يكون كفارة لذنوبهم فامتنع النبي من ذلك وقال: حتى يؤذن لي فيه فبين الله تعالى انه ليس إلى النبي قبول توبتكم وان ذلك إلى الله تعالى دونه، فانه

الذي يقبل التوبة ويقبل الصدقات. وفعل التوبة يستحق به الثواب اللانها طاعة. فأما اسقاط عقاب المعاصي المتقدمة عندها فالعقل لا يوجب ذلك. وانما علم ذلك سمعا لان السمع قطع العذر بأن الله يسقط العقاب عند التوبة الصحيحة. وقد بينا في غير موضع فيما تقدم ان التوبة التي يسقط العقاب عندها قطعا هي الندم على القبيح والعزم على ان لا يعود إلى مثله في القبح، لان الامة مجمعة على سقوط العقاب عند هذه التوبة وفيما خالف هذه التوبة خلاف.

وقوله " ويأخذ الصدقات " معناه انه يأخذها بتضمن الجزاء عليها كما تؤخذ الهدية كذلك. وقال ابوعلي الجبائي: جعل الله أخذ النبي (صلى الله عليه وآله) والمؤمنين للصدقة أخذا من الله على وجه التشبيه والمجاز، ومن حيث كان بأمره. وقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) ان الصدقة قد تقع في يد الله قبل ان تصل إلى يد السائل، والمراد بذلك انها تنزل هذا التنزيل ترغيبا للعباد في فعلها، وذلك يرجع إلى تضمن الجزاء عليها.

وقوله " وان الله هو التواب الرحيم " عطف على قوله " الم يعلموا " ولذلك فتح (أن) لانها مفعول به. والتواب في صفة الله معناه انه يقبل التوبة كثيرا وفي صفة العبد يفيد انه يفعل التوبة كثيرا وقيل في معنى " وتاب الله عليكم " (١)

صفح عنكم ولم يكونوا اذنبوا فيتوبوا ليتوب الله عليهم وكذلك قوله " علم الله انكم كنتم تختانون انفسكم فتاب عليكم " (٢) بمعنى صفح لانهم لم يتوبوا.

قوله تعالى وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون (١٠٦) آية.

---

(١) سورة ٥٨ المجادلة آية ١٣ (٢) سورة ٢ البقرة آية ١٨٧

(*)

هذا امر من الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) أن يقول للمكلفين " اعملوا " ما أمركم الله به من الطاعة واجتنبوا معاصيه فان الله " سيرى عملكم ورسوله والمؤمنون " وفي ذلك ضرب من التهديد، كما قال مجاهد، والمراد بالرؤية هاهنا العلم الذي هو المعرفة ولذلك عداه إلى مفعول واحد، ولو كان بمعنى العلم الذي ليس بمعرفة لتعدى إلى مفعولين، وليس لاحد أن يقول: ان اعمال العباد من الحركات يصح رؤيتها لمكان هذه الاية، لانه لو كان المراد بها العلم لعداه إلى الجملة وذلك أن العلم الذي يتعدى إلى مفعولين ما كان بمعنى الظن، وذلك لا يجوز على الله وانما يجوز عليه ما كان بمعنى المعرفة. وروي في الخبر أن أعمال العباد تعرض على النبي (صلى الله عليه وآله) في كل اثنين وخميس فيعلمها، وكذلك تعرض على الائمة (عليهم السلام) فيعرفونها، وهم المعنيون بقوله " والمؤمنون "، وإنما قال " فسيرى الله " على وجه الاستقبال. وهو عالم بالاشياء قبل وجودها. لان المراد بذلك انه سيعلمها موجودة بعد أن علمها معدومة وكونه عالما بأنها ستوجد من كونه عالما بوجودها إذا وجدت لايجدد حال له بذلك. وقوله " وستردون إلى عالم الغيب والشهادة " معناه سترجعون إلى الله الذي بعلم السر والعلانية " فينبئكم " اي يخبركم " بما كنتم تعملون " ويجازيكم عليه.

قوله تعالى:

وآخرون مرجون لامر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم (١٠٧) آية.

قرأ أهل المدينة عن أبي بكر " مرجون " بغير همزة. الباقون بالهمزة والوجه فيهما أنهما لغتان.. ويقال: أرجأت وأرجيت بمعنى واحد.

وهذه الاية عطف على قوله " ومن أهل المدينة مردوا على النفاق..

وآخرون اعترفوا بذنوبهم.. وآخرون مرجون لامر الله " والارجاء تأخير الامر

إلى وقت، يقال: أرجأت الامر إرجاء وأرجيته بالهمزة وترك الهمزة لغتان.

وقوله " اما يعذبهم وإما يتوب عليهم " فلفظة (إما) لوقوع أحد الشيئين والله اعلم بما يصير اليه امرهم إلا ان هذا للعباد، خوطبوا بما يعلمون. والمعنى وليكن امرهم عندكم على هذا اي على الخوف والرجاء. والاية تدل على صحة قولنا في جواز العفو عن العصاة، لانه تعالى بين ان قوما من هؤلاء العصاة أمرهم مرجأ إلى الله: ان شاء عذبهم وان شاء قبل توبتهم فعفا عنهم فلو كان سقوط العقاب عند التوبة واجبا، لما جاز تعليق ذلك بالمشيئة على وجه التخيير، لانهم ان تابوا وجب قبول توبتهم عند الخصم واسقاط العقاب عنهم، وان أصروا ولم يتوبوا فلا يعفي عنهم، فلا معنى للتخيير – على قولهم – وانما يصح ذلك على ما نقوله: من أن مع حصول التوبة تحسن المؤاخذة فان عفا فبفضله وان عاقب فبعدله. وقوله " وإما يتوب عليهم " معناه وإما يقبل توبتهم. وقوله " والله عليم حكيم " معناه عالم بما يؤل اليه حالهم " حكيم " فيما يفعله بهم. والفرق بين الاخر والاخر أن الاخر يفيد أنه بعد الاول، والاخر مقابل لاحد في تفصيل ذكر اثنين احدهما كذا والاخر كذا.

وقال مجاهد وقتادة: الاية نزلت في هلال بن امية الرافعي وفزارة بن ربعي وكعب بن مالك من الاوس والخزرج، وكان كعب بن مالك رجل صدق غير مطعون عليه، وانما تخلف توانيا عن الاستعداد حتى فاته المسير وانصرف رسول الله ولم يعتذر اليه بالكذب. وقال: والله مالي من عذر، فقال (صلى الله عليه وآله): صدقت فقم حتى يقضي الله فيك. وجاء الرجلان الاخر ان فقالا مثل ذلك وصدقا، فنهي رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن كلامهم بعد ما عذر المنافقين وجميع المتخلفين، وكانوا نيفا وثمانين رجلا فاقام هؤلاء الثلاثة على ذلك خمسين ليلة حتى هجرهم ولدانهم ونساؤهم طاعة لرسول الله (صلى الله عليه وآله) بأمره. وبنى كعب خيمة على سلع يكون فيها وحده. وقال في ذلك:

أبعد دور بني القين الكرام وما * شادوا علي بنيت البيت من سعف

ثم نزلت التوبة عليهم في الليل فأصبح المسلمون يبتدرونهم يبشرونهم، قال كعب: فجئت إلى رسول الله في المسجد وكان اذا سر يستبشر كأن وجهه فلقة قمر فقال لي ووجهه يبرق من السرور: ابشر بخير يوم طلع عليك شرفه منذ ولدتك أمك قال كعب، فقلت له: أمن عند الله او من عندك يا رسول الله؟ قال فقال: من عند الله. وتصدق كعب بثلث ما له شكرا تالله على توبته.

قوله تعالى:

والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون (١٠٨) آية.

قرأ ابن عامر وأهل المدينة " الذين اتخذوا " باسقاط الواو الباقون باثبات الواو. فمن أثبت الواو، عطفه على ما تقدم من الايات وتقديره: ومنهم الذين اتخذوا مسجدا ضرارا ومن حذفها ابتدأ الكلام وحذف الخبر لطول الكلام قال الزهري، ويزيد بن رومان، وعبدالله بن أبي بكر. وعاصم بن عمر بن قتادة:

نزلت هذه الاية في اثني عشر رجلا من المنافقين، قال الفراء: كانوا من بني عمرو ابن عوف من الانصار. وقال غيره: كانوا من بني غنم ابن عوف من الانصار الذين بنوا مسجد الضرار. وقيل انهم كانوا خمسة عشر رجلا منهم عبدالله بن نفيل – في قول الواقدي – وقال ابن اسحاق: هو نفيل بن الحارث ولم يذكر عبدالله وهذا المختلف في اسمه هو الذي كان ينقل حديث النبي إلى المنافقين فأعلم الله نبيه ذلك. وأخبر الله عنهم انهم بنوا المسجد الذي بنوه ضرارا اي مضارة. ونصب على أنه مفعول له أي بنوه للمضارة. والضرار هو طلب الضر ومحاولته كما أن الشقاق

محاولة ما يشق، تقول: ضاره مضارة وضرارا. والاية تدل على ان الفعل يقع بالارادة على وجه القبح دون الحسن، أو الحسن دون القبح، لانهم لو بنوا المسجد للصلاة فيه لكان حسنا، لكن لما قصدوا المضارة كان ذلك قبيحا ومعصية.

وقوله " وتفريقا بين المؤمنين " أي بنوه للمضارة والكفر والتفريق بين المؤمنين. وانما يكون تفريقا بين المؤمنين بأن يتحزبوا، فحزب يصلي فيه وحزب يصلي في غيره لتختلف الكلمة وتبطل الالفة. واتخذوه ايضا ليكفروا فيه بالطعن على النبي (صلى الله عليه وآله) والاسلام والمسلمين. وقوله " وارصادا لمن حارب الله ورسوله " معناه اتخذوا له ليكون متى أراد الاجتماع معهم حضره وأنس به، وهو رجل يقال له ابوعامر الراهب لحق بقيصر فتنصر

وبعث الهيم سآتيكم بجند فأخرج به محمدا واصحابه. فبنوه يترقبونه، وهو الذي حزب الاحزاب وحارب مع المشركين، فلما فتحت مكة هرب إلى الطائف، فلما اسلم اهل الطائف لحق بالشام وخرج إلى الروم وتنصر، وابنه عبدالله قتل يوم احد – وهو غسيل الملائكة – ذهب اليه اكثر المفسرين كابن عباس ومجاهد وقتادة. وأصل الارصاد الارتقاب تقول: رصده يرصده رصدا وأرصد له وراصده مراصدة وتراصد تراصدا وارتصده إرتصادا.

وقوله " وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى " معناه إن هؤلاء يحلفون على أنهم ما أرادوا ببناء هذا المسجد إلا الحسنى يعني إلا الفعلة الحسنى، فقال الله تعالى تكذيبا لهم " والله يشهد انهم لكاذبون " وكفى بمن يشهد الله بكذبه خزيا ووجه رسول الله (صلى الله عليه وآله) قبل قدومه من تبوك عاصم بن عون العجلاني ومالك بن الدخثم وكان مالك من بني عوف، فقال لهما (انطلقا إلى هذا المسجد الظالم اهله فاهدماه ثم حرقاه) فخرجا يشتدان سريعين على أقدامها ففعلا ما أمرهما به فثبت قوم من جملتهم زيد بن حارثة بن عامر حتى أحترقت البتة.

(٢٩٩)

قوله تعالى:

لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين (١٠٩) آية.

نهى الله نبيه – وعنى معه جميع المؤمنين – أن يقوموا في المسجد الذي بني ضرارا " ابدا " أو يصلوا فيه، وأقسم ان المسجد الذي " أسس على التقوى من أول يوم أحق ان تقوم فيه " وقيل في مسجد الذي اسس على التقوى قولان:

احدهما – قال ابن عباس والحسن وعطية: إنه مسجد قباء.

وقال ابن عمرو ابن المسيب: هو مسجد المدينة. وقال عمر بن شبه:

المسجد الذي اسس على التقوى مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله) والذي اسس على تقوى ورضوان مسجد قباء كذلك فصل بينهما، ورواه عن أشياخه. والنقوى خصلة من الطاعة يحترز بها من العقوبة، والمتقي صفة مدح لاتطلق الا على مستحق الثواب.

وواو (تقوى) ابدلت من الياء، لانه من تقيت وانما ابدلت للفرق بين الاسم والصفة في الابنية. ومثله شروى من شريت، فأما الصفة فنحو خزيا. ولو قيل: كيف يبنى (فعلى) من قصيت؟ قلت: قصوى في الاسم وقصيا في الصفة. وقوله " من أول يوم " معناه اول الايام اذا ميزت يوما يوما، لان افعل بعض الضيف اليه. ومثله اعطيت كل رجل في الدار اي كل الرجال إذا ميزوا رجلا رجلا. والفرق بين من اول يوم، ومنذ اول يوم، ان (منذ) اذا كانت حرفا، فهي

الوقت الخاص كقولك: منذ اليوم ومنذ الشهر ومنذ السنة، وليس كذلك (من) وإذا كانت اسما وقع على ما بعدها على تقدير كلامين و (من) على النهاية لانها نقيض (إلى)
قال زهير:

(٣٠٠)

لمن الديار بقنة الحجر * أقوين من حجج ومن شهر (١)
وقوله " أحق أن تقوم فيه " مع أن القيام في الاخر قبيح منهي عنه، وانما قال ذلك على وجه المظاهرة بالحجة بأنه لو كان من الحق الذي يجوز لكان هذا أحق. ويجوز على هذا أن تقول: عمل الواجب أصلح من تركه. وقيل: المراد به القيام فيه حق ظاهروا وباطنا اذ كانت الصلاة في المساجد على ظاهرها حق.
وقوله " فيه رجال " الاول ظرف للقيام. والثاني ظرف لكون الرجال وقوله " يحبون ان يتطهروا " قال الحسن: معناه يريدون أن يتطهروا من الذنوب وقيل: يتطهرون بالماء من الغائط والبول، وهو المروي عن ابي جعفر وابي عبدالله (عليهما السلام) ثم قال " والله يحب المطهرين " اي يريد منافع المتطهرين من الذنوب وكذلك المتطهرين من النجاسة بالماء. وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال لاهل قباء (ماذا تفعلون في طهركم فان الله أحسن عليكم الثناء) قالوا: نغسل أثر الغائط فقال (أنزل الله فيكم والله يحب المطهرين). وقيل: إن سبب نزول هذه الاية أن أهل مسجد ضرار جاءوا اليه، فقالوا يا رسول الله بنينا مسجدا للضعيف في وقت المطر نسألك أن تصلي فيه وكان متوجها إلى تبوك فوعدهم أن يفعل إذا عاد فنهاه الله عن ذلك. وقوله " والذين اتخذوا مسجدا " مبتدأ وخبره في قوله " لاتقم فيه ابدا " كما تقول: والذي يدعوك إلى الغي فلا تسمع دعاءه. والتقدير في الاية لاتقم في مسجدهم أبدا. واسقط ذلك اختصارا.
قوله تعالى:
أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله

---

(١) اللسان (حجر) وتفسير القرطبي ٨ / ٢٦٠
(*)

(٣٠١)

لايهدي القوم الظالمين (١١٠) آية.

قرأ نافع وابن عباس " أسس بنيانه " بضم الهمزة وكسر السين ورفع النون من بنيانه في الموضعين جميعا. الباقون بفتح الهمزة ونصب النون من بنيانه. وقرأ ابن عامر الا الداحوني عن هشام وحمزة وخلف وأبوا بكر الا الاعشى والبرجمي " جرف " بسكون الراء. الباقون بضمها. وقرأ ابوعمرو والكسائي والداحوني عن ابي ذكوان وهبة الله عن حفص من طريق النهرواني والدوري عن سليم من طريق ابن فرج وابوبكر الا الاعشى والبرجمي " هار " بالامالة. وافقهم على الوقف علي ببن مسلم وابن غالب ومحمد في الوقف من طريق السوسي من طريق ابن جيش.

قال ابوعلي الفارسي: البنيان مصدر، وهوجمع كشعير وشعيرة لانهم قالوا في الواحد بنيانة قال أوس:

كبنيانة القري موضع رحلها * وآثار نسعيها من الدف أبلق

وجاء بناء المصادر على هذا المثل في غير هذا الحرف نحو الغفران وليس بنيان جمع بناء، لان فعلانا اذا كان جمعا نحو كثبان وقضبان لم تلحقه تاء التأنيث، وقد يكون ذلك في المصادر، نحو: أكل وأكلة وضرب وضربة من ذلك.

وقال ابوزيد يقال: بنيت أبني بنيا وبناء وبنية وجمعها البنى وأنشد:

بنى السماء فسواها ببنيتها * ولم تمد باطناب ولا عمد

فالبناء والبنية مصدر ان ومن ثم قوبل به الفراش في قوله " الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء " (١) فالبناء لما كان رفعا للمبني قوبل به الفراش الذي هو خلاف البناء. ومن ثم وقع على ماكان فيه ارتفاع في نصبته وان لم يكن مبنيا فأما من فتح الهمزة وبنى الفعل للفاعل، فلانه الباني والمؤسس فأسند الفعل اليه وبناه له كما اضاف البنيان اليه في قوله " بنيانه " فكما ان المصدر مضاف إلى الفاعل

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٢.

(*)

كذلك يكون الفعل مبنيا له. ومن بنى الفعل للمفعول لم يبعد ان يكون في المعنى كالاول، لانه إذا أسس بنيانه فتولى ذلك غيره بأمره كان كبنائه هو له. والاول أقوى لما قلناه. وقال ابوعلي (الجرف) – بضم العين – هو الاصل، والاسكان تخفيف ومثله الشغل. والشغل. ومثله الطنب والطنب. والعنق والعنق، يجوز في جميعه التثقيل والتخفيف. وكلاهما حسن وقال ابوعبيدة " على شفا جرف هار " مثل، قال: لان ما يبنى على التقوى فهو أثبت أساسا من بناء يبنى على

شفا جرف ويجوز ان تكون المعادلة وقعت بين البنائين، ويجوز أن تكون بين البناءين. فاذا عادلت بين البنائين كان المعنى المؤسس بنيانه متقنا خير ام المؤسس بنيانه غير متقن لان قوله " على شفا جرف " يدل على أن بانيه غير متق لله. ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف كأنه قال: أبناء من أسس بنيانه على تقوى خير أم بناء من أسس بنيانه على شفا جرف. والبنيان مصدر يراد به المبني، كما أن الخلق يراد به المخلوق إذا أردت ذلك، وضرب الامير اذا اردت به المضروب. وكذلك نسج اليمن يراد به المنسوج، فانما قلنا ذلك لانه لايجوز أن يراد به الحدث، لانه إنما يؤسس المبني الذي هو عين. يبين ذلك قوله " على شفا جرف " والحدث لايكون على شفا جرف. والجار في قوله " على تقوى " وفي قوله " على شفا جرف " في موضع نصب، والتقدير افمن اسس بنيانه متقيا خير ام من اسس بنيانه معاقبا على بنيانه، وفاعل (انهار) البنيان، وتقديره انهار البنيان بالباني في نار جهنم، لانه معصية وفعل لما كرهه الله من الضرار والكفر والتفريق بين المؤمنين. ومن أمال " هار " فقد أحسن لما في الراء من التكرير فكأنك لفظت براءين مكسورتين وبحسب كثرة الكسرات تحسن الامالة. ومن لم يمل فلان كثيرا من العرب لايميلون هذه الالفات. وترك الامالة هو الاصل. وأما ألف " هار " فمنقلبة عن الواو، لانهم قالوا: تهور البناء إذا تساقط وتداعى، والانهيار والانهيال متقاربان في المعنى. والالف في قوله " أفمن " الف استفهام يراد بها – هاهنا – الانكار

ومعنى " خير " في الاية أفضل، وليس فيه إشتراك، يقولون: هذا خير، وهذا شر، ولايراد به (أفعل من) قال الشاعر:

والخير والشر مقرونان في قرن * فالخير متبع والشر محذور

وأما قوله: وافعل الخير معناه افعلوا الافضل. و (الشفا جرف) الشئ وشفيره وجرفه نهايته في المساحة ويثنى شفوان، والجرف جرف الوادي وهو جانبه الذي ينحفر بالماء أصله فيبقى واهيا، وهو من الجرف والاجتراف، وهو اقتلاع الشئ من أصله. ومعنى (انهارا) انصدع بالتهدم هار الجرف يهور هورا فهو هائر وتهور تهورا وانهار انهيارا، ويقال ايضا: هار يهار، وأصل هار هائر إلا انه قلب كما قال الشاعر:

لاث به الاشاء والعبري (١)

اي لائث بمعنى دائر، ومثله شاك في السلاح وشائك والاشاء النخل، والعبري السدر الذي على ساقي الانهار، ومعنى لاث أي مطيف به.

شبه الله تعالى بنيان هؤلاء المنافقين مسجد الضرار ببناء يبنى على شفير جهنم فانهـــار ذلـــك البناء بأهله في نار جهنم، ووقع فيه. وروي عن جابر بن عبدالله انه قال: رأيت المسجد الذي بني ضرارا يخرج منه الدخان، وهو قول ابن جريح.

قوله تعالى:

لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم (١١١) آية.

قرأ ابن عامر وحمزة وحفص وابوجعفر ويعقوب " تقطع " بفتح التاء الباقون بضمها. وقـــرأ يعقوب وحده " إلى ان " على أنه حرف جر.

---

(١) اللسان (عبر) (لوث) (لثي) والتاج (عبر) ومجاز القرآن ١ / ٢٦٩

(*)

وقوله " لايزال " من اخوات (كان) ترفع الاسم وتنصب الخبر وانما عمل في الاسم والخبـــر، لانه إنما يتعلق في معنى الجملة، فيدل على انه يدوم إذ المعنى فيه أن يكون الشئ على الصفة أبدا. قال ابوعلي: البنيان مصدر واقع على المبني وتقديره لايزال بناء المبني الذي بنوه ريبـــة أي شكا في قلوبهم فيما كان من إظهار اسلامهم وثباتا على النفاق إلى أن تقطع قلوبهم بالموت والبلى لايخلص لهم إيمان ولا ينزعون عن النفاق إلى ان تقطع قلوبهم بالموت والبلى. ومـــن قرأ " إلى ان تقطع " فانه يريد حتى تبلى وتقطع بالبلى أي لا تثلج قلوبهم بالايمـــان ابـــدا ولا ينزعون عن الخطيئة في بناء المسجد ولا يتوبون. ومن ضم الياء اضاف الفعل إلى المقطـــع المبلي للقلوب بالموت، ومن فتحها اسند الفعل إلى القلوب لما كانت هي البالية، كما قالوا: مات زيد ومرض عمرو، ووقع الحائط. وفي قراءة ابي (حتى الممات).

ومعنى قوله " الذي بنوا " مع قوله " بنيانهم " انما هو ليعلم ان البناء ماض دون المستقبل اذ قد تجوز الاضافة على جهة الاستقبال كقولك للغير: أقبل على عملك. وقيل في معنى الريبة فـــي الاية ثلاثة اقوال: احدها – ان هذا البنيان الذي بنوه لايزال شكا في قلوبهم. وقيل معناه حزازة في قلوبهم، وقيل حسرة في قلوبهم يترددون فيها. وقوله " الا ان تقطع قلوبهم " موضـــع " ان تقطع " نصب والتقدير الا على تقطع قلوبهم غير ان حرف الاضـــافة يحـــذف مـــع (ان) ولا يحذف مع المصدر. ومعنى (إلا) هاهنا (حتى) لانه استثناء من الزمان المستقبل، والاســـتثناء منه منته اليه فاجتمعت مع (حتى) في هذا الموضع على هذا المعنى. قال الزجاج: يحتمـــل ان يكون المراد الا ان يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما واسفا على تفريطهم. وقوله " والله عليم

حكيم " اي عالم بنيتهم في بناء مسجد الضرار " حكيم " في امره بنقضه والمنع من الصلاة فيه.

(٣٠٥)

قوله تعالى:

إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التورية والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم (١١٢) آية قرأ حمزة والكسائي " فيقتلون ويقتلون " على مفعول وفاعل. الباقون على فاعل ومفعول. من قدم الفعل المسند إلى الفاعل، فلانهم يقتلون اولا في سبيل الله ويقتلون، ولا يقتلون اذا قتلوا. ومن قدم الفعل المسند إلى المفعول جاز أن يكون اراد ذلك المعنى ايضا لان المعطوف بالواو يجوز أن يراد به التقديم وان لم يقدر ذلك كأن المعنى يقتل بعضهم ويقتل من بقي منهم بعد قتل من قتل منهم، كما أن قوله " فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله " (١) ومعناه ماوهن من بقي منهم لقتل من قتل من المؤمنين. وحقيقة الاشتراء لانجوز على الله تعالى، لان المشتري انما يشتري ما لا يملك، والله تعالى مالك الاشياء كلها. وانما هو كقوله " من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا " (٢) في أنه اجري بحسن المعاملة والتلفظ في الدعاء إلى الطاعة مجرى مالا يملكه المعامل فيه، ولما كان الله تعالى رغب في الجهاد وقتال الاعداء وضمن على ذلك الثواب عبر عن ذلك بالاشتراء. فجعل الثواب ثمنا والطاعات مثمنا على ضرب من المجاز، وكما أن في مقابلة الطاعة الثواب فكذلك في مقابلة الالم العوض غير أن الثواب مقترن بالاجلال والاكرام، والعوض خال منهما، والمثاب محسن مستحق على احسانه المدح وليس كذلك المعوض.

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٤٦ (٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٤٥

(*)

(٣٠٦)

أخبر الله تعالى أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بما ضمن لهم على بذلها من الثواب في قوله " بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله " اعداء الله واعداء نبيه فيقتلون اعداء الله ويقتلهم اعداء الله فيصبرون على ذلك. ومن قدم المفعول اراد يقتل بعضهم، فيقتل الباقون أعداء الله.

وقوله " وعدا عليه حقا " نصب (وعدا) على المصدر بما دل عليه اشترى اذ يدل على أنه وعد، ومثله " صنع الله الذي أتقن كل شئ " (١) و " فطرة الله التي قطر الناس عليها " (٢) والوعد خبر بما يفعله المخبر من الخير بغيره. والوعيد خبر بما الناس عليها " (٢) والوعد خبر بما يفعله المخبر من الخير بغيره. والوعيد خبر بما يفعله المخبر من الشر بغيره. وقوله " حقا " معناه يتبين الوعد بالحق الواجب من الوعد بما لم يكن واجبا. فالوعد بالثواب دل على وجوبه من وجهين: احدهما – من حيث انه جزاء على الطاعة. والثاني – أنه إنجاز الوعد. وقوله " في التوراة والانجيل والقرآن " معناه إن هذا الوعد للمجاهدين مذكور في هذه الكتب.

قال الزجاج: وذلك يدل على أن. الجهاد كان واجبا على أهل كل ملة. وقوله " ومن اوفى بعهده من الله؟ ! " معناه لاأحد أحق بالوفاء بالعهد من الله " فاستبشروا " ايها المؤمنون " ببيعكم الذي يايعتم به وذلك هو الفوز العظيم " يعني ذلك الشراء والبيع هو الفلاح العظيم الذي لا يقارنه شئ.

قوله تعالى:

ألتائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الامرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين (١١٣) آية.

قيل في ارتفاع قوله " التائبون " ثلاثة اقوال: احدها – انه ارتفع بالمدح

---

(١) سورة ٢٧ النمل آية ٨٨ (٢) سورة ٣٠ الروم آية ٣٠

(*)

والتقدير هم التائبون. الثاني – بالابتداء وخبره محذوف بعد قوله: " والحافظون لحدود الله " لهم الجنة. الثالث – على أن يكون بدلا من الضمير في " يقاتلون " أي إنما يقاتل في سبيل الله من هذه صفته. وقيل هو كقوله " لكن الرسول والذين آمنوا معه (١).. التائبون " وقرأ أبي كل ذلك بالنصب على أنه صفة للمؤمنين.

وصف الله تعالى المؤمنين الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأنهم التائبون ومعناه الراجعون إلى طاعة الله المنقطعون اليه والنادمون على ما فعلوه من قبيح " العابدون " اي يعبدون الله وحده لاشريك له " الحامدون " يعني الشاكرون لنعم الله عليهم على وجه الاخلاص له. وقال الحسن: هم الذين يحمدون الله على كل حال في سراء كانوا او ضراء، وبه قال قتادة: " السائحون " قيل معناه الصائمون.

وقال المؤرج: السائحون الصائمون بلغة هذيل. وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه قال (سياحة امتي الصوم) وهو قول ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد. وقال الحسن: هم الذين يصومون ما افترض الله عليهم. وقال غيره: هم الذين يصومون دائما وكذلك قال في قوله " الراكعون الساجدون " انهم الذين يؤدون ما افترض الله عليهم من الصلاة والركوع والسجود. وأصل السيح الاستمرار بالذهاب في الارض كما يسيح الماء فالصائم مستمر على الطاعة في ترك المشتهى من المآكل والمشارب والمنكح.

وقوله " الراكعون الساجدون " معناه الذين يقيمون التي فيها الركوع والسجود " الامرون بالمعروف والناهون عن المنكر " معناه الذين يأمرون بما امر الله به من الواجبات والمندوبات وينهون عما نهى الله عنه وزهد فيه من القبائح.

وانما عطف الناهون بالواو دون غيره من الصفات لانه لايكاد يذكر على الافراد بل يقال: الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، فجاءت الصفة مصاحبة للاولى، فأما

---

(١) سورة ٩ التوبة آية ٨٩

(*)

قوله " والحافظون " فلانه جاء وهو أقرب إلى المعطوف، ومعنى " الحافظون لحدود الله " انهم يحفظون ما أمر الله به ونهى عنه فلا يتجاوزونه إلى غيره. وقوله:

" وبشر المؤمنين " امر للنبي (صلى الله عليه وآله) ان يبشر المؤمنين المصدقين بالله المعترفين بنبوته بالثواب الجزيل والمنزلة الرفيعة وخاصة إذا جمعوا هذه الاوصاف على كمالها وتمامها دون غيرهم.

قوله تعالى:

ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم (١١٤) آية.

أخبر الله تعالى أنه لم يكن " للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا " ومعناه أن يطلبوا المغفرة " للمشركين " الذين يعبدون مع الله إلها آخر والذين لايوحدونه ولايقرون بالاهيته " وان كان " الذي يطلب لهم المغفرة أقرب الناس اليهم بعد أن يعلموا أنهم كفار مستحقون للخلود في النار. والقربى معناه القرب في النسب بالرجوع إلى أب أو أم باضافة قريبة. ومعنى قوله " ولو كانوا أولي قربى " أي القرابة وإن دعت إلى الحنو والرقة، فانه لا يلتفت إلى دعائها في الخصلة التي نهى الله عنها.

قوله تعالى:

وما كان استغفار إبراهيم لابيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لاواه حليم (١١٥) آية.

لما ذكر الله تعالى أنه ليس للنبي والذين آمنوا أن يطلبوا المغفرة للمشركين

بين الوجه في استغفار ابراهيم لابيه مع أنه كان كافرا سواء كان أباه الذي ولده او جده لامه أو عمه على ما يقوله أصحابنا. وهو أن قال: وجه حسن ذلك أنه كان تقدم ذلك موعدة، فلاجلها وجب عليه الوفاء به.

وقيل في معنى الموعدة التي كانت عليه في حسن الاستغفار قولان:

احدهما – ان المواعدة كانت من ابي إبراهيم لابراهيم أنه يؤمن إن استغفر له فاستغفر له لذلك وطلب له الغفران بشرط أن يؤمن " فلما تبين له " بعد ذلك " أنه عدو لله تبرأ منه ".

والثاني – أن الوعد كان من ابراهيم بالاستغفار مادام يطمع في الايمان كما قال " إلا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك وما أملك لك من الله من شئ " (١)

فاستغفر له على مايصح ويجوز من شرائط الحكمة " فلما تبين له انه عدو لله " وآيس من ايمانه " تبرأ منه ". والذي عندي وهو الاقوى أن أباه أظهر له الايمان وصار اليه، وكان وعده أن يستغفر له إن آمن أظهر الايمان استغفر له، فأعلمه الله ان ما ظهر منه بخلاف ما يبطنه " فتبرأ منه " ويقوي ذلك قوله " واغفر لابي إنه كان من الضالين " (٢) اي فيما مضى، ويجوز أن يكون أظهر الكفر بعد ذلك فلما تبين ذلك تبرأ منه. فأما من قال: إن الوعد كان من ابراهيم فالسؤال باق لان لقائل أن يقول ولم وعد كافرا أن يستغفر له؟ فان قلنا: وعده بأن يستغفر له إن آمن كان الرجوع إلى الجواب الاخر.

والعداوة هي الابعاد من النصرة إلى اعداد العقوبة. والولاية التقريب من النصرة من غير فاصلة بالحياة والكرامة.

وقوله " إن ابراهيم لاواه حليم " قيل في معنى " أواه " ثمانية اقوال:

فقال ابن عباس في معنى (اواه) تواب. وقال ابن مسعود: معناه دعاء. وقال الحسن وقتادة: معناه رحيم. وقال مجاهد: معناه موقن. وقال كعب: معناه اذا

---

(١) سورة ٦٠ الممتحنة آية ٤ (٢) سورة ٢٦ الشعراء آية ٨٦

(*)

ذكر النار قال أوه. وقال الضحاك: معناه المؤمن الموقن بالخشية الرحيم. وقال آخرون: معناه فقيه. وقال ابوعبيدة: معناه المتوجع المتضرع إلى الله خوفا وإشفاقا. وأصل الاواه من التأوه وهو التوجع والتحزن تقول، تأوه تأوها وأوه تأويها، قال المثقب العبدي:

إذا ما قمت أرحلها بليل * تأوه آهة الرجل الحزين (١)

والعرب تقول: أوه من كذا بكسر الواو وتسكين الهاء قال الشاعر:

فأوه لذكراها إذا ما ذكرتها * ومن بعد أرض دونها وسماء (٢)

والعامة تقول: أوه يقال ايضا أوه بكسر الواو وكسر الهاء وينشد البيت المتقدم.

ذكره كذلك، وقال الجعدي:

صروح مروح يتبع الورق بعدما * يعرس شكوى آهة وتنمرا (٣)

وقال الراجز:

فأوه الداعي وضو ضاء أكلبه (٤)

ولو جاء منه (فعل يفعل) لكان آه يؤوه أوها على وزن (قال يقول قولا)

والحليم هو المهمل على وجه حسن. والحلم الامهال على ما تقتضيه الحكمة. وهي صفة مدح. والله حليم عن العصاة بأمهاله لهم مع قدرته على تعجيل عقوبتهم وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: إنما تبين عداوته لما مات على كفره. وقال ابوعلي الجبائي: لما آيس من فلاحه عند تصميمه على بعد الوعد في الايمان بالله الذي

---

(١) ديوانه: ٢٩ ومجاز القرآن ١ / ٢٧٠ واللسان (أوه) وتفسير الطبري ١٤ / ٥٣٥ يصف ناقته بأنها تحن إلى الديار.

(٢) اللسان (أوه) والطبري ١٤ / ٥٣٥ (٣) ديوانه: ٣٣، ٥٢ وجمرة أشعار العرب: ١٤٦ والطبري ١٤ / ٥٣٤ ويروى (خنوف) و (ظروح) و (طروح) بدل (صروح).

(٤) تفسير الطبري ١٤ / ٥٣٥

(*)

كان وعد باظهاره في وقت بعينه.

قوله تعالى:

وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هديهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شئ عليم (١١٦) آية.

قال مجاهد: وجه اتصال هذه الاية بما قبلها هو أنه لما حرم الله تعالى على المؤمنين الاستغفار للمشركين بين أنه لم يكن الله ليآخذكم به إلا بعد ان يدلكم على تحريمه وأنه يجب عليكم أن تتقوه.

وقوله " ليضل قوما " معناه – هاهنا – لم يكن الله ليحكم بضلال من عدل عن طريق الحق على وجه الذم له إلا بعد أن ينصب له على ذلك الدليل، والهدى هو الحكم بالاهتداء إلى الحق على وجه الحمد له. والبيان والبرهان والحجة والدلالة بمعنى واحد، وفرق الرماني بين البيان والبرهان، فقال: البيان إظهار المعنى في نفسه بمثل اظهار نقيضه. والبرهان اظهار صحته بما يستحيل في نقيضه كالبيان عن معنى قدم الاجسام ومعنى حدوثها، فالبرهان يشهد بصحة حدوثها وفساد قدمها. وقال مجاهد: معناه حتى يبين لهم ما يتقون من ترك الاستغفار للمشركين لانهم كانوا يستغفرون لهم، فلما نهوا عنه انتهوا. وقوله " ان الله بكل شئ عليم " معناه انه يعلم جميع المعلومات حتى لايشذ شئ منها عنه لكونه عالما لنفسه. وقال الحسن: مات قوم من المسلمين على الاسلام قبل فرض الصلاة والزكاة وغيرهما من فرائض الدين. فقال المسلمون: يا رسول الله اخواننا الذين ماتوا قبل الفرائض ما منزلتهم؟ فقال الله تعالى " وما كان الله ليضل قوما " وهم مؤمنون ولم يبين لهم الفرائض.

(٣١٢)

قوله تعالى:

إن الله له ملك السموات والارض يحيي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير (١١٧) آية.

وجه اتصال هذه الاية بما قبلها الحض على ما تقدم ذكره من جهاد المشركين ملوكهم وغير ملوكهم، لانهم عبيد من له ملك السماوات والارض يأمر فيهم ما يشاء ويدبرهم على ما يشاء. فأخبر الله ان " له ملك السماوات والارض " ومعناه انه قادر على التصرف فيهما وليس لاحد منعه منهما. والملك اتساع المقدور لمن له السياسة والتدبير. وخزائن الله لاتفنى وملكه لايبيد ولا يبلى، وكل ذلك يرجع إلى مقدوراته في جميع اجناس المعاني. وقوله " يحيي ويميت " معناه انه يحيي الجماد ويميت الحيوان. والحياة معنى يوجب كون الحيوان حيا. والحي المختص بصفة لايستحيل معها كونه عالما قادرا. والموت عند من اثبته معنى هو ما يضاد الحياة.

ومن لا يثبته معنى، يقول: هو عبارة عن فساد بنية الحياة. وقوله " ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير " فالولي هو المقرب بالنصرة من غير فاصلة. والانسان ولي الله، لانه يقربه

بالنصرة من غير فاصلة. والله وليه بهذا المعنى، والنصير والاستنصار طلب النصرة والانتصار والانتصاف بالنصرة.

قوله تعالى:

لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤف رحيم (١١٨) آية.

(٣١٣)

قرأ حمزة وحفص " يزيغ " بالياء. الباقون بالتاء. قال أبوعلي النحوي:

يجوز أن يكون فاعل (كاد) احد ثلاثة اشياء:

احدها – ان يضمر فيه القصة أو الحديث ويكون (تزيغ) الخبر وجاز ذلك للزوم الخبر لها، فأشبه العوامل الداخلة على الابتداء للزوم الخبر لها، ولا يجوز ذلك في (عسى) لان (عسى) يكون فاعله المفرد في الاكثر ولايلزمه الخبر، نحو قوله " وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم " (١) فاذا كان فاعله المفرد في كثير من الامر لم يحتمل الضمير الذي احتمله (كاد) كما لم تحتمله سائر الافعال التي تسند إلى فاعلها مما لايدخل على المبتدأ.

وما يجئ في الشعر من كاد أن يفعل، وعسى يفعل، فلا يعتد به، لانه من ضرورة الشعر.

الثاني – من فاعل (كاد) أن يضمنه ذكرا مما تقدم، ولما كان النبي (صلى الله عليه وآله) والمهاجرون والانصار قبيلا واحدا وفريقا جاز أن يضمر في (كاد) ما يدل عليه ما تقدم ذكره من القبيل والحزب والفريق. وقال: منهم من حمله على المعنى كما قال " من آمن بالله واليوم الاخر " ثم قال " فلاخوف عليهم " (٢) فكذلك فاعل (كاد).

والثالث – من فاعل (كاد) أن يكون فاعلها (القلوب) كأنه بعد ما كاد قلوب فريق منهم تزيغ وإنما قدم (تزيغ) كما قدم خبر كان في قوله " وكان حقا علينا نصر المؤمنين " (٣) وجاز تقديمه وإن كان فيه ضمير من القلوب ولم يكن ذلك من الاضمار قبل الذكر، لان النية به التأخير. ومن قرأ بالياء يجوز ان يكون جعل في (كاد) ضمير الحديث فاذا اشتغل (كاد) بهذا الضمير ارتفع القلوب

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢١٦ (٢) سورة ٢ البقرة آية ٦٢، وسورة ٥ المائدة آية ٧٢ (٣) سورة ٣٠ الروم آية ٤٧.

(*)

ب (تزيغ) فذكر وان كان فاعله مؤنثا لتقدم الفعل. ومن قرأ بالتاء جاز أن يكون ذهب إلى أن القلوب مرتفعة ب (كاد) فلا يكون يرفع فعلا مقدما فاذا لم يكن مقدما قبح التذكير لتقدم ذكر الفاعل كما قبح في قول الشاعر:

ولا أرض أبقل إبقالها (١)

ولم يصح أبقل أرض. ويجوز أن يكون الفعل المسند على القصة والحديث يؤنث اذا كان في الجملة التي تفسيرها مؤنث كقوله " فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا " (٢) ويجوز إلحاق التاء في " كاد " من وجه آخر، وهو أن يرفع " تزيغ قلوب " ب " كاد " فتلحقه علامة التأنيث من حيث كان مسندا إلى مؤنث كقوله " قالت الاعراب " ٣ " فعلى هذا يكون في " تزيغ " ضمير القلوب. لان النية في " تزيغ " التأخير.

اقسم الله تعالى في هذه الاية - لان لام " لقد " لام القسم - بأنه تعالى تاب على النبي والمهاجرين والانصار بمعنى أنه رجع اليهم، وقبل توبتهم " الذين اتبعوه في ساعة العسرة " يعني في الخروج مع إلى تبوك. و " العسرة " صعوبة الامر وكان ذلك في غزوة تبوك لانه لحقهم فيها مشقة شديدة من قلة الماء حتى نحروا الابل وعصروا كروشها ومصوا النوى. وقل زادهم وظهرهم - في قول مجاهد وجابر وقتادة - وروي عن عمر أنه قال: أصابنا عطش شديد فأمطر الله السماء بدعاء النبي (صلى الله عليه وآله) فعشنا بذلك " من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم " والزيغ ميل القلب عن الحق، ومنه قوله " فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم " (٤) ومنه قوله " لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا " (٥) وكان أبوخيثمة عبدالله بن خيثمة تخلف إلى ان مضى من مسير رسول الله عشرة أيام ثم دخل يوما على أمرأتين له - في يوم حار - عريشين

---

(١) مر تخريجه في ١ / ١٢٦ (٢) سورة ٢١ الانبياء آية ٩٧ (٣) سورة ٤٩ الحجرات آية ١٤ (٤) سورة ٦١ الصف آية ٥ (٥) سورة ٣ آل عمران آية ٨

(*)

لهما قد رشتاهما وبردتا الماء وهيأتا له الطعام، فقام على العريشين فقال: سبحان الله رسول الله قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر في الضح والريح والحر والقر يحمل سلاحه على عاتقه وأبوخيثمة في ظلال باردة وطعام مهيأ وأمرأتين حسناوين ما هذا بالنصف، ثم قال. والله لاأكلم واحدة منكما كلمة ولا ادخل عريشا حتى الحق بالنبي (صلى الله عليه وآله) فأناخ ناضحه واشتد عليه وتزود وارتحل وامرأتاه تكلمانه ولا يكلمهما ثم سار حتى اذا دنا من تبوك، قال الناس: هذا راكب على الطريق فقال النبي (صلى الله عليه وآله) كن ابا خيثمة، فلما دنا

قال الناس: هذا أبوخيثمة يا رسول الله فأناخ راحلته وسلم على رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال له النبي (صلى الله عليه وآله) أولى لك. فحدثه الحديث، فقال له خيرا، ودعا له، فهو الذي زاغ قلبه للمقام. ثم ثبته الله.

وقيل: إن من شدة ما لحقهم هم كثير منهم بالرجوع فتاب الله عليهم، وقيل من بعد ما كان شك جماعة منهم في دينه ثم تابوا فتاب الله عليهم، وقوله " ثم تاب عليهم " أي رجع عليهم بقبول توبتهم " إنه بهم رؤف رحيم " إخبار منه تعالى أنه بهم رؤف، فالرأفة أعظم الرحمة، قال كعب بن مالك الانصاري:

نطيع نبينا ونطيع ربا * هو الرحمن كان بنا رؤفا

" ١ " وقال آخر:

ترى للمسلمين عليك حقا * كمثل الوالد الرؤف الرحيم

" ٢ " قوله تعالى:

وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الارض

---

(١) مر تخريجه في ٢ / ١٢ وهو مجاز القرآن ١ / ٢٧٠

(٢) اللسان " رأف " نسبه إلى جرير وروايته " يرى للمسلمين عليه " و " كفعل " بدل " كمثل " ومجاز القرآن ١ / ٢٧١

(*)

بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم (١١٩) آية تقدير الكلام وتاب الله على الثلاثة الذين خلفوا. وقيل نزلت هذه الاية بسبب الثلاثة الذين تخلفوا عن عزاة تبوك ولم يخرجوا مع النبي (صلى الله عليه وآله) لاعن نفاق، لكن عن توان، ثم ندموا، فلما ورد النبي (صلى الله عليه وآله) جاءوا اعتذروا، فلم يكلمهم النبي (صلى الله عليه وآله) وتقدم إلى المسلمين بأن لا يكلمهم أحد منهم فهجرهم الناس حتى الصبيان وأهاليهم وجاءت نساؤهم إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) تعتزلهم، فقال: لاولكن لايقربونكن فضاقت عليهم المدينة، فخرجوا إلى رؤس الجبال، فكان أهاليهم يجيئون لهم بالطعام ويتركونه لهم ولا يكلمونهم، فقال بعضهم لبعض: قد هجرنا الناس ولا يكلمنا أحد، فهلا نتهاجر نحن ايضا، فتفرقوا ولم يجتمع منهم اثنان، وثبتوا على ذلك نيفا وأربعين يوما. وقيل سنة يضرعون إلى الله تعالى ويتوبون اليه، فقبل الله تعالى حينئذ توبتهم، وانزل فيهم هذه الاية والثلاثة هم كعب بن مالك وهلال بن امية وفزارة بن ربيعة، وكلهم من الانصار - في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وجابر - والتخليف تأخير الشئ عمن مضى، فأما تأخير الشئ

عنك في المكان، فليس بتخليف، وهو من الخلف الذي هو مقابل لجهة الوجه. وقال مجاهد: خلفوا عن قبول التوبة بعد قبول توبة من قبل توبته من المنافقين، كما قال تعالى فيما مضى " وآخرون مرجون لامر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم " (١) وقال قتادة " خلفوا " عن غزوة تبوك كما تخلفوا هم. وبه قال الحسن. وفي قراءة اهل البيت (عليهم السلام) " خالفوا " قالوا لانهم لو خلفوا لما توجه عليهم العتب.

وقوله " حتى إذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت " فالضيق ضد السعة ومنه ضيق الصدر، خلاف اتساعه بالهم الذي يحدث فيه فيشغله عن غيره، وليس كذلك

---

(١) سورة ٩ التوبة آية ١٠٧

(*)

السرور لانه لايشغل عن ادراك الامور. ومعنى " بما رحبت " اي بما اتسعت تقول: رحبت رحبا، ومنه مرحبا واهلا اي رحبت بلادك واهلت، وضيق انفسم ههنا بمعنى ضيق صدورهم، بالهم الذي حصل فيها. وقوله " وظنوا ان لا ملجأ من الله إلا اليه " معناه وعلموا انه لايعصمهم منه موضع إذا اعتصموا به والتجؤا اليه كأنه قال: لامعتصم من الله إلا به، لجأ يلجأ لجاء وألجأه إلى كذا إلجاء إذا صيره اليه بالمنع من خلافه. والتجأ اليه التجاء وتلاجؤا تلاجؤا. وقوله " ثم تاب عليهم ليتوبوا " قيل في معناه ثلاثة اقوال: احدها – لطف لهم في التوبة، كما يقال في الدعاء: تاب الله عليه. الثاني – قبل توبتهم ليتمسكوا بها في المستقبل.

الثالث – قبل توبتهم ليرجعوا إلى حال الرضا عنهم. وقال الحسن: جعل لهم التوبة ليتوبوا بها، والمخرج ليخرجوا به. وقوله " ان الله هو التواب الرحيم " اخبار منه تعالى بأنه يقبل توبة عباده كثيرا ويغفر ذنوبهم إذا رجعوا اليه لرحمته عليهم ورأفته بهم. وكان أبوعمرو يحكي عن عكرمة بن خالد " وعلى الثلاثة الذين خلفوا " بفتح الخاء والتخفيف وكان لايأخذ بها. فان قيل: ما معنى التوبة عليهم واللائمة لهم وهم قد خلفوا فهلا عذروا؟ قيل: ليس المعنى انهم أمروا بالتخلف او رضي منهم به بل كقولك لصاحبك:

أين خلفت فلانا؟ فيقول: بموضع كذا ليس يريد انه امره بالتخلف هناك بل لعله ان يكون نهاه وانما يريد انه تخلف هناك قوله تعالى:

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين (١٢٠) آية هذا امر من الله تعالى للمؤمنين المصدقين بالله والمقرين بنبوة نبيه بأن يتقوا معاصي الله ويجتنبوها وأن يكونوا مع الصادقين

الذين يصدقون في اخبارهم ولا يكذبون، قال ابن مسعود: لا يصلح من الكذب جد ولا هــزل، ولا ان يعد

(٣١٨)

احدكم ولده شيئا ثم لا ينجزه ثم قرأ " يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله.. " الاية وقال: هل ترون في هذه رخصة؟. وقال نافع والضحاك: أمروا بأن يكونوا مع النبيين والصديقين في الجنة بالعمل الصالح. وقيل: إن المراد بالصادقين هم الذين ذكرهم الله في قوله " رجال صدقوا ما عاهــدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه " وهم حمزة وجعفر " ومنهم من ينتظر " (١) يعني عليا (عليــه السلام) فأمر الله تعالى بالاقتداء بهم والاهتداء بهديهم، وهم الذين وصفوا في قوله: " ليس البــر أن تولو وجوهكم قبل.. " الاية إلى قوله " أولئك الذين صدقوا " (٢) فأمر بالاقتداء بهؤلاء.

وقال بعضهم: ان (مع) بمعنى (من) وكأنه أمر بأن يكونوا في جملة الصادقين وفي قراءة ابن مسعود " وكونوا من الصادقين ". وقيل: اراد كونوا مع كعب بن مالك واصحابه الذين صدقوا في اقوالهم ولم يكذبوا في الاعتذار.

والصادق هو القائل بالحق العامل به، لانها صفة مدح لاتطلق الا على من يستحق المدح على صدقه. فأما من فسق بارتكاب الكبائر فلا يطلق عليه اسم صادق ولذلك مــدح الله الصــديقين وجعلهم تالين لنبيين في قوله " فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين " (٣).

قوله تعالى:

ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولايرغبوا بأنفســهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولانصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطــؤن موطئــا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به

---

(١) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٢٣ (٢) سورة البقرة آية ١٧٧ (٣) سورة ٤ النساء آية ٦٨ (*)

(٣١٩)

عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين (١٢١) آية.

لما قص الله تعالى قصة الذين تأخروا عن النبي (صلى الله عليه وآله) والخروج معه إلى تبوك ثم اعتذارهم عن ذلك وتوبتهم منه وأنه قبل توبة من ندم على ما كان منه لرأفته بهــم ورحمتــه عليهم، ذكر عقيب ذلك على وجه التوبيخ لهم والازراء على ما كانوا فعلوه فقال: لم يكن لاهل المدينة ولامن يسكن حول المدينة من الاعراب والبوادي " ان يتخلفوا " بمعنى ان يتأخروا عن

رسول الله " ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه " ومعناه ولا أن يطلبوا نفع نفوسهم، لان الرغبة المنفعة ونقيضها الرهبة. ويقال رغب فيه اذا طلب المنفعة به ورغب عنه طلب المنفعة بتركه، والترغيب ضد الترهيب ومعنى " يرغبوا بأنفسهم عن نفسه " اي يطلبون المنفعة بترفيه انفسهم دون نفسه وهذه فريضة الزمهم الله اياها، لحقه فيما دعاهم من الهدى الذي اهتدوا به وخرجوا من ظلمة الكفر إلى نور الايمان.

وقوله " ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأ ولانصب " اشارة إلى ما الزمهم الله اياه من تحمل هذه المشقة لانهم لايصيبهم ظمأ وهو شدة العطش تقول: ظمئ يظمأ ظمأ وهو ظمئ وظمآن وأظمأه الله إظماء. ومنه قيل: أنا ظمآن إلى رؤية فلان ومعنى " ولانصب " اي تعب تقول: نصب ينصب نصبا فهو نصب. ومثله الوصب قال النابغة:

كليني لهم يا أميمة ناصب * وليل اقاسيه بطئ الكواكب (١)

وقوله " ولامخمصة " يعني مجاعة وأصله ضمور البطن للمجاعة ومنه رجل خميص البطن وأمرأة خمصانة. وقوله " في سبيل الله " يعني من قتال اعدائه المشركين. وقوله " ولا يطؤن موطئا يغيظ الكفار " اي لا يخطون خطوة إلا كتب لهم اجرها، والموطئ الارض، والغيظ انتقاض الطبع بما يرى مما يشق. والغضب

---

(١) اللسان (نصب) والاغاني ١١ / ١٥

(*)

هو مايدعوا إلى الانتقام على ماسلف من المعصية مما هي متعلقة به، وهو مستحق بها ولذلك جاز ان يطلق الغضب على الله ولم يجز اطلاق الغيض عليه.

وقوله " ولاينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح " والنيل لحوق الشئ تقول: نلته اناله نيلا اذا نلته بيدك وهو منيل، وليس من التناول لان هذا من الواو تقول: نلته بخير انوله نولا ونوالا وانالني خيرا انالة والمعنى ان هؤلاء المؤمنين لايصيبون من المشركين امرا، من قتل او جراح او مال، او امر يغمهم الا ويكتب الله للمؤمنين " به عملا صالحا ان الله لايضيع اجر المحسنين " اخبار منه تعالى انه لايضيع اجر من فعل الافعال الحسنة التي يستحق بها المدح وقد يكون فاعل الحسن لايستحق المدح مثل فاعل المباح.

وقال قتادة: حكم هذه الاية مختص بالنبي فانه اذا غزا النبي (صلى الله عليه وآله) لم يكن لاحد ان يتخلف عنه، فاما من بعده من الخلفاء فان ذلك جائز، وقال الاوزاعي وعبدالله بن المبارك والفرازي والسبيعي وأبوجابر وسعيد بن عبدالعزيز: ان هذه الاية لاول الامة وآخرها من

المجاهدين في سبيل الله. وقال ابن زيد: هذا حين كان المسلمون قليلين، فلما كثروا نسخ بقوله " وما كان المؤمنين لينفروا من فروض الكفايات فلو لزم كل احد النفر لصار من فروض الاعيان قوله تعالى:

ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون (١٢٢) آية.

هذه الاية عطف على ما تقدم ذكره في الاية الاولى من قوله " ولا يطؤن موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا.. ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة "

اي لا ينفق هؤلاء المؤمنون في سبيل الله وجهاد اعدائه نفقة صغيرة ولا كبيرة يريدون بها اعزاز دين الله ونفع المسلمين والتقرب إلى الله بها، لا الانفاق متى كان للشهوة أو ليذكر بالجود كان ذلك مباحا. وان كان للرياء والسمعة وللمعاونة على فساد كان معصية. والصغير ما نقص ثوابه ماهو اكبر منه، والكبير مازاد ثوابه على ثواب ما هو دونه. وقوله " ولا يقطعون واديا " معناه ولا يتجاوزون وادبا.

وقوله " إلا كتب لهم " ثواب ذلك لهم " ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون " معناه انه يكتب طاعاتهم ليجزيهم عليها أحسن مما فعلوه. وقال الرماني: ذلك يدل على انه يكون حسن أحسن من حسن، قال: لان لفظة أفعل تقتضي التفاضل فيما شاركه في الحسن. وهذا ليس بشئ لان المعنى ان الله تعالى يجزيهم أحسن ما كانوا يعملون يعني ماله مدخل في استحقاق المدح والثواب من الواجبات والمندوبات دون المباحات التي لامدخل لها في ذلك وان كانت حسنة.

قوله تعالى:

وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون (١٢٣) آية.

قوله " فلولا نفر " معناه هلا نفر، وهي للتحضيض إذا دخلت على الفعل، فاذا

دخلت على الاسم فهي بمعنى امتناع الشئ لاجل وجود غيره. وقيل في معناه ثلاثة اقوال: احدها – قال الحسن: حث الله تعالى الطائفة النافرة على التفقه لترجع إلى المتخلفة فتحذرها. وقال قتادة: ان المعنى انه لم يكن لهم ان ينفروا بأجمعهم في السرايا ويتركوا النبي (صلى الله عليه وآله) بالمدينة وحده، ولكن تبقى بقية لتتفقه البقية ثم تنذر

النافرة وبه قال الضحاك وابن عباس، وقال ابوعلي الجبائي: تنفر الطائفة من كل ناحية إلى النبي (صلى الله عليه وآله) لتسمع كلامه وتتفقه عنه، ثم يبينوا ذلك لقومهم إذا رجعوا اليهم. وقال مجاهد: نزلت الاية في قوم خرجوا إلى البادية ليفقهوهم ولينالوا منهم خيرا، فلما عاتب الله من تأخر عن النبي عند خروجه إلى تبوك وذم آخرين خافوا ان يكونوا فمنهم فنفروا بأجمعهم، فقال الله: هلا نفر بعضهم ليفقه عن النبي (صلى الله عليه وآله) ما يجب عليهم وما لا يجب ويرجعون فيخبرون اصحابهم بذلك ليحذروا.

والنفور عن الشئ هو الذهاب عنه لتكره النفس له، والنفور اليه الذهاب اليه لتكره النفس لغيره. والتفقه تعلم الفقه. والفقه فهم موجبات المعنى المضمنة بها من غير تصريح بالدلالة عليها، وصار بالعرف مختصا بمعرفة الحلال والحرام، وما طريقه الشرع. وقوله " لعلهم يحذرون " معناه لكي يحذروا، لان الشك لايجوز على الله. والحذر تجنب الشئ لما فيه من المضرة يقال: حذر حذرا وحذرته تحذيرا وحاذره محاذرة وتحذر تحذرا.

واستدل جماعة بهذه الاية على وجوب العمل بخبر الواحد بأن قالوا:

حث الله تعالى الطائفة على النفور والتفقه حتى إذا رجعوا إلى غيرهم لينذروهم ليحذروا، فلولا انه يجب عليهم القبول منهم لما وجب عليهم الانذار والتخويف.

والطائفة تقع على جماعة لايقع بخبرهم العلم بل تقع على واحد. لان المفسرين قالوا في قوله " وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين " أنه يكفي أن يحضر واحد.

وهذا الذي ذكروه ليس بصحيح، لان الذي يقتضيه ظاهر الاية وجوب النفور على الطائفة من كل فرقة، ووجوب التفقه والانذار إذا رجعوا، ويحتمل ان يكون المراد بالطائفة الجماعة التي يوجب خبرهم العلم، ولو سلمنا انه يتناول الواحد او جماعة قليلة، فلم اذا وجب عليهم الانذار وجب على من يسمع القبول؟ والله تعالى إنما اوجب عليه المنذرين الحذر، والحذر ليس من القبول في شئ بل الحذر يقتضي وجوب البحث عن ذلك حتى يعرف صحته من فساده بالرجوع إلى الادلة، ألا ترى

ان المنذر إذا ورد على المكلف وخوفه من ترك النظر فانه يجب عليه النظر ولا يجب عليه القبول منه قبل ان يعلم صحته من فساده، وكذلك إذا ادعى مدع النبوة وان معه شرعا وجب عليه ان ينظر في معجزه ولا يجب عليه القبول منه وتصديقه قبل ان يعلم صحة نبوته. فكذلك لايمتنع ان يجب على الطائفة الانذار ويجب على المنذرين البحث والتفتيش حتى يعلموا صحة ما قالوه فيعملوا به، وقد استوفينا الكلام في ذلك في كتاب اصول الفقه لانطول بذكره هاهنا.

وقيل: ان اعراب اسد قدموا على النبي (صلى الله عليه وآله) المدينة فغلت الاسعار وملؤوا الطرق بالعذرة فانزل الله تعالى الاية يقول: فهلا جاء منهم طوائف ثم رجعوا إلى قومهم فـأخبروهم بما تعلموا. وروى الواقدي ان قوما من خيار المسلمين خرجوا إلى البدو يفقهون قومهم فاحتج المنافقون في تأخرهم عن تبوك بأولئك فنزلت " وما كان المؤمنون لينفروا كافة " قال: وفـيهم نزلت " والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة " (١) يعني ان احتجـوا بتأخير هؤلاء في البادية فانهم مستجيبون مؤمنون، فكيف يكون لهم بهم اسوة او حجـة فـي تأخرهم وهم منافقون مدهنون. وقال ابوجعفر (عليه السلام) كان هذا حين كثر الناس فأمرهم الله ان ينفر منهم طائفة وتقيم للتفقه وان يكون الغزو نوبا.

قوله تعالى:

يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين (١٢٤) آية.

روى المفضل عن عاصم (غلظة) بفتح الغين. الباقون بكسرها، قال ابوالحسن قـراءة النـاس بالكسر، وهي العربية، قال وبه أقرأ ولا أعلم الفتح لغة. وقال غيره:

---

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ١٦.

(*)

هي لغة. وذكر الزجاج أن فيه ثلاث لغات الفتح والضم والكسر، والكسر أفصحها والكسر لغة أهل الحجاز والضم لغة تميم.

امر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار الذين يلونهم يعني الاقرب فالاقرب وذلك يدل علـى أنه يجب على اهل كل ثغر أن يقاتلوا دفاعا عن أنفسهم اذا خافوا على بيضة الاسـلام إذا لـم يكن هناك إمام عادل، وانما جاز من الله تعالى ان يأمر بالقتال ليدعوهم إلى الحق، ولم يجـز ان يمنعهم من الكفر، لان المنع ينافي التكليف.

ومن قاتل الابعد من الكفار وترك الاقرب فالاقرب فان كان باذن الامام كان مصيبا وان كـان بغير أمره كان مخطئا، ولو قال: قاتلوا الاقرب فالاقرب لصح لانه يمكن ذلك. ولو قال: قاتلوا الا بعد فالابعد لم يصح لانه لاحد للابعد يبتدأ منه كما للاقرب. وقوله " وليجدوا فيكم غلظـة " معناه وليخشوا منكم بالغلظة، والغلظة ضد اللين وخلاف الرقة، وهي الشدة في احلال النقمة، ومخرج الكلام على الامر بالوجود، وإنما معناه يجدون ذلك، ويجوز ان يكون المراد وليعلموا منكم الغلظة.

وقوله " واعلموا ان الله مع المتقين " امر من الله للمؤمنين ان يتيقنوا أن الله مع الذين يتقــون معصيته، بالنصرة لهم، ومن كان الله ناصره في الحرب لم يغلبه احد. فأما إذا نصره بالحجــة في غير الحرب فانه يجوز أن يغلب بالحرب لضرب من المحنة وشدة والتكليف.

قوله تعالى:

وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون (١٢٥) آية (ما) في قوله: " وإذا ما " يحتمل امرين: أحدهما – ان تكــون دخلــت لتسليط (اذا)

على الجزاء. والثاني – أن تكون صلة مؤكدة، وقوله " فمنهم من يقول " الضمير عائد على المنافقين في قول الحسن والزجاج، والتقدير فمن المنافقين من يقول بعضهم لبعض على وجه الانكار " أيكم زادته هذه ايمانا " وقال الجبائي: يقول المنافقون لضعفة المؤمنين على وجه الاستهزاء. فأخبر الله تعالى انه متى نزلت سورة من القرآن قال المنافقون على وجه الاستهزاء والانكار " أيكم زادته هذه ايمانا " ثم قال تعالى " فاما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا " المعنى ازدادوا عندها ايمانا. وانما أضافه إلى السورة لان عندها ازداوا، فوجه زيادة الايمان انهم يصدقون بأنها من عند الله ويعترفون بذلك ويعتقدونه وذلك زيادة اعتقاد على ما كانوا معتقدين له. وقوله " وهم يستبشرون " جملة في موضع الحال، وتقديره انهم يزدادون الايمان عندها مستبشرين بذلك فرحين بما لهم في ذلك من السرور والثواب. والزيادة ضم الشئ إلى جنسه لانك لو ضممت حجرا إلى ذهب لم تكن زدت، ولو ضممت ذهبا إلى ذهب أو حجرا إلى حجر لكنت زدته.

قوله تعالى:

وأما الذين في قولوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون (١٢٦) آية.

لما بين الله تعالى ان المؤمنين يزدادون الايمان عند نزول السورة بين ان الذين في قلوبهم مرض يعني شك ونفاق من الاسلام يزدادون عند ذلك رجسا إلى رجسهم اي نفاقا وكفرا إلى كفرهم، لانهم يشكون في هذه السورة كما يشكون في الذي تقدم، فكان ذلك هو الزيادة. وسمي الشك في الدين مرضا، لانه فساد يحتاج إلى علاج كالفساد في البدن الذي يحتاج إلى مداواة. ومرض القلب أعضل وعلاجه أعسر ودواؤه أعز واطباؤه أقل. والرجس والنجس واحد. وسمي الكفر رجسا على وجه الذم، وأنه يجب تجنبه كما يجب تجنب الانجاس. وانما أضاف الزيادة إلى

==========

السورة لانهم يزدادون عندها، ومثله كفى بالسلامة داء، كما قال الشاعر:

ارى بصري قد رابني بعد صحة * وحسبك داء أن تصح وتسلما (١)

وقوله " وماتوا وهم كافرون " فيه بيان أن المرض في القلب أداهم إلى ان ماتوا على شر حال، لانها تسوق إلى النار نعوذ بالله منها، وانما قال " وماتوا " على لفظ الماضي لانه عطف على قوله " زادتهم رجسا إلى رجسهم " والمعنى انهم يموتون وهم كافرون.

قوله تعالى:

أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولاهم يذكرون (١٢٧) آية.
قرأ حمزة ويعقوب " أولا ترون " بالتاء. الباقون بالياء.
قوله " أولا يرون " تنبيه وتقريع لمن عنى بالخطاب.
فمن قرأ بالتاء فوجهه أن المؤمنين نبهوا على إعراض المنافقين عن النظر والتدبر لما ينبغي أن ينظروا فيه ويتدبروا، لانهم يمتحنون بالامراض والاسباب التي لا يؤمن معها الموت، فلا يرتدعون عن كفرهم ولا ينزجرون عما هم عليه من النفاق، فلا يقدمون عليه اذا ماتوا فنبه المسلمين على قلة اعتبارهم واتعاظهم.
ومن قرأ بالياء وجه التقريع – بالاعراض عما يجب أن لايعرضوا عنه من التوبة والاقلاع عما هم عليه من النفاق – إلى المنافقين دون المسلمين، لان المسلمين قد عرفوا ذلك من امرهم. وكان الاولى أن يلحق التنبيه من يراد تنبيهه وتقريعه بتركه ما ينبغي ان يأخذ به.
وتحتمل الرؤية في الاية على القراءتين أن تكون متعدية إلى مفعولين. وأن تكون من رؤية العين أولى فاذا جعلت متعدية إلى مفعولين

---

(١) قائله حميد بن ثور الهلالي العقد الفريد ٢ / ٣٣١
(*)

==========

سد (أن) مسدهما. وإن جعلت من رؤية العين كان أولى، لانهم مبتلون في الاعراض عنه على ترك الاعتبار به، وهذا أبلغ من المتعدية إلى مفعولين ألا ترى أن تارك الاستدلال أعذر ممن يكابر المشاهدات. ولو قرئ بضم الياء وبني الفعل للمفعول به كان (ان) في موضع نصب بأنه مفعول الفعل الذي يتعدى إلى مفعول، وفتحت الواو في قوله " أولا " لانها واو العطف دخلت عليها الف الاستفهام، فهو متصل بذكر المنافقين ومتصل بذكر آخرين ذكرهم بدليل العلامتين الواو والالف.
والفتنة المحنة بالقتل والسبي ونصر الله لنبيه حتى يستعلي على كل من ناواه – في قول الحسن وقتادة – وقال مجاهد: هي بالقحط والجوع. وقال الجبائي: هي بالمرض الذي ينزل بهم. وقيل: تهتك استارهم بما يظهره الله من سوء نياتهم وخبث سرائرهم. وقال الزجاج: معناه انهم يختبرون بالدعاء إلى الجهاد، وهو قول الحسن وقتادة: واجاز الرماني أن تفعل التوبة خوفا من العقاب، كما يجوز أن تفعل لقبح المعصية. قال: لان كل واحد من الامرين يدعوا

اليه الفعل. ومن جحد أحد الامرين كمن جحد الاخر. والذي عليه أكثر أهل العدل أنه لايجوز أن تفعل التوبة الا لوجه قبح المعصية. ومتى فعلت لخوف العقاب لم تكن مقبولة.

وقوله " ثم لا يتوبون ولاهم يذكرون " اخبار منه تعالى انه مع ما يمتحنهم في كل سنة دفعة او دفعتين فانهم لا يقلعون عن المعاصي ولا يتوبون منها ولا يتفكرون فيها. والتذكير طلب الذكر بالفكر فيه.

قوله تعالى:

وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يريكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لايفقهون (١٢٨) آية.

==========

أخبر الله تعالى في هذه الاية أنه متى أنزل سورة من القرآن " نظر بعضهم إلى بعض " نظرا يومئون به " هل يراكم من أحد " وانما يفعلون ذلك، لانهم منافقون يتحذرون أن يعلم بهم، فكأنهم يقول بعضهم لبعض: هل يراكم من أحد ثم يقومون فينصرفون. ويحتمل أن يكون انصرافهم عن العمل بشئ مما يستمعون.

فقال الله تعالى " صرف الله قلوبهم " يعني عن رحمته عقوبة لهم " بأنهم قوم لايفقهون " مواعظ الله ولا أمره ونهيه. وإنما صرف قلوبهم عن السرور بالفائدة التي تحصل للمؤمنين بسماع الوحي، فيحرمون ما للمؤمنين من الاستبشار بتلك الحال. والفقه فهم موجب المعنى المضمن به، وقد صار علما على علم الفتيا في الشعريعة لان المعتمد على المعنى. وكان القوم عقلاء يفقهون الاشياء، وإنما نفى الله عنهم ذلك لانهم لم ينظروا فيه، ولم يعملوا بموجبه، فكأنهم لميفقهوه، كما قال " صم بكم عمي " (١) لما لم ينتفعوا بما سمعوه ورأوه.

قوله تعالى:

لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم (١٢٩) آية.

أقسم الله تعالى في هذه الاية بأنه قد " جاءكم رسول من أنفسكم " لان لام (لقد) هي اللام التي يتلقى بها القسم. والخطاب متوجه إلى جميع الخلق.

ومعنى " من انفسكم " أي انكم ترجعون إلى نفس واحدة كما قال " قل انما أنا بشر مثلكم " (٢) ويحتمل ان يكون المراد به من العرب انكم كذلك.

ويكون – على هذا – الخطاب متوجها إلى العرب خاصة، فأنتم تخبرونه قبل مبعثه. وقيل: إنه لم يبق بطن من العرب إلا وولد النبي (صلى الله عليه وآله) وإنما ذكر ذلك لانه أقرب إلى الالفة، وأبعد من المحك واللجاج، واسرع إلى فهم الحجة، فهو

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٨ (٢) سورة ١٨ الكهف آية ١١١
(*)

==========

من انفسكم في اشرف نسبه منكم، ومن أنفسكم في القرب منكم، ومن انفسكم بالاختصاص بكم. وقوله " عزيز عليه " أي شديد عليه لانه لايقدر على ازالته، والعزيز في صفات الله معناه المنيع القادر الذي لا يتعذر عليه فعل ما يريده. والعزة امتناع الشئ بما يتعذر معه ما يحاول منه، وهو على ثلاثة أوجه: امتناع الشئ بالقدرة أو بالقلة أو بالصعوبة. وقوله " ما عنتم " يعني ما يلحقكم من الاذى الذي يضيق الصدر به ولا يهتدى للخروج منه. ومنه قيل: فلان يعنت في السؤال، ومنه قوله تعالى " ولو شاء الله لاعنتكم " (١) أي ضيق عليكم حتى لاتهتدوا للخروج منه، والعنت إلقاء الشدة. و (ما) في قوله " ما عنتم " بمعنى الذي، وهو في موضع رفع بالابتداء وخبره (عزيز) قدم عليه. وقال الفراء: هو رفع ب (عزيز). وقوله " حريص عليكم " فالحرص شدة الطلب للشئ على الاجتهاد فيه. والمعنى: حريص عليكم ان تؤمنوا – في قول الحسن – ثم استأنف فقال " بالمؤمنين رؤوف رحيم " أي رفيق بهم رحيم عليهم.

قوله تعالى:

فإن تولوا فقل حسبي الله لاإله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم (١٣٠) آية.

معنى " فان تولوا " إن ذهبوا عن الحق واتباع الرسول وما يأمرهم به واعرضوا عن قوله. ونقيض التولي عنه التوجه اليه. ومثل التولي الاعراض. وقال الحسن:

المعنى فان تولوا عن طاعة الله. وقيل " فان تولوا " عنك، ومعناه فان ذهبوا عنك هؤلاء الكفار، ولم يقروا بنبوتك " فقل " يا محمد " حسبي الله " ومعناه كفاني الله وهو

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٢٠
(*)

==========

من الحساب لانه تعالى يعطي بحسب الكفاية التي تغني عن غيره، ويزيدمن نعمه مـــالا يبلـــغ إلى حد ونهاية، اذ نعمه دائمة ومننه متظاهرة. وقوله " إله إلا هو " جملة في موضع الحـــال، وتقديره حسبي الله مستحقا لاخلاص العبادة والاقرار بأن لا إله إلا هو. وقوله " عليه توكلت " فالتوكل تفويض الامر إلى الله على الثقة بحسن تدبيره وكفايته، باخلاص النية في كـــل شـــئ يحذر منه، ومنه قوله " حسبنا الله ونعم الوكيل " (١) أي المتولي للقيام بمصالح عبـــاده وفـــي هذه الصفة بلطف. وقوله " وهو رب العرش العظيم " قيل في تخصيصه الـــذكر بأنـــه " رب العرش العظيم " ثلاثة أقوال: أحدها – انه لما ذكر الاعظم دخل فيه الاصغر. الثـــاني – أنـــه خص بالذكر تشريفا له وتفخيما لشأنه. الثالث – ليدل به على أنه ملك الملوك لانه رب السرير الاعظم. وجر القراء كلهم " العظيم " على أنه صفة للعرش. وقال الزجاج: يجوز رفعه بجعله صفة لرب العرش.

قال ابي بن كعب وسعيد بن جبير والحسن وقتادة: هذه آخر آية نزلت من القرآن ولـــم ينـــزل بعدها شئ.

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٧٣

(*)

==========

١٠ – سورة يونس (مكية وهي مئة وتسع آيات)

بسم الله الرحمن الرحيم آلر تلك آيات الكتاب الحكيم (١) آية.

إنما لم تعد (الر) آية كما عد (الم) آية في عدد الكوفيين لان آخره لا يشاكل رؤس الاي التـــي بعده، إذ هي بمنزلة المردف بالياء. و (طه) عد، لانه يشاكل رؤس الاي التي. وقـــرأ (الـــر) بالتفخيم ابن كثير ونافع وأبوجعفر. وقرأ بالامالة أبوعمرو، وابن عامر، وحمـــزة والكســـائي. واختلفوا عن عاصم: فروى هبيرة عن حفص بكسر الراء. الباقون عنه بالتفخيم. قال ابـــوعلي الفارسي: من ترك الامالة، فلان كثيرا من العرب لايميل ما يجوز فيه الامالـــة كمـــا يمنعهـــا المستعلي. ومن أمال، فلانها اسم لما يلفظ به من الاصوات، فجازت الامالة من حيث كانـــت اسما ولم تكن كالحروف التي تمنع فيها الامالة. وقال الرماني: انما جاز إمالة حروف الهجاء، لان ألفه في تقدير الانقلاب عن ياء.

وقد بينا في أول سورة البقرة معنى هذه الحروف التي في أول السور، واختلاف المفســـرين، وقلنا: إن أقوى الوجوه أنها اسماء السور، فلا وجه لاعادته.

وقوله " تلك قال ابوعبيدة معنا هذه. وقال الزجاج: المعنى الايات التي تقدم ذكرها، وهو قول الجبائي. وقال قوم: انما قال " تلك " لتقدم الذكر (الرفي) كقولك هند هي كريمة. وانما اضيفت الايات إلى الكتاب لانها أبعاض

==========

الكتاب، كما أن السورة ابعاضه، وكذلك محكمه ومتشابهه واسماؤه وصفاته ووعده ووعيده وأمره ونهيه وحلاله وحرامه والاية العلامة التى تنبئ عن مقطع الكلام من جهة مخصوصة. والقرآن مفصل بالايات مضمن بالحكم النافية للشبهات وانما وصف الكتاب بأنه حكيم، لانه دليل على الحق كالناطق بالحكمة، ولانه يؤدي إلى المعرفة التي يميز بها طريق الهلاك من طريق النجاة. وقال ابوعبيدة: حكيم ههنا بمعنى محكم وأنشد لابي ذؤيب:

يواعدني عكاظ لننزلنه * ولم يشعر إذن أني خليف (١)

أي مخلف من اخلفته الوعد. ويؤكد ذلك قوله " الر كتاب أحكمت آياته " والايات العلامات. والكتاب اسم من اسماء القرآن وقد بيناه فيما مضى. وحكي عن مجاهد أنه قال (تلك) اشارة إلى التوراة الانجيل. وهذا بعيد لانه لم يجر لهما ذكر.

قوله تعالى:

أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين (٢) آية.

قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي " لساحر مبين " بألف. الباقون بغير ألف. قال أبوعلي الفارسي: يدل على ساحر قوله " وقال الكافرون هذا ساحر كذاب " (٢) ويدل على " سحر " قوله " ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون " (٣) والقول في الوجهين أنه قد تقدم قوله " أن اوحينا إلى رجل منهم " فمن قال " ساحر " أراد به الرجل ومن قال " سحر " أراد الذي أوحي " سحر "

---

(١) ديوان الهذليين ١ / ٩٩ واللسان (خلف) ومجاز القرآن ١ / ٢٧٣ (٢) سورة ٣٨ ص آية ٤ (٣) سورة ٤٣ الزخرف آية: ٣٠

(*)

==========

أي الذي يقول أنه وحي " سحر " وليس بوحي.

ومعنى قوله " أكان للناس عجبا " أكان أيحاؤنا القرآن إلى رجل منهم عجبا؟ وإنذارهم عقاب الله على معاصيه كأنهم لم يعلموا أن الله قد أوحى من قبله إلى مثله من البشر، فعجبوا من وحينا اليه الان؟ فالالف ألف استفهام والمراد به الانكار.

وقال ابن عباس ومجاهد وابن جريح: عجبت العرب وقريش أن يبعث الله منهم نبيا فأنزل الله الاية. وقال الحسن: معنا ليس بعجب ما فعلنا في ذلك. والمعنى ألم يبعث الله رسولا من أهل البادية ولا من الجن ولا من الانس. والعجب تغير النفس بما لا يعرف سببه مما خرج عن العادة إلى ما يجوز كونه. والانذار هو الاخبار على وجه التخويف، فمن حذر من معاصي الله فهو منذر. وهذه صفة النبي (صلى الله عليه وآله).

وقوله " أن أوحينا " في موضع رفع وتقديره أكان للناس عجبا وحينا و " أن أنذر " في موضع نصب، وتقديره وحينا بأن أنذر، فحذف الجار فصار موضعه نصبا، و " أن لهم " نصب بقوله " وبشر الذين آمنوا " ولو قرئ بالكسر كان جائزا لان البشارة هي القول إلا أنه لم يقرأ به. وقوله " وبشر الذين آمنوا " أمر للنبي (صلى الله عليه وآله) أن يبشر المؤمنين، وهو أن يعرفهم ما فيه السرور بالخلود في نعيم الجنة على وجه الاكرام والاجلال بالاعمال الصالحة. وقوله " أن لهم قدم صدق عند ربهم " معناه ان لهم سابقة إخلاص الطاعة كاخلاص الصدق من شائب الكذب. وقالوا:

له قدم في الاسلام، والجاهلية. وهو كالقدم في سبيل الله، قال حسان:

لنا القدم العليا اليك وخلفنا * لاولنا في طاعة الله تابع (١)

وقال ذو الرمة:

لكم قدم لاينكر الناس أنها * مع الحسب العادي طمت على البحر (٢)

وقال أبوسعيد الخدري وأبوعبدالله (عليه السلام): معناه إن محمدا (صلى الله عليه وآله) لهم شفيع يوم القيامة، وهو المروي عن ابي عبدالله (عليه السلام). وقال مجاهد: معناه لهم

---

(١) ديوانه ٢٥٤ وقد مر في ٥ / ٢١ (٢) ديوانه ١٩ والطبري ١١ / ٥٣

(*)

==========

قدم خير بأعمالهم الصالحة. وقال قتادة: معناه لهم سلف صدق. وقال الضحاك: لهم ثواب صدق. وقال ابن عباس: لهم ما قدموه من الطاعات.

وقوله " قال الكافرون إن هذا لساحر مبين " حكاية عن الكفار أنهم يقولون إن النبي ساحر مظهر، أو ما إتى به سحر مبين على اختلاف القراءات. والسحر فعل يخفى وجه الحيلة فيه حتى يتوهم أنه معجز. والعمل بالسحر كفر لادعاء المعجزة به، ولا يمكن مع ذلك معرفة النبوة. وقال الزجاج: المراد ب (الناس)

في الاية أهل مكة. وقيل إنهم قالوا: لم يجد الله من يبعثه رسولا إلا يتيم أبي طالب؟ ! قوله تعالى إن ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الامر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون (٣) آية خاطب الله تعالى بهذه الاية جميع الخلق وأخبرهم بأن الله الذي يملك تدبيركم وتصريفكم بين أمره ونهيه ويجب عليكم عبادته " الله الذي خلق السموات والارض " فاخترعهما وأنشأهما على ما فيهما من عجائب الصنعة ومتقن الفعل. وإطلاق الرب لايقال إلا فيه تعالى، فاما غيره فانه يقيد له، فيقال: رب الدار، ورب الضيعة بمعنى أنه مالكها. وكذلك معنى قوله " رب العرش " والربوبية ملك التدبير الذي يستحق به العبادة. وقيل في الوجه " الذي خلق السموات والارض في ستة أيام " بلا زيادة ولانقصان مع قدرته على إنشائهما دفعة واحدد قولان:

أحدهما – أن في اظهارهما كذلك مصلحة للملائكة وعبرة لهم.

والثاني – لما فيه من الاعتبار إذا أخبر عنه بتصرف المال كما صرف الله

==========

الانسان من حال إلى حال، لان ذلك أبعد من توهم الاتفاق فيه.

وقوله " ثم استوى على العرش " معناه استولى عليه بانشاء التدبير من جهته كما يستوي الملك على سرير ملكه بالاستيلاء على تدبيره، قال الشاعر:

ثم استوى بشر على العراق * من غير سيف ودم مهراق (١)

يعني بشر بن مروان. ودخلت (ثم) لان التدبير من جهة العرش بعد استوائه.

وقوله " يدبر الامر " فالتدبير تنزيل الامور في مراتبها على إحكام عواقبها، وهو مأخوذ من الدبور، فتجري على أحكام الدابر في الباري.

وقوله " وما من شفيع إلا من بعد إذنه " فالشفيع هو السائل في غيره لاسقاط الضرر عنه. وعند قوم أنه متى سأله في زيادة منفعة توصل اليه كان شفيعا. والذي اقتضى ذكره – ههنا – صفات التعظيم مع اليأس من الاتكال في دفع الحق على الشفيع. والمعنى – ههنا – ان تدبيره للاشياء وصنعته لها ليس يكون منه بشفاعة شفيع ولا بتدبير مدبر لها سواه، وأنه لايجسر أحد أن يشفع اليه إلا بعد ان يأذن له فيه، من حيث كان تعالى أعلم بموضع الحكمة والصواب من

خلقه بمصالحهم. وقوله " ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون " معناه إن الموصوف بهذه الصفات هو ربكم وإلهكم فاعبدوه وحده، لانه لا إله لكم سواه، ولا يستحق هذه الصفات غيره. وحثهم على التذكير والتفكر في ذلك وعلى تعرف صحة ما أخبرهم به وقيل: ان العرش المذكور - ههنا - هو السموات والارض، لانهن من بنائه. والعرش البناء. ومنه قوله " يعرشون " (٢) أي يبنون. وأما العرش المعظم الذي تعبد الله الملائكة بالحفوف به والاعظام له وعناه بقوله " الذين يحلمون العرش ومن حوله (٣) فهو غير هذا. وانما ذكر الشفيع في الاية ولم يجر له ذكر، لان

---

(١) مر هذا البيت في ١ / ١٢٥ و ٢ / ٣٩٦ (٢) سورة ١٦ النحل آية ٦٨ وسورة ٧ الاعراف آية ١٣٦ (٣) سورة ٤٠ المؤمن آية ٧
(*)

==========

المخاطبين بذلك كانوا يقولون الاصنام شفعاؤهم عند الله. وذكر بعدها " ويعبدون " من دون الله ما لايضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله (١) واذا كانت الاصنام لاتعقل فيكف تكون شافعة؟ ! مع أنه لا يشفع عنده الا من ارتضاه الله.

واختار البلخي أن يكون خلق السموات والارض في ستة أيام إنما كان لان خلقه لهما دفعة واحدة لم يكن ممكنا كما لا يمكن الجمع بين الضدين، ولا يمكن الحركة إلا في المتحرك. وهذا الذي ذكره غير صحيح، لان خلق السموات والارض خلق الجواهر واختراعها، والجواهر لا تختص بوقت دون وقت، فلا حال إلا ويصح اختراعها فيه ما لم يكن فيما لم يزل. وانما يصح ما ذكره في الاعرض التي لا يصح عليها البقاء او ما يستحيل جمعه للتضاد، فأما غيره فلا يصح ذلك فيه.

قوله تعالى:

إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدؤ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحت بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون (٤) آية.

قرأ أبوجعفر " حقا أنه " بفتح الهمزة. الباقون بكسرها. من فتح، فمعناه اليه مرجعكم، لانه يبدأ. ومن كسر استأنف. قال الفراء: من فتح جعله مفعول حقا كأنه قال حقا أنه. قال الشاعر:

أحقا عباد الله ان لست زائرا * بثينة او يلقى الثريا رقيبها (٢)

---

(١) آية ١٨ من هذه السورة (٢) تفسير الطبري ١١ / ٥٤
(*)

==========

اخبر الله تعالى أن الذي خلق السموات والارض هو الله تعالى، وهو الذي يستحق العبادة لاغيره وان اليه مرجع الخلق كلهم. والمرجع يحتمل معنيين:

احدهما أن يكون في معنى الرجوع فيكون مصدرا.

والاخر – موضع الرجوع فيكون ظرفا، كأنه قال: اليه موضع رجوعكم يكونه اذا شاء. ومعنى الرجوع اليه يحتمل أمرين: احدهما – ان يعود الامر إلى ان لايملك أحد التصرف في ذلك الوقت غيره تعالى بخلاف الدنيا، لانه تعالى قد ملك كثيرا من خلقه التصرف في دار الدنيا ومكنهم من ذلك. والثاني – ان يكون معناه انكم ترجعون اليه احياء بعد الموت أي إلى موضع جزائه.

وقوله " وعد الله حقا " نصب على المصدر وتقديره احقه حقا او وعد الله وعدا حقا، لان في قوله " مرجعكم " انه وعد بذلك الا انه لما لم يذكر الفعل اضيف المصدر إلى الفاعل، كما قال كعب بن زهير:

يسعى الوشاة جنابيها وقيلهم * انك يابن أبي سلمى لمقتول (١)

اي ويقولون قيلهم. وقوله " انه يبدأ الخلق ثم يعيده " اخبار منه تعالى انه الذي أنشأ الخلق ابتداء، وهو الذي يعيدهم بعد موتهم النشأة الاخرى ليدل بذلك خلقه على أنه اذا كان قادرا على الابتداء فهو قادر على الاعادة.

وقوله " ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات " فيه بيان أنه انما يعيد الخلق ليعطيهم جزاء اعمالهم من طاعة ومعصية، والعطاء اذا كان ابتداء لايسمى جزاء.

وقوله " بالقسط " معناه بالعدل، لانه لو زاد الجزاء او نقص لخرج عن العدل، ولكن يجزيهم وفق اعمالهم حتى لايكون الجزاء على النبوة كالجزاء على الايمان بل كل طاعة يستحق الجزاء على قدرها.

وقوله " والذين كفروا لهم شراب من حميم " معناه ان الذين يجحدون نعم الله ويكفرون بوحدانيته ويجحدون رسله " لهم شراب من حميم " وهو الذي اسخن

---

(١) ديوانه ١٩ ومجاز القرآن ١ / ١١٢، ٢٧٣ وقد مر في ١ / ٣٠٠
(*)

==========

(٣٣٨)

بالنار اشد اسخان. قال المرقش الاصغر:

وكل يوم لها مقطرة * فيها كباء معد وحميم (١)

الكباء العود الذي يتبخر به. وقوله " وعذاب أليم " معناه مؤلم " بما كانوا يكفرون " اي جزاء على كفرهم.

قوله تعالى:

هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الايات لقوم يعلمون (٥) آية.

روى ابن مجاهد عن قنبل. والمولى عن الربيبي (ضئاء) بهمزة بعد الضاد مكان الياء حيث وقع. الباقون بياء بعد الضاد ومدة بعدها. قال ابوعلي الفارسي:

لايخلو " ضياء " من أن يكون جمع ضوء كسوط وسياط، وحوض وحياض، او مصدر (ضاء) يضوء ضياء مثل عاذ يعوذ عياذا أوقام يقوم قياما، وعلى أي الوجهين حملته فالمضاف محذوف، والمعنى جعل الشمس ذات ضياء، والقمر ذا نور. أو يكون جعل النور والضياء لكثرة ذلك فيهما، فأما الهمزة في موضع العين من " ضياء " فيكون على القلب كأنه قدم اللام التي هي همزة إلى موضع العين واخر العين التي هي واو إلى موضع اللام، فلما وقعت طرفا بعد الف زائدة قلبت همزة.

كما فعلوا ذلك في (سقاء وعلاء) وهذا اذا قدر جمعا كان أسوغ. كما قالوا قوس وقسي. فصححوا الواحد وقلبوا في الجمع، واذا قدرته مصدأ كان أبعد، لان المصدر يجري على فعله في الصحة والاعتلال، والقلب ضرب من الاعتلال فاذا لم يكن في الفعل يمتنع أن يكون أيضا في المصدر ألا ترى انهم قالوا: لاذلو اذا

---

(١) لسان العرب " قطر "، " حمم " ومجاز القرآن ١ / ٢٧٤

(*)

==========

(٣٣٩)

وباع بياعا، فصححوها في المصدر كصحتها في الفعل، وقالوا: قام قياما فأعلوه ونحوه، لاعتلاله في الفعل. وقرأ ابن كثير واهل البصرة وحفص (يفصل) بالياء.

الباقون بالنون. من قرأ بالياء فلانه قد تقدم ذكر الله تعالى فاضمر الاسم في الفعل. ومن قرأ بالنون فهذا المعنى يريد. ويقويه بقوله " تلك آيات الله نتلوها " وقد تقدم " اوحينا " فيكون نفصل محمولا على " اوحينا " والياء أقوى، لان الاسم الذي يعود اليه أقرب اليه من (اوحينا).
اخبر الله تعالى ان الذي يرجع اليه الخلق هو الله " الذي جعل الشمس ضياء " والجعل وجود ما به يكون الشئ على صفة لم يكن عليها، فتارة يكون باحداثه وأخرى باحداث غيره. والشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى لما فيهما من عظم النور، ومسيرهما بغير علاقة ولادعامة، وفيهما أعظم الدلالة على وحدانية الله تعالى. والنور شعاع فيه ما ينافي الظلام. ونور الشمس لما كان أعظم الانوار سماه الله ضياء، كما قيل للنار نارا، لما فيها من الضياء، ولما كان نور القمر دون ذلك سماه نورا، لان نور الشمس وضياءها يغلب عليه، ولذلك يقال أضاء النهار، ولا يقال اضاء الليل بل يقال انار الليل، وليلة منيرة. ويقولون: في قلبه نور، ولا يقال فيه ضياء، لان الضوء يقال لما يحس بكثرته. وقوله " وقدره منازل " انما وحد في قوله " وقدره " ولم يقل وقدرهما، لاحد أمرين: احدهما – أنه أراد به القمر، لان بالقمر تحصى شهور الاهلة التي يعمل الناس عليها في معاملتهم. والاخر – ان معناه التثنية غير أنه وحده للايجاز اكتفاء بالمعلوم، كقوله " والله ورسوله أحق أن يرضوه " (١) وقال الشاعر:
رماني بأمر كنت منه ووالدي * بريئا ومن جول الطوي رماني (٢)
وقوله " ماخلق الله ذلك إلا بالحق " معناه لم يخلق ما ذكر من السموات والارض والشمس والقمر وقدرهما منازل إلا حقا. وقوله " يفصل الايات " اي

---

(١) سورة ٩ التوبة آية ٦٣ (٢) مر تخريجه في ١ / ١٧٢، ٢٠٣
(*)

==========

يميز بعضها من بعض " لقوم يعلمون " ذلك ويتبينونه. وقال قوم: معناه لقوم لهم عقول يتناولهم التكليف ويصح منهم الاستدلال دون البهائم ومن لاعقل له.
قوله تعالى:
إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق في السموات والارض لايات لقوم يتقون (٦) آية.
الاختلاف ذهاب كل واحد من الشيئين في غير جهة الاخر، فاختلاف الليل والنهار ذهاب أحدهما في جهة الضياء والاخر في جهة الظلام. والليل عبارة عن وقت غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثاني، وهو جمع ليلة كتمرة وتمر. والنهار عبارة عن اتساع الضياء من طلوع

الفجر الثاني إلى غروب الشمس. والنهار واليوم معناهما واحد إلا أن في النهار فائدة اتساع الضياء. وقوله " وما خلق الله في السموات والارض " معناه ما قدر فيهما وفعله على مقدار تقتضيه الحكمة: من الحيوان والنبات وغيرهما ومن غير نقصان ولازياد، وإن في رفعه السماء بلا عمد، وتسكينه الارض بلا سند، مع عظمها لاعظم آيات لمن تفكر في ذلك وتعقله، ويتقي مخالفته. والخلق مأخوذ من خلقت الاديم اذا قدرته. وإنما خص ما خلق في السموات والارض بالذكر للاشعار بوجوه الدلالات إذ قد يكون الدلالة في الشئ من جهة الخلق، وقد تكون من جهة اختلاف الصورة ومن جهة حسن المنظر، ومن جهة كثرة النفع ومن جهة عظم الامر، كالجبل والبحر. وقوله " لايات لقوم يتقون " معناه ان في هذه الاشياء التي ذكرها دلالات على وحدانية الله لقوم يتقون معاصيه ويخافون عقابه، وخص المتقين بالذكر لما كانوا هم المنتفعين بها دون غيرهم.

==========

(٣٤١)

قوله تعالى:

إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحيوة الدنيا واطمانؤا بها والذين هم عن آياتنا غافلون (٧) آية.

معنى " إن الذين لايرجون لقاءنا " يحتمل أمرين:

احدهما – لايخافون عقابنا، كما قال الهذلي:

اذا لسعته النحل لم يرج لسعها * وخالفها في بيت نوب عواسل (١)

والثاني – أن يكون معناه لايطمعون في ثوابنا، كما يقال تاب رجاء لثواب الله وخوفا من عقابه. والملاقاة وإن كانت لاتجوز الاعلى الاجسام. فانما اضافها إلى نفسه، لان ملاقاة ما لايقدر عليه إلا الله يحسن ان يجعل لقاء الله تفخيما لشأنه كما جعل إتيان ملائكته اتيانا لله في قوله " هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام " (٢) وكما قال " وجاء ربك " (٣) وانما يريد وجاء امر ربك.

ومعنى قوله " ورضوا بالحياة الدنيا " قنعوا بها دون غيرهامن خير الاخرة ومن كان على هذه الصفة، فهو مذموم لانقطاعه بها عن الواجب من أمر الله. وقوله " واطمأنوا بها " معناه ركنوا اليها على وجه التمكين فيه، فهؤلاء مكنوا الاحوال الدنيا، فصاحبها يفرح لها ويغتم لها ويرضى لها ويسخط لها. وقوله " والذين هم عن آياتنا غافلون " معنان الذين يذهبون عن تأمل هذه الايات ولا يعتبرون بها.

والغفلة والسو نظائر، وهو الذهاب المعنى عن القلب بما يضاده وقد تستعمل الغفلة في التعرض لها، ولذلك يقولون: تغافل ولا يقولون مثله في السهو.

---

(١) اللسان (خلف) ومجاز القرآن ١ / ٢٧٥ وقد مر في ٢ / ٢١٠ و ٣ / ٣١٥ (٢) سورة ٢ البقرة آية ٢١٠ (٣) سورة ٨٩ الفجر آية ٢٢
(*)

==========

قوله تعالى:

أولئك مأويهم النار بما كانوا يكسبون (٨) آية " أولئك " اشارة إلى الذين تقدم ذكرهم في الاية الاولى، والكاف في " أولئك " حرف الخطاب، مثل الكاف في قولهم أنا ذاك، ولهذا لم يجز تأكيده ولاالبدل منه، ولو كان اسما لجاز: أولئك نفسك، وأولاء مبني على الكسر، وإنما بني لتضمنه معنى الاشارة إلى المعرفة لان أصله أن يتعرف بعلامة، اذ لم يوضع للشئ بعينه، كما وضع زيد وعمرو، وبني على الحركة لالتقاء الساكنين، وبني على الكسر لانها في الاصل في حركة إلتقاء الساكنين إذا كثر ذلك في الفعل لما يدركه من الجزم فاستحق الكسر لانه لما يدخله في حال الاعراب و (هؤلاء) لما قرب و (أولئك) لما بعد، كما تقول في (هذا) و (ذاك) لان ما بعد يقتضي التعريف بالخطاب وما قرب يكفي فيه التنبيه. اخبر الله تعالى أن الذين تقدم وصفهم في الاية الاولى مستقرهم النار جزاء بما كانوا يكسبون من المعاصي.

قوله تعالى:

إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم (٩) آية.

لما ذكر الله تعالى الكفار وما يستحقونه من المصير إلى النار في الايات الاول ذكر في هذه " ان الذين آمنوا " يعني صدقوا بالله ورسوله، واعترفوا بهما وأضافوا إلى ذلك الاعمال الصالحات " يهديهم " الله تعالى جزاء بايمانهم إلى الجنة " تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم " يعني البساتين التي تجري تحت أشجارها الانهار التي فيها النعيم يعني أنواع اللذات والمنافع يتنعمون فيها. ومعنى " تجري من تحتهم

==========

الانهار " تجري بين أيديهم، وهم يرونها من عل، كما قال تعالى " قد جعل ربك تحتك سريا " (١) ومعلوم انه لم يجعل السري تحتها وهي قاعدة عليه، لان السري هو الجدول، وإنما أراد أنه جعل بين يديها. وقال حاكيا عن فرعون " أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي " (٢) وقيل من تحت بساتينهم وأسرتهم وقصورهم - في قول ابي علي. معنى الهدى - هنا - الارشاد إلى طريق الجنة ثوابا على أعمالهم الصالحة، ألا ترى انه قال " يهديهم ربهم بايمانهم " يعني جزاء على إيمانهم، وذلك لايليق إلا بما قلناه. ويحتمل أن يكون وصفهم بالهداية على وجه المدح جزاء على إيمانهم بالله تعالى.

قوله تعالى:

دعويهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعويهم أن الحمد لله رب العالمين (١٠) آية معنى " دعواهم فيها " ان دعاء المؤمنين لله في الجنة، وذكرهم له فيها هو ان يقولوا " سبحانك اللهم " ويقولون ذلك ولهم فيها لذة لاعلى وجه العبادة، لانه ليس هناك تكليف. وقيل: إنه اذا مربهم الطير ويشتهونه قالوا " سبحانك اللهم " فيؤتون به، فاذا نالوا منه شهوتهم قالوا " الحمد الله رب العالمين " هذا قول ابن جريح. وقال الحسن: آخر كلام يجري لهم في كل وقت " الحمد لله رب العالمين " لا أنه ينقطع. والدعوى قول يدعى به إلى أمر، ومعنى " سبحانك اللهم " ننزهك يا أله من كل ما لا يليق بك ولا يجوز من صفاتك من تشبيه أو فعل قبيح. وقيل معناه براءة الله من السوء فيما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله) وقال الشاعر:

---

(١) سورة ١٩ مريم آية ٢٣ (٢) سورة ٤٣ الزخرف آية ٥١

(*)

==========

أقول لما جاءني فخره * سبحان من علقمة الفاخر (١)

أي براءة منه. والتحية التكرمة بالحال الجليلة، ولذلك يسمون الملك التحية، قال عمرو بن معد يكرب:

ازور بها أبوقابوس حتى * أنيخ على تحيته بجند (٢)

وقال زهير بن خباب الكلبي:

من كل ما نال الفتى * قد نلته الا التحيه (٣)

وهو مأخوذ من قولهم احياك الله حياة طيبة. والمعنى تحية بعضهم لبعض سلام اي سلمت وامنت مما ابتلى به اهل النار. و (أن) في الاية هي المخففة من الثقيلة وجاز ان لاتعمل لخروجها بالتخفيف عن شبه الفعل، كما قال الشاعر:

في فتية كسيوف الهند قد علموا * ان هالك كل من يحفى وينتعل (٤)

والميم في اللهم بمعنى (يا) كأنه قال يا أله، ولم يجعل في موضع (يا) لئلا يكون كحروف النداء التي تجري في كل اسم.

قوله تعالى:

ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم فنذر الذين لايرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون (١١) آية قرا ابن عامر ويعقوب " لقضى اليهم اجلهم " بفتح القاف. الباقون بضمها على ما لم يسم فاعله. قال ابوعلي الفارسي: اللام في قوله " لقضي اليهم اجلهم " جواب (لو) في قوله " ولو يعجل الله للناس " والمعنى " ولو يعجل الله للناس " دعاء

---

(١) مر هذا البيت في ١ / ١٣٤ و ٣ / ٨١ و ٥ / ٢٤١ (٢، ٣) تفسير الطبري ١١ / ٥٨ (٤) حاشية الصبان ١ / ٢٩٠

(*)

==========

" الشر " اي ما يدعون به من الشر على انفسهم في حال ضجر وبطر " استعجالهم " اياه بدعاء " الخير " فأضاف المصدر إلى المفعول به وحذف الفاعل كقوله دعاء الخير، وحذف ضمير الفاعل، والتقدير " ولو يعجل الله للناس الشر " استعجالا مثل " استعجالهم بالخير لقضي اليهم اجلهم " قال ابوعبيدة: معنا الفراغ من اجلهم ومدتهم المضروبة للحياة، فهلكوا. وهو قريب من قوله " ويدعو الانسان بالشر دعاؤه بالخير وكان الانسان عجولا " (١). وقيل للميت مقضي كأنه قضي إذا مات وقضى فعل، التقدير استوفى أجله، قال ذو الرمة:

إذا الشخص فيها هزه الال أغمضت * عليه كاغماض المقضي هجولها (٢)

والمعنى أغمضت هجول هذه البلاد على الشخص الذي فيها، فلم يرلقربه كاغماض المقضي، وهو الميت. فأما قوله " لقضي اليهم " وبما يتعلق هذا الجار، فانه لما كان معنى (قضى) معنى (فرغ) وكان قولك (فرغ) قد يتعدى بهذا الحرف وفي التنزيل " سنفرغ لكم " (٣) فانه يمكن أن يكون الفعل يتعدى باللام كما يتعدى ب (إلى) كما ان اوحى في قوله " وأوحينا اليه " قد تعدى ب (إلى) وفي قوله " بأن ربك أوحى لها " (٤) تعدى باللام، فلما كان معنى قضى فرغ،

وفرغ تعلق بها (إلى) كذلك تعلق بقضى. ووجه قراءة ابن عامر واسناده الفعل إلى الفاعل، لان الذكر قد تقدم في قوله " ولو يعجل الله للناس " فقال (لقضى)
الله – على هذا – وقوى ذلك بقوله " ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده " (٥) فقوله " قضى اجلا " اضافه إلى الفاعل فكذلك في هذه الاية. وقوله " واجل مسمى عنده " يعني أجل البعث بدلالة قوله " ثم انتم تمترون " (٦) أي تشكون في البعث.

---

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ١١ (٢) اللسان " غمض " الال ما أشرف من البعير ومعنى البيت أن الابل مسرعة.
(٣) سورة ٥٥ الرحمن آية ٣١ (٤) سورة ٩٩ الزلزال آية ٥ (٥، ٦) سورة ٦ الانعام آية ٢
(*)

==========

ومن ضم القاف وبنى الفعل للمفعول، فلانه في المعنى مثل قول من بنى الفعل للفاعل.
أخبر الله تعالى في هذه الاية انه لو عجل للخلق الشر، والتعجيل تقديم الشئ قبل حينه. وقد يكون تقديم الشئ في المكان، فلا يكون تعجيلا. والفرق بين التعجيل والاسراع ان التعجيل بالشئ عمله قبل وقته الذي هو أولى به. والاسراع عمله في وقته الذي هو احق به، وضده الابطاء. الشر ظهور ما فيه الضرر. واصله الاظهار من قولهم: شررت الثوب اذا اظهرته للمشس، ومنه شرر النار لظهوره وانتشاره. وقوله " لقضي اليهم اجلهم " قيل: إن معناه لاميتوا كأنه قيل لقطع اجلهم وفرغ منه قال ابوذؤيب:
وعليهما مسرودتان قضاهما * داود أو صنع السوابغ تبع (١)
وقال الحسين بن علي المغربي: معناه رد قطع أجلهم اليهم لكون السبب فيه دعاؤهم. وقوله " استعجالهم بالخير " نصب استعجالهم على المصدر وتقديره ولو يعجل الله للناس تعجيله استعجالهم بالخير اذا دعوا. وقيل في معناه قولان احدهما – قال مجاهد وقتادة: وهو كقول الرجل لولده وماله في حال غضبه: اللهم لاتبارك فيه والعنه. وقال الحسن: هو كقوله " ويدعو الانسان بالشر دعاؤه بالخير " (٢)
وقال الجبائي: معناه إنهم يطلبون الخير قبل حينه، وسبيله في أنه لاينبغي أن يكون كسبيل الشر من الاهلاك بالعقاب قبل حينه لما فيه من الاقتطاع عن التوبة واللطف.
وقوله " فنذر الذين لايرجون لقاءنا " معناه نترك الذين لايخافون لقاءنا أو لا يطمعون فيه بمعنى أنه لايخافون عقاب معاصينا، ولايطمعون في ثواب طاعتنا " في طغيانهم يعمهون " فالطغيان الغلو في ظلم العباد والطاغي والباغي نظائر. و (العمه)

شدة الحيرة، وتقديره نتركهم وهم يترددون في ضلالتهم، لا أنه يريد منهم العمه

---

(١) مجاز القرآن ١ / ٢٧٥ وقد مر في ١ / ٤٢٩ و ٤ / ٨٨، ١٦٥ (٢) سورة ١٧ الاسراء آية ١١.
(*)

==========

في الطغيان، لانه إنما يتركهم ليتوبوا من ذلك ويؤمنوا لكنه بين أنه لايعاجلهم بالعقاب في الدنيا، وهم مع ذلك لا يرعوون بل يترددون في الطغيان. وقيل المعنى نتركهم في الاخرة يتحيرون في جزاء طغيانهم.

قوله تعالى:

وإذا مس الانسان الضرد دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مركأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون (١٢) آية.

اخبر الله تعالى في هذه الاية عن قلة صبر الانسان، اذا ناله الضر دعا ربه على سائر حالاته التي يصيبه ذلك عليها، سواء كان قائما أو قاعدا إذا أطاقه، أو على جنبه من شدة المرض فيجتهد الدعاء لان يهب الله له العافية. وليس غرضه بذلك نيل الثواب للاخرة. وانما غرضه زوال ما هو فيه من الالام، فاذا كشف الله عنه ذلك الضرر، ووهب له العافية، مر معرضا عن شكر ما وهبه له من نعمة عافية فلا يتذكر ما كان فيه من الالام، وصار في الاعراض عن ذلك بمنزلة من لم يدع الله كشف ألمه ولا سأله ازالة الضرر عنه الذي كان به. وقوله " كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون " قال ابوعلي الجبائي: الشياطين الذين دعوا المسرفين إلى المعاصي واغووهم بها وبترك شكر نعم الله زينوا لهؤلاء المسرفين ما كانوا يعملونه من المعاصي والاعراض عن ذكر نعمه واداء شكره. والغرض بذلك انه ينبغي لمن وهب الله له العافية بعد المرض ان يتذكر حسن صنع الله اليه وجزيل نعمه عليه، فيشكره على ذلك ويسأله ادامة ذلك عليه. ونبه بذلك على انه يجب عليه الصبر عند المرض وترك الجزع عند احتساب الاجر وطلب الثواب في الصبر على ذلك، وأن يعلم أن الله محسن اليه بذلك، وليس بظالم له. وقال الحسن

==========

التزيين هو التحسين من الشيطان والغواة. وقال غيره هو التحبيب بالشهوة لتحبيب المشـــتهى. وقوله " أو قاعدا او قائما " نصب على الحال. وقوله " كأن " هي المخففة عن الثقيلة، وتقديره كأنه لم يدعنا، ومثله قول الخنساء:

كأن لم يكونوا حمى متقى * اذ الناس اذ ذاك من عزبز (١)

اي كأنهم. وقوله " مر كأن لم " اي استمر على طريقته الاولى كأنه لم يدعنا ولم يسألنا ذلـــك. وموضع الكاف نصب على أنه مفعول مالم يسم فاعله والمعنى زين للمسرفين عملهم " كذلك " أي مثل ذلك.

قوله تعالى:

ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين (١٣) آية أقسم الله تعالى في هذه الاية أنه اهلك من كان قبل هذه الامـــة مـــن القرون، وهو جمع قرن. وسمي أهل كل عصر قرنا لمقارنة بعضهم لـــبعض. والقـــرن هـــو المقاوم لقرينه في الشدة، ويعني بذلك الذين كذبوا رسل الله الذين بعثهم الله اليهم فكفروا بـــذلك بربهم وظلموا أنفسم، فأهلكهم الله بأنواع العذاب وفنون الاستئصال كما أهلك قوم لوط وقـــوم موسى وغيرهم، وبين بقوله " وما كانوا ليؤمنوا " ان هذه الامم التي أهلكهم لم يكونوا مؤمنين ولو أبقاهم الله لم يؤمنوا بالرسل الذين أتوهم والكتب التي جاؤهم بها، ولما كان ذلك المعلـــوم من حالهم استحقوا من الله تعالى العذاب فأهلكهم.

وقوله " كذلك نجزي القوم المجرمين " اي نعاقب مثل عقوبة هؤلاء المجرمين اذا استحقوا أو كانوا ممن لا يؤمن ولايصلح. وجعل ابو علي الجبائي ذلك دليلا

---

(١) ديوانها انيس الجلساء ١٤٤

(*)

==========

على ان تبقية الكافر إذا علم من حاله أنه يؤمن فيما بعد واجبة.

قوله تعالى:

ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم بعدهم لننظر كيف تعملون (١٤) آية.

بين الله تعالى بهذه الاية أنه إنما جعل المخاطبين بهذه الخطاب بعد إهلاك من أهلك وتكليفـــه إياهم بطاعته وتصديق رسله مثل ما كان كلفهم " لننظر كيف تعملون " معناه إنكم إن عملـــتم بالمعاصي مثل وما عمل بها أولئك وكذبتم الرسول ولم ترجعوا عن الكفـــر أهلككـــم بـــبعض

العقاب كما أهلك من تقدم. وإن آمنتم أثابكم الله في الدنيا والاخرة ورضي عنكم، فجعل قوله " لننظر كيف تعلمون " دلالة لهم على اني أفعل بكم احد هذين: الثواب إن آمنتم وأطعتم، والعذاب إن كفرتم وعصيتم. واستعمل ذلك على هذا المعنى مجازا كما يستعمله اهل اللغة على هذا المعنى، لانهم لايعلمون ما يكون من المكلفين وما يفعل بهم من الثواب والعقاب وهو عالم بذلك. ومثل ذلك يستعمله العرب فيما يعلمه الانسان يقول القائل لغلامه الذي يأمره: إني سأعاقبك وأضربك لانظر كيف صبرك، واعطيك ما لا لانظر كيف تعمل، وإن كان عالما بما يؤل اليه الامر في ذلك.

وموضع (كيف) نصب بقوله " تعملون " وإنما قدم لانه للاستفهام ولايجوز أن يكون معمولا " لننظر " لان ما قبل الاستفهام لايعمل في الاستفهام ولو قلت لننظر أخيرا يعملون أو شرا؟ كان العامل في (خير، وشر) يعملون.

قوله تعالى:

وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايرجون لقاءنا

==========

(٣٥٠)

ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبد له من تلقاءى نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلى إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم (١٥) آية.

اخبر الله تعالى في هذه الاية أنه إذا قرأ النبي (صلى الله عليه وآله) على الكفار آيات الله وكلامه. و (بينات) نصب على الحال. وهي الايات التي امر فيها عباده بأشياء ونهاهم عن اشياء " قال الذين لايرجون لقاءنا " اي لقاء عذاب الله او ما وعدهم به من ثوابه ان اطاعوه " ائت بقرآن غير هذا " الذي تتلوه علينا " أو بدله " فاجعله على خلاف ما تقرأه علينا، وإنما فرق بين قوله " ائت بقرآن غير هذا او بدله " لان الاتيان بغيره قد يكون معه، وتبديله لايكون إلابرفعه، والاتيان بغيره. وانما لم يرجوا ثواب الله وعذابه لانهم كانوا غير مقرين بالله ولا معترفين بنبوة نبيه (صلى الله عليه وآله) ولا يصدقونه فيما يخبرهم به عن الله ويذكرهم به من البعث والنشور والحساب والجزاء. وكان قولهم هذا له على وجه التعنت والتسبب إلى الكفر به وتكذيبه، واحتجاجا عليه بما ليس بحجة لانه (صلى الله عليه وآله) كان قد بين لهم ان هذا القرآن ليس من كلامه وانه ليس له تغييره وتبديله، فأرادوا أن يوهموا ان الامر موقوف على رضاهم به، وليس يرضون بهذا فيريدون غيره. وقال الزجاج: إنه كان غرضهم اسقاط ما فيه من عيب آلهتم وتسفيه أحلامهم ومن ذكر البعث والنشور، فأمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم في جواب ذلك: ليس لي " أن أبدله من تلقاء نفسي " أي من جهة نفسي ومن ناحية نفسي كأنه قيل

له: قل ليس لي أن اتلقاه بالتبديل كما ليس لي أن اتلقاه بالرد. والتلقاء جهة مقابلة الشئ إلا أنه قد يستعمل ظرفا فيقال: هو تلقاءه كما يقال: هو حذاه وقبالته وتجاهه.
قوله " إن أتبع إلا ما يوحى الي " أى ليس لي أن أتبع إلا الذي يوحى إلي

==========

(٣٥١)

" إني أخاف إن عصيت ربي " في اتباع غيره " عذاب يوم عظيم " يعني يوم القيامة ومن استدل بهذه الاية على أن نسخ القرآن بالسنة لايجوز فقد أبعد، لانه اذا نسخ ما يتضمنه القرآن بالسنة، فالسنة لايقولها النبي (صلى الله عليه وآله) إلا بوحي من الله.
وليس بنسخه من قبل نفسه. بل يكون ذلك النسخ مضافا إلى الله. وانما لايكون قرآنا لانه تعالى قد يوحي إلى نبيه ما هو قرآن وما ليس بقرآن، لان جميع ما بينه النبي (صلى الله عليه وآله) من الشريعة لم يبينها إلا بوحي من الله لقوله " وما ينطق عن الهوى ان هو الاوحى يوحى " (١) وان كان تفصيل ذلك ليس بموجود في القرآن فالاستدلال بذلك على ما قالوه بعيد.
قوله تعالى:
قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدريكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون (١٦) آية.
حكي عن الحسن انه قرأ " ولا أدراكم به " وقرأ ابوربيعة وقنبل الا المالكي والعطار " ولادراكم به " يجعلانها (لاما) ادخلت على (ادراكم) وأمال (أدراكم)
و (ادراك) في جميع القرآن ابوعمرو وحمزة والكسائي وخلف والداحوني عن ابن ذكوان، والكسائي عن ابي بكر، وافقهم يحيى والعليمي في هذه السورة.
حكى سيبويه: دريته ودريت به، قال واكثر الاستعمال التعدي بالباء، يبين ذلك قوله " ولا أدراكم به " ولو كان على اللغة الاخرى لقال ولا ادراكموه، وقالوا: الدرية على وزن (فعلة) كما قالوا الشعرة والفطنة، وهي مصادر يراد بها ضروب من العلم. فأما الدراية فكالهداية والدلالة، وكأن الدراية التأني والتعمل لعلم الشئ وعلى هذا المعنى ما تصرف من هذه الكلمة، وقالوا: داريت الرجل اذا لاينته وختلته

---

(١) سورة ٥٣ النجم آية ٣ - ٤
(*)

==========

(٣٥٢)

فعلى هذا لايوصف الله تعالى بالداري، واما قول الراجز.

اللهم لاأدري وانت الداري فلا يكون حجة في جوزا ذلك لامرين: احدهما – انه لما تقدم قوله: لا أدري استجاز أن يذكر الداري بعده، ليزدوج الكلام، كما قال تعالى " فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه " (١) ونظائره كثيرة. والثاني – إن الاعراب ربما ذكروا أشياء امتنع جوازها كما قال:

لو خافك الله عليه حرمه (٢)

وقال آخر:

اللهم إن كنت الذي بعهدي * ولم تغيرك الامور بعدي

فاما الهمزة على ما حكي عن الحسن، فلا وجه له لان الدرء الدفع، كما قال " فأدرءوا عن انفسكم الموت " (٣) وقال " فادارأتم فيها " (٤) وقوله (عليه السلام) (ادرأوا الحدود بالشبهات) قال الفراء: ان كان ما حكي عن الحسن لغة، وإلا يجوز أن يكون الحسن ذهب إلى طبعه وفصاحته فذهب إلى درأت الحد، وقد يغلط بعض العرب في الحرف اذا ضارعه آخر في الهمزة فيهمز ما ليس مهموزا، سمعت امرأة من غني تقول: رثأت زوجي بأبيات، ويقولون: لبأت بالحج وحلات السويق. وكل ذلك غلظ، لان (حلات) انما هو من دفع الابل العطاش عن الماء و " لبأت " من اللباء الذي يؤكل، و " رثأت " من الرثية اذا حلبت الحليب على الرايب، ومن أمال فتحة الراء وأمال الالف بعدها، فلان هذه الالف تنقلب ياء في أدريته، وهما مدريان. ومن لم يمل فلان الاصل عدم الامالة، ولان كثيرا من الفصحاء لا يميل ذلك.

ومعنى قوله " ولا ادراكم به " قال ابن عباس ولا أعلمكم به من (دريت به)

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٩٤ (٢) قد مر في ٢ / ١٨٥ (٣) سورة ٣ آل عمران آية ١٦٨ (٤) سورة ٢ البقرة آية ٧٢

(*)

==========

وأدراني الله به. ومعنى الاية الامر للنبي (صلى الله عليه وآله) بأن يقول لهؤلاء الكفار لو اراد الله ان يمنعهم فائدته ما أعلمهم به، ولا أمر النبي (صلى الله عليه وآله) بتلاوته عليهم.

وقوله " فقد لبثت فيكم عمرا من قبله " معناه لبثت عليه هذه الصفة لا أتلوه عليكم ولا يعلمكم الله به حتى أمرني به وشاء اعلامكم. وقال قتادة: لبث في قومه أربعين سنة قبل أن يوحى اليه.

وقوله " أفلا تعقلون " معناه هلا تتفكرون فيه بعقولكم فتتبينوا بذلك ان هذا القرآن من عند الله انزله تصديقا لنبيه (صلى الله عليه وآله). قال الرماني: والعقل هو العلم الذي يمكن به الاستدلال بالشاهد على الغائب. الناس يتفاضلون فيه بالامر المتفاوت فبعضهم أعقل من بعض اذ كان أقدر على الاستدلال من بعض. ومعنى ذلك ان يقول لهم قد لبثت فيكم حينا طويلا ونشأت بين أظهركم وعرفتم منصرفي ومنقلبي فلو كان ما أتيت به مخترعا او كان ما فيه من الاخبار من عند غير الله لكنتم عرفتم ذلك اذ فيكم ولدت ونشأت ومعكم تصرفت " أفلا تعقلون " في التدبير والنظر والانصاف فتفعلون فعل من يعقل. وعلى انه (صلى الله عليه وآله) لو كان اخذ ذلك من غيره وخالط اهلها، او لو كان شاعرا، اولو كان يعلم السحر – كما ادعوا – ثم خفي ذلك اجمع عليهم حتى لم يعرفوا الوجه الذي منه اخذ لكان في ذلك أعظم الحجة. وعلى ما روي عن قنبل يكون المعنى " لو شاء الله ما تلوته " يكون نفيا للتلاوة " ولا دراكم " ولا علمكم ثبوته، ويكون اثباتا للعلم، وعلى قراءة الباقين يكون نفيا للامرين معا.

قوله تعالى:

فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لايفلح المجرمون (١٧) آية.

==========

(٣٥٤)

قوله " فمن اظلم ممن " ظاهره الاستفهام والمراد به الاستعظام والاخبار به انه لا احد اظلم ممن اخترع كلاما او خبرا ثم اضافه إلى الله ويرد به النبي نفسه لوكان فعل " او كذب بآياته " يعنيهم " إنه لا يفلح " اي لايفوز " المجرمون " وانما قال: لااحد اظلم ممن هذه صفته، لانه ظلم كفر، وهو اعظم من ظلم ليس بكفر. والتقدير لااحد اظلم ممن يظلم ظلم كفر، فعلى هذا من يدعي الربوبية داخل في هذه الجملة لان ظلمه ظلم كفر، كأنه قيل لا احد اظلم من الكافر، وليس لاحد ان يقول: المدعي للربوبية اظلم من المدعي للنبوة وهو كاذب. والكذاب بآيات الله ظالم لنفسه بما يدخل عليها من استحقاق العقاب وظالم لغيره ممن يجوز ان تلحقه المنافع والمضار بتكذيبه اياه ورده عليه، لان من شأنه ان يعمه مثل هذا الكتذيب. و (من) في الاية للاستفهام وهي لاتوصل لانها تضمنت حرف الاستفهام فعوملت معاملته، كما انها اذا كانت بمعنى الجزاء لم توصل لتضمنها معنى (إن) التي هي ام الباب في الجزاء.

قوله تعالى:

ويعبدون من دون الله ما لايضرهم ولاينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون (١٨) آية.

قرأ اهل الكوفة الا عاصما " عما تشركون " بالتاء ههنا وفي النحل في موضعين وفي الروم. الباقون بالياء. من قرأ بالتاء بناه على ما تقدم من قوله " اتنبئون الله بما لايعلم " فلما خـــاطبهم بذلك وجه اليهم الخطاب بتنزيهه عما يشركون. ومن قرأ بالياء بناه على الخبر عن الغائب لان اول الاية مبني على ذلك، وهو قوله ويعبدون من دون الله " وكلاهما حسن.

==========

(٣٥٥)

اخبر الله تعالى على وجه الذم للكفار بأنهم يوجهون عبادتهم إلى من هو دون الله من الاصنام والاوثان التي لا تضر ولا تنفع.

فان قيل: كيف ذمهم على عبادة الوثن الذي لاينفع ولايضر مع انه لو نفع وضـــر لـــم تجـــز عبادته؟ ! قلنا: لانه اذا كان من يضر وينفع قد لا يستحق العبادة اذا لم يقدر على اصول النعم، فمن لايقدر على النفع والضر اصلا ابعد من ان يستحق العبادة.

وقوله " ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله " اخبار منه تعالى عن هؤلاء الكفار انهم يقولون انـــا نعبد هذه الاصنام لتشفع لنا عند الله، فتوهموا ان عبادتها اشد في تعظيم الله من قصده تعـــالى بالعبادة، فحلت من هذه الجهة محل الشافع عند الله.

وقال الحسن: شفعاء في صلاح معاشهم في الدنيا، لانهم لايقرون بالبعث بدلالة قوله " واقسموا بالله جهد ايمانهم لايبعث الله من يموت " والعبادة خضوع بالقلب في اعلى مراتب الخضـــوع، فكل طاعة فعلت على هذا الوجه فهي عبادة. وانما قال " ويعبدون من دون الله " مع انهم كانوا يشركون في عبادة الله لامرين:

احدهما – ان عابد الوثن خاصة قد اشرك في استحقاق العبادة.

الثاني ان من عبدالله وعبد الوثن فقد عبده من دون اخلاص العبادة لله.

وقوله " اتنبئون الله بمالا يعلم " امر منه تعالى لنبيه ان يقول لهم على وجه الالزام اتخبـــرون الله بما لايعلم من حسن عبادة الاوثان وكونها شافعة لان ذلك لو كان صحيحا لكـــان الله بـــه عالما ولما نفى العلم بذلك نفي المعلوم.

وقوله " سبحانه وتعالى عما يشركون " تنزيه منه تعالى لنفسه، وتنزيه من ان يعبد معه إله او يتخذ من دونه معبود.

قوله تعالى:

وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة

==========

سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون (١٩) آية اخبر الله تعالى في هذه الاية انه لم يكن الناس فيما مضى الا امة واحدة والامة الجماعة التي على معنى واحد في خلق او ما يستمر على عبادته بالظاهر، فعلى هذا الناس أمة والطير أمة. والمراد - ههنا - أنها كانت على دين واحد.

واختلفوا في الدين الذي كانوا مجتمعين عليه قبل حدوث الاختلاف بينهم على قولين: فقال الحسن كانوا على الشرك كما قال تعالى " كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين " (١) وقال الزجاج: أراد بذلك العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي (صلى الله عليه وآله) فانهم كانوا مشركين، فلما بعث النبي آمن به قوم وكفر به آخرون. وقال الجبائي: انهم كانوا على الاسلام، في عهد آدم وولده وأنكر الاول. قال لان الله تعالى قال " فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا " (٢) فلو كانوا كلهم على الكفر لما كان فيهم شهيدا أصلا قال الرماني: لا يمتنع ان يكون الامر على ما قال الحسن ويكون المراد التغليب كأن المسلمين كانوا قليلين، فلا يعتد بهم، فيجوز أن يقال فيهم أنهم امة مشركة كما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال (ان الله نظر إلى اهل الارض فمقتهم الا بقايا من أهل الكتاب).

وقال مجاهد: فاختلفوا حين قتل ابن آدم أخاه. والاختلاف هو الذهاب في الجهتين فصاعدا من الجهات، وحد المختلفين ان لايسد احدهما مسد صاحبه فيما يرجع إلى ذاته كما لايسد السواد مسد البياض.

وقوله " ولو لا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم " معناه لو لا كلمة سبقت من ربك من انه لايعاجل العصاة بالعقوبة انعاما عليهم في التأني بهم " لقضي بينهم " في اختلافهم بما يضطرهم إلى علم المحق من المبطل. وقيل معنى ذلك " لقضي بينهم " اي فصل بينهم بأن اهلك العصاة وانجى المؤمنين، لكنه أخرهم إلى يوم القيامة

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢١٣ (٢) سورة ٤ النساء آية ٤٠

(*)

==========

تفضلا منه وزيادة في الانعام عليهم.

قوله تعالى:

ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين (٢٠) آية حكى الله تعالى عن هؤلاء الكفار أنهم قالوا: هلا أنزل على محمد آية وأرادوا بذلك أنه يضطرهم إلى المعرفة ولا يحتاجون معها إلى النظر والاستدلال، ولم يطلبوا معجزة يستدل بها على صدقه، لانه قد كان أتاهم بالمعجزات التي تدل على صدقه فلم يجبهم الله على التمسوه، لان التكليف يمنع من الاضطر إلى المعرفة، لان الغرض بالتكليف التعريض للثواب. واو عرفوا الله تعالى ضرورة لما استحقوا ثوابا فكان ذلك ينقض غرضهم. وقال ابوعلي: طلبوا آية سوى القرآن.

والاصل في (لولا) امتناع الثاني لكون الاول كقولك: لو لازيد لجئتك فخرجت إلى معنى التحضيض بأنه ليس ينبغي ان يمتنع ذا لكون غيره قوله " فقل إنما الغيب لله " معناه إن ما لا تعرفونه ولانصب لكم عليه دليل يجب أن تسلموا علمه إلى الله، لانه العالم بالخفيات وما يكون في المستقبل، فلاجل ذلك لا يفعل الاية التي اقترحتموها في هذا الوقت لما في ذلك من حسن التدبير ووجه المصلحة. والغيب خفاء الشئ عن علم العباد، والله تعالى عالم الغيب والشهادة لانه عالم لنفسه يعلم الاشياء قبل كونها وبعد كونها لايخفى عليه خافية.

وقوله " فانتظروا " معناه انتظروا ما وعدكم الله من نصر المؤمنين وقهر الكافرين وانزال الذل العقاب بهم إن أقاموا على كفرهم ف " إني معكم من المنتظرين " لذلك.

==========

قوله تعالى:

وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكرفي آياتنا قل الله أسرع مكر إن رسلنا يكتبون ما تمكرون (٢١) آية.

روى روح " يمكرون " بالياء. الباقون بالتاء.

أخبر الله تعالى بأنه إذا أذاق الناس يعني الكافرون " رحمة " بأن أنعم عليهم واوسع أرزاقهم وأخصب أسعارهم " من بعد ضراء " يعني بعد شدة كانوا فيها من جدب وضيق نالتهم " مكروا في آياتنا " فجواب (اذا) الاولى في (اذا) الثانية وإنما جعلوا (إذا) جوابا إذا كانت بمعنى الجملة على ما فيها من المفاجأة، كما قال تعالى " وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون " (١). وحقيقة الذوق تناول ما له طعم بالفم ليوجد طعمه. وانما قال: اذقناهم الرحمة على طريق البلاغة لشدة إدراك الحاسة. والمكر فتل الشئ إلى غير وجهه على طريق الحيلة فيه، فهؤلاء محتالون لدفع آيات الله بكل ما يجدون السبيل اليه من شبهة او تخليط في مناظرة أو غير ذلك من الامور الفاسدة. وقال مجاهد: مكرهم استهزاؤهم وتكذيبهم.

فقال الله لنبيه (صلى الله عليه وآله) " قل " لهم " الله اسرع مكرا " يعني اقدر جزاء على المكـــر، وذلك أنهم: جعلوا جزاء النعمة المكر مكان الشكر، فقوبلوا بما هو أشد. والسرعة عمل الشـــئ في وقته الذي هو أحق به، والمعنى: إن ما يأتيهم من العقاب اسرع مما أتوه مـــن المكـــر اي وقع في حقه. وقوله " ان رسلنا يكتبون ما تمكرون " إخبار منه تعالى أن ملائكة الله الموكلين بهم يكتبون مايمكرون من كفرهم وتكذيبهم، ففي ذلك غاية الزجر والتهديد على ما يفعلونه من المكر والحيل في امر النبي (صلى الله عليه وآله)

---

(١) سورة ٣٠ الروم آية ٣٦

(*)

==========

وقيل انما سمى جزاء المكر مكرا، لانهم اذا نالهم العذاب على مكرهم بحيث لايحتســبونه ولا يتوقعونه فكأنه مكربهم.

قوله تعالى:

هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بهـــا جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين (٢٢) آية قرأ ابن عامر وابوجعفر " ينشركم " بالنون والشين من النشر. والباقون بالياء والسين وتشديد الياء من التسيير. قال ابوعلي: حجة ابن عامر أن (ينشركم)

مثل قوله " وبث منهما رجالا كثيرا ونساء " (١) فالبث تفريق ونشر. وحجة الباقين قوله " قل سيروا في الارض " (٢) " فامشوا في مناكبها " (٣) فالمعنيان متقاربان.

امتن الله على خلقه في هذه الاية وعدد نعمه التي يفعلها بهم في كل حال، فقال " هـــو الـــذي يسيركم في البر والبحر " وتسييره إياهم اما في البحر، فلانه بالريح والله المحـــرك لهـــا دون غيره، فلذلك نسبه إلى نفسه، واما في البر فلانه كائن باقداره وتمكينه وتسبيبه، فلذلك نسبه إلى نفسه. والتسيير التحريك في جهة تمتد كالسير المدود، والبر الارض الواسعة التي تقطع مـــن بلد إلى بلد، ومنه البر لا تساع الخير به

---

(١) سورة ٤ النساء آية ١ (٢) سورة ٦ الانعام آية ١١ وسورة ٢٧ النمل آية ٦٩ وسورة ٢٩ العنكبوت آيـــة ٢٠ وسورة ٣٠ الروم آية ٤٢ (٣) سورة ٦٧ الملك آية ١٥

(*)

==========

(٣٦٠)

والبحر مستقر الماء الواسع حتى لايرى من وسطه حافتاه وجمعه أبحر وبحور، ويشبه به الجواد، فيقال انما هو بحر لاتساع عطائه. وقوله " حتى إذا كنتم في الفلك " خص الخطاب براكبي البحر. والفلك السفن، وسميت فلكا لدورانها في الماء، وأصله الدور، ومنه فلكة المغزل، والفلك الذي تدور فيه النجوم. وتفلك ثدي الجارية اذا استدار. والفلك – ههنا – جمع، وقد يكون واحدا. كقوله " في الفلك المشحون " (١) وقوله " وجرين بهم بريح طيبة " عدل عن الخطاب إلى الاخبار عن الغائب تصرفا في الكلام مع انه خطاب لمن كان في تلك الحال وإخبار لغيره من الناس، قال لبيد:

باتت تشكي الي النفس مجهشة * وقد حملتك سبعا بعد سبعينا (٢)

وقوله " وفرحوا بها " يعني بالريح الطيبة " جاءتها ريح عاصف " يعني ريحا شديدة يقولون: عصفت الريح فهي عاصف وعاصفة، ومنهم من يقول: أعصفت فهي معصف ومعصفة. والريح مؤنثة، وانما قال عاصف، لانه لايوصف بذلك غير الريح فجرى مجرى قولهم امرأة حائض، قال الشاعر:

حتى اذا عصفت ريح مزعزعة * فيها قطار ورعد صوته زجل (٣)

وقوله " وجاءهم الموج من كل مكان " معناه جاء راكبي الفلك الامواج العظيمة الهائلة من جميع الوجوه. " وظنوا أنهم أحيط بهم " أي ظنوا انهم هالكون لما أحاط بهم من الامواج " دعوا الله مخلصين له الدين " اي عند هذه الشدائد والاهوال والتجؤا إلى الله ودعوه وجه الاخلاص، ولم يذكروا الاوثان والاصنام لعلمهم بأنها تنفع ههنا شيئا وقالوا " لئن انجيتنا " يارب من هذه الشدة " لنكونن " من جملة من يشكرك لنعمك، ويقوم بآدابها. ويقال لمن اشرف على الهلاك أحيط

---

(١) سورة ٣٦ يس آية ٤١ وسورة ٢٦ الشعراء آية ١١٩ (٢) مر تخريجه في ١ / ٣٥، ٤٧٢.

(٣) تفسير الطبري " الطبعة الاولى " ١١ / ٦٣

(*)

==========

(٣٦١)

به، ومنه قوله " واحيط بثمره " (١) أي اهلكت.

قوله تعالى:

فلما أنجيهم إذا هم يبغون في الارض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحيوة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون (٢٣) آية قرأ حفص " متاع الحياة " بنصب العين. الباقون بالرفع. من رفع يحتمل أمرين: احدهما - ان يكون رفعا بأنه خبر المبتدأ والمبتدأ قوله " بغيكم " الثاني - ان يكون بغيكم مبتدأ، وقوله " على انفسكم " خبره. ورفع متاع على تقدير ذلك متاع الحياة الدنيا. ومن نصب فعلى المصدر. قال أبوعلي الفارسي " على انفسكم " يحتمل أن يكون متعلقا بالمصدر، لان فعله متعد بهذا الحرف كما قال " بغى بعضنا على بعض " (٢) وقال " ثم بغي عليه لينصرنه الله " (٣) فاذا جعلت الجار من صلة المصدر كان الخبر متاع الحياة الدنيا والمعنى بغي بعضكم على بعض متاعا في الحياة الدنيا. ويجوز ان تجعله متعلقا بمحذوف، ولا تجلعه من صلة المصدر، وفيه ذكر يعود إلى المصدر. والتقدير انما بغي بعضكم على بعض عائد على أنفسكم، فعلى هذا يتعلق بالمحذوف دون المصدر المبتدأ وهو في المعنى كقوله " ولايحيق المكر السئ الا بأهله " (٤) وقوله " فمن نكث فانما ينكث على نفسه " (٥) فاذا رفعت متاع الحياة على هذا كان خبر مبتدأ محذوف كأنك قلت: ذاك متاع الحياة الدنيا أو هو متاع. ومن نصب احتمل وجهين:

---

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٤٣ (٢) سورة ٣٨ ص آية ٢٢ (٣) سورة ٢٢ الحج آية ٦٠ (٤) سورة ٣٥ فاطر آية ٤٣ (٥) سورة ٤٨ الفتح آية ١٠

(*)

==========

احدهما - ان يجعل من صلة المصدر، فيكون الناصب للمتاع هو المصدر الذي هو البغي، ويكون خبر المبتدأ محذوفا، وحسن ذلك لطول الكلام، لان بغيكم يدل على تبغون. والاخر - ان يجعل على أنفسكم خبر المبتدأ، ويكون نصب متاع على أحد وجهين: احدهما - يمتعون متاع الحياة فيدل انتصاب المصدر عليه والاخر - ان يضمر تبغون كأنه قال تبغون متاعا، فيكون مفعولا له.

ولايجوز أن يتعلق بالمصدر إذا جعلت (على) خبرا، لقوله إنما بغيكم على انفسكم، لفصلك بين الصلة والموصول.

اخبر الله تعالى في هذه الاية عن هؤلاء الكفار الذين اذا رأوا الاهوال والشدائد في الفلك في البحر فزعوا إلى الله ودعوه مخلصين له الدين، وقالوا متى انجيتنا من هذه " لنكونن من الشاكرين " أنه اذا انجاهم وخلصهم من تلك الشدائد عادوا إلى البغي وهو الاستعلاء بالظلم.

واصل البغي الطلب. تقول بغاه يبغيه اذا طلبه. والبغية الطلبة، والنجاة التخلص من الهـلاك. والتخليص من الاختلاط لايسمى نجاة. ومعنى " لما " ايجاب وقوع الثاني بالاول كقولك: لمـا قام قمت، ولما جاء زيد قام عمرو. والحق وضع الشئ في موضعه على ما يدعوا العقل اليه، والحق والحسن معناهما واحد. وقوله " يا ايها الناس إنما بغيكم على أنفسكم " خطاب مـن الله تعالى للخلق بأن بغيكم على انفسكم من حيث ان عقابه يلحقكم دون غيركم " متاع الحياة الدنيا " معناه إنكم تطلبون بالبغي بغير الحق التمتع في الحياة الدنيا. ثم بعد ذلك ترجعون إلى الله بعد موتكم فيجازيكم بأعمالهم بعد أن يعلمكم ما عملتموه وما استحققتم به من انواع العقاب. وقـال مقاتل: معنى " يبغون في الارض بغير الحق " يعبدون غير الله. وقال غيره: معناه كلما أنعمنا عليهم بغوا للدين وأهله الغوائل.

==========

(٣٦٣)

قوله تعالى:

إنما مثل الحيوة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى إذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتيها أمرنـا لـيلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس كذلك نفصل الايات لقوم يتفكرون (٢٤) آية.

المثل قول سائر يشبه به حال الثاني بالاول. وقيل " مثل الحياة الدنيا " صفة الحياة الدنيا. وقيل في المشبه والمشبه به في الاية ثلاثة اقوال:

احدها – قال الجبائي: إنه تعالى شبه الحياة الدنيا بالنبات على مـا وصـفه الله تعـالى فـي الاغترار به والمصير إلى الزوال كالنبات الذي يصير إلى مثل ذلك.

الثاني – انه شبه الحياة الدنيا بالماء فيما يكون به من الانتفاع ثم الانقطاع.

الثالث – انه شبه الحياة الدنيا بحياة مقدرة على هذه الاوصاف، لما يقتضيه " وظن أهلها أنهم قادرون عليها " أي علموا الانتفاع بها.

وقوله " فاختلط به نبات الارض " فالاختلاط تداخل الاشياء بعضها في بعض فربما كان على صفة مدح، وربما كان على صفة ذم. وقوله " حتى اذا أخذت الارض زخرفهـا " فـالزخرف حسن الالوان كالزهر الذي يروق البصر، ومنه قيل زخرفت الجنة لاهلها وقوله " وظن أهلها انهم قادرون عليها " معناه ظنوا أنهم قادرون على استصحاب تلك الحال منها – جعلها علـى غير شئ منها، لان القادر عليهم وعليها أهلكها. وقوله " وازينت " أصله تزينت فأدغمت التاء في الزاي واجلبت الهمزة لامكان النطق بها. وقرأ الاعرج وغيره " وازينت " على وزن

==========

(٣٦٤)

(افعلت) والاول أجود لان عليه القراء. وقوله " كأن لم تغن بالامس " معناه كأن لم تقم على تلك الصفة فيما قبل، يقال: غني بالمكان إذا أقام به والمغاني المنازل، قال النابغة:

غنيت بذلك إذهم لك جيرة * منها بعطف رسالة وتودد

وقوله " كذلك نفصل الايات لقوم يتفكرون " معناه مثل ذلك نميز الايات ونبينها لقوم يفكرون فيها ويعتبزون بها، لان من لايفكر فيها ولا يعتبر بها كأنها لم تفصل له، فلذلك خصصهم بالذكر.

قوله تعالى:

والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم (٢٥) آية.

أخبر الله تعالى بأنه الذي يدعو عباده إلى دار السلام. والدعاء طلب الفعل بما يقع لاجله، والداعي إلى الفعل خلاف الصارف عنه. وقد يدعو اليه باستحقاق المدح عليه. والفرق بين الدعاء والامر أن في الامر ترغيبا في الفعل، وزجرا عن تركه، وله صيغة تنبئ عنه، وليس كذلك الدعاء، وكلاهما طلب. وايضا الامر يقتضي أن يكون المأمور دون الامر في الرتبة. والدعاء يقتضي أن يكون فوقه.

وفي معنى دار السلام قولان: احدهما – قال الحسن: السلام هو الله. وداره الجنة. وبه قال قتادة. الثاني – قال الجبائي والزجاج: معناه دار السلامة.

وقوله " ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم " قيل في الهداية ههنا ثلاثة اقوال:

احدها – يفعل الالطاف التي تدعوهم إلى طريق الحق لمن كان المعلوم أن له لطفا.

الثاني – الاخذ بهم في الاخرة إلى طريق الجنة. الثالث – قال ابوعلي: يريد به نصب الادلة لجميع المكلفين دون الاطفال والمجانين. والاستقامة المرور في جهة

==========

(٣٦٥)

تؤدي إلى البغية، فالادلة طرق إلى العلم على الاستقامة لانها تؤدي اليه.

قوله تعالى:

للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون (٢٦) آية.

أخبر الله تعالى بأن للذين يفعلون الحسن من الطاعات التي أمرهم الله بها جزاء على ذلك " الحسنى " وهي الجنة ولذاتها. وقيل: جامعة المحاسن من السرور واللذات على أفضل ما يكون

وهي تأنيث الاحسن. وقوله " وزيادة " معناه إن لهم زيادة التفضل على قدر المستحق على طاعاتهم من الثواب، وهي المضاعفة المذكورة في قوله " فله عشر أمثالها " (١) ذهب اليه ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وعلقمة ابن قيس. وقال ابوجعفر (عليه السلام) " وزيادة " معناه ما أعطاهم الله في الدنيا لايحاسبهم به في الاخرة. وقوله " ولا يرهق وجوههم قترولا ذلة " فالرهق لحاق الامر، ومنه راهق الغلام إذا لحق حال الرجال، ورهقه في الحرب إذا أدركه. و (الرهاق)

الاعجال. و (القتر) الغبار. والقترة الغبرة. ومنه الاقتار في النفقة لقلته، قال الشاعر:

متوج برداء الملك يتبعه * موج ترى فوقه الرايات والقترا (٢)

والذلة صغر النفس بالاهانه. والذلة نقيض العزة. وقد يكون صغر النفس بضيق المقدرة. وقوله " أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون " اخبار منه تعالى بأن الذين وصفهم الملازمون للجنة على وجه الخلود والنعيم فيها ولا زوال لذلك عنهم.

---

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٦٠ (٢) قائله الفرزدق ديوانه ٢٩٠ وتفسير الطبري ١١ / ٦٩ وتفسير القرطبي ٨ / ٣١١ واللسان " قتر ". ورواية الديوان " معتصب " بدل " متوج "

(*)

==========

قوله تعالى:

والذين كسبوا السيآت جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة مالهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٢٧) آية.

لما وصف الله تعالى المطيعين، ومالهم من الثواب الجزيل في الجنة والخلود فيها، ذكر حكم العصاة الذين يرتكبون السيئات ويكسبونها وأن لهم جزاء كل سيئة مثلها يعني قدر ما يستحق عليها من غير زيادة، لان الزيادة على قدر المستحق من العقاب ظلم، وليس كذلك الزيادة على قدر المستحق من الثواب، لان ذلك تفضل يحسن فعله ابتداء. فالمثل – في الاية – المراد به مقدار المستحق من غير زيادة ولانقصان. والكسب فعل يجتلب به نفع او يدفع به ضرر، وقد يكتسب الانسان الحسنة والسيئة، ولهذا لايوصف الله تعالى بالكسب. وقوله " وترهقهم ذلة " اي يلحقهم هو ان في أنفسهم. " وما لهم من الله من عاصم " أي مالهم مانع من عقاب الله. وفي رفع (جزاء) في الاية وجهان: احدهما – ان تقديره فلهم جزاء سيئة بمثلها ليشاكل " للذين أحسنوا ". والاخرة – ان يكون الخبر بمثلها والباء زيادة كزيادتها في قولك ليس زيد بقائم.

وقوله " كأنما اغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما " شبه سواد وجوههم بقطع من الليل المظلم وانما ذكر ووحد مظلم لاحد أمرين: احدهما – ان يكون حالا من الليل. والثاني – على قول الشاعر:

لو أن مدحة تنشرن أحدا * أحيا أبا كن ياليلى الاماديح

و (القطع) قرأه بتسكين الطاء ابن كثير والكسائي. الباقون بالتحريك،

==========

وهما لغتان. وقوله " أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون " اخبار منه تعالى بأن من وصفهم ملازمون للنار خالدون فيها غير زائل عنهم عذابها. قال ابوعبيدة " قطعا من الليل " وهو بعض الليل تقول اتيته لقطع من الليل اي ساعة من الليل، وقطع واقطاع. وقال ابوعلي: القطع الجزء من الليل الذي فيه ظلمة. فأما قوله " مظلما " اذا اجريته على (قطع) فيحتمل نصبه وجهين: احدهما – ان يكون صفة من القطع وهو احسن، لانه على قياس قوله " وهذا كتاب أنزلناه مبارك " (١) وصف الكتاب بالمفرد بعد ما وصفه بالجملة واجراه على النكرة. والثاني – يجوز أن يكون حالا من الذكر الذي في الظرف. ومن قرأ " قطعا " لم يكن مظلما صفة ل (قطع) ولا حالا من الذكر الذي في قوله " من الليل " ولكن يكون حالا من الليل المظلم فلما حذف الالف واللام نصب على ا لحال.

قوله تعالى:

ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون (٢٨) آية اخبر تعالى في هذه الاية أنه يوم يحشر الخلائق أجمعين. والحشر هو الجمع من كل أوب إلى الموقف، وإنما يقومون من قبورهم إلى ارض الموقف " ثم نقول للذين أشركوا " يعني من اشرك مع الله في عبادته غيره، والمشرك بالاطلاق لايقال إلا فيمن في العبادة، لانها صفة ذم مثل كافر وظالم وقوله " مكانكم " معناه انتظروا مكانكم. " جمعيا " نصب على الحال و (مكانكم) نصب على الامر كأنه قال انتظروا مكانكم حتى نفصل بينكم. ويقول المتوعد لغيره: مكانك

---

(١) سورة ٦ الانعام آية ٩٢، ١٥٥

(*)

==========

فانتظر، يستعمل ذلك في الوعيد. وقوله " انتم وشركاؤكم " يعني انتظروا انتم مع شركائكم الذين عبدتموهم من دون الله. وقوله " فزيلنا بينهم " مأخوذ من قولهم زلت الشئ عن مكانه ازيله – وزيلنا للكثرة من هذا – اذا نحيته عن مكانه وزايلت فلانا إذا فارقته. وقال القتيبي: وهو مأخوذ من زال يزول، وهو غلط وخلاف لقول جميع المفسرين وأهل اللغة. والتزييل التفريق. والمعنى فرقنا بين المشركين بالله وما أشركوا به.

وقوله " وقال شركاؤهم ما كنتم ايانا تعبدون " قيل في معناه قولان:

احدهما – قال مجاهد: انه ينطق الاوثان يوم القيامة فيقولوا: ما كنا نشعر بأنكم إيانا تعبدون.

والثاني – ان ذلك قول من كانوا يعبدونهم من الشياطين.

وفي كيفية جحدهم لذلك قولان: احدهما – انهم يقولون ذلك على وجه الاهانة بالرد عليهم. والمعنى ما اعتذرنا بذلك لكم. والاخر – انه في حال دهش ككذب الصبي. وقال الجبائي: يريد انكم لم تعبدونا بأمرنا ودعائنا ولم يرد انهم لم يعبدوها أصلا، لان ذلك كذب وهو لا يقع في الاخرة لكونهم ملجئين إلى ترك القبيح. وهذه الاية نظيرة قوله " اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا " (١)

وكان مجاهد يقول: الحشر ههنا هو الموت. والاول اولى.

قوله تعالى:

فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين (٢٩) آية.

هذا اخبار من الله تعالى عن شركاء المشركين من الالهة والاوثان يوم القيامة حين قال المشركون إنا إنما إياكم كنا نعبد، وأنهم يجحدون ذلك ويقولون:

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٦٦

(*)

==========

حسبنا الله شاهدا بيننا وبينكم أيها المشركون بأنه تعالى عالم أنا ما علمنا ما تقولون، وأنا كنا عن عبادتكم إيانا غافلين، لانشعر به ولانعلمه. وإنما قال " شهيدا بيننا " ولم يقل علينا، لانه إذا قال بيننا فمعناه لنا وعلينا، فهو أعم وأحسن. ونصب (شهيدا) على التمييز، وتقديره وكفى بالله من الشهداء. وقال الزجاج: نصب على الحال وتقديره كفى بالله في حال الشهادة. وقوله " إن كنا " فهذه (إن) المخففة عن الثقيلة بدلالة دخول اللام في الخبر للفرق بين (إن) الجحد و (إن) المؤكدة. وقال الزجاج: هي بمعنى (ما) ومعناه ما كنا عن عبادتكم إلا غافلين.

قوله تعالى:

هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله موليهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون (٣٠) آية.

قرأ اهل الكوفة الا عاصما (تتلوا) بالتاء من التلاوة. الباقون بالياء. من قرأ بالباء فمعناه تختبر من قوله " وبلوناهم بالحسنات والسيئات " (١) اي اختبرناهم، ومنه قولهم البلاء ثم الثناء أي الاختبار للثناء عليه ينبغي أن يكون قبل الثناء ليكون عن علم بما يوجبه. ومعنى اختبار النفس ما اسلفت إن قدم خيرا أو شرا جزي عليه.

كما قال " فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره " (٢)

وغير ذلك. ومن قرأ بالتاء فمن التلاوة. ويقوي ذلك قوله " فأولئك يقرؤن كتابهم " (٣) وقوله " اقرأ كتابك " (٤) وقوله " ورسلنا لديهم يكتبون " (٥)

ويكون (تتلو) بمعنى تتبع ويكون المعنى هنالك تتبع كل نفس ما أسلفت من

---

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٦٧ (٢) سورة ٩٩ الزلزال آية ٧ – ٨ (٣) سورة ١٧ الاسرى آية ٧١ (٤) سورة ١٧ الاسرى آية ١٤ (٥) سورة ٤٣ الزخرف آية ٨٠

(*)

==========

حسنة وسيئة، فمن أحسن جوزي بالحسنات ومن أساء جوزي به، فعلى هذا يكون المعنى مثل قراءة من قرأ بالباء. وقال ابن زيد: معنى " تتلو " تعاين. وقال الفراء: معناه تقرأ، وقال غيره تتبع. وقال ابن عباس معنى (تتلو) تخبر قال الشاعر:

قد جعلت دلوي تستتليني * ولا أحب تبع القرين

اي تتبعني من ثقلها، ومعنى " هنالك " في ذلك المكان، وهو ظرف ف (هنا) للقريب و (هنالك) للبعيدو (هناك) لما بينهما قال زهير:

هنالك إن يستخبلوا المال يخبلوا * وإن يسألوا يعطوا وإن ييسيروا يغلوا (١)

والاسلاف تقديم امر لما بعده، فمن أسلف الطاعة لله جزي بالثواب. ومن أسلف المعصية جزي بالعقاب. وقوله " وردوا إلى الله " فالرد هو الذهاب إلى الشئ بعد الذهاب عنه، فهؤلاء ذهبوا عن أمر الله فأعيدوا اليه. والرد والرجع نظائر، ويجوز أن يكون الرد بمعنى النشأة الثانية، وهو الاليق ههنا. وقوله " مولاهم الحق " فالمولى المالك للعبيد، ومعناه مالكهم لانه يملك أمرهم، وهو أملك بهم من أنفسهم. وقوله " وضل عنهم ما كانوا يفترون " يعني ما كانوا يدعونهم – بافترائهم من الشركاء – مع الله يضلون عنهم يوم القيامة ويبطلون.

قوله تعالى:

قل من يرزقكم من السماء والارض أمن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون (٣١) آية أمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يقول لهؤلاء الكفار وغيرهم من خلقه " من يرزقكم " من السماء " بانزال المطر والغيث، ومن الارض باخراج النبات وانواع الثمار.

---

(١) ديوانه ١١٢ واللسان (خبل) وفيه اختلاف في الرواية.

(*)

==========

والرزق العطاء الجاري يقال: رزق السلطان الجند، الا ان كل رزق، فالله رازق به، لانه لو لم يطلقه على يد الانسان لم يجئ منه شئ. والواحد منا يرزق غيره إلا أنه لايطلق اسم رازق إلا على الله، كما لايقال: (رب) بالاطلاق إلا في الله وفي غيره يقيد.، فيقال رب الدار ورب الفرس. ويطلق فيه، لانه يملك الجميع غير مملك، وكذلك هو تعالى رازق الجميع غير مرزوق، ولا يجوز أن يخلق الله حيوانا يريد تبقيته إلا ويرزقه، لانه إذا أراد بقاءه فلا بدله من الغذاء، فان لم يرد تبقيته كالذي يولد ميتا فانه لا رزق له في الدنيا. وقوله " أم من يملك السمع والابصار " يعني من الذي له التصرف فيها بلا مانع يمنعه منها وان شاء اصحها وان شاء امرضها. و " من يخرج الحي من الميت " معناه من الذي يخلق الحيوان ويخرجه من امه حيا سويا اذا ماتت أمه " ويخرج الميت من الحي " يعني من يخرجه غير تام ولا بالغ حد الكمال. وقيل: معناه انه يخرج الحي من النطفة، وهي ميتة ويخرج النطفة من الحي. وقيل: يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن.

و " من يدبر الامر " اي ومن الذي يدبر جميع الامور في السما والارض؟ وليس جواب ذلك لمن انصف ولم يكابر الا ان يقول: الله الفاعل لجميع ذلك.

واذا قالوا ذلك واعترفوا به قيل لهم " أفلا تتقون " ومعناه فهلا تتقون خلافه وتحذرون معاصيه؟ وفي الاية دلالة على التوحيد، لان ما ذكره في الاية يوجب أن المدبر واحد ولا يجوز أن يقع ذلك إتفاقا، لاحالة العقل ذلك، ولايجوز أن يقع بالطبيعة، لانها في حكم الموات لو كانت معقولة، فلم يبق بعد ذلك إلا ان الفاعل لذلك قادر عالم يدبره على ما يشاء، وهو الله تعالى، مع ان الطبيعة مدبرة – مفعولة – فكيف تكون هي المدبرة. وإنما دخلت (أم) على (من) لان (من)

ليست أصل الاستفهام بل أصله الالف، فلذلك جاز الجمع بينهما.

==========

(٣٧٢)

قوله تعالى:

فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فانى تصرفون (٣٢) آية.

" ذلك " إشارة إلى اسم الله الذي ذكره في الاية الاولى، ووصفه بأنه الذي يخرج الحي من الميت من الحي ويرزق الخلق من السماء والارض. و (الكاف والميم) للمخاطبين، وإنما جمع لانه أراد جميع الخلق، فأخبر الله تعالى ان الذي وصفه في الاية الاولى هو " الله ربكم " الذي خلقكم ويملك تصرفكم. وإنما وصفه بأنه " الحق " لانه له معنى الالهية دون غيره من الاوثان والاصنام، وهو الرب تعالى وحده.

وقوله " فماذا بعد الحق إلا الضلال " صورته صورة الاستفهام والمراد به التقرير على موضع الحجة، لانه لايجد المجيب محيدا عن الاقرار به إلا بذكر ما لا يلتفت اليه، وكلما تدعو اليه الحكمة على اختلافه فهو حق، والمراد انه ليس بعد الاقرار بالحق والانقياد له إلا الضلال والعدول عنه. وقوله " فأنى تصرفون " أي كيف تصرفون وتعدلون عبادته مع وضوح الدلالة على أنه لا معبود سواه والصرف هو الذهاب عن الشئ، فالصرف عن الحق ذهاب إلى الباطل، وقد أنكر الله ذلك. وفيه دلالة على أنه من فعل غيره من الغواة لانه لو كان من فعله لما انكره كما لم ينكر شيئا من أفعال نفسه.

قوله تعالى:

كذلك حقت كلمت ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون (٣٣) آية

==========

(٣٧٣)

قرأ أهل المدينة وابن عامر (كلمات) ههنا وفي آخرها، وفي المؤمن على الجمع. الباقون على التوحيد. قال ابوعلي: من قرأ على التوحيد احتمل في ذلك وجهين:

أحدهما – ان يكون جعل ما أوعد به الفاسقين كلمة وإن كانت في الحقيقة كلمات، لانهم قد يسمون القصيدة والخطبة كلمة، فكذلك ما ذكرناه.

والثاني – ان يريد بذلك الجنس وقد اوقع على بعض الجنس كما أوقع اسم الجنس على بعضه في قوله " وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل " (١) ومن جمع فانه جعل الكلمات التي يوعدون بها كل واحدة منها كلمة ثم جمع، فقال: كلمات.

وأما قوله " كلة الله هي العليا " (٢) فيجوز ان يكون عنى بها قوله " كتب الله لاغلبن انا ورسلي " (٣) كما فسر قوله " وألزمهم كلة التقوى " (٤) انه لا إلهة الا الله، ذكره مجاهد. والكاف في قوله كذلك في موضع نصب والتقدير مثل أفعالهم جازاهم ربك. وقيل في المشبه به " كذلك حقت كلمة ربك " قولان:

احدهما – المعنى في انه ليس بعد الحق الا الضلال فشبه به كلمة الحق بأنهم لا يؤمنون في الصحة.

الثاني – ما تقدم من العصيان شبه به الجزاء بكلمة العذاب في الوقوع على المقدار. وانما اطلق في الذين فسقوا أنهم لايؤمنون، لانه أريد به الذين تمردوا في كفرهم. و (انهم) في موضع نصب على قول الفراء والتقدير بأنهم أولانهم لايؤمنون فقوله " انهم لايؤمنون " بدل من كلمة ربك. فأعلم الله أنهم باعمالهم قد منعوا من الايمان، وجائز ان تكون الكلمة ماوعدوا به من العقاب. والفسق في الشرع هو الخروج في المعصية إلى الكبيرة فان كانت كفرا فالخروج إلى أكبره وكذلك ان كانت منع حق. وفائدة الاية الابانة عن الحال التي لايفلح صاحبها ليحذر من

---

(١) سورة ٢٧ الصافات آية ١٣٧ (٢) سورة ٩ التوبة آية ٤١ (٣) سورة ٥٨ المجادلة آية ٢١ (٤) سورة ٤٨ الفتح آية ٢٦

(*)

مثلها، لانه قد يكون في المعلوم أنه من بلغ ذلك الحد لم يفلح، قال: وأصل المعنى حقت كلمة ربك ان الفساق والكفار ما داموا كفارا فساقا فلا يكونون مؤمنين.

وقال الجبائي: معناه وجدانكم إياهم على الكفر والاصرار عليه دليل على ان ما أخبر الله تعالى عنهم بأنهم لايؤمنون حق وصدق.

قوله تعالى:

قل هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون (٣٤) آية.

أمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يقول لهؤلاء الكفار الذين اتخذوا مع الله آلهة يعبدونها " هل من شركائكم من يبدؤ الخلق " بأن ينشئهم ويخترعهم. ثم اذا أماتهم يعيدهم ويحييهم، لينبئهم بذلك على انه لايقدر على ذلك الا الله القادر لنفسه الذي لا يعجزه شئ. وقيل في معنى (شركائكم) قولان: احدهما – انهم الذين جعلوهم شركاء في العبادة. الثاني – الذين جعلوهم شركاء في اموالهم من اوثانهم، كما قال " فقالوا هذالله بزعمهم وهذا لشر كائنا " (١) والاعاذه ايجاد الشئ ثانيا، وقال لنبيه قل لهم: الله تعالى القادر لنفسه هو الذي يبدؤ الخلق فينشئهم ثم يميتهم ثم يعيدهم لايعجزه شئ عن ذلك. وقوله " فانى تؤفكون " معناه انى تصرفون عن الحق وتقلبون عنه، ومنه الافك، والكذب، لانه قلب المعنى عن جهته.

قوله تعالى:

قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لايهدي إلا

---

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٣٦

(*)

أن يهدى فما لكم كيف تحكمون (٣٥) آية قرأ أهل الكوفة الا عاصما " يهدي " بفتح الياء وسكون الهاء وتخفيف الدال.

وقرأه أهل المدينة إلا ورشا بفتح الياء، وسكون الهاء، وتشديد الدال. وقرأه ابن كثير وابن عامر وابوعمرو وورش بفتح الياء والهاء وتشديد الدال، الا أن السوسي من طريق ابن جيش لايشبع فتحة الهاء، وكذلك روى الحماني عن شجاع وقرأه يعقوب وحفص والاعشى والبرجمي بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال ورواه ابوبكر الا الاعشى والبرجمي بكسر

الياء والهاء وتشديد الدال. قال ابو علي: من قرأ " يهدي " بفتح الياء والهاء وتشديد الدال فقد نسبهم إلى غاية الذهاب عن الحق في معادلتهم الالهة بالله تعالى، ألا ترى ان المعنى أفمن يهدي غيره إلى طريق التوحيد والحق أحق ان يتبع أم من لايهتدي هو إلا أن يهدى، والتقدير أفمن يهدي غيره فحذف المفعول الثاني: فان قيل: هذه التي اتخذوها آلهة لاتهتدي وإن هديت لانها موات من حجارة وأوثان ونحو ذلك !؟ قيل: تقدير الكلام على أنها إن هديت اهتدت وإن لم تكن في الحقيقة كذلك لانهم لما اتخذوها آلهة عبر عنها كما يعبر عن الذي يجب له العبادة، كما قال " ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السماوات والارض شيئا ولا يستطيعون (١) وقال " ان تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم " (٢) فاجرى عليه اللفظ كما يجري على من يعلم، كأنه قال أم من لايهدي الا ان يهدى أي أم من لا يعلم حتى يعلم، ومن لا يستدل على شئ حتى يدل، وإن كان لو دل أو أعلم لم يعلم ولم يستدل. واراد الله بذلك تعجيبهم من أنفسهم وتبيين جهلهم وقلة تمييزهم في تسويتهم من لا يعلم ولايقدر بالله القادر العالم. وقرأ حمزة والكسائي " أم من لا يهدي " معناه أم من لايهدي غيره، ولكن يهدى أي لايعلم شيئا ولايعرفه، ولكن

---

(١) سورة ١٦ النحل آية ٧٣ (٢) سورة ٣٥ فاطر آية ١٤

(*)

يهدى أي لا هداية له، ولو هدي أيضا لم يهتد، غير أن اللفظ جرى عليه كما قلناه فيما تقدم. ومن شدد، فلان أصله يهتدي فأدغم التاء في الدال. ومن حرك الهاء القى حركة الحرف المدغم على الهاء لانها من كلمة واحدة. ومن كسر الهاء لم يلق الحركة تشبيها بالمنفصل، وكسر الهاء لالتقاء الساكنين. ومن سكن الهاء جمع بين الساكنين. من أشم فلان الاشمام في حكم التحريك. ومن كسر الياء اتبع الياء ما بعدها من الكسر لان أصله يفتعل. وقال قوم: معنى " أم من لايهدي إلا أن يهدى " لا يتحرك حتى يحرك.

أمر الله تعالى نبيه أن يقول أيضا لهؤلاء الكفار الذين اتخذوا مع الله شركاء في العبادة " هل من شركائكم " الذين تعبدونهم من دون الله أو تشركون بينهما في العبادة من يهدي غيره إلى الحق والى طريق الرشاد، ثم قال: قل يا محمد " الله يهدي للحق " وأفعال الخير، ثم قال " أفمن يهدي غيره إلى الحق " والى الصراط المستقيم أولى " أن يتبع " ويقبل قوله، " أم من لايهدي إلا أن يهدى " أي إلا بعد أن يهدى وحكي عن البلخي أنه قال: هدى واهتدى بمعنى واحد.

وقوله " فمالكم كيف تحكمون " أي بما تدعونه من عبادة – من دون الله – فالهداية المعرفة بطريق الرشاد من الغي، فكل هداية قائدة إلى سلوك طريق النجاة بدلا من طريق الهلاك. وقال الزجاج " ما لكم " كلام تام، كأنه قال أي شئ لكم في عبادة الاوثان ثم قال لهم " كيف تحكمون؟ ! " على أي حال، فموضع (كيف) نصب ب (تحكمون) ويقال هديته للحق والى الحق بمعنى واحد.

قوله تعالى:

وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لايغني من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون (٣٦) آية.

أخبر الله تعالى أنه ليس يتبع أكثر هؤلاء الكفار إلا الظن الذي لايجزي شيئا، من تقليد آبائهم رؤسائهم. ثم قال تعالى " إن الظن لايغني من الحق شيئا " لان الحق إنما ينتفع به من عرفه وعلمه حقا، لان الظن حقيقة ما قوي كون المظنون عند الظان على ما ظنه مع تجويز أن يكون على غيره، فاذا كان معه تجويز كون المظنون على خلاف ما ظنه، فلا يكون مثل العلم. وقد يكون للظن حكم إذا قام على ذلك دليل إما عقلي أو شرعي، ويكون صادرا عن إمارات معروفة بالعادة والخبر أورده إلى نظيره عند من قال بالقياس، وكل ذلك إذا اقترن به دليل يوجب العمل به، وكل موضع يمكن أن يقوم عليه دليل ويعلم صحته من فساده فلا يجوز أن يعمل فيه على الظن، لان بمنزلة من ترك العلم وعمل على ظن غيره. وقوله " ان الظن لا يغني من الحق شيئا " معناه انه لايقوم العلم مع وجوده أو امكان وجوده، وانما يعبد الله في الشرع في مواضع بالرجوع إلى الظن مع أنه كان يمكنه أن ينصب عليه دليلا يوجب العلم لما في ذلك من المصلحة. وقوله " إن الله عليم بما يفعلون " فيه ضرب من التهديد، لانه أخبر أنه تعالى يعلم ما يفعلونه ولايخفى عليه منه شئ فيجازيهم على جميعه: على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب.

قوله تعالى:

وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين (٣٧) آية.

نفى الله تعالى في هذه الاية أن يكون هذا القرآن الذي أنزله على نبيه محمد (صلى الله عليه وآله) مفترى من دون الله والافتراء الاخبار على القطع بالكذب، وهو مأخوذ من فري الاديم، وهو قطعه بعد تقديره. والقرآن عبارة عن هذا الكلام

الذي هو في أعلى طبقات البلاغة مع حسن النظم والجزالة، وكل شئ منه فيه فائدة وكل فصل منه فيه فائدة أخرى. وقوله " ولكن تصديق الذي بين يديه " شهادة من الله له بأنه صدق وبأنه شاهد لما تقدم من التوراة والانجيل والزبور بأنها حق، وشاهد ايضا من حيث انه مصدق لها اذ جاء على ما تقدمت البشارة به فيها. وقبل مصدق لما بين يديه من البعث والنشور والجزاء والحساب. وقوله " وتفصيل الكتاب " أي تبيين الفصل من المعاني الملتبسة حتى يظهر كل معنى على حقيقته. والتفصيل والتمييز والتقسيم نظائر، وضده التلبيس والتخليط. وقوله " لاريب فيه " أي لا شك فيه " من رب العالمين " اي نازل من عند مالك العالمين.

وقيل: إن معنى " تفصيل الكتاب " أي تفصيل الفروض الشرعية. والكتاب - ههنا - المفروض. وقال الفراء: معنى " وما كان هذا القرآن ان يفترى " اي لاينبغي ان يكون افتراء، كما قال تعالى: " وما كان لنبي أن يغل " (١) أي لا ينبغي له. وقال غيره: تقديره وما كان هذا القرآن مفترى.

قوله تعالى:

أم يقولون افتريه فأتوا بسورة مثله وادعوا من أستطعتم من دون الله إن كنتم صادقين (٣٨)

آية معنى " أم " ههنا تقرير على موضع الحجة بعد مضي حجة أخرى، وتقديره بل أتقولون افتراه، فالزموا على هذا الاصل الفاسد امكان أن يأتوا بمثله.

وقوله " فاتوا بسورة مثله " صورته صورة الامر، والمراد به التحدي باتيان سورة، وهو الزام لهم على أصلهم اذ أصلهم فاسد يوجب عليهم أن يأتوا بسورة مثله، فالتحدي يطلب ما يوجبه أصلهم عليهم. وقوله " فأتوا بسورة مثله " معناه

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٦١

(*)

سورة منه. وقيل في معناه قولان: أحدهما - أن فيه حذفا وتقديره فاتوا بسورة مثل سورته ذكره بعض البصريين. والاخر - ائتوا بسورة مثله في البلاغة، وهو أحسن الوجهين. والسورة منزلة محيطة بآيات الله كاحاطة سور البناء من أجل الفاتحة والخاتمة، وكل منزلة من سورة البناء محيطة بما فيها. وقوله " وادعوا من استطعتم من دون الله " معناه ادعوهم إلى الموازنة على المعارضة بسورة مثله أي استعينوا بكل من قدرتم عليه. والاستطاعة حالة للحي تنطاع بها الجوارح للفعل وهي مأخوذ من الطوع. والقدرة مأخوذة من القدر، فهي معنى يمكن أن يوجد به الفعل وان لا يوجد لتقصير قدره عن ذلك المعنى. وقوله " ان كنتم صادقين

" معناه ان كنتم صادقين في أن هذا القرآن مفترى من دون الله فأنتم تقدرون على معارضته، فحيث لاتقدرون على ذلك علم أن الامر بخلاف ما تذكرونه لقدرتم على معارضته لمشاركتكم إياه في النشوء والفصاحة.

قوله تعالى:

بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين (٣٩) آية أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار الذين حكى عنهم أنهم قالوا إن محمد (صلى الله عليه وآله) افترى هذا القرآن ولم ينزله الله عليه بأنهم " كذبوا " بما لم يحيطوا بعلمه " ومعناه بما لم يعلموه من كل وجوهه، لان في القرآن ما يعلم المراد منه بدليل، ويحتاج إلى الفكر فيه والرجوع إلى الرسول في معرفة مراده وذلك مثل المتشابه، فالكفار لما لم يعرفوا المراد بظاهره كذبوا به، وقالوا انه افترى على الله كذبا، ومعنى

كذبوا انهم شهدوا بان الدعاة إلى الله والدعاة إلى الحق من المؤمنين كاذبون جهلا منهم وتوهما لاحقيقة لهم ولاحجة معهم به. وقوله " ولما يأتهم تأويله " معناه ما يؤول أمره اليه وهو عاقبته. ومعناه متأوله من الثواب والعقاب. ثم حكى الله أنه مثل ذلك كذب الذين من قبلهم أنبياء الله ورسله فأهلكهم الله ودمرهم ثم قال لنبيه " فانظر كيف كان عاقبة الظالمين " يعني ما أدى إلى إهلاكهم بعذاب الاستئصال على ما تقدم من ظلمهم لانفسهم وغيرهم في كذبهم. وقيل في موضع " كيف كان " نصب بأنه خبر كان. ولايكون معمول (انظر) لان ما قبل الاستفهام لايعمل في الاستفهام.

قوله تعالى ومنهم من يؤمن به ومنهم من لايؤمن به وربك أعلم بالمفسدين (٤٠) آية أخبر الله تعالى ان من جملة هؤلاء الكفار الذين كذبوا بالقرآن ونسبوه إلى الافتراء من سيؤمن به أي بالقرآن في المستقبل، ومنهم من لايؤمن بل يموت على كفره. وقوله " وربك أعلم بالمفسدين " معناه من يدوم على الفساد ممن يتوب، وإنما بقاهم الله لما في معلومه انه يتوب منهم. وإنما جاز ان يقول " أعلم " وان لم يكن هناك كثرة علوم لاحد أمرين: احدهما – ان الذات تغني عن كل علم. والثاني – انه يراد كثرة المعلوم.

قوله تعالى:

وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريؤن مما أعمل وأنا برئ مما تعملون (٤١) آية.

خاطب الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) فقال " وان كذبوك " هؤلاء الكفار ولم يصدقوك

وردوا عليك بذلك ونسبوك إلى الكذب " فقل لي عملي " أي إن كنت كاذبا فوباله علي " ولكم عملكم " أي ان كنتم غير محقين فيما تردونه علي وتكذبوني، فلكم جزاء عملكم، فانتم تبرؤن مما أعمل وأنا ابرأ من أعمالكم. وفائدة ذلك الاخبار بأنه لايجازى احد الا على عمله، ولا يؤخذ أحد بجرم غيره كما قال تعالى " ولا تزر وازرة وزر اخرى " (١) والبراءة قطع العلقة التي توجب رفع المطالبة وذلك كالبراءة من الدين، والبراءة من العيب في البيع، ولم يقل النبي (صلى الله عليه وآله) هذا القول شكا منه فيما يجازي الله الكفار والمؤمنين به من الثواب والعقاب. وانما قال على وجه التلطف لخصمه وحسن العشرة، وأن لايستقبلهم بما يكرهونه من الخطاب فربما كان داعيا لهم ذلك إلى الانقياد والنظر في قوله. وقال ابن زيد: هذه الاية منسوخة بآية الجهاد، وعلى ما قلناه لايحتاج إلى ذلك.

قوله تعالى:

ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لايعقلون (٤٢) آية.

اخبر الله تعالى ان من جملة هؤلاء الكفار " من يستمع اليك " يا محمد.

والاستماع طلب السمع، فهم كانوا يطلبون السمع للرد لاللفهم، فلذلك لزمهم الذم، فهم اذا سمعوه على هذا الوجه كأنهم صم لم يسمعوه حيث لم ينتفعوا به.

وقوله " أفأنت تسمع الصم " خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) بأنه لايقدر على اسماع الصم الذين لايسمعون، وبهم صمم، وهم الذين ولدوا صما، والاصم المفسد السمع بما يمنع من ادراك الصوت، وقد صم يصم صمما، والسمع إدراك الشئ بما به يكون مسموعا.

---

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٦٤ وسورة ١٧ الاسرى آية ١٥ وسورة ٣٥ فاطر آية ١٨ وسورة ٣٩ الزمر آية ٧ (*)

وتسمى الاذن السليمة سمعا، لانه يسمع بها. وقوله " ولو كانوا لا يعقلون " تشبيه من الله تعالى لهؤلاء الكفار في ترك إصغائهم إلى النبي (صلى الله عليه وآله) واستماع كلامه طلبا للفائدة بالذين لايسمعون أصلا، وان النبي (صلى الله عليه وآله) ولايقدر على اسماعهم على وجه ينتفعون به اذا لم يستمعوا بنفوسهم، للفكر فيه، كما لايقدر على اسماع الصم.

وقوله " من " يقع على الجمع كما يقع على الواحد، فلذلك أخبر عنه بلفظ الجمع بقوله " يستمعون اليك " و (لو) في اكثر الامر يكون ما بعدها أقل مما قبلها تقول: أعطني دابة ولو حمارا، وقد يجئ ما بعدها اكثر مما قبلها، كما يقول الرجل:: انا أقاتل الاسد فيستعظم ذلك

منه، فيقال: أنت تقاتل الاسد ولو كان ضاريا، وعلى هذا مخرج الاية. قال الزجاج: والمعنى ولو كانوا جهالا كما قال الشاعر:

اصم عما ساءه سميع (١)

قوله تعالى:

ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لايبصرون (٤٣) آية.

اخبر الله تعالى بأن من جملة الكفار " من ينظر اليك " يا محمد (صلى الله عليه وآله)، فلم يخبر بلفظ الجمع لانه حمله على اللفظ، واللفظ لفظ الواحد. والنظر المذكور في الاية معناه تقليب الحدقة الصحيحة نحو المرئي طلبا لرؤيته. وقيل: معناه من ينظر إلى أدلتك. والنظر يكون بمعنى الاعتبار والفكر، وهو الموازنة بين الامور حتى يظهر الرجحان او المساواة، وذلك الجمع بين الشيئين في التقدير بما يظهر به شهادة أحدهما بالاخر، ثم قال " أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لايبصرون "

---

(١) مر في ٢ / ٨٠ و ٤ / ١٢٥

(*)

اي نظرهم اليك لاعلى وجه الاستفادة بمنزلة نظر الاعمى الذي لايبصر، فكما لايقدر ان يهدي الاعمى. وفكذلك هؤلاء لاينتفعون بنظرهم اليك، فكأنهم لايبصرون.

والعمى آفة تمنع من الرؤية، وهو على وجهين: عمى العين، وعمى القلب. وكلاهما يصلح له هذا الحد. والابصار إدراك المبصر بما يكون به مبصرا، كما أن السمع إدراك المسموع بما به يكون مسموعا.

قوله تعالى:

إن الله لايظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون (٤٤) آية اخبر الله تعالى في هذه الاية على وجه التمدح به بأنه لايظلم أحدا شيئا وانما الناس هم الذين يظلمون أنفسهم بارتكاب ما نهى الله عنه من القبائح فيستحقون بها عقابا، فكأنهم الذين أدخلوا عليها ضررا فلذلك كانوا ظالمين لنفوسهم. والمعنى - ههنا - ان الله لايمنع احدا الانتفاع بما كلفهم الانتفاع به من القرآن وأدلته، ولكنهم يظلمون انفسهم بترك النظر فيه والاستدلال به، وتفويتهم انفسهم الثواب وإدخالهم عليها العقاب. ففي الاية دلالة على انه لايفعل الظلم، لان فاعل الظلم ظالم، كما أن فاعل الكسب كاسب، وليس لهم أن يقولوا يفعل الظلم ولا يكون ظالما به، كما يفعل العلم ولا يكون به عالما. وذلك أن معنى قولنا: ظالم أنه فعل الظلم، كقولنا: ضارب، أنه يفيد انه فعل

الضرب. وكذلك يكون ظالما بما يفعله من الظلم في غيره، وليس كذلك العالم، لانه يفيد انه على صفة مخصوصة ولذلك قد يكون عالما بما يفعل فيه من العلم، ولايكون ظالما بما يفعل فيه من الظلم ولا يكون عالما بما يفعل في غيره من العلم وليس كذلك الظلم، فبان الفرق بينهما.

(٣٨٤)

وليس لاحد ان يقول: ان الانتفاء من الظلم كالانتفاء من السنة والنوم، في انه ليس بنفي الفعل، وذلك أن الظلم مقدور قبل العدل، وليس كذلك النوم واليقظة لانهما يستحيلان عليه. و (لكن) اذا كانت مشددة عملت عمل (إن) واذا خففت لم تعمل لان المخففة تدخل على المفرد كما يدخل حرف العطف، والثقيلة تدخل على الجملة فتزيل الابتداء.

قوله تعالى:

ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين (٤٥) آية.

قرأ حفص " يحشرهم " بالياء. الباقون بالنون. قال أبوعلي الفارسي: قوله " كأن لم يلبثوا " يحتمل ثلاثة أوجه: احدها – أن يكون صفة اليوم.

والاخر – أن يكون صفة للمقدر المحذوف. والثالث – أن يكون حالا من الضمير في " يحشرهم " فاذا جعلته صفة لليوم احتمل أن يكون التقدير " كأن لم يلبثوا " قبله " إلا ساعة " كما قال " فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف " (١)

أي امسكوهن قبله، وكذلك قوله " فان فاءوا فان الله " (٢) معناه فان فاء واقبل انقضاء الاربعة أشهر. ويحتمل أن يكون المعنى " كأن لم يلبثوا " قبله، فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه، ثم حذفت الهاء من الصفة. ومثله " وترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم " (٣) والتقدير وجزاؤه واقع بهم. وإن جعلته صفة للمصدر كان على هذا التقدير الذي وصفيناه، ومثله " كأن لم يلبثوا " قبله

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٣١ وسورة ٦٥ الطلاق آية ٢ (٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٢٦ (٣) سورة ٤٢ الشورى آية ٢٢

(*)

(٣٨٥)

فحذف وأقام المضاف اليه مقام المضاف، ثم حذف العائد من الصفة، كما يحذف من الصلة في نحو قوله " أهذا الذي بعث الله رسولا " (١) وإن جعلته حالا من الضمير المنصوب لم يحتج

إلى حذف شئ في اللفظ، لان الذكر من الحال قد عاد إلى ذي الحال. والمعنى يحشرهم مشابهة أحوالهم أحوال من لم يلبث الا ساعة.

ويحتمل أن يكون معمولا بما دل عليه قوله " كأن لم يلبثوا " فاذا جعلته معمولا ل (يتعارفون) انتصب (يوم) على وجهين: احدهما - أن يكون ظرفا والاخر - ان يكون مفعولا على السعة، على يا سارق الليلة أهل الدار.

ومعنى " يتعارفون " يحتمل امرين:

احدهما - ان يكون المعنى يتعارفون مدة إماتتهم التي وقع حشرهم بعدها وحذف المفعول للدلالة عليه، أو يكون أعمل الفعل الذي دل عليه " يتعارفون " ألا ترى انه قد دل على سيعلمون إذ يتعارفون، فعلى هذا يكون قوله " ويوم يحشرهم " معمول " يتعارفون ".

والاخر - أن يكون " يوم يحشرهم " معمول ما دل عليه قوله " كأن لم يلبثوا " لان المعنى تشابه أحوالهم أحوال من لم يلبث، فعمل في الظرف هذا المعنى ولا يمنع المعنى من أن يعمل في الظرف وان تقدم الظرف عليه كقولهم: أكل يوم لك ثوب؟ واذا جعلت " يتعارفون " العامل في " يحشرهم " لم يجز أن يكون صفة اليوم، على أنك كأنك وصفت اليوم بقوله كأن لم يلبثوا ويتعارفون، فوصفت يوم يحشرهم بجملتين لم يجز أن يكون معمولا لقوله " يتعارفون " لان الصفة لا تعمل في الموصوف، وجاز وصف اليوم بالجمل وان أضيف، لان الاضافة ليست محضة، فلم تعرفه. ومن قرأ بالنون فلقوله " وحشرناهم فلم نغادر " (٢) وقوله " فجمعناهم جمعا " (٣) وقوله " ونحشره يوم القيامة أعمى " (٤). ومن قرأ بالياء فلقوله

---

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٤١ (٢) سورة ١٨ الكهف آية ٤٨ (٣) سورة ١٨ الكهف آية ١٠٠ (٤) سورة ٢٠ طه آية ١٢٤

(*)

" ليجمعنكم إلى يوم القيامة " (١) والنون والياء متعارفان في مثل هذا بدلالة قوله " وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه " (٢) فعلم من هذا ان كل واحد منهما يجري مجرى الاخر.

يقول الله تعالى في هذه الاية أنه يوم يحشر الخلق إلى المحشر والموقف " كأن لم يلبثوا الا ساعة من النهار " عند أنفسهم، لقلة بقائهم فيها وسرعة تصرمها عنهم مع طول وقوفهم يوم القيامة ومع علمهم بدوام بقائهم في الاخرة، شبه قرب الوقت إلى ذلك الحين بساعة من النهار لان كل ما هوآت قريب، كما قال " اقتربت الساعة " (٣) ودل بذلك على أنه لاينبغي لاحد أن يغتر بطول ما يأمله من البقاء في الدنيا إذ كان عاقبة ذلك إلى الزوال. وقوله " يتعارفون بينهم

" اخبار منه تعالى أن الخلق يعرف بعضهم بعضا في ذلك الوقت خسرانهم ويتذاكرونه. وقوله " قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله " اخبار منه تعالى بأن الذين كذبوا بالبعث والنشور ولقاء ثواب الله ولقاء عقابه يخسرون نفوسهم. والخسران ذهاب رأس المال، فالنفس أكبر من رأس المال. وقوله " وما كانوا مهتدين " معناه لا يكونون مهتدين إلى طريق الجنة لكونهم مستحقين للعقاب. وقال الزجاج: معنى الاية قرب ما بين موتهم كما قالوا " لبثنا يوما أو بعض يوم " (٤) و " يتعارفون بينهم " أي يعرف بعضهم بعضا، وفي ذلك توبيخ لم وإثبات الحجة عليهم.

قوله تعالى:

وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا

---

(١) سورة ٤ النساء آية ٨٦ وسورة ٦ الانعام آية ١٢ (٢) سورة ٢٠ طه آية ١٢٧ (٣) سورة ٥٤ القمر آية ١ (٤) سورة ٢٣ المؤمنون آية ١١٤، وسورة ١٨ الكهف آية ١٩

(*)

مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون (٤٦) آية.

نون التأكيد في الجزاء لاتجوز الا مع (ما) كما لايجوز الجزاء ب (اذ، وحيث) الا مع (ما) يخرجونها عن اخواتها، فدخلت (ما) لتقريبها منها، فالنون تدخل في الامر والنهي والاستفهام والعرض، وكله طلب، وكله غير واجب.

وليس في الجزاء طلب إلا أنه يشبه غير الواجب.

وقوله " نرينك " من رؤية العين لانها لو كانت من رؤية الاعلام لتعدى إلى مفعولين والبعض شئ يفصل من الكل، والبعض والقسم والجزء نظائر. والتوفي القبض على الاستيفاء بالامانة، لان الروح تخرج من البدن على تمام وكمال من غير نقصان. ومعنى الاية إن أريناك يا محمد بعض ما نعد هؤلاء الكفار من العذاب عاجلا بأن ننزل عليهم ذلك في حياتك، وإن أخرنا ذلك عنهم إلى بعد وفاتك ووفاتهم، فان ذلك لايفوتم، لانه الينا مرجعهم، والله شاهد بأعمالهم، وعالم بها، وحافظ لها، فهو يوفيهم عقاب معاصيهم. وقال مقاتل: المعنى إما نرينك بعض الذي نعد المؤمنين من النصر والاعلاء، وهو يوم بدر. وقوله " ثم الله " عطف في قول الفراء، وقال غيره: (ثم) بمعنى الواو.

قوله تعالى:

ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لايظلمون (٤٧) آية.

أخبر الله تعالى في هذه الاية أن لكل جماعة على دين واحد وطريقة واحدة كأمة محمد وأمة موسى وعيسى (عليهم السلام) رسولا بعثه الله اليهم وحمله الرسالة التي يؤديها اليهم ليقوم

بأدائها. وقوله " فاذا جاء رسولهم " يعني يوم القيامة – في قول مجاهد – وقال الحسن: في الدنيا، بما أذن الله تعالى من الدعاء عليهم. وقوله " قضي

بينهم " معناه فصل بينهم الامر على الحتم. والله تعالى يقضي بين الخصوم أي يفصل بينهم فصلا لايرد " بالقسط " يعني بالعدل. والمقسط العادل. والقاسط الجائر، ومنه قوله " وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا " (١) والاصل واحد، والمقسط العادل إلى الحق والقاسط العادل عن الحق. وقوله " وهم لايظلمون " إنما نفى عنهم الظلم بعد أن وصف أنه يقضي بينم بالعدل ليكون العدل في جميع الاحوال من الابتداء إلى الانتهاء، لانه كان يمكن ان يكون العدل في أوله والظلم في آخره، فنفي بذلك نفيا عاما ليخلص العدل في كل أحوالهم.

قوله تعالى:

ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (٤٨) آية حكى الله تعالى عن الكفار والذين تقدم وصفهم أنهم " يقولون متى هذا الوعد " الذي تعدوننا به من البعث والنشور والثواب والعقاب " إن كنتم صادقين " في كون ذلك. والقول كلام مضمن في ذكره بالحكاية، وقد يكون كلام لايعبر عنه، فلا يكون له ذكر متضمن بالحكاية، فلا يكون قولا، لانه إنما يكون قولا من أجل تضمين ذكره بالحكاية. و " متى " سؤال عن الزمان. و (أين) سؤال عن المكان، وهما ظرفان يتصلان بالفعل من غير حرف إضافة تقول: متى يكون هذا، ولا يجوز أن تقول: ما يكون هذا على معنى الظرف. ولكن في ما يكون هذا. والوعد خبر ما يعطى من الخير. والوعيد خبر ما يعطى من الشر، هذا اذا فصل فان اجمل وقع الوعد على الجميع. والصدق الاخبار عن الشئ على ما هوبه.

قوله تعالى:

قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله لكل

---

(١) سورة ٧٢ الجن آية ١٥

(*)

أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون (٤٩) آية لما حكى الله تعالى عن الكفار استبطاءهم ما وعد الله وقولهم " متى هذا الوعد " امر الله نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يقول لهم على وجه الانكار عليهم إني " لا املك لنفسي ضرا ولا نفعا " من الثواب والعقاب بل ذلك إلى الله، ولا أملك إلا ما ملكني الله، فكيف أملك لكم. والملك هو القدرة على التصرف في

الشئ على وجه ليس لاحد منعه منه، فالانسان لايملك إلا ما ملكه الله، لان له تعالى منعه منه. وقد يملك الطفل ومن لاعقل له من المجانين بالحكم. والنفع هو اللذة أو السرور أو ما أدى إليهما او إلى واحد منهما. والضرر الالم نفسه أو الغم او ما أدى اليهما او إلى واحد منهما. وقوله " إلا ما شاء الله " أن يملكني إياه من نفع او ضر، فيمكنه مما جعل له أخذه او اوجب عليه تركه. والاجل هو الوقت المضروب لوقوع امر، كأجل الدين وأجل البيع واجل الانسان واجل المسافر فاخبر تعالى انه إذا اتى اجل الموت الذي وقته الله لكل حي بحياة، لايتأخر ذلك ساعة ولايتقدم على ما قدره الله تعالى.

قوله تعالى:

قل أرأيتم إن أتيكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون (٥٠) آية امر الله تعالى نبيه بهذه الاية ان يقول لهؤلاء الكفار الذين استبطأوا وعد الله " ارأيتم " اي اعلمتم؟ لانها من رؤية القلب، لانها دخلت على الجملة من الاستفهام " ان اتاكم عذابه " يعني عذاب الله. والعذاب الالم المستمر واصله

الاسمترار. ومنه العذوبة لاستمرارها في الحلق " بياتا " وهو إتيان الشئ ليلا يقال بيته تبييتا وبياتا وبات بيتوتة، وفلان لايستبيت إذا لم يكن له ما يبيت به وجواب " إن " محذوف، وتقدير الكلام ارايتم ماذا يستعجل المجرمون من العذاب إن أتاكم عذابه بياتا او نهارا، ووقع " إن أتاكم " في وسط الكلام موقع الاعتراض. ومعنى (ما) في قوله " ماذا " للانكار لان يكون في العذاب شئ يستعجل به، وجاء على صيغة الاستفهام، لانه لاجواب لصاحبه يصح له. وقال ابوجعفر (عليه السلام) هو عذاب ينزل في آخر الزمان على فسقة أهل القبلة. نعوذ بالله منه. وقال الزجاج: موضع (ماذا) رفع من وجهين: احدهما – ان يكون (ذا) بمعنى (الذي) والتقدير ما الذي يستعجل منه المجرمون. ويجوز أن يكون (ماذا) إسما واحدا، والمعنى اي شئ يستعجل منه. والهاء في قوله " منه " عائدة على العذاب ويجوز ان تكون عائدة على الاستعجال.

قوله تعالى:

أثم إذا ما وقع آمنتم به آلان وقد كنتم به تستعجلون (٥١) آية " أثم " دخلت الف الاستفهام على (ثم) ليدل على ان الجملة الثانية بعد الاولى مع أن للالف صدر الكلام. وقال الطبري معنى (ثم) – ههنا – (هنالك)

وهذا غلظ، لان (ثم) بالفتح تكون بمعنى هنالك، وهذه مضمومة فلا تكون الا للعطف. والعامل في (إذا) يحتمل أمرين: احدهما – ان يكون " آمنتم به " على أن تكون (ما) صلة. الثاني – ان يكون العامل (وقع) وتكون (ما)
مسلطة على الجزاء. وإنما جاز ان يعمل الفعل الاول في الجزاء دون الثاني، ولم؟؟؟ في (إذا) لئلا يختلط الشرط بجزائه وليس كذلك (إذا) لانها مضافة إلى

الفعل الذي بعدها. والوقوع الحدوث. وقوله " آلان " مبني على الفتح، لان تعريفه كتعريف الحرف في الانتقال من معنى إلى معنى. ومعناه عند سيبويه أنحن من هذا الوقت نفعل كذا، وفتحت لالتقاء الساكنين. وقال الفراء: أصلها (آن)
دخلت عليها الالف واللام وبنيت كالذين، ودخول الالف واللام على اللزوم لا يمكنه، كما لا يمكن الذي. ومعنى الاية أتأمنون حلول هذا العذاب بكم؟ ثم يقال لكم إذا وقع بكم العذاب وشاهدتموه: آلان آمنتم به، وكنتم به تستعجلون. وفائدتها الابانة عما يوجبه استعجال العذاب من التوبيخ عند وقوعه حين لا يمكن استدراك الامر فيه بعد أن كان ممكنا لصاحبه.
قوله تعالى:
ثم قيل للذين ظلموا ذقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون (٥٢) آية.
قوله (ثم) عطف على الايمان الذي وقع في حال الالجاء اليه. و " قيل " لهم بعد ذلك هذا القول على وجه التوبيخ والتقريع، لانها ليست حال استدراك لما فات. والمعنى انه يقال لهؤلاء آلذين آمنوا حين نزول العذاب بهم – وقيل لهم آلان وقد استعجلتم " ذوقوا عذاب الخلد " يعني الدائم. ويقال لهم " هل تجزون " بهذا العقاب الا بما كنتم تكسبون من المعاصي والذوق طلب الطعم بالفم في الابتداء، شبهوا بالذائق لانه أشد إحساسا. وقيل لانهم يتجرعون العذاب بدخوله أجوافهم.
قوله تعالى:
ويستنبؤنك أحق هو قل أي وربي إنه لحق وما أنتم

بمعجزين (٥٣) آية معنى " ويستنبؤنك " يستخبرونك أي يطلبون النبأ الذي هو الخبر " أحق هو " يعني هذا الوعيد الذي ذكره الله في هذه الاية الاولى، فقال الله لنبيه " قل إي وربي " أي نعم وحق الله انه لحق. والحق في الدين ما شهدت به الادلة الموجبه للعلم اواقتضاه غالب

الظن فيما طريقه الظن. وقوله " وما انتم بمعجزين " أي لستم تقدرون على اعجـــاز الله عمـــا يريده من انزال العذاب بكم.

قوله تعالى:

ولو أن لكل ظلمت ما في الارض لافتدت به وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضـــي بيـــنهم بالقسط وهم لايظلمون (٥٤) آية.

أخبر الله تعالى على وجه التعظيم لهذا العذاب وشدته بأنه لو كان لمن ظلم بارتكاب المعاصي " ما في الارض " من الاموال " لافتدت به " من هول ما يلحقه من العذاب.

وفتحت (أن) بعد (لو) لانها مبنية على ما هو بمنزلة العامل لاختصاصها بالفعل، والتقدير لـــو كان أن لكل نفس، إلا أنه لايظهر المعنى عن اظهاره بطلب (أن)

له. وجاز أن تقع (أن) بعد (لو) ولم يجز المصدر، لان فتحها يدل على إظمار العامل اللفظـــي وليس كذلك المصدر، لانه مما يعمل فيه الابتداء.

والافتداء إيقاع الشئ بدل غيره لدفع المكروه يقال: فداه يفديه فدية وفداء، وافتداه افتداء، وفاداه مفاداة وتفادى تفاديا، وفداه تفدية.

وقوله " واسروا الندامة لما رأوا العذاب " أي أخفوا الندامة. وقيل " وأسروا الندامة " رؤســـاء الضلالة من الاتباع والسفلة. وقيل " أسروا الندامة " أي اخلصوها.

والندامة الحسرة على ما كان يتمنى انه لم يكن، وهي حالة معقولة يتأسف صاحبها علـــى مـــا وقع منه ويود أنه لم يكن أوقعه. وقال ابوعبيدة " أسروا " معناه أظهروا.

قال الازهري: هذا غلط إنما يكون بمعنى الاظهار ما كان بالشين المنقطة من فـــوق وقولـــه " وقضي بينهم بالقسط " اي فصل بينهم بالعدل " وهم لايظلمون " في القضاء والحكم بينهم ومـــا يفعل بهم من العقاب، لانهم جروه على أنفسهم بارتكاب المعاصي.

وروي أنه قيل لرسول الله (صلى الله عليه وآله) ما يغنيهم اسرار الندامة وهم في النار؟ قال: (يكرهون شماتة الاعداء) وروي مثله عن أبي عبدالله (عليه السلام).

قوله تعالى:

ألا إن لله ما في السموات والارض ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لايعلمون (٥٥) آية " ألا " كلمة تستعمل في التنبيه، وأصلها (لا) دخلت عليها حرف الاستفهام تقريرا وتأكيدا، فصارت تنبيها وكسرت (إن) بعد (ألا) لان (ألا) يستأنف ما بعدها لينبه بها على معنى الابتداء: ولذلك وقع بعدها الامر والدعاء كقول امرئ القيس:

ألا انعم صباحا أيها الطلل البالي * وهل ينعمن من كان في العصر الخالي (١)

ووجه اتصال هذه الاية بما قبلها أحد أمرين: احدهما – للاثبات بعد النفي لان ما قبلها لـيس للظالم ما يفتدي به بل جميع الملك لله تعالى. والثاني – ان يكون معناه من يملـك السـموات والارض يقدر على ايقاع ما توعد به. والسموات جمع سماء وهو مأخوذ من السمو الذي هـو العلو، وهي المزينة بالكواكب وهي سقف الارض، وهي طبقات، كما قال سبع سموات طباقا. وجمعت السموات، ووحدت

---

(١) ديوانه ١٥٨ وهو مطلع قصيدة له مشهورة.

(*)

الارض في جميع القرآن، لان طبقاتها السبع خفية عن الحس وليس كذلك السموات. وقولـه " ألا ان وعد الله حق ولكن أكثرهم لايعلمون " صحة ذلك لجهلهم به تعالى وبما يجوز عليه وما لايجوز، وجهلهم بصحة ما أنى به النبي (صلى الله عليه وآله) قوله تعالى هو يحيي يميت وإليـه ترجعون (٥٦) آية.

في هذه الاية اخبار منه تعالى أن الذي يملك التصرف في السموات والارض هو الذي يحيـي الخلق بعد كونهم أمواتا وهو الذي يميتهم إذا كانوا أحياء. ثم يرجعون اليه يوم القيامة فيجازيهم بمثل أعمالهم إن كانوا مطيعين بالثواب الدائم، وان كانوا كفارا بالعقاب الدائم. قال أبوعلي: في هذه الاية دلالة على أنه لايقدر على الحياة إلا الله لانه تعالى تمدح بكونه قادرا على الاحيـاء والاماتة، فلو كان غيره قادرا على الحياة لما كان في ذلك مدح. وفيها دلالة على كونه قـادرا على الاعادة لان من قدر على النشأة الاولى يقدر على النشأة الثانية.

قوله تعالى:

يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمـة للمـؤمنين (٥٧) آية هذا خطاب من الله تعالى للمكلفين من الناس يخبرهم الله تعالى بأنه أتاهم موعظـة من الله. والموعظة ما يدعوا إلى الصلاح ويزجر عن القبيح بما يتضمنه من الرغبة والرهبـة ويدعو إلى الخشوع والنسك، ويصرف عن الفسوق والاثم، ويريد بذلك القرآن وما أتـى بـه النبي (صلى الله عليه وآله) من الشريعة. وقوله " وشفاء لما في الصدور " فالشفاء معنى كالـدواء لازالة الداء. فداء الجهل أضر من داء البدن وعلاجه أعسر

وأطباؤه اقل والشفاء منه أجل. والصدور جمع صدر وهو موضع القلب، وهو اجل موضع في الحي لشرف القلب. وقوله " وهدى ورحمة للمؤمنين " وصف القرآن بأنه يقال عما يؤدي إلى

الحق ودلالة تؤدي إلى المعرفة ونعمة على المحتاج لانه لايقال للملك إذا اهدى إلى ملك آخر جوهرة أنه قدر رحمه بذلك، وإن كانت نعمة يجب بها شكره ومكافأته. وإنما أضافه إلى المؤمنين، لانهم الذين انتفعوا به دون الكفار الذين لم ينتفعوا به، كما قال " هدى للمتقين " وإن كان هدى لغيرهم.

قوله تعالى:

قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون (٥٨) آية.

قرأ الحسن " فلتفرحوا " بالتاء. وبه قرأ ابوجعفر المدني ورويس وروي ذلك عن أبي بن كعب. الباقون بالياء. وكان الكسائي يعيب القراءة بالتاء وأجازها الفراء واحتج بقولهم: لتأخذوا مصافكم. واللام في قوله " فليفرحوا " لام الامر وإنما احتيج اليها ليؤمر الغائب بها. وقد يجوز أن يقع في الخطاب للتصرف في الكلام. وقرأ أبوجعفر وابن عامر ورويس " تجمعون " بالتاء.

الباقون بالياء. قال ابوعلي: الجار في قوله " فبذلك يتعلق بقوله " فليفرحوا " لان هذا الفعل يصل به قال الشاعر:

فرحت بما قد كان من سيديكما (١)

والفاء في قوله " فبذلك فليفرحوا " زائدة لان المعنى فافرحوا بذلك ومثله قول الشاعر:

---

(١) قائله زهير ابن ابي سلمى ديوانه: ١٠٩

(*)

فاذا هلكت فعند ذلك فاجزعي (١)

فالفاء في قوله فاجزعي زيادة مثل التي في " فليفرحوا " وقال الفراء " فبذلك " بدل من قوله " بفضل الله وبرحمته ". ومن قرأ بالياء جعله أمرا للغائب، واللام انما تدخل على فعل الغائب لان المواجهة استغني فيها عن اللام بقولهم (افعل)

فصار مشبها للماضي في قولك (يدع) الذي استغني عنه ب (ترك)، ولو قلت بالتاء لكنت مستعملا لما هو كالمرفوض، وان كان الاصل. ولا يرجح القراءة بالتاء لكونها هي الاصل لانه اصل مرفوض. ومن قرأ بالتاء اعتبر الخطاب الذي قبله من قوله " قد جاءتكم موعظة.. فلتفرحوا " وزعموا أنها في قراءة ابي فافرحوا قال ابوالحسن: وزعموا انها لغة وهي قليلة بمعنى لتضرب، وانت تخاطب. فان قيل: كيف جاء الامر للمؤمنين بالفرح، وقد ذم الله ذلك في مواضع من القرآن كقوله " إن الله لايحب الفرحين " (٢) وقال " إنه لفرح فخور " (٣)

وغير ذلك؟. قيل: اكثر ما جاء مقترنا بالذم من ذلك ما كان مطلقا، فاذا قيد لم يكن ذما كقوله " يرزقون فرحين " (٤) وفي الاية مقيد بذلك. فأما قوله " فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله " (٥) فانه مقيد ومع ذلك فهو مذموم، لكنه مقيد بما يقتضي الذم، كما جاء مقيدا بما لا يقتضي الذم وإن قيد بما يقتضي ومقيده بحسب ما يقيد به، فان قيد بما يقتضي الذم، أفاد الذم وإن قيد بما يقتضي المدح أفاد المدح. فأما قوله " فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم " (٦) وقوله " ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله " (٧) والفرح بنصر الله للمؤمنين محمود، كان ان القعود عن رسول الله بالتقييد في الموضعين مذموم.

---

(١) قد مر في ٥ / ١٧٤ (٢) سورة ٢٨ القصص آية ٧٦ (٣) سورة ١١ هود آية ١٠ (٤) سورة ٣ آل عمران آية ١٧٠ (٥) سورة ٩ التوبة آية ٨٢ (٦) سورة ٤٠ المؤمن آية ٨٣ (٧) سورة ٣٠ الروم آية ٤ - ٥
(*)

امر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يقول للمكلفين افرحوا بفضل الله، وهو زيادة نعمه وانما جاز أن يقول: فضل الله، وانما هو من افضال الله، لانه في موضع افضال، كما ان النبات في موضع إنبات في قوله " أنبتكم من الارض نباتا " (١)

وايضا فان اضافة الفضل إلى الله بمعنى الملك كما يضاف العبد اليه بمعنى انه مالك له. والفرح لذة في القلب بادراك ما يحب، وان شئت قلت: هو لذة في القلب بنيل المشتهى، وقد حسنه الله في هذه الاية فدل على انه لايحب الفرحين بمعنى البطرين.

وقوله " هو خير مما يجمعون " قيل فضل الله هو القرآن، ورحمته هو الاسلام " خير مما يجمعون " من الذهب والفضة. ذكره ابن عباس وابوسعيد الخدري والحسن وقتادة ومجاهد. ومن قرأ بالياء عنى به المخاطبين والغيب، غير أنه غلب الغيب على المخاطبين، كما غلب التذكير على التأنيث، فكأنه أراد به المؤمنين وغيرهم. ومن قرأ بالتاء كان المعنى فافرحوا بذلك ايها المؤمنون اي افرحوا بفضل الله، فان ما آتاكموه من الموعظة شفاء ما في الصدور خير مما يجمع غيركم من اعراض الدنيا. وقال ابوجعفر (عليه السلام) " بفضل الله " يعني الاقرار برسول الله و " برحمته " الائتمام بعلي (عليه السلام) " خير مما " يجمع هؤلاء من الذهب والفضة. وإذا حملت الاية على عمومها كان هذا ايضا داخلا فيها.

قوله تعالى قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل الله أذن لكم أم على الله تفترون (٥٩) آية.

قال الحسن: المعنى بهذه الاية مشركوا العرب قال الله لهم " أرأيتم " ما أنزل الله لكم من رزق " أي أرزاق العباد من المطر الذي ينزله الله " فجعلتم منه حراما

---

(١) سورة ٧١ نوح آية ١٧
(*)

وحلالا " يعني ما حرموا من السائبة والوصيلة والحام، وما حرموا من زروعهم.
قل يا محمد لهم " آلله أذن لكم أم على الله تفترون؟ " معناه انه لم يأذن لكم في شئ من ذلك بل انتم تكذبون في ذلك على الله. واستدل قوم بذلك على أن القياس في الاحكام لايجوز. قال الزجاج (ما) في قوله " ما أنزل الله " في موضع نصب ب (انزل) والمعنى انكم جعلتم البحائر والسوائب حراما، والله تعالى لم يحرم ذلك وتكون (ما) بمعنى الاستفهام. ويحتمل أن تكون (ما) بمعنى الذي وتكن نصبا ب (أرأيتم). والرزق منسوب كله إلى الله لانه لاسبيل للعبد اليه الا باطلاقه بفعله له او اذنه فيه اما عقلا او سمعا. ولايكون الشئ رزقا بمجرد التمكين لانه لو كان كذلك لكان الحرام رزقا، لان الله مكن فيه. قال الرماني:
التحريم عقد بمعنى النهي عن الفعل والتحليل حل معنى النهي بالاذن.
قوله تعالى:
وما ظن الذين يفترون على الله كذب يوم القيمة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون (٦٠) آية المعنى أي شئ يظن الذين يكذبون على الله انه يصيبهم يوم القامة على افترائهم على الله، اي لا ينبغي ان يظنوا ان يصيبهم على ذلك الا العذاب والعقاب، وجعل ذلك زجرا عن الكذب على الله. ثم اخبر تعالى " ان الله لذو فضل على الناس " بما فعل بهم من ضروب النعم " ولكن اكثرهم لايشكرون " نعمه ولا يعترفون به ويجحدونه. وهذا خرج مخرج التقريع على افتراء الكذب، وإن كان بصورة الاستفهام وتقديره ايؤديهم إلى خير ام شر؟. وافتراء الكذب أفحش من فعل الكذب بتزويره وتنميقه فالزاجر عنه اشد. وقيل: معنى قوله " لذو فضل على الناس " أي لم يضيق عليهم بالتحريم لما لا مصلحة لهم في تحريمه كما ادعيتم عليه. وقيل:

معناه انه لذو فضل على خلقه بتركه معاجلة الكذاب بالعقوبة في الدنيا، وامهاله إياه إلى يوم القيامة.
قوله تعالى:

وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين (٦١) آية.

قرأ الكسائي " يعزب " بكسر الزاي هنا وفي سبأ. الباقون بضمها، وهما لغتان. وان كان الضم أفصح واكثر. وقرأ حمزة وخلف ويعقوب " ولا اصغر..

ولا اكبر " بالرفع فيهما. الباقون بفتحهما. فمن فتح الراء فلان (افعل) في الموضعين في موضع جر، لانه صفة المجرور الذي هو قوله " مثقال ذرة " وانما فتح، لان (افعل) اذا اتصل به منكر كان صفة لاتنصرف في النكرة. ومن رفعه حمله على موضع الموصوف، لان الموصوف الذي هو " من مثقال ذرة " الجار والمجرور في موضع رفع، كما كانا في موضعه في قوله " كفى بالله " (١) ومثل قوله " من إله غيره " (٢) فمن رفع يجوز ان يكون صفة بمنزلة (مثل) ويجوز أن يكون استثناء كما تقول: مالكم من إله الا الله. ومثله " فاصدق واكن

---

(١) سورة ٤ النساء آية ٥، ٤٤، ٦٩، ٧٨، ٨٠، ١٣١، ١٦٥، ١٧٠، ويونس آية ٢٩ والرعد ٤٥ والاسرى ٩٦، والعنكبوت ٥٢، والاحزاب ٣، ٤٨ والفتح ٢٨.

(٢) سورة ١١ هود آية ٥٠، ٦١، ٨٣ وسورة ٢٣ المؤمنون آية ٢٣، ٣٢

(*)

من " (١) وغير ذلك. ويجوز أن يعطف قوله " ولا اصغر " على " ذرة " فيكون التقدير وما يعزب عن ربك مثقال ذرة ولا مثقال اصغر، فعلى هذا لايجوز الا الجر لانه لاموضع للذرة غير لفظها، كما كان لقولك من مثقال ذرة موضع غير لفظه.

ولا يجوز على قراءة حمزة ان يكون معطوفا على (ذرة) كما جاز في قول الباقين لانه اذا عطف على (ذرة) وجب ان يكون اصغر مجرورا، وانما فتح، لانه لاينصرف وكذلك يكون على قول من عطفه على الجار الذي هو (من).

معنى قوله " وما تكون في شأن " ليس تكون في حال من الاحوال، لان الشأن والبال الحال نظائر وجمعه شؤن. والشأن معنى مفخم على طريق الجملة يقال: ما شأنك وما حالك وما بالك. وقوله " وما تتلو منه من قرآن " اي وليس تتلو من القرآن، فتكون الهاء كناية عن القرآن قبل الذكر لتفخيم ذكر القرآن، كما قال " إنه أنا الله العزيز الحكيم " (٢) ويحتمل أن تكون الهاء عائدة على الشأن وتقديره وما يكون من الشأن. وقوله " وما تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا " اي ليس يخفى على الله شئ من اعمالكم بل يعلمها كلها ويشهدها.

والمشاهدة الادراك بالحاسة. والمشاهد المدرك بحاسة اي ذات يعني عن حاسة يقال:

شاهد وشهود وشهداء. وقوله " اذ تفيضون فيه " فالاضافة الدخول في العمل على جهة الانصباب اليه، وهو الانبساط اليه في العمل مأخوذ من فيض الاناء اذا انصب من جوانبه. ومنه قوله " أفضتم من عرفات " (٣) اي تفرقتم كتفرق الماء الذى ينصب من الاناء. ومثله أفاض الماء عليه وافاض في الحديث وقوله " وما يعزب عن ربك " فالعزوب الذهاب عن المعلون وضده حضور المعنى للنفس. وتعزب اذا انفرد عن اهله. وقال ابن عباس معنى لايعزب لايغيب. وقوله " من مثقال ذرة " فالذر صغار النمل واحده ذرة، وهو خفيف الوزن جدا. ومعنى مثقال ذرة وزن

---

(١) سورة ٦٣ المنافقون آية ١٠ (٢) سورة ٢٧ النمل آية ٩ (٣) سورة ٢ البقرة آية ١٩٨
(*)

ذرة يقال: خذ هذا فانه أخف مثقالا اي اخف وزنا. وقوله " ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا في كتاب مبين " معناه لايخفى عليه ما وزنه مثقال ذرة ولا ما هو اصغر منها ولا ما هو اكبر الا وقد بينه في الكتاب المحفوظ وكتبته ملائكته وحفظوه.

قوله تعالى:

ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٦٢) آية.

بين الله تعالى في هذه الاية أن أولياءه لاخوف عليهم يوم القيامة من العقاب " ولا هم يحزنون " اي ولايخافون. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: هم قوم ذكرهم الله بما هم عليه من سيماء الخير والاخبات وقال ابن زيد: هم الذين آمنوا وكانوا يتقون. وقد بينهم في الاية بعدها. وقال قوم: هم المتحابون في الله ذكر ذلك في خبر مرفوع. والاولياء جمع ولي وهو الذي يستحق من الله ان يوليه ثوابه وكرامته، وهو المطيع لله الذي يتولى اجلاله واعظامه. وقيل: الولي النصير ولا يسمى المتولي الانعام على غيره انه وليه، لانه قد يتولى الانعام عليه للمظاهرة بالجميل في امره واستصلاحه الذي يصرف عن القبيح، وان كان عدوه. ولايجتمع الولاية والعداوة. والخوف انزعاج القلب لما يتوقع من المكروه. والخوف والفزع والجزع نظائر، وضده الامن، والحزن غلظ الهم مأخوذ من الحزن، وهي الارض الغليظة، وضده السرور. قال الجبائي: هذه الاية تدل على ان المؤمنين المستحقين للثواب لايخافون يوم القيامة اصلا بخلاف ما يقول قوم انهم يخافون إلى ان يجوزوا الصراط. وقال البلخي: ليس يمتنع ان يخافوا من اهوال يوم القيامة وان علموا ان مصيرهم إلى الجنة والثواب. وعلى ما نذهب اليه من انه يجوز ان يعاقب الله بعض الفساق ثم يردهم إلى الثواب ينبغي ان تكون الاية مخصوصة بمن

لا يستحق العقاب اصلا. او نقول المراد بذلك لاخوف عليهم ولاهم يحزنون لذلك. وروي عن الحسن (عليه السلام) انهم الذين ادوا فرائض الله واخذوا بسنن رسول الله وتورعوا

(٤٠٢)

عن محارم الله وزهدوا في عاجل زهرة الدنيا، ورغبوا فيما عند الله واكتسبوا الطيب من رزق الله لمعايشهم لايريدون به التفاخر والتكاثر. ثم انفقوه فيما يلزمهم من حقوق واجبة، فاولئك الذين يبارك الله لهم فيما اكتسبوا ويثابون على ما قدموا منه لاخرتهم.

قوله تعالى:

ألذين آمنوا وكانوا يتقون (٦٣) آية.

يحتمل موضع (الذين) ثلاثة أوجه من الاعراب: احدها – ان يكون نصبا بأن يكون صفة للاولياء. والثاني – ان يكون رفعا على المدح. والثالث – ان يكون رفعا بالابتداء، وخبره " لهم البشرى ".

اخبر الله تعالى ان الذين آمنوا هم الذين يصدقون بالله ويعترفون بوحدانيته وهم مع ذلك يتقون معاصيه. والفرق بين الايمان والتقوى ان التقوى مضمن باتقاء المعاصي مع منازعة النفس اليها. والايمان من الامن بالعمل من عائد الضرر.

والفرق بين الايمان بالله والطاعة له ان الطاعة من الانطياع بجاذب الامر والاراده المرغبة في الفعل. والايمان هو الامن المنافي لانزعاج القلب. وقوله " يتقون " فالاتقاء اصله من (وقيت) فقلبت الواو، وادغمت في تاء الافتعال كما قلبت في اتجاه وتراث.

قوله تعالى:

لهم البشرى في الحيوة الدنيا وفي الاخرة لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم (٦٤) آية ذكر الله تعالى ان الذين وصفهم في الاية الاولى من انهم مؤمنون بالله ويتقون معاصيه " لهم البشرى " وهي الخبر بما يظهر سروره في بشرة الوجه. والبشرى

(٤٠٣)

والبشارة واحد. وقوله " في الحياة الدنيا " قيل فيه ثلاثة اقوال:

احدها – قال قتادة والزهري والضحاك والجبائي: هو بشارة الملائكة (عليهم السلام) انها الرؤيا الصادقة الصالحة يراها الرجل او يرى له. وقال ابوجعر (عليه السلام) البشرى في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن او يرى له وفي الاخرة الجنة. والثالث – بشرى القرآن بشرف الايمان – ذكره الفراء والزجاج وغيرهما. وقوله " لاتبديل لكلمات الله " معناه لاخلف لما وعد الله تعالى به من الثواب بوضع كلمة اخرى مكانها بدلا منها، لانها حق والحق لاخلف له بوجه.

وقوله " ذلك هو الفوز العظيم " اشارة إلى هذه البشرى المتقدمة بأنه الفوز الذي يصغر كل شئ في جنبه.

قوله تعالى:

ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعا هو السميع العليم (٦٥) آية.

ظاهر قوله " ولا يحزنك قولهم " ظاهره النهي والمراد به التسلية للنبي (صلى الله عليه وآله) عن قولهم الذي يؤذونه به. والنهي في اللفظ القول. وانما هو عن السبيل المؤدي إلى التأذي بالقول. ومثله لاراك ههنا والمعنى لاتكن ههنا فمن كان ههنا رأيته، فكذلك المراد بالاية لاتعبأ بالاذى فيمن عني به اذاه. وقوله " ان العزة لله جميعا " كسرت (إن) بالاستئناف بالتذكير لما ينفي الحزن لا انها مفعول القول لانها ليست حكاية عنهم، لانهم لم يقولوا ان العزة لله. ولا يجوز نصبها على ان تكون معمول القول لانهم لو قالوه لما احزن ذلك النبي (صلى الله عليه وآله) ولو فتحت (ان)

على معنى (لان) جاز. والعزة القدرة على كل جبار بالقهر بأن لايرام ولايضام عز يعز عزا فهو عزيز. والمعنى انه الذي يعزك وينصرك حتى تصير اعز ممن ناواك وقوله " هو السميع العليم " معناه انه يسمع قولهم ويعلم ضميرهم فيجازيهم بما تقتضية حالهم ويدفع عنك شرهم.

(٤٠٤)

قوله تعالى ألا إن الله من في السموات ومن في الارض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون (٦٦) آية قد بينا مضى أن أصل (ألا) (لا) وانما دخلت عليها حرف الاستفهام تنبيها. والفرق بين (ألا) و (أما) أن (ألا) للاستقبال ولاتقع بعدها (إن)

الا مكسورة. و (اما) تكون بمعنى حقا كقولهم اما انه منطلق، لانها للحال ويجوز بعد (اما) كسر (ان) وفتحها.

لما سلى الله النبي (صلى الله عليه وآله) فقال " لايحزنك " قول هؤلاء الكفار ف " ان العزة لله " يعني القدرة والقهر فانهم لايفوتونه، بين بعد ذلك ما يدل عليه وينبه على صحته وهو أن لله تعالى " من في السموات ومن في الارض " يعني العقلاء. واذا كان له ملك العقلاء فما عداهم تابع لهم، ووجب ان يكون ملكا له وانما خص العقلاء تعظيما للامر. وقوله " وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء " تحتمل (ما)

في قوله " وما يتبع " وجهين: احدهما – ان تكون بمعنى (اي) كأنه قال واي شئ يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء، تقبيحا لفعلهم. الثاني – ان تكون نافية، وتقديره وما يتبعون شركاء في الحقيقة والمعرفة.

وقوله " ان يتبعون الا الظن " معناه ليس يتبعون في اتخاذهم مع الله شركاء الا الظن لتقليدهم اسلافهم في ذلك او لشبهة دخلت عليهم بأنهم يتقربون بذلك إلى الله تعالى وبين بعد ذلك انهم ليسوا الا كاذبين بهذا القول والاعتقاد – في قوله " ان هم الا يخرصون ". وفائدة الاية الابانة عن انه يجب اخلاص العبادة لمن يملك السموات والارض وان لايشرك معه في العبادة غيره.

(٤٠٥)

قوله تعالى:

هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لايات لقوم يسمعون (٦٧) آية بين الله تعالى في هذه الاية ان الذي يملك من في السموات ومن في الارض " هو الذي جعل الليل " اي خلقه " لتسكنوا فيه " اي خلقه وعرضه لتسكنوا فيه وانه لاجل ذلك خلقه ليزول التعب والكلال بالسكون فيه وجعل " النهار مبصرا " وانما يبصر فيه تشبيها ومجازا واستعارة في صفة الشئ بسببه على وجه المبالغة ومثله قول جرير:

لقد لمتنا يا أم عيلان في السرى * ونمت وما ليل المطي بنائم (١)

وقال رؤبة:

ونام ليلي وتجلى همي (٢)

والفرق بين الجعل والفعل ان جعل الشئ قد يكون باحداث غيره كجعل الطين خزفا ولا يكون فعله إلا باحداثه. والفرق بين الجعل والتغيير أن تغيير الشئ لايكون الا بتصييره على خلاف ما كان، وجعله يكون بتصييره على مثل ما كان كجعل الانسان نفسه ساكتا على استدامة الحال.

وقوله " ان في ذلك لايات لقوم يسمعون " اخبار منه تعالى وتنبيه على ان هذا جعل لايقدر عليه الا الله تعالى، وانه لايصح الا من عالم قاصد، وانه نعمة على الخلق بما لهم في ذلك من النفع والصلاح، وانه من الامور الازمة الدائرة، وانه منصوب للفكر لايغيب عنه طرفة عين.

---

(١) ديوانه ٥٤٤ وتفسير الطبري ١١ / ٨٩ ومجاز القرآن ١ / ٢٧٩ (٢) ديوانه ١٤٣ ومجاز القرآن ١ / ٢٧٩ (*)

(٤٠٦)

قوله تعالى:

قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني له ما في السموات وما في الارض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون (٦٨) آية الذين أضافوا اتخاذ الولد طائفتان: احداهما –

كفار قريش والعرب، فانهم قالوا: الملائكة بنات الله. والاخرى – النصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، فكذب الله الفريقين. ولايجوز اتخاذ الولد على الله على وجه التبني، كما لايجوز عليه اتخاذ إله على التعظيم، لانه لما استحال حقيقته عليه استحال مجازه المبني عليها. وحقيقة الولد من ولد على فراشه او خلق من مائه، ولذلك لايقال: تبنى الشاب شيخا، ولا تبنى الانسان بهيمة لماكان ذلك مستحيلا، وهذه الحقيقة مستحيلة فيه تعالى، فاستحال مجازها أيضا. واتخاذ الخليل جائز، لان الخلة اصفاء المودة التي توجب الاطلاع على سره ثقة به. وان كان مشتقا من الخلة – بفتح الخاء – فهو لافتقاره اليه، لان الخلة هي الحاجة. ويجوز ان يقال المسيح روح الله، لان الارواح كلها ملك لله. وانما خص المسيح بالذكر تشريفا له بهذا الذكر كما خص الكعبة بأنها بيت الله، وان كانت الارض كلها لله تعالى.

وقوله " وسبحانه هو الغني " تنزيه من الله تعالى نفسه عن اتخاذ الولد لكونه غير محتاج إلى ذلك، لانه مالك ما في السموات والارض. وقوله " ان عندكم من سلطان بهذا " إخبار منه أنه ليس مع هؤلاء الذين يتخذون مع الله ولدا برهان ولاحجة، لان السلطان هو البرهان الظاهر، ووبخهم على قولهم ذلك فقال " أتقولون على الله مالا تعلمون " لان من أقدم على الاخبار عما لا يعلم صحته ولا يأمن كونه كذبا مقبح عند العقلاء.

(٤٠٧)

قوله تعالى:

قل إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون (٦٩)

متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون (٧٠) آيتان عند الجميع.

قوله " لا يفلحون " وقف تام. أمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) ان يقول للمكلفين " إن الذين " يكذبون على الله باتخاذ الولد وغير ذلك " لايفلحون " اي لا يفوزون بشئ من الثواب. وكسرت (إن) بعد القول، لانه حكاية لما يستأنف الاخبار به ولذلك دخلت لام الابتداء في الخبر، لانها تؤذن بأنه موضع ابتداء. والكذب يتعاظم الاثم عليه بحسب تعاظم الضرر به وكثرة الزواجر عنه، فالكذب على الله أعظم لكثرة الزواجر عنه لما فيه من تضييع حق المنعم بأجل النعم. وقوله " متاع في الدنيا " رفع بأنه خبر الابتداء. وتقديره ذاك متاع أو هو متاع.

ويجوز أن يكون على تقدير لهم متاع. وإنما خص بالدنيا لئلا يغتر به. والمتاع ما يقع به الانتفاع من أثاث أو غيره. والانتفاع حصول الالتذاذ. وانما جاز أن يمتعوا في الدنيادون الاخرة، لان الدنيا دار عمل والاخرة دار جزاء، ولذلك كان التكليف في الدنيا دون الاخرة. وقوله " ثم الينا مرجعهم " فالمرجع المصير إلى الشئ بعد الذهاب عنه، فهؤلاء ابتدأهم الله ثم

يصيرون إلى الهلاك بالموت. ثم يرجعون بالانشاء ثانية. وقوله " ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون " معناه انا لا نقتصر بعثهم بعد موتهم بل نوصل اليهم العذاب الشديد وننزله بهم جزاء بما كانوا يكفرون في دار الدنيا.

(٤٠٨)

قوله تعالى:

واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لايكن أمركم عليكم غمة ثم أقضوا إلي ولا تنظرون (٧١) آية.

قرأ نافع في رواية الاصمعي عنه " فاجمعوا " من جمع. الباقون بقطع الهمزة وقرأ يعقوب " وشركاؤكم " بالرفع. الباقون بالنصب. قال أبوعلي: ما رواه الاصمي عن نافع من وصل الهمزة من جمعت، والاكثر في الامر يقال أجمعت. كقوله " وما كنت لديهم أذ أجمعوا أمرهم " (١) وكما قال الشاعر:

(يا ليت شعري والمنى لاتنفع) هل أغدون يوما وأمري مجمع (٢)

اي معد ويمكن أن يكون المراد، واجمعوا ذوي الامر منكم أي رؤساءكم ووجوهكم، كما قال " وأولي الامر منهم " (٣) فحذف المضاف وأجرى على المضاف اليه ما كان يجري على المضاف لوثبت. ويجوز ان يكون جعل الامر ما كانوا يجمعونه من كيدهم ثم الذين يكيدونه به، فيكون بمنزلة قوله " فاجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا " على أن أبا الحسن يزعم أن وصل الالف في " واجمعوا أمركم وشركاءكم " أكثر في كلام العرب. قال " وانما يقطعون الهمزة إذا قالوا أجمعوا على كذا وكذا، قال: والقراءة بالقطع غريبة. ومن وصل الهمزة حمل الشركاء على هذا الفعل الظاهر لانك جمعت الشركاء وجمعت القوم، وعلى هذا

---

(١) سورة ١٢ يوسف آية ١٠٢ (٢) تفسير الطبري ١١ / ٩٠ والقرطبي ٨ / ٣٦٢ (٣) سورة ٤ النساء آية ٨٢ (*)

(٤٠٩)

قال " ذلك يوم مجموع له الناس " (١) ومن قطع الهمزة أضمر للشركاء فعلا آخر كأنه قال فاجمعوا أمركم واجمعوا شركاءكم أو ادعوا شركاءكم، قال الشاعر:

علفتها تبنا وماء باردا (٢)

وقال آخر:

شراب البان وتمر واقط وفي قراءة أبي " وادعوا شركاءكم " ويجوز أن يكون انتصاب الشركاء على انه مفعول معه، وهو قول الزجاج، كما قالوا: استوى الماء والخشبة، وجاء البرد والطيالسة، وقالوا: لو ترك الفصيل وامه لرضع لنبها. ومن رفع " وشركاؤكم " كيعقوب والحسن حمله على الضمير، وتقديره فاجمعوا أنتم وشركاؤكم. قال الزجاج: وحسن ذلك لدخول المنصوب بينهما. ولو لم يدخل لما حسن. ولايجوز أن تقول اجمعوا وشركاؤكم. وانما يجوز العطف على الضمير اذا اكد. وزعم ابوالحسن أن قوما يقيسون هذا الباب. وقوما يقصرونه على ما سمع. قال ابو علي الفارسي: والاول عندي أقيس.

امر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يقرأ على هؤلاء الكفار أخبار نوح (عليه السلام) حين " قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي " بين أظهركم " وتذكيري " اياكم " بآيات الله " وحججه وهممتم بقتلي واذاي فافعلوا ما بدالكم فاني على الله توكلت وإنما جعل جواب الشرط " فعلى الله توكلت " مع انه متوكل عليه في جميع احواله ليبين لهم أنه متوكل في هذا على التفصيل لما في إعلامه ذلك من زجرهم عنه لان الله تعالى يكفيه أمرهم. والتوكل والتفويض جعل الامر إلى من يدبره للثقة به في تدبيره فمن فوض أمره إلى لله فقد توكل عليه. وقوله " ثم لا يكن أمركم عليكم غمة " معناه ليكن امركم ظاهرا مكشوفا ولا يكونن مغطى مستورا من

---

(١) سورة ١١ هود آية ١٠٤ (٢) تاويل مشكل القرآن ١٦٥ وأمالي المرتضى ٢ / ١٧٠ واللسان (عطف) (*)

غممت الشئ اذا سترته، فالغمة ضيق الامر الذي يوجب الحزن، والغمة والضغطة والكربة والشدة نظائر، ونقيضه الفرجة. وقيل (غمة) معناه مغطى تغطية حيرة مأخوذة من غم الهلاك. وقوله " فاجمعوا امركم وشركاءكم " فيه تهديد. وقوله " ثم اقضوا الي ولا تنظرون " معناه افعلوا ما تريدون، على وجه التهديد لهم، وانه اذا كان الله ناصره وعليه وتوكله يبالي بمن عاداه واراد به السوء فان الله يكفيه امره. وقرئ بالفاء ومعناهما متقاربان، ولان معنى اقضوا توجهوا الي. وقال ابن الانباري معنى " اقضوا " امضوا، يقال قضى فلان إذا مات ومضى. ومعنى " ولا تنظرون " ولا تؤخرون.

قوله تعالى:

فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلاعلى الله وأمرت أن أكون من المسلمين (٧٢) آية

يقول الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) تمام ما حكاه عن نوح انه قال لقومه إن " توليتم اي هربتم عن الحق واتباعه ولم تقبلوه ولم تنظروا فيه. والتولي والاعراض والانصراف نظائر.

وقوله " فما سألتكم من اجر " اي لااطلب منكم اجرا على ما أؤديه اليكم من الله، فيثقل ذلك عليكم. والاجر النفع المستحق بالعمل والاجرة مضمنة بشريطة او مجرى عادة. وقوله " ان اجري الا على الله " اي ليس اجري في القيام باداء الرسالة الا على الله.

وقوله " وامرت ان اكون من المسلمين " معناه قل لهم: امرني الله بأن اكون من المسلمين لامر الله بطاعته ثقة بأنها خير ما يكسبه العباد.

قوله تعالى:

فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف

وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين (٧٣) آية.

لما حكى الله تعالى ماقال نوح لقومه في الايتين الاولتين، ذكر ما كان من قومه في مقابلة ذلك، وهو انهم كذبوه اي نسبوه إلى الكذب فيما ذكره من انه نبي الله وان الله بعثه اليهم ليدعوهم إلى طاعته، وانه تعالى عند ذلك نجا نوحا اي خلصه، وخلص الذين معه في السفينة وجعلهم خلائف معه، انه جعل الذين نجوا مع نوح لمن هلك بالغرق عبرة. وقيل انهم كانوا ثمانين نفسا.

وقال البلخي: يجوز أن يكون اراد به جعل منهم رؤساء في الارض واهلك باقي أهل الارض أجمع لتكذيبهم لنوح. والغرق الاهلاك بالماء الغامر، وقد يغرق الحصاة بالماء على هذا المعنى. واما التغريق في رحمة الله. فانما هو تشبيه بما اكتنفه الماء الغامر. ثم قال لنبيه (صلى الله عليه وآله) " انظر كيف كان عاقبة الذين " خوفوا بالله وعذابه فلم يخافوه، كيف اهلكهم الله ليعلمهم بذلك ان حكم هؤلاء الذين كذبوه وجحدوا نبوته حكم اولئك في أن الله يهلكهم ويدمر عليهم. يسليه بذلك عن ترك انقيادهم له.

قوله تعالى:

ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاؤهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين (٧٤) آية أخبر الله تعالى انه بعث رسلا – بعد نوح وإهلاك قومه – إلى قومهم الذين كانوا فيهم بعد ان تناسلوا وكثروا فأتوهم بالحجج والمعجزات الدالة على صدقهم وانهم مع

ذلك " ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قيل " ويحتمل ذلك امرين: احدهما – انهم لم يكونوا ليؤمنوا بما كذبوا به قوم نوح من قبل: من توحيد الله وتصديق انبيائه والثاني – قال البلخي ما

كانوا ليؤمنوا بالحجج والبينات بعد اتيان الانبياء بها بما كذبوا به من قيل يخبر عن عنادهم وعتوهم.

وقال " كذلك نطبع على قلوب المعتدين " معناه إنا جعلنا على قلوب هؤلاء الكفار سمة وعلامة على كفرهم يلزمهم الذم بها، وتعرفهم بها الملائكة وإنا مثل ذلك نفعل بقلوب المعتدين. وليس المراد بالطبع في الاية المنع من الايمان، لان مع المنع من الايمان لايحسن تكليف الايمان. والطبع جعل الشئ على صفة غيره بمعنى فيه. والمعتدون هم الظالمون لنفوسهم الذين تعدوا حدود الله.

قوله تعالى ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون إلى فرعون وملائه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين (٧٥) آية.

هذا اخبار من الله تعالى انه – بعد ارسال من أرسل من الانبياء بعد نوح واهلاك قومه وما ذكره من انهم لم يؤمنوا به وانه طبع على قلوبهم عقوبة لهم على ذلك – بعث ايضا بعدهم موسى وهارون (عليهما السلام) نبيين مرسلين " إلى فرعون وملائه " يعني رؤسا قومه " بآياتنا " اي بأدلتنا وحججنا وانهم استكبروا عن الانقياد لها والايمان بها " وكانوا قوما مجرمين " في ذلك مستحقين للعقاب الدائم. والملاء الجماعة الذين هم وجوه القبيلة مأخوذ من انهم تملا الصدور هيبتهم عند منظرهم.

ومنه قوله (صلى الله عليه وآله) في قتلى بدر (اولئك الملاء من قريش). والاستكبار طلب الكبر من غير استحقاق فأما المتكبر في اوصاف الله فهو الظاهر، فان له اعلى مراتب الكبر، وهو صفة ذم في العباد ومدح في صفة الله تعالى. والاجرام اكتساب السيئة

وهي صفة ذم. واصل الاجرام القطع يقال: جرم التمر يجرمه جرما فهو جارم والجمع جرام إذا صرمه، وزمن الجرام زمن الصرام. وتجرمت السنة اذا انصرمت. وفلان جريمة اهله اي كاسبهم. وقوله " لاجرم ان لهم النار " (١) اي لابد لهم النار قطعا قال الشاعر:

ولقد طعنت ابا عيينة طعنة * جرمت فزارة بعدها ان يغضبوا (٢)

اي حملتهم على الغضب بقطعها اياهم. وانجرم الجسيم، والجرم الصوت، والجرم الذنب. ووزن (موسى) مفعل وهو محمول على قياس العربية فزيادة الميم اولا اكثر من زيادة الالف اخيرا وكذلك زيادة همزة الفعل في افعل لهذه العلة.

قوله تعالى:

فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين (٧٦) آية أخبر الله تعالى عن قوم فرعون الذين ذكرهم وأخبر عنهم بالاستكبار انهم قالوا مع ذلك حين جاءهم الحق عند الله: ان هذا

الذي اتى به موسى من المعجزات والبراهين سحر ظاهر. و (لما) تدل على ما مضى ولابد لها من الجواب و (اذ) لما مضى وتستغني عن الجواب كقولك: مضى اليه اذ قدم اي يوم قدم. (واذا) تكون للمستقبل كحرف الجزاء. والحق معنى معتقده على ما هو به، وهو ما اتت به الرسل من البيان والبرهان عن الله تعالى. والسحر ايهام المعجزة على طريق الحيلة، ويشبه به البيان في خفاء السبب قال الشاعر:

وحديثها السحر الحلال لو انه * لم يجن قتل المسلم المتحرز والساحر الذي يعتقد صحة سحره كافر، لانه لايمكنه مع ذلك معرفة النبوة فان كان يمخرق بالسحر ويعلم انه باطل لم يكفر ولم يطلق عليه صفة ساحر.

---

(١) سورة ١٦ النحل آية ٦٢ (٢) مر تخريجه في ٣ / ٤٢٣

(*)

قوله تعالى:

قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون (٧٧) آية.

حكى الله تعالى عن موسى انه قال لقومه الذين نسبوه إلى السحر " أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا " ويريد بذلك تبكيتهم وتهجينهم. ثم قال موسى " ولا يفلح الساحرون " اي لا يفوزون بشئ من الخير. ويجوز أن يكون ذلك اخبارا من الله تعالى لاحكاية عن موسى وذلك يدل على بطلان السحر أجمع. وقيل في تكرير الف الاستفهام في قوله " اسحر هذا " بعد ان قال " اتقولون " ثلاثة اقوال: احدها - انه يكون لتأكيد التقريع على الحذف كأنه قال اتقولون للحق لما جاءكم ان هذا لسحر مبين اسحر هذا. والثاني - على وجه التكرار كقولك اتقول مال. والثالث - أن يكون حكاية قولهم وان اعتقدوا انه السحر كما يقول الرجل للجارية اذا أتته أحق هذا. فيقولونه على التعجب.

ولو قالوا الحق لايكون سحرا. ولكن ليس بحق لقال لهم فلو كان حقا كيف كان الا هكذا من قلب الجماد حيوانا يرونه عيانا وغير ذلك من الايات.

قوله تعالى:

قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الارض وما نحن لكما بمؤمنين (٧٨) آية روى العليمي " ويكون " بالياء. الباقون بالتاء. وجه الياء انه تأنيث غير حقيقي، وقد فصل بينهما. ومن قرأ بالتاء فلان الكبريا لفظها لفظ التأنيث.

اخبر الله تعالى عن قوم موسى انهم قالوا له لما اظهر لهم المعجزات ودعاهم إلى

التصديق بنبوته " أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا " اي لتصرفنا عن ذلك واللفت الصرف عن امر تقول: لفته يلفته لفتا. ولفت عنقه اذا لواها، قال رؤبة:

* ولفت لفات لها حصاد * وقال ايضا:

لفتا وتهزيعا سواء اللفت التهزيع الدق واللفت اللي. وقوله " وتكون لكما الكبرياء في الارض " قال مجاهد: الكبرياء الملك. وقال قوم هي العظمة. وقال آخرون هي السلطان.

والكبرياء استحقاق صفة الكبر في أعلى المراتب. والالف في قوله " أجئتنا " الف استفهام، والمراد به الانكار على طريق اللجاج والحجاج منهم. فتعلقوا بالشبهة في انهم على رأي آبائهم. وان من دعاهم إلى خلافه فظاهر امره انه يريد التأمر عليهم.

وقوله " وما نحن لكما بمؤمنين " حكاية انهم قالوا لموسى وهارون لسنا بمصدقين لكما فيما تدعيانه من النبوة.

قوله تعالى:

وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم (٧٩) آية.

قرأ أهل الكوفة إلاعاصما " بكل سحار " بتشديد الحاء والف بعدها الباقون (ساحر) على وزن فاعل. وقد بينا الوجه في ذلك في الاعراف.

حكى الله تعالى عن فرعون انه حين أعجزه المعجزات التي ظهرت لموسى، ولم يكن له في دفعها حيلة قال لقومه ائتوني بكل ساحر عليم بالسحر بليغ في علمه.

و (فرعون) لاينصرف لانه أعجمي معرفة، وهو منقول في حال تعريفه ولو نقل في حال تنكيره انصرف كياقوت. ووزن فرعون فعلون، الواو زائدة، لانها لحقت عند سلامة الثلاثة. ومثله فردوس. وإنما طلب فرعون كل ساحر ليتعاونوا على دفع ماتى به موسى وحتى لايفوته شئ من السحر بتأخير بعضهم. وإنما

توهم مقاومة السحرة لموسى مع قول موسى له " قد علمت ما انزل هؤلاء إلا رب السماوات والارض " لانه إنما عرف ذلك فيما بعد لما بهره الامر فكان قبل ذلك على الجهل لتوهمه ان السحر يقاوم الحق.

قوله تعالى:

فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون (٨٠) آية حكى الله تعالى ان السحرة الذين طلبهم فرعون وامر باحضارهم لما جاؤا فرعون وموسى حاضر " قال لهم موسى القوا ماانتم

ملقون " وهذا ظاهره الامر ويحتمل امرين: احدهما – أن يكون قال ذلك على سبيل التحدي والالزام بمعنى: من كان عنده انه يقاوم المعجزات لزمه ان يأتي بهامعه حتى تظهر منزلته وانما جاز إلزام الباطل على الخصم ليتبين ان اصله الفاسد يوجب عليه اعتقاد ذلك الباطل. كما ان الشيطان يوجب الفساد ويدعوه إلى الضلال. الثاني – أن يكون ذلك امرا على الحقيقة بدليل ان كان معه قوله " القوا ما انتم ملقون " انما لم يقتصر على قوله " القوا " لان المراد به القوا جمع ما انتم ملقون في المستأنف فلا يكفي منه القوا. والالقاء اخراج الشئ عن اليد إلى جهة الارض ويشبه بذلك قولهم القى عليه مسألة والقى عليه كلمة، والالقاء والطرح نظائر. وفي الكلام حذف، لان تقديره قال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم فأتوه بهم فقال لهم موسى.

قوله تعالى: فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين (٨١) آية قرأ ابوعمرو وحده " آلسحر " على الاستفهام. الباقون على الخبر.

(٤١٧)

قال ابوعلي الفارسي: في قراءة ابي عمرو (ما) يرفع بالابتداء، وجئتم به في موضع الخبر والكلام استفهام، لان الكلام يستقبل بقوله جئتم به. ولو كانت موصولة احتاج إلى خبر آخر. وهذا الاستفهام المراد به التقرير كما، قال " أأنت قلت للناس " (١) لان موسى كان عالما بأن ذلك السحر. وانما ألحق الف الاستفهام بقوله " السحر " لان السحر بدلا من " ما " المبتدأ ولزم ان يلحق السحر الاستفهام ليساوي المبدل منه في انه استفهام، الا ترى انه ليس في قولك السحر استفهام وعلى هذا قالوا كم مالك أعشرون أم ثلاثون، فجعلت العشرون بدلا من كم فألحقت ام لانك في قولك كم درهما مالك، مدع ان له مالا. ومن قرأ على الخبر جعل (ما) موصولة (وجئتم به السحر) صلة، والهاء مجرورة عائدة على الموصول والسحر خبر المبتدأ الذي هو الموصول. وحكى الفراء: انه دخل الالف واللام في في قوله " السحر " للعهد، لانهم قالوا لما اتى به موسى إنه سحر، قال موسى ماجئتم به فهو من السحر. وفي قراءة اني ما جئتم به سحر بلا الف ولام. ومن قرأ بالاستفهام جعل (ما) في قوله " ما جئتم به " للاستفهام. ومن قرأ على الخبر جعل (ما) بمعنى الذي وفسرت (ما) بالواحد في السحر. لان المعنى عليه، وانما ذكر للتوبيخ كقولك ما صنعت الفساد.

حكى الله تعالى انه لما ألقى السحرة سحرهم قال لهم موسى: الذي جئتم به السحر فمن قرأ على الخبر، واي شئ جئتم به السحر مقررا لهم ثم اخبر ان الله سيبطل هذا السحر الذي فعلتموه " ان الله لايصلح عمل المفسدين " فالاصلاح تقديم العمل على ما ينفع بدلا مما يضر. والصلاح استقامة العمل على هذا الوجه.

والافساد تعويج العمل إلى ما يضر بدلا مما ينفع. والفساد اضطراب العمل على هذا الوجه. والصلاح مضمن بالنفع لانه اذا اضيف ظهر معنى النفع فيه كقولك صلاح لزيد، وهو اصلح له اي انفع له وان كان فيه فساد على غيره.

---

(١) سورة ٥ المائدة آية ١١٩

(*)

قوله تعالى:

ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون (٨٢) آية هذا عطف على قوله " قال موسى ما جئتم به السحر ان الله سيبطله ان الله لايصلح عمل المفسدين. ويحق الله الحق بكلماته " وقيل في معناه ثلاثة اقوال:

اولها – قال الحسن: بوعده لموسى. الثاني – قال ابوعلي: بكلامه الذي يبين به معاني الايات التي اتاها نبيه (صلى الله عليه وآله). الثالث – بما سبق من حكمه في اللوح لمحفوظ بأن ذلك يكون. واحقاق الحق معناه اظهاره وتمكينه بالدلائل الواضحة والايات البينة حتى يرجع الطاعن على حسيرا والمناصب له مفلولا. وقوله " ولو كره المجرمون " معناه انه يحق وان كرهه من هو مجرم.

وفي الاية دلالة على ان تعالى ينصر المحقين كلهم لنصره اياهم بالحجة فأما بالغلبة في كل حال فموقوف، لان المصلحة قد تكون بالتخلية تارة وبالحيلولة اخرى. والحق على ضربين: احدهما – ما كان يمكن ان يكون حقا وغير حق، فهذا لا يصير حقا إلا بأن يقصد فاعله على ايقاعه حقا. فجاز ان يقال انه حق بالفاعل.

والاخر لايؤثر فيه قصد فاعله فلا يقال في ذلك انه حق بالفاعل.

قوله تعالى فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الارض وإنه لمن المسرفين (٨٣) آية أخبر الله تعالى انه لم يصدق لموسى بالنبوة الا ذرية من قومه مع خوفهم من فرعون ورؤساء قومه ان يفتنوهم. (والذرية) الجماعة من نسل القبيلة. وحكى

ابن عباس انه اراد الاقليل من قومه. وقيل كانت امهاتهم من بني اسرائيل وآباؤهم من القبط. وقيل سموا ذرية لانهم اولاد الذين ارسل عليهم موسى فلم يستجب الاباء وقيل: الابناء. وقيل:

هم قوم من بني إسرائيل أخذهم فرعون بتعلم السحر وجعلهم من اصحابه. ويحتمل أن يكون ذرية على وزن (فعلية) مأخوذا من الذر كقمرية.

والثاني – أن يكون على وزن (فعلية) من الذرو في تذروه الرياح كقولك مزقته، ويجوز أن يكون من ذرأ الله الخلق فترك همزه والفتنة في الدين الامتحان الذي يصرف عنه. وقد يكون ذلك بالاكراه تارة وبالهدى أخرى، وبالشبهة الداعية إلى الضلال وقوله " إن فرعون لعال في الارض " فالعلو في الامر عظم الشأن فيه، وكل معنى لايخلو من أن يكون في صفة عالية أو دانية أو فيما بينهما من الجلالة والضعة.

والضمير في قوله " وملائهم " قيل فيمن يعود اليه ثلاثة اقوال: احدها – إلى الذرية فقط. الثاني – إلى فرعون واتباعه. الثالث – إلى فرعون، لانه معلوم.

وقوله " وإنه لمن المسرفين " اخبار منه تعالى ان فرعون لمن جملة من أبعد في مجاوزة الحق. والاسراف قد يكون في القتل وفي الاكتار من المعاصي.

قوله تعالى:

وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين (٨٤) آية.

حكى الله تعالى عن موسى انه قال لقومه: إن كنتهم صدقتم بتوحيد الله فتوكلوا عليه إن كنتم مسلمين وانما اعاد قوله " إن كنتم مسلمين " بعد قوله " إن كنتم آمنتم بالله " ليتبين المعنى بالصفتين من الايمان والاسلام وبالتقييد والاطلاق على أن الثقة بالله توجب الاستسلام لامره. والتوكل التوثق باسناد الامر إلى الله. والوكالة عقد الامر لمن يقوم به مقام ما لكه. والله عزوجل أملك بالعبد من نفسه فهو أحق بهذه

الصفة. ويوجب التوكل على الله النجاة من كل محذور، والفوز بكل سرور وحبور اذا اخلص العمل فيه وسلمت النية فيه. وحذفت ياء الاضافة من قوله " يا قوم " اجتزاء بالكسرة منها وهو في النداء أحسن من اثباتها لقوة النداء على التغيير. وفائدة الاية البيان عما يعمل عليه عند نزول الشدة من ان من كان يؤمن بالله فليتوكل على الله ويسلم امره اليه ثقة بحسن تدبيره له.

قوله تعالى:

فقالوا على الله توكلنا ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين (٨٥) ونجنا برحمتك من القوم الكافرين (٨٦) آيتان الفاء في قوله " فقالوا " فاء العطف وجواب الامر كما يقال قال السائل كذا فقال المجيب كذا. وانما جاز الفاء في الجواب ولم تجز الواو، لان الفاء ترتيب من غير مهلة، فهي موافقة لمعنى وجوب الثاني بالاول وليس كذلك الواو.

لما حكى الله تعالى قول موسى لقومه " إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا " حكى ما أجاب به قومه من قولهم: توكلنا على الله، وانهم سألوا الله وقالوا " ربنا لاتجعلنا فتنة " أي محنة واعتبارا " للقوم الظالمين " وخلصنا " برحمتك من القوم " الذين كفروا بآياتك، وكل كافر ظالم لنفسه بتعرضه للعقاب وليس كل ظالم كافرا. والفتنة أصلها البلية وهي معاملة تظهر الامور الباطنة. يقال فتنت الذهب اذا أحرقته بالنار ليظهر الخلاص وقوله " يوم هم على النار يفتنون " (١) اي يحرقون بما فيه من اظهار حالهم في الضلال وقوله " والفتنة أشد من القتل " (٢) معناه التعذيب للرد عن الدين، لما فيه من اظهار النصرة أشد، ومعنى " لاتجعلنا فتنة " للقوم الظالمين " لاتمكنهم من ظلمنا بما يحملنا على اظهار الانصراف عن ديننا

---

(١) سورة ٥١ الذاريات آية ١٣ (٢) سورة ٢ البقرة آية ١٩١

(*)

– في قول مجاهد – وقال ابوالضحى والجبائي معناه: لايظهروا علينا فيروا أنهم خير منا.

وقوله " ونجنا " معناه خلصنا مما فيه المخافة والشماتة. وانما جاز وصف الله تعالى بالرحمة مع كثرة استعمالها في الرقة لدلالة التعظيم على انتفاء معنى الرقة ان نعمه في الاسباغ والكثرة تقع موقع ما تبعث عليه الرقة. وانما سألوا النجاة من استعباد فرعون وملائه إياهم وأخذهم بالاعمال الشاقة والمهن الخسيسة.

قوله تعالى:

وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلوة وبشر المؤمنين (٧٨) آية.

أخبر الله تعالى انه أوحى إلى موسى وأخيه بمعنى ألقى اليهما في خفاء والايحاء والايماء والاشارة نظائر، وكله بيان ودلالة. وحكى الرماني أن قوما أجازوا أن يوحي الله إلى من ليس بنبي برؤيا أو إلهام، قال: وليس يجوز عندنا على المعنى الذي يقع الوحي إلى الانبياء، لانه إنما يقع على خلاف مجرى العادة بمعجزة تشهد بأنه تعالى ألقى المعنى اليه. ولايجوز ان تطلق الصفة بالوحي الا لنبي فان قيد ذلك على خلاف هذا المعنى كان جائزا، كقوله " وأوحى ربك إلى النحل " (١)

ومعنى قوله " تبوءا " اتخذا يقال: بوأته منزلا أي اتخذته له وأصله الرجوع من " باؤوا بغضب من الله " (٢) أي رجعوا، والمبوء المنزل لانه يرجع اليه للمقام فيه ومنه قولهم (بؤ بشسع كليب) أي ارجع به. وقوله " واجعلوا بيوتكم قبلة " معناه مصلى. وقيل قبلة: مسجدا،

لانهم كانوا خائفين فأمروا بأن يصلوا في بيوتهم – في قول ابن عباس ومجاهد وابراهيم والسدي والضحاك والربيع –

---

(١) سورة ١٦ النحل آية ٦٨ (٢) سورة ٢ البقرة آية ٦١ وسورة ٣ آل عمران آية ١١٢
(*)

وقال الحسن يعني قبلة نحو الكعبة. ولم يصرف (مصر) لانه مؤنث معرفة كقولك هند، ولو صرفته لخفته كما صرفت هند كان جائزا، وترك الصرف أقيس. وقوله " وأقيموا الصلاة " أمر من الله اياهم باقامة الصلاة والدوام على فعلها " وبشر المؤمنين " أمر منه لموسى ان يبشر المؤمنين بالجنة وما وعد الله تعالى من الثواب وانواع النعيم.

قوله تعالى:

وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملاه زينة وأموالا في الحيوة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم (٨٨)

آية حكى الله تعالى في هذه الاية عن موسى (عليه السلام) أنه قال يا " ربنا انك اعطيت فرعون وملائه " يعني قومه ورؤساءهم " زينة واموالا في الحياة الدنيا " وإنما اعطاهم الله تعالى ذلك للانعام عليهم مع تعريه من وجوه الاستفساد. و (الزينة)

ما يتزين به من الحلي والثياب والمتاع. ويجوز أن يراد به حسن الصورة " ليضلوا عن سبيلك " فهذه لام العاقبة، وهي ما يؤل اليه الامر كقوله " فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا " (١) ويحتمل ان يكون المعنى لئلا يضلوا عن سبيلك فحذفت (لا) كقوله " ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما " (٢) اي لئلا تضل احداهما، وكقوله " ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين " (٣)

---

(١) سورة ٢٨ القصص آية ٨ (٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٨٢ (٣) سورة ٧ الاعراف آية ١٧١
(*)

اي لئلا يقولوا. ولايجوز أن يكون لام الغرض، لان الله تعالى لا يفعل بهم الزينة ويعطيهم ويريد منهم ان يضلوا بل إنما يفعل لينتفعوا ويطيعوه ويشكروه. وقال قوم: لو كان أراد منهم الضلال لكانوا إذا ضلوا مطيعين، لان الطاعة هي موافقة الارادة وذلك باطل بالاتفاق. وقوله " ربنا اطمس على اموالهم " إخبار عن موسى انه دعا على قومه فسأل الله ان يطمس على

اموالهم. والطمس محو الاثر تقول: طمست عينه اطمسها طمسا وطموسا وطمست الريح آثار الديار. فدعا موسى (عليه السلام) عليهم بأن يقلب حالهم عن الانتفاع بها كقوله " من قبل ان نطمس وجوها " (١) والطمس تغير إلى الدبور والدروس قال كعب بن زهير:

من كل نضاخة الذفرى إذا عرقت * عرصتها طامس الاعلام مجهول (٢)

وقال قتادة والضحاك وابن زيد وابوصالح: صارت اموالهم حجارة.

وقوله " واشدد على قلوبهم " معناه ثبتهم على المقام ببلدهم بعد إهلاك اموالهم فيكون ذلك اشد عليهم. وقوله " فلا يؤمنوا " يحتمل موضعه وجهين من الاعراب:

احدهما – النصب على جواب صيغة الامر بالفاء او بالعطف على " ليضلوا " وتقريره لئلا يضلوا فلا يؤمنوا. والثاني – الجزم بالدعاء عليهم، كما قال الاعشى.

فلا ينبسط من بين عينك ما انزوى * ولا تلقني إلا وانفك راغم (٣)

وقال الفراء: ذلك دعاء عليهم بأن لايؤمنوا. وحكى الجبائي عن قوم ان المراد بذلك الاستفهام والانكار كأنه قال: إنك لاتفعل ذلك ليضلوا عن سبيلك.

وقال احمد بن يحيى ثعلب: هذه لام الاضافة، والمعنى لضلالتهم عن سبيلك " اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم ". وحكى البلخي: انه يجوز أن يكون ذلك على التقديم والتأخير وتقديره ربنا ليضلوا عن سبيلك فلا يؤمنوا ربنا اطمس على اموالهم وقيل إن قوله " فلا يؤمنوا " خرج مخرج الجواب للامر ومعناه

---

(١) سورة ٤ النساء آية ٤٦ (٢) انظر ١ / ٢٢٦ تعليقة ١ و ٣ / ٢١٦ (٣) ديوان الاعشى والاعشيين ٥٨ وتفسير القرطبي ٨ / ٢٧٥

(*)

الاخبار، كما يقولون انظر إلى الشمس تغرب. وقيل: ان المعنى لايؤمنون ايمان الجاء حتى يروا العذاب الاليم وهم مع ذلك لا يؤمنون ايمان اختيار اصلا. وقال بعضهم: اللام لام (كي) وانه اعطاهم الاموال والزينة لكي يضلوا عقوبة وهذا خطأ، لانه يوجب ان يكون ضلالهم عن الدين طاعة لله.

قوله تعالى:

قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لايعلمون (٨٩) آية حكى الله تعالى أنه اجاب موسى وهارون، فقال لهما " قد اجيبت دعوتكما " والجواب موافقة للدعوة فيما طلب بها لوقوعها على تلك الصفة. فالله تعالى يجيب الدعاء إذا وقع بشروط الحكمة. واختلفوا في هل يجوز أن يجيب الله تعالى دعوة الكافر أم لا؟ فقال ابوعلي الجبائي: لايجوز لان اجابته إكرام

له كما يقولون: فلان مجاب الدعوة اي هو رجل صالح. والكافر ليس بهذه المنزلة. وقال ابوبكر بن الاخشاد: يجوز ذلك إذا كان فيه ضرب من المصلحة. والاجابة قد تكون من الاعلى للادون من غير ترغيب المدعو. والطاعة لا تكون إلا من الادنى للاعلى.

ولايجوز عند اكثر المحصلين ان يدعو نبي على قومه من غير إذن سمعي، لانه لايأمن أن يكون منهم من يتوب مع اللطف في التبقية، فلايجاب. ويكون ذلك فتنة.

والدعوة طلب الفعل بصيغة الامر وقد يدعى بصيغة الماضي كقولك: غفر الله لك واحسن اليك، وجزاك الله خيرا. وإنما قال " اجيبت دعوتكما " والداعي موسى لان دعاء موسى كان مع تأمين هارون – على ما قاله الربيع وابن زيد وعكرمة ومحمد بن كعب وأبوالعالية – والمؤمن داع، لان المعنى في التأمين اللهم اجب هذا الدعاء. وقوله " فاستقيما " امر منه تعالى لهما بالاستقامة في دعائهما لفرعون

(٤٢٥)

وقومه على ما أمرتكما به ولاتتبعا سبيل الجاهلين لوعدي ووعيدي فانه لاخلف له.

وقال ابن جريح: مكث فرعون بعد هذه الامور اربعين سنة.

وقوله " ولاتتبعان سبيل الذين لايعلمون " نهي منه تعالى لموسى وهارون أن يتبعا طريقة من لا يؤمن بالله ولايعرفه. وقرأ ابن عامر وحده " ولاتتبعان " مخففة النون الا الداحوني عن هشام، فانه خير بين تخفيفها وتشديدها. وقرأ ابن عامر وحده " ولاتتبعان " ساكنة التاء مخففة مشددة النون. وفي قراءة الاخفش الدمشقي عن ابن عامر بتخفيف التاء والنون. الباقون بتشديد التاء والنون. قال ابوعلي النحوي: من شدد النون فلان هذه النون الثقيلة إذا دخلت على (تفعل)

فتح لام الفعل، لدخولها وبني الفعل معها على الفتح نحو (لتفعلن) وحذفت النون التي تثبت في (تفعلان) في حال الرفع مع النون الشديدة، وحذف الضم في (لتفعلن)، وإنما كسرت الشديدة بعد ألف التثنية. لوقوعها بعد الف التثنية، فاشبهت التى تلحق الالف في رجلان، لما كانت في هذه مثلها، ودخلت لمعنى كدخولها، ولم يعتد بالنون قبلها، لانها ساكنة، ولانها خفيفة فصارت المكسورة كأنها وليت الالف. ومن خفف النون يحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة كما خففوا (رب)

و (ان) ونحوهما، وحذفوا الاولى من المثلين كما أبدلوا الاولى من المثلين في نحو (قيراط ودينار) ولان اصلهما (قراط ودنار) فأبدلوا من إحدى النونين ياء.

ويحتمل ان يكون حالا من قوله " فاستقيما " وتقديره فاستقيما غير متبعين. ويحتمل ان يكون على لفظ الخبر والمراد به الامر.

قوله تعالى:

وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا

الذي آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين (٩٠) آية.

قرأ أهل الكوفة الا عاصما " آمنت انه " بكسر الالف. الباقون بفتحها قال ابوعلي: من فتح الهمزة فلان هذا الفعل فصل بحرف الجر في نحو " يؤمنون بالغيب " (١) و " يؤمنون بالجبت " (٢) فلما حذف الحرف وصل الفعل إلى (ان) فصار في موضع نصب او خفض على الخلاف في ذلك. ومن كسر الالف حمله على القول المضمر كأنه قال " آمنت " فقلت إنه، واضمار القول في نحو هذا كثير. وهذا احسن لان قوله (انه لا إله إلا الله) في المعنى ايمان، واذا قال آمنت فكأنه ذكر ذلك. وقال الرماني: من كسر (إن) جعله بدلا من (آمنت).

ومن فتح جعله معمول (آمنت) وفي الكلام حذف، لان تقديره فاتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا فيه فغرقناه حتى اذا ادركه الغرق.

حكى الله تعالى أنه جاوز ببني إسرائيل البحر بمعنى اخرجهم منه بأن جفف لهم البحر وجعله طرقا حتى جاوزوه. والمجاوزة الخروج عن الحد من احدى الجهات الاربعة، لانه لو خرج عن البحر بقليل وهو متعلق عليه لم يكن قد جاوزه.

والبحر مستقر الماء الواسع بحيث لايدرك طرفه من كان في وسطه. ويقال: ما فلان إلا بحر لسعة عطائه. وقوله " فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا " فالاتباع طلب اللحاق بالاول: اتبعه إتباعا وتبعه بمعنى. وحكى ابوعبيدة عن الكسائي انه قال إذا اريد انه اتبعه خيرا او شرا قالوا بقطع الهمزة، واذا اريد انه اقتدى بهم واتبع أثرهم قالوا بتشديد التاء ووصل الهمزة. والبغي طلب الاستعلاء بغير حق. والباغي مذموم لقوله تعالى " فقاتلوا التي تبغي حتى تفئ إلى امر الله " (٣). و (عدوا)

معناه عدوانا وظلما.

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٣ (٢) سورة ٤ النساء آية ٥٠ (٣) سورة ٤٩ الحجرات آية ٩

(*)

وقوله " حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت انه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا اسرائيل " اخبار منه تعالى أن فرعون حين لحقه الغرق والهلاك قال ما حكاه الله وكان ذلك ايمان إلجاء لايستحق به الثواب كما لايستحق بالايمان الضروري.

وقوله " بغيا وعدوا " نصب على المصدر والمراد بغيا على موسى وقومه واعتداء عليهم.

قوله تعالى:

الان وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين (٩١) آية قرأ أبوجعفر من طريق النهرواني ونافع إلا ابا طاهر عن اسماعيل واحمد ابن صالح عن قالون والحلواني عن قالون من طريق الحمامي " الان " في الموضعين في هذه السورة بالقاء حركة الهمزة على اللام وحذف الهمزة منهما. قال ابوعلي النحوي: اعلم ان لام المعرفة إذا دخلت على كلمة أولها الهمزة فخففت الهمزة فان في تخفيفها وجهين: احدهما – ان تحذف وتلقى حركتها على اللام وتقر همزة الوصل فيقال الحمر بالالف. والثاني – ان يقولوا: كالحمر بلا الف فيحذفون همزة الوصل، فالذين أثبتوا الهمزة فلان التقدير باللام السكون وان كانت في اللفظ متحركة. واللغة الاخرى كما انشد الكسائي:

فقد كنت تخفي حب سمراء حقبة * فبح لان منها بالذي انت بائح (١)

فاسكن الحاء لما كانت اللام متحركة، ولو لم يعتد بالحركة كما لم يعتد في الوجه الاول تحرك الحاء بالكسر كما يحركه في بح اليوم. ومعنى (الان)

فصل بين الزمان الماضي والمستقبل مع انه إلى الحاضر ولهذا بني كما بني (اذا)

وعرف (الان) بالالف واللام (وامس) بتضمين حرف التعريف لان ما مضى بمنزلة المضمن في المعنى في أنه ليس له صورة. والحاضر في معنى المصرح في صحة الصورة.

---

(١) مر هذا البيت في ١ / ٣٠٠ وهو في اللسان (أين)

(*)

واختلفوا فيمن القائل هذا القول، فقال الجبائي: ان القائل له ملك قال ذلك بأمر الله. وقال (غيره) ان ذلك كلام من الله قاله له على وجه الاهانة والتوبيخ وكان ذلك معجزة لموسى (عليه السلام) ومعنى الاية حكاية ما قبل لفرعون حين قال " آمنت أنه لا اله لا الذي آمنت به بنوا اسرائيل " بانك تقول هذا في هذه الساعة " وقد عصيت قبل " هذا " وكنت من المفسدين " في الارض بقتل المؤمنين وادعاء الالهية، وغيرذلك من انواع الكفر !.

قوله تعالى:

فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون (٩٢) آية.
قرأ يعقوب وقتيبة " ننجيك " بالتخفيف. الباقون بالتشديد.
معنى قوله " ننجيك ببدنك " نلقيك على نجوة من الارض ببدنك عريانا دون روحك قال أوس بن حجر:
فمن بنجوته كمن بعقوبه * والمستكن كما يمشي بقرواح (١)
القرواح حيث لاماء ولامطر، والبدن مستكن روح الحيوان على صورته وكل حيوان له روح وبدن، والحي في الحقيقة الروح دون البدن عند قوم، وفيه خلاف.
ومعنى قوله " لتكون لمن خلفك آية " قيل فيه قولان.
احدهما – لمن يأتي بعدك ممن يراك على تلك الصفة وقد كنت تدعي الربوبية.
الثاني – ان بني اسرائيل قالوا: مامات فرعون، فالقاه الله تعالى على نجوة من الارض ليروه، ذهب اليه ابن عباس وقتادة. وقوله " وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون " اخبار منه تعالى أن كثيرا من الخلق غافلون عن الفكر في

---

(١) مر هذا البيت في ١ / ٢١٨ و ٣ / ٣٢٦ منسوب إلى عبيد بن الابرص
(*)

حجج الله وبيناته أي ذاهبون عنها والغفلة ذهاب المعنى عن النفس ونقيضها اليقظة، والمراد بذمهم بالغفلة عن آيات الله التعريض بأنهم تركوا النظر في آيات الله.
قوله تعالى:
ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضي بينم يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون (٩٣) آية قوله " ولقد بوأنا " اخبار منه تعالى أنه وطأ منزل بني اسرائيل والتبوء توطئة المنزل لصاحبه الذي يأوي اليه، تقول: بوأته منزلا تبويئا وتبوأ، وباء بالامر بواء أي رجع. وقوله " مبوأ صدق " أي منزل صدق أي فيه فضل كفضل الصدق، كما يقال: أخو صدق وقيل: انه يصدق فيما يدل عليه من جلالة النعمة. وقوله " ورزقناهم من الطيبات " أي ملكناهم الاشياء اللذيذة. والرزق العقد على العطاء الجاري، ودلت الاية على سعة ارزاق بني اسرائيل. وقوله " فما اختلفوا حتى جاءهم العلم " قيل في معناه وجهان: احدهما – أنهم كانوا على الكفر فما اختلفوا حتى جاءهم الدليل المؤدي إلى العلم من جهة الرسول والكتاب، فآمن فريق وكفر آخرون – وهو قول الحسن وابن جريح وابن زيد – وقال قوم: كانوا على الاقرار بالنبي قبل مبعثه بصفته ونعته، فما اختلفوا حتى

جاءهم معلوم العلم به. والمنزل الصدق الذي أنزلوه قيل فيه ثلاثة اقوال: قال الحسن: هو مصر وهو منزل صالح خصب آمن.

وقال قتادة: هو الشام وبيت المقدس. وقال الضحاك: هو الشام ومصر.

وقوله " إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون " اخبار منه تعالى انه الذي يتولى الفصل بين بني اسرائيل في الامور التي يختلفون فيها.

(٤٣٠)

قوله تعالى:

فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فسئل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين (٩٤) آية هذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله) يقول له " إن كنت في شك مما " أي من الذي " أنزلنا اليك " والشك هو توقف النفس فيما يخطر بالبال عن اعتقاده على ما هو به، وعلى ما ليس به. وقيل: إن هذا وإن كان خطابا للنبي (صلى الله عليه وآله) فان المراد به الذين كانوا شاكين في نبوته. وقال قوم: إن معناه فان كنت أيها السامع في شك مما أنزلنا على نبينا اليك، ومثله قول القائل لعبده: إن كنت مملوكي فانتبه إلى امري. وقوله الرجل لابنه: ان كنت ابنى فبرني. وقوله " إن كنت والدي فتعطف علي. وحكى الزجاج وجها ثالثا وهو أن يكون معنى (إن) معنى (ما)

والتقدير: ما كنت في شك مما أنزلنا اليك " فاسأل الذين " أي لسنا نريد بأمرك لانك شاك لكن لتزداد بصيرة، كما قال لابراهيم " أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي " (١) وقوله " فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك " قيل: انما أمره بأن يسأل اهل الكتاب مع جحد اكثرهم لنبوته لامرين:

احدهما – ان يكون امره بأن يسأل من آمن من اهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب الاحبار وابن صوريا، ذهب اليه ابن عباس ومجاهد وابن زيد والضحاك.

والثاني – سلهم عن صفة النبي (صلى الله عليه وآله) المبشر به في كتبهم ثم انظر فمن وافق فيه تلك الصفة. وقال البلخي ذلك راجع إلى قوله " فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم " فأمره بأن يسألهم هل الامر على ذلك؟ فانهم لا يمتنعون عن الاخبار به ولم

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٦٠

(*)

يأمره بان يسألهم هل هو محق فيه أم لا؟ ولا ان ما انزله عليه صدق ام لا؟ ووجه آخر وهو انه انما امره أن يسألهم ان كان شاكا ولم يكن شاكا فلا يجب عليه مسألتهم وهذا معنى ما روي عنه (صلى الله عليه وآله) انه قال (ما شككت ولاانا شاك).

وقوله " لقد جاءك الحق من ربك " قسم منه تعالى بأنه قد جاءك يا محمد الحق من عند ربك لان لام (لقد) القسم. وقوله " فلا تكونن من الممترين " اي لا تكونن من الشاكين. والامتراء طلب الشك مع ظهور الدليل، وهو من مري الضرع اي مسحه ليدر، فلا معنى لمسحه بعد دروره بالحلب. وقال سعيد بن جبير والحسن وقتادة وابوعبدالله (عليه السلام): لم يسأل النبي (صلى الله عليه وآله) ويقوي ان الخطاب متوجه إلى النبي والمراد به غيره قوله بعد هذا " قل يا ايها الناس ان كنتم في شك ".

قوله تعالى:

ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين (٩٥) آية هذا الكلام عطف على قوله " فلا تكونن من الممترين. ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله " أي من جملة من يجحد بآيات الله ولا يصدق بها فانك ان فعلت ذلك كنت من الخاسرين. والمراد بالخطاب غير النبي (صلى الله عليه وآله) من جملة أمته من كان شاكا في نبوته. والنون في قوله (لاتكونن) نون التأكيد، وهي تدخل في غير الواجب لانك لاتقول انت تكونن، ودخلت في القسم على هذا الوجه لانه يطلب بالقسم التصديق، وبني الفعل مع نون التأكيد لانها ركبت مع الفعل على تقدير كلمتين كل واحدة مركبة مع الاخرى مع ان الاولى ساكنة، واقتضت حركة بناء لالتقاء الساكنين. وانما شبه الكافر بالخاسر مع ان حاله اعظم من حال الخاسر لان حال الخاسر قد جرت بها عادة. وذاق طعم الحسرة فيها فرد اليها لبيان أمرها، وخسران النفس الذي هو أعظم منها.

(٤٣٢)

قوله تعالى:

إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لايؤمنون (٩٦) ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم (٩٧) آيتان عند الجميع قد ذكرنا اختلافهم في (كلمة وكلمات) وإن من وحد فلانه اسم جنس. ومن جمع اراد اختلاف الالفاظ. اخبر الله تعالى " ان الذين حقت عليهم كلمة ربك " يا محمد اي وجب عليه التحقيق بأنهم لا يؤمنون من غير شرط ولا تقييد، تقول: حق الامر يحق حقا. وانما جاز وصف جملة من الكلام بالكلمة لانه لما كان في معنى واحد صار بمنزلة الكلمة الواحدة، ولذلك قالوا في قصيدة من الشعر انها كلمة. وقوله " حتى يروا العذاب الاليم " معناه

انهم انما يؤمنون اذا شاهدوا العذاب فآمنوا ملجئين ايمانا لاينفعهم. والرؤية في الاية رؤية العين، لانها تعدت إلى مفعول واحد.

والعذاب وان كان ألما وهو لا يصح ان يرى فلانه ترى اسبابه ومقدماته فصار بمنزلة ما يرى، فلذلك اخبر عنه بالرؤية له.

وقوله " ولو جاءتهم كل آية " اعلام بأن هؤلاء الكفار لالطف لهم يؤمنون عنده ايمان اختيار وانما جاز تكليفه الايمان باخبار الله تعالى انه لايؤمن للانعام بالمنافع في احوال التكليف التي لا تحصى كثرة مع ما في ذلك من اللطف لغيره.

ولاظلم فيه لاحد. وانما يظلم الكافر نفسه بسوء اختياره. وانما انث قوله " جاءتهم كل آية " لانه مضاف إلى الاية وهي مؤنثة كما قالوا: ذهبت بعض اصابعه. ومعنى الاية الاخبار عن ان هؤلاء لايؤمنون ايمانا يستحقون به الثواب، ولا ينافي ذلك قدرتهم على الايمان كما انه اذا اخبر انه لايقيم القيامة الساعة لم يمنع ذلك من قدرته على اقامتها في الحال. وقيل ان التقدير في الاية ان الذين لايؤمنون حقت عليهم كلمة ربك.

(٤٣٣)

قوله تعالى:

فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحيوة الدنيا ومتعناهم إلى حين (٩٨) آية معنى (فلولا) هلا، وهي تستعمل على وجهين: احدهما – على وجه التحضيض والثاني – على وجه التأنيب كقولك: هلا يأتي زيد بحاجتك، وهلا امتنعت من الفساد الذي رغبت اليه. قال الشاعر:

تعدون عقر النيب افضل مجدكم * بني ضوطرى لولا الكمي المقنعا (١)

أي هلا تعدون الشجعان.

وقوله " الا قوم يونس " نصب لانه منقطع كما قال الشاعر:

أعيت جوابا وما بالربع من أحد * إلا الاواري لايا ما ابينها

والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد (٢)

وحكى الفراء: لا إن ما أبينهما وقال: جمع الشاعر بين ثلاثة أحرف في النفي (لاوان وما) وانما جاز فلولا كانت قرية آمنت لان المراد أهل قرية فحذف اختصارا من غير اخلال بالمعنى. وقوله " فنفعها ايمانها " معناه هلا كانت اهل قرية آمنت في وقت ينفعها الايمان، وجرى هذا مجرى قول فرعون " حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذي " (٣) فاعلم الله أن الايمان لاينفع عند نزول العذاب ولا عند حضور الموت، وقوم يونس لم يقع بهم العذاب كأنهم لما رأوا الاية الدالة على العذاب آمنوا فلما آمنوا كشف عنهم العذاب. والنفع هو

(١) انظر ١ / ٣١٩، ٤٣٥ (٢) مر هذا الشعر في ١ / ٤٤، ١٥١ و ٣ / ٣٢٧ و ٤ / ١٩١ (٣) سورة ١٠ يونس آية ٩٠
(*)

اللذة، ومعناه ههنا انه وجبت لهم اللذة بفعل ما يؤدي اليها كما أن الصلة بالمال نفع، لانه يؤدي إلى اللذة، وكذلك أكل الطعام الشهي وتناول الكرية عند الحاجة نفع لانه يؤدي إلى اللذة. والخزي هو الهوان الذي يفضح صاحبه ويضع من قدره.

وقال الجبائي: المراد بأهل القرية - على قول كثير من أهل التأويل - ثمود الذين أهلكهم الله بكفرهم، والتقدير هلا أهل قرية سوى قوم يونس آمنوا فنفعهم ايمانهم وزال عنهم العذاب كما آمن قوم يونس لما أحسوا بنزول العذاب، فكشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعهم وبقاهم أحياء سالمين في الدنيا بعد توبتهم إلى مدة من الزمان. وهذا الذي ذكره إنما كان يجوز لو كان (إلا)

قوم يونس) رفعا وكان يكون " الا قوم يونس " صفة أو بدلا من الاول لان المعنى إلا قوم يونس محمول على معنى هلا كان قوم قرية أو قوم نبي آمنوا الا قوم يونس، قال الزجاج: لم يقرأ أحد بالرفع، ويجوز في الرفع أن يكون بدلا من الاول، وإن لم يكن من جنس الاول كما قال الشاعر:

وبلدة ليس لها أنيس * لا اليعافير والا العيس (١)

وقال ابوعبيدة (الا) ههنا بمعنى الواو، والمعنى وقوم يونس. وقال الحسن معنى الاية انه لم يكن فيما خلا أن يؤمن أهل قرية بأجمعها حتى لايشذ منهم أحد الا قوم يونس. فهلا كانت القرى كلها هكذا. وقرأ طلحة بن مصرف يونس ويوسف بكسر النون والسين أراد أن يجعل الاسمين عربيين مشتقين من أسف وأنس، وهو شاذ.

فان قيل: قوله " كشفنا عنهم العذاب " يدل على نزول العذاب بهم فكيف ينفع مع ذلك الايمان، وهل ذلك الا ضد قوله " فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا " (٢)؟ قلنا: ليس يجب ان يكون العذاب نزل بهم بل لا يمتنع أن يكون ظهرت لهم دلائله وان لم يروا العذاب كما أن العليل المدنف قد يستدرك التوبة

(١) مر تخريجه في ١ / ١٥١ و ٣ / ٣٢٧ (٢) سورة ٤٠ المؤمن آية ٨٥
(*)

فيقبل الله توبته قبل ان يتحقق الموت، فاذا تحققه لم يقبل بعد ذلك توبته. وقد قال الله تعالى " وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها " (١) ولا يدل ذلك على انهم كانوا دخلوا النار فأنقذوا منها فكذلك لا يمتنع ان يكون كشف عنهم العذاب وان لم يكن حل بهم ولا عاينوه اذا كان قد قرب منهم واستحقوه في الحكم.

قوله تعالى:

ولو شاء ربك لا من من في الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين (٩٩) آية أخبر الله تعالى في هذه الاية انه لو شاء وأراد " لامن من في الارض كلهم جميعا " فكلهم رفع لانه تأكيد ل (من) وهي مرتفعة بالايمان (وجميعا) منصوب على الحال. والمشيئة والارادة والايثار والاختيار نظائر، وانما يختلف عليهم الاسم بحسب مواقعها على ما بيناه في الاصول. وقيل: إن الشئ مشتق من المشيئة لانه مما يصح ان يذكر ويشاء، كما اشتقوا المعنى من عنيت.

ومعنى الاية الاخبار عن قدرة الله وانه يقدر على ان يكون الخلق على الايمان، كما قال " إن نشاء ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين " (٢) وانما أراد بذلك الاخبار عن قدرته بلا خلاف، ولذلك قال بعد ذلك " أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " ومعناه انه لاينبغي ان يريد إكراههم لان الله عزوجل يقدر عليه ولا يريده، لانه ينافي التكليف، وأراد بذلك تسلية النبي (صلى الله عليه وآله) والتخفيف عنه مما يحلقه من التحسر والحرص على ايمانهم.

وفي الاية دلالة على بطلان قول المجبرة، فانه تعالى لم يزل شايئا وانه لا يوصف بالقدرة ايضا، لانه تعالى اخبر انه لويشاء لقدر عليه لكنه لم يشأ فلذلك لم

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٠٣ (٢) سورة ٢٦ الشعراء آية ٤

(*)

يوجد ولو كان شايئا لم يزل لما جاز ان يقول ولو شاء ربك كما لايجوز أن يقول لوشاء لقدر لما كان قادرا حاصلا لم يزل.

قوله تعالى:

وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون (١٠٠) آية قرأ ابوبكر إلا الاعشى والبرجمي (ونجعل) بالنون. الباقون بالياء.

من قرأ بالياء فلانه تقدم ذكر الله فكنى عنه. ومن قرأ بالنون ابتدأ بالاخبار عن الله.
ومعنى قوله " وما كان لنفس ان تؤمن إلا باذن الله " انه لايمكن احد ان يؤمن إلا بـــاطلاق الله له في الايمان وتمكينه منه ودعاءه اليه بما خلق فيه من العقل الموجب لذلك. وقـــال الحســـن وابوعلي الجبائي: اذنه ههنا أمره كا قال " يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق مـــن ربكـــم فآمنوا خيرا لكم " (١) وحقيقة اطلاقه في الفعل بالامر، وقد يكون الاذن بالاطلاق في الفعـــل برفع التبعة. وقيل: معناه وما كان لنفس أن تؤمن إلا بعلم الله. وأصل الاذن الاطلاق في الفعل فأما الاقدار على الفعل فلا يسمى أذنا فيه، لان النهي ينافي الاطلاق. قال الرمـــاني: والـــنفس خاصة الشئ التي لو بطل ما سواها لم يبطل ذلك الشئ، ونفسه وذاته واحد إلا انه قـــد يؤكـــد بالنفس ولايؤكد بالذات. والنفس مأخوذة من النفاسة.
وقوله " ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون " قيل في معناه قولان:
احدهما – قال الفراء: الرجس العذاب يجعله على الذين لا يعقلون امر الله ولا نهيـــه ولا مـــا يدعوهم اليه. والثاني – قال الحسن: الرجس الكفر أي يجعله بمعنى انه

---

(١) سورة ٤ النساء ١٦٩
(*)

يحكم انهم اهله ذما لهم واسما " على الذين لا يعقلون " اي كانهم لايعقلون شيئا ذما لهم وعيبا وقال ابن عباس: الرجس الغضب والسخط. وقال ابوعبيدة الرجز العذاب ومثله الرجس، ومنه قوله " لان كشفت عنا الرجز " (١) وقوله " فلما كشفنا عنهم الرجز " (٢) وقولـــه " والرجـــز فاهجر " (٣) معناه وذا الرجز أي الذي تؤدي عبادته إلى العذاب. وقال الحسن: الرجز بضـــم الراء العذاب، وبكسرها الرجس. وقال الفراء: يجوز أن يكون الرجز بمعنى الرجس وقلبـــت الزاي سينا كما قالوا اسد وأزد.
قوله تعالى:
قل انظروا ماذا في السموات والارض وما تغني الايات والنذر عن قوم لا يؤمنون (١٠١) آية امر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يأمر الخلق بالنظر لانه الطريق المؤدي إلى معرفـــة الله تعالى. والنظر المراد في الاية الفكر والاعتبار. وقال الرماني: هو طلب الشئ من جهـــة الفكر كما يطلب ادراكه بالعين. ومعنى قوله تعالى " ماذا في السموات والارض " أي ما فيهما من العبر من مجئ الليل والنهار مجرى البحور والافلاك ونتاج الحيـــوان وخـــروج الـــزرع

والثمار، ووقوف السماوات والارض بغير عماد، لان كل ذلك تدبير يقتضي مـــدبرا لايشـــبه الاشياء ولا تشبهه. وقوله " وما تغني الايات والنذر عن قوم لا يؤمنون " قيل في معناه قولان: احدهما – أن تكون (ما) نفيا بمعنى ما يغني عنهم شيئا بدفع الضرر، اذا لم يفكروا فيها ولـــم يعتبروا بها كقولك: وما يغني عنك المال شيئا اذا لم تنفقه في وجوهه.

(١، ٢) سورة ٧ الاعراف آية ١٣٣، ١٣٤ (٢) سورة ٧٤ المدثر آية ٥

(*)

والاخر – أن تكون (ما) للاستفهام كقولك أي شئ يغني عنهم من اجتلاب نفع أو دفع ضـــرر إذا لم يستدلوا بها. والنذر جمع نذير وهو صاحب النذارة وهي اعلام بموضع المخافة ليقع به السلامة.

قوله تعالى:

فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين (١٠٢) آية خاطب الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) بلفظ الاستفهام والمراد به النفي لان تقديره لـــيس ينتظر هؤلاء الكفار الامثل أيام الذين خلوا من قبلهم. وانما قابل بين الايام المنتظـــرة والايـــام الماضية في وقوع العذاب والحسرة حين لا تنفع الندامة. والانتظار هو الثبات لموقع ما يكون من الحال، تقول: انتظرني حتى ألحقك ولو قلت توقعني لم تكن أمرته بالثبات. والمثـــل فـــي الجنس ماسد أحدهما مسد صاحبه فيما يرجع إلى ذاته والمثل في غير الجنس ما كـــان علـــى المعنى يقربه من غيره كقربه من جنسه كتشبيه اعمال الكفار بالسراب. وقوله " قل فـــانتظروا اني معكم من المنتظرين " أمر من الله لنبيه أن يقول لهم: انتظروا ما وعد الله به من العقـــاب فاني منتظر نزوله بكم مع جميع المنتظرين كما وعد الله به.

قوله تعالى:

ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين (١٠٣) آية قرأ يعقوب " ثم ننجي " بالتخفيف. وقرأ الكسائي ويعقوب وحفص والكسائي عن ابي بكر " ننجي المؤمنين " بالتخفيف. الباقون بالتشديد فيهما. قال ابوعلي

النحوي: يقال نجا زيد نفسه، فاذا عديته، فان شئت قلت أنجيته وان شئت قلت نجيتـــه. ومـــن شدد فلقوله " ونجينا الذين آمنوا " (١) ومن خفف فلقوله " فأنجاه الله من النار " (٢) وكلاهمـــا حسن.

أخبر الله تعالى أنه إذا اراد إهلاك قوم استحقوا الهلاك نجى رسله من بينهم وخلصـــهم مـــن العقاب، ويخلص مع الرسل المؤمنين الذين أقروا له بالوحدانية وللرسل بالتصـــديق. وقولـــه " كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين " وجه التشبيه في ذلك أن نجاة من يقر من المؤمنين كنجاة من مضى في أنه حق على الله ثابت لهم ويحتمل أن يكون العامل فـــي " كـــذلك " ننجـــي الاول وتقديره ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك الانجاء ويحتمل أن يعمل فيه الثاني، وكذلك حقا علينا.

ومعنى قوله " حقا علينا " يحتمل أمرين: احدهما – أن يكون معناه واجبا علينا ننجي المؤمنين من عقاب الكفار، ذكره الجبائي. والثاني – أن يكون على وجه التأكيد كقولك مررت بزيد حقا إلا أن علينا يقتضي الوجه الاول.

والنجاة مأخوذة من النجوة وهي الارتفاع عن الهلاك. والسلامة مأخوذة من إعطاء الشئ من غير نقيصه، اسلمته اليه اذا اعطيته سالما من غير آفة.

قوله تعالى:

قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبدالله الذي يتوفيكم وأمرت أن أكون من المؤمنين (١٠٤) آية.

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) ان يقول للخلق " يا أيها الناس ان كنتم

---

(١) سورة ٤١ حم السجدة آية ١٨ (٢) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٢٤

(*)

في شك من ديني " فان ديني أن " لا أعبد الذين تعبدون من دون الله " أي إن كنتم في شك مما أذهب اليه من مخالفتكم فاني أظهره لكم وأبرء مما أنتم عليه وأعرفكم ما أمرت به وهو أن أكون مؤمنا بالله وحده وأن أقيم وجهي للدين حنيفا.

إن قيل: لم قال " إن كنتم في شك من ديني " مع اعتقادهم بطلان دينه؟ قلنا عنه ثلاثة أجوبة: احدها – أن يكون على وجه التقدير أي من كان شاكا في أمري وهو مصمم على أمره فهذا حكمه. والثاني – انهم في حكم الشاك للاضطراب الذي يجدون نفوسهم عليه عند ورود الايات والثالث – ان فيهم الشاك فغلب ذكرهم، وإنما جعل جواب (ان كنتم في شك) (لاأعبد) وهو لايعبد غير الله شكورا أولم يشكوا، لان المعنى لاتطمعوا أن تشككوني بشككم حتى أعبد غير الله كعبادتكم، كأنه قيل: إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله بشككم ولكن أعبدالله الذي يتوفاكم أي الذي أحياكم ثم يقبضكم وهو الذي يحق له العبادة دون أوثانكم ودون كل شئ سواه.

قوله تعالى وأن أقم وجهك الذين حنيفا ولا تكونن من المشركين (١٠٥) آية هذه الاية عطف على ما قبلها والتقدير وأمرت أن أكون من المؤمنين، وقيل لي: أقم وجهك وقيل في معناه قولان: احدهما – استقم باقبالك على ما أمرت به من القيام باعباء النبوة وتحمل أمر الشريعة ودعاء الخلق إلى الله بوجهك، اذ من أقبل على الشئ بوجهه يجمع همته له فلم يضجع فيه. والثاني – أن يكون معناه أقم وجهك في الصلاة بالتوجه نحو الكعبة. والاقامة نصب الشئ

المنافي لاضجاعه تقول: أقام العود إذا جعله على تلك الصفة فأما أقام بالمكان فمعناه استمر به. والوجه عبارة عن عضو مخصوص ويستعمل بمعنى الجهة كقولهم:
هذا معلوم في وجه كذا، ويستعمل بمعنى الصواب كقولك: هذا وجه الرأي.

(٤٤١)

وقيل في معنى الحنيف قولان: احدهما – الاستقامة. وقيل للمايل القدم أحنف تفاؤلا. والثاني – الميل، وقيل الحنف في الدين لانه ميل إلى الحق.
وقوله " ولا تكونن من المشركين " معناه نهي عن الاشراك مع الله تعالى غيره في العبادة تصريحا بالتحذير عن ذلك والذم لفاعله.
قوله تعالى ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين (١٠٦) آية قيل في معنى قوله " ولاتدع من دون الله " قولان: احدهما – لاتدعه إلها كما يدعو المشركين الوثن إلها. الثاني – لا تدعه دعاء الالهة في العبادة بدعائه. والدعاء يكون على وجهين: احدهما – بلفظ النداء كقولك: يا زيد اذا دعوته باسمه. والثاني – أن تدعوه إلى الفعل وتطلب منه فعله كقول القائل لمن فوقه: إفعل. وقوله " ولا تدع من دون الله " معناه لاتدع غير الله إلها. وانما قال " ما لا ينفعك ولا يضرك " مع أنه لو نفع وضر لم تحسن عبادته لامرين:
احدهما – أن يكون معناه ما لا ينفك ولا يضرك نفع الاله وضره والثاني – انه إذا كان عبادة غير الله ممن يضر وينفع قبيحة فعبادة من لا يضر ولاينفع أقبح وأبعد من الشبهة. وقوله " فان فعلت فانك اذا من الظالمين " معناه انك إن خالفت ما أمرت به من عبادة الله كنت ظالما لنفسك بادخال الضرر الذي هو العقاب عليها. وهذا الخطاب وإن كان متوجها إلى النبي فالمراد به أمته، ويجوز أن يكون الانسان يضر نفسه بما يفعل بأن يؤديها إلى الضرر. ولايجوز أن ينعم على نفسه لان النعمة تقتضي شكر المنعم عليه وذلك لايمكن من الانسان ونفسه كما لايمكن أن يثبت له في نفسه مال أو دين.

(٤٤٢)

قوله تعالى:
وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم (١٠٧) آية قوله " وان يمسسك الله بضر " اي ان احل بك الضر، لان المس الحقيقي لايجوز عليه، لان حقيقتها تكون بين الجسمين، لكن لما ادخل الباء للتعدية جرى مجرى ان تقول يمسك من امسه. وأما اذا لم يتعد فيكون كقوله " مسني الضر "
(١)

والمماسة والمطابقة والمجامعة نظائر، وضدها المباينة. والكشف رفع الساتر المانع من الادراك. فكأن الضر ههنا كأنه ساتر يمنع من ادراك الانسان.

وقوله " وان يردك بخير " تقديره وان يرد بك الخير، وجاز على التقديم والتأخير كما يقول القائل: فلان يريدك بالخير ويريد بك الخير. والمعنى انه لاراد لما يريد الله بخلقه فان اراد بهم سوءا لايقدر على دفعه احد. وان ارادهم بخير فلا يقدر احد على صرفه عنهم " يصيب به من يشاء من عباده " يعني بالخير.

وقوله " وهو الغفور الرحيم " معناه انه الغفار لكل من تاب من شركه وذنبه فلا ييأس من ذلك احد في حال تكليفه. وعندنا يجوز أن يغفر الله ذنب المؤمن من غير توبة. و (الرحيم) معناه انعامه على جميع خلقه.

قوله تعالى:

قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى

---

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٨٣

(*)

فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل (١٠٨) آية امر الله تعالى نبيه في هذه الاية أن يقول للخلق قد جاءكم الحق من الله وهو الذي من عمل به من العباد نجا، وضده الباطل وهو الذي من عمل به هلك، فمن علم بالحق كان حكيما. ومن عمل بالباطل كان سفيها. والمراد بالحق ههنا ما أتى به النبي (صلى الله عليه وآله) من القرآن والشرائع والاحكام وغير ذلك من الايات والدلالات " فمن اهتدى " بها بأن نظر فيها وعرفها حقا وصوابا " فانما يهتدي لنفسه " ومعناه فان منافع ذلك تعود عليه من الثواب دون غيره " ومن ضل " عنها وعدل عن تأملها والاستدلال بها والعمل بموجبها " فانما يضل " عن منافع نفسه وهو الجاني عليها. وقوله " وما أنا عليكم بوكيل " معناه وما أنا عليكم بوكيل في منعكم من اعتقاد الباطل بل انظروا لانفسكم نظر من يطالب بعمله ولايطالب غيره بحفظه كأنه قال ما أنا حافظكم من الهلاك اذا لم تنظروا لانفسكم ولم تعملوا بما بخلصها ما يحفظ الوكيل مال غيره.

قوله تعالى:

واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين (١٠٩) آية أمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) ان يتبع ما يوحى اليه. والايحاء إلقاء المعنى في النفس على وجه خفي وهو

ما يجئ به الملك إلى النبي (صلى الله عليه وآله) عن الله تعالى فيلقيه اليه ويخصه به من غير أن يرى ذلك غيره من الخلق.

وقوله " واصبر " امر من الله تعالى له بالصبر وهو تجرع مرارة الامتناع

(٤٤٤)

من المشتهى إلى الوقت الذي يجوز فيه تناوله، كصبر الصائم على الجوع والعطش، وكصبر النفس عن تناول المحرمات. وانما يعين على الصبر العلم بعاقبته وكثرة الفكر فيه وفي الخير الذي ينال به وبذكر ما وعد الله على فعله من الثواب وعلى تركه من العقاب. وقوله " حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين " امر منه تعالى للنبي (صلى الله عليه وآله) بالصبر على اذى المشركين وعلى قولهم انك ساحر كذاب ومجنون، حتى يحكم فيأمرك بالهجرة والجهاد. قال الحسن: وقد كان الله اعلمه انه سيفرض عليه جهاد الكفار. وقيل نسخ ذلك فيما بعد بالامر بالجهاد، والتقدير إلى أن يحكم الله بهلاكهم وعذابهم في يوم بدر وغيره " وهو خير الحاكمين " معناه خير الحكام لانه قد يكون حاكم افضل من حاكم مع كونهما محقين كمن يحكم على الباطن فانه افضل ممن يحكم على الظاهر، لان الاول لايقع إلا حقا، والاخر يجوز أن يكون حقا في الظاهر وان كان فاسدا في الباطن.

(٤٤٥)

١١ – سورة هود مكية في قراءة قتادة ومجاهد وغيرهما. وهى مئة وثلاث وعشرون آية في الكوفي، واثنتان في المدني، وواحدة في البصري وعند اسماعيل.

بسم الله الرحمن الرحيم آلر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير (١) آية روى الكسائي عن أبي بكر " من لدن حكيم " ههنا وفي النمل، بسكون الدال واشمامها الضم وكسر النون. الباقون بضم الدال واسكان النون. ولم يعد أحد من القراء (الر) آية كما عد قوم (طه) و (الم) و (حم) آية، لان ثانية لايشبه رؤس الاي بنفس الحرف ولابالردف. وقد بينا في أول سورة البقرة اختلاف المفسرين في هذه الحروف وأمثالها وأن الاقوى أن يقال إنها أسماء للسور.

وروي عن الحسن أنه قال: ما أدري تأويل (الر) غير ان المسلمين كانوا يقولون: هي اسماء للسور ومفاتحها. وخرجت هذه الحروف على وجه التهجي لايعرب شئ منها، لانها حروف ولو كانت اسماء لدخلها الاعراب. وقال الفراء " الر كتاب " رفع بحروف الهجاء. وقال غيره " كتاب " رفع بأنه خبر المبتدأ وتقديره هو كتاب او هذا كتاب والمراد ب (كتاب) القرآن.

(٤٤٦)

وقوله " احكمت آياته ثم فصلت " قيل في معناه ثلاثة أقوال:

احدها – قال الحسن: احكمت بالامر والنهي، وفصلت بالثواب والعقاب.

الثاني – قال قتادة احكمت آياته من الباطل. ثم فصلت بالحرام والحلال.

الثالث – قال مجاهد " احكمت آياته " على وجه الجملة " ثم فصلت " اي بينت بذكرها آية آية.

والاحكام منع الفعل من الفساد، قال الشاعر:

أبني حنيفة احكموا سفهاءكم * إني اخاف عليكم أن أغضبا (١)

وقوله " من لدن حكيم خبير " معناه من عند حكيم عليم. وقوم يجعلون في (لدن) ضميرا فينصبون ما بعده فيقولون لدن غدوة. وقوم يجعلونه غاية ولايضمرون فيه شيئا بعينه فيرفعون مابعده لان ما بعد الغاية مرفوع، فيقولون لدن غدوة.

وروي عن عكرمة انه قرأ " فصلت " بفتح الفاء والصاد وتخفيفها – وهي شاذة لم يقرأ بها احد.

والحكيم يحتمل معينين: احدهما – عليم، فعلى هذا يجوز وصفه بأنه حكيم فيما لم يزل.

والثاني – بمعنى أنه محكم لافعاله. وعلى هذا لايوصف به فيما لم يزل.

والحكمة المعرفة بما يمنع الفعل من الفساد والنقص وبها يميز القبيح من الحسن والفاسد من الصحيح وقال الجبائي في الاية دلالة على أن كلام الله محدث بأنه وصفه بأنه أحكمت آياته، والاحكام من صفات الافعال، ولايجوز أن تكون احكامه غيره لانه لو كان احكامه غيره لكان قبل ان يحكمه غير محكم ولو كان كذلك لكان باطلا، لان الكلام متى لم يكن محكما وجب أن يكون باطلا فاسدا، وهذا باطل.

قوله تعالى:

ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير (٢) آية

---

(١) مر تخريجه في ٢ / ١٨٨

(*)

يحتمل (أن) في قوله " أن لاتعبدوا " أمرين:

احدهما – أن يكون بمعنى المصدر كقولك كتبت اليه أن لا تخرج بالجزم وكان يجوز في العربية أن لا تعبدون على الوجه الاول، وهو الاخبار بأنهم لايعبدون كما تقول: كتبت اليه أن لا تخرج أي بأنك لاتخرج. و " أن لا تعبدوا " في موضع نصب وتقديره فصلت آياته بأن لاتعبدوا او لئلا تعبدوا.

والثاني – يحتمل أن يكون المعنى أمرتم بأن لاتعبدوا، فلما حذف الباء نصب بعدها، ومعنى (إلا) في الاية ايجاب للمذكور بعدها وهو ما نفي عن كل ما سواه من العبادة وهي التي تفرغ عامل الاعراب لما بعدها من الكلام. وقوله " اني لكم منه نذير وبشير " اخبار أن النبي (صلى الله عليه وآله) مخوف من مخالفة الله وعصيانه بأليم عقابه مبشر بثواب الله على طاعاته واجتناب معاصيه، والنذارة اعلام موضع المخافة ليتقى، ونذير بمعنى منذر كأليم بمعنى مؤلم. والبشارة اعلام بما يظهر في بشرة الوجه به المسرة وبشير بمعنى مبشر. وقوله " وابشروا بالجنة " معناه واستبشروا.

قوله تعالى:

وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير (٣) آية.

هذه الاية عطف على ما قبلها وتقديره ثم فصلت من لدن حكيم خبير بان لا تعبدوا إلا الله وبأن استغفروا ربكم بمعنى سلوا الله المغفرة ثم توبوا اليه، وانما ذكرت التوبة بعد الاستغفار، لان المعنى اطلبوا المغفرة بأن تجعلوها غرضكم ثم توصلوا إلى مطلوبكم بالتوبة، فالمغفرة أول في الطلب وآخر في السبب. وقيل ان

المعنى استغفروا ربكم من ذنوبكم ثم توبوا اليه في المستأنف متى وقعت منكم المعصية، ذكره الجبائي وقوله " يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى " يعني انكم متى استغفرتموه وتبتم اليه متعكم متاعا حسنا في الدنيا بالنعم السابغة والملاذ المختلفة إلى الوقت الذي قدر لكم أجل الموت فيه.

وقوله " ويؤت كل ذي فضل فضله " يحتمل امرين: احدهما – أن يعطي كل ذي عمل على قدر عمله في الاخرة دون الدنيا، لانها ليست دار الجزاء والثاني – الترغيب في عمل الخير لانه على مقداره يجازي صاحبه.

وقوله " فان تولوا فاني اخاف عليكم " يحتمل امرين: احدهما – فان تتولوا، إلا انه حذف للتضعيف ولذلك شدده ابن كثير في رواية البزي عنه.

والاخر – ان يكون بمعنى فقل " إني أخاف عليكم عذاب يوم كبير " يعنى عذاب يوم القيامة ووصف ذلك اليوم بالكبير لعظم مايكون فيه من الاهوال والمجازاة لكل انسان على قدر عمله.

قوله تعالى إلى الله مرجعكم وهو على كل شئ قدير (٤) آية قيل في معنى قوله " إلى الله مرجعكم " قولان: احدهما – اليه مصيركم باعادته اياكم للجزاء. والثاني – إلى الله مرجعكم

باعادته إلى مثل الابتداء من انه لايملك لكم ضرا ولانفعا سواه تعالى، والمرجع المصير إلى مثل الحال الاولى.

وقوله " وهو على كل شئ قدير " اخبار منه تعالى انه يقدر على كل شئ إلا ما اخرجه الدليل مما يستحيل أن يكون قادرا عليه من مقدورات غيره وما يقضى وقته من الاجناس التي لايصلح عليها البقاء.

(٤٤٩)

قوله تعالى ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور (٥) آية روي عن ابن عباس انه قرأ " إلا انهم يثنون صدورهم " على وزن (يحلون)

وأراد المبالغة ومعنى (ألا)؟؟؟؟، وما بعده مبتدأ.

أخبر الله تعالى ان الكفار يثنون صدورهم. وقيل في معناه ثلاثة اقوال:

احدها – قال الفراء والزجاج: يثنونها على عداوة النبي (صلى الله عليه وآله). وقال الحسن: يثنونها على ما هم عليه من الكفر. وقال ابوعلي الجبائي، يثني الكافر صدره على سبيل الانحناء، في خطابه لكافر مثله ممن يختصه لئلا يعرف الله ما أضمره. وقال ابوعبدالله بن شداد: ولى ظهره إذا رأى النبي (صلى الله عليه وآله) وغطى وجهه بالثوب واصل الثني العطف تقول: ثنيته عن كذا اي غطيته ومنه الاثنان لعطف احدهما على الاخر في المعنى، ومنه الثناء لعطف المناقب في المدح، ومنه الاستثناء لانه عطف عليه بالاخراج منه.

وقوله " ليستخفوا منه " فالاستخفاء طلب خفاء النفس تقول: استخفى استخفاء وتخفى تخفيا، ونظيره استغشى وتغشى قالت الخنساء:

أرعى النجوم وما كلفت رعيتها * وتارة اتغشى فضل اطماري (١)

والهاء في منه يحتمل أن تكون عائدة إلى اسم الله – في قول الحسن ومجاهد والجبائي – جهلا منهم بأن الله لايخفى عليه خافية. وقال ابوعبدالله بن شداد:

هي عائدة على النبي (صلى الله عليه وآله).

وقوله " ألا حين يستغشون ثيابهم " معناه انهم كانوا يتغطون بثيابهم ثم يتفاوضون

---

(١) ديوانها ١٠٩ واللسان (رعي) واساس البلاغة ٣٥١

(*)

(٤٥٠)

ما كانوا يدبرونه على النبي وعلى المؤمنين ويكتمونه عن الناس، فبين الله تعالى انهم وقت ما يتغطون بثيابهم ويجعلونها غشاء فوقهم عالم بما يسرون وما يعلنون، لا انه يتجدد له العلم في حال استغشائهم بالثوب بل هو عالم بذلك في الازل. ومعنى " ما يسرون وما يعلنون " اي ما يخفونه في أنفسهم وما يعلنونه أي يظهرونه " انه عليم بذات الصدور " ومعناه عالم بأسرار ذات الصدور.

قوله تعالى:

وما من دابة في الارض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين (٦) آية.

أخبر الله تعالى أنه ليس في الارض دابة إلا والله تعالى متكفل برزقها.

والدابة الحي الذي من شأنه أن يدب يقال: دب يدب دبيبا وأدبه ادبابا، غير انه صار بالعرف عبارة عن الخيل والبراذين دون غيرها من الحيوان.

وقوله " ويعلم مستقرها ومستودعها " فالمستقر الموضع الذي يقر فيه الشئ وهو قراره ومكانه الذي يأوي اليه. والمستودع المعنى المجعول في القرار كالولد في البطن والنطفة التي في الظهر وقيل: مستودعها مدفنها بعد موتها. وقيل: متسقرها في اصلاب الاباء ومستودعها في ارحام الامهات. وقيل: مستقرها ما تستقر عليه، ومستودعها ما تصير اليه.

وقوله " كل في كتاب مبين " خبر من الله تعالى أن جيمع ذلك مكتوب في كتاب ظاهر يعني اللوح المحفوظ، وانما اثبت تعالى ذلك مع انه عالم انه لايعزب عنه شئ لما فيه من اللطف للملائكة او يكون فيه لطف لمن يخبر بذلك.

قوله تعالى:

وهو الذي خلق السموات والارض في ستة أيام وكان

عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين (٧) آية اخبر الله تعالى أنه خلق السماوات والارض وأنشأهما في ستة ايام، وانما خلقهما في هذا المقدار من الزمان مع قدرته ان يخلقهما في أقل من لمح البصر ليبين بذلك ان الامور جارية في التدبير على منهاج، ولما علم في ذلك من مصالح الخلق من جهة اقتضاء ان ينشأها على ترتيب يدل على انها كانت عن تدبير عالم بها قبل فعلها مثل سائر الافعال المحكمة.

وقوله " وكان عرشه على الماء ليبلوكم " معناه انه خلق الخلق ودبر الامر ليظهر احسان المحسن، لانه الغرض الذي يجري بالفعل اليه. وفي وقوف العرش على الماء، والماء على غير قرار اعظم للاعتبار لمن امعن النظر واستعمل الفكر.

والمراد بقوله " في ستة ايام " ما مقدارة مقدار ستة أيام، لانه لم يكن هناك ايام تعد، لان اليوم عبارة عما بين طلوع الشمس وغروبها.

وقوله " ليبلوكم " معناه ليعاملكم معاملة المبتلي المختبر مظاهرة في العدل لئلا يتوهم أنه يجازي العباد بحسب ما في المعلوم أنه يكون منهم قبل أن يفعلوه.

وقوله " أيكم أحسن عملا " فيه دلالة على أنه يكون فعل حسن أحسن من فعل حسن آخر لان لفظة أفعل حقيقتها ذلك. ولا يجوز ترك ذلك الا لدليل، وليس ههنا ما يوجب الانصراف عنه.

وقوله " ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا الاسحر مبين " إعلام من الله تعالى لنبيه انه لو قال لهؤلاء الكفار ان الله يبعثكم بعد موتكم ويجازيكم على أعمالكم لقالوا: ليس هذا القول الا سحر ظاهر. ومن

قرأ (ساحر) اراد ليس هذا يعنون النبي (صلى الله عليه وآله) الا ساحر مبين. وقال الجبائي في الاية دلالة على انه كان قبل خلق السماوات والارض الملائكة قال: لان خلق العرش على الماء لاوجه لحسنه الا أن يكون فيه لطف لمكلف يمكنه الاستدلال به فلابد اذا من حي مكلف. والاقوى ان يقال: انه لايمتنع ان يتقدم خلق الله لذلك اذا كان في الاخبار بتقدمه مصلحة الملكلفين، وهو الذي اختاره الرماني. وكان علي بن الحسين الموسوي المعروف بالمرتضى (ره) ينصره.

وظاهر الاية يقتضي ان العرش الذي تعبد الله الملائكة بحمله كان مخلوقا قبل السموات والارض، وهو قول جميع المفسرين: كابن عباس ومجاهد وقتادة والبلخي والجبائي والرماني والفراء والزجاج وغيرهم. وقال ابن عباس: كان العرش على الماء، والماء على الهواء. وقال الجبائي: ثم نقل الله العرش إلى فوق السماوات قوله تعالى:

ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن (٨) آية.

اللام في قوله " ولئن أخرنا " لام القسم. ولا يجوز ان تكون لام الابتداء، لانها دخلت على (ان) التي للجزاء، ولام الابتداء إنما هي للاسم او ما ضارع الاسم في باب (ان) وجواب الجزاء مستغنى عنه بجواب القسم، لانه اذا جاء في صدر الكلام غلب عليه كما انه اذا تأخر

او توسط الغي. ومعنى قوله " أخرنا عنهم العذاب إلى امة معدودة " اخر إلى حين أمة معدودة كما قال " واد كر بعد امة " (١)

اي بعد حين. وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والزجاج والفراء وغيرهم.

---

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٤٥

(*)

وقال الجبائي: معناه إلى أمم بعد هؤلاء يكلفهم فيعصونه فتقتضي الحكمة إهلاكهم وإقامة القيامة. وقال الرماني: معناه إلى جماعة معدودة بانه ليس فيها من يؤمن فاذا صاروا إلى هذه الصفة أهلكوا بالعذاب، كما اهلك قوم نوح في الدنيا.

وأهلكوا بعذاب الاخرة لكونهم على هذه الصفة.

وقوله " ليقولن ما يحبسه " فالحبس المنع بالحصر في خباء. ويقال حبس الماء إذا منع من النفوذ. وحبس السلطان الرزق اذا معنه. وحبس عنهم العذاب إذا منع من اتيانهم إلى الاجل المعلوم. والتقدير ما الذي يمنع من تعجيل هذا العذاب الذي نتوعد به؟ فقال الله تعالى " ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم " ومعناه ان هذا العذاب الذي يستبطئونه اذا نزل بهم في الوقت المعلوم لايقدر على صرفه أحد عنهم ولا يتمكنون من اذهابه عنهم اذا اراد الله ان تأتيهم به.

وقوله " وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون " معناه انه نزل بهم الذي كانوا يسخرون منه من نزول العذاب ويتحققونه.

قوله تعالى:

ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور (٩) آية أقسم الله تعالى في هذه الاية انه لو احل تعالى بالانسان رحمة من عنده يعني مايفعله الله تعالى بهم في الدنيا من الارزاق، فانه يعم بها خلقه كافرهم ومؤمنهم.

ثم نزعها منه وسلبها، وسمى احلال اللذات بهم اذاقة تشبيها ومجازا، لان الذوق في الحقيقة تناول الشئ بالفم لادراك الطعم، والانسان حيوان على الصورة الانسانية لان الصورة الانسانية بانفرادها قد تكون للتمثال ولايكون انسانا فاذا اجتمعت الحيوانية والصورة لشئ فهو انسان. قال الرماني: وكلما لاحياة فيه فليس بانسان

كالشعر والظفر وغيرهما. والنزع رفع الشئ عن غيره مما كان مشابكا له، والنـــزع والقلـــع والكشط نظائر. واليأس القطع بأن الشئ لايكون وهو ضد الرجاء ويؤوس كثير اليـــأس مـــن رحمة الله وهذه صفة ذم، لانه لايكون كذلك الا للجهل بسعة رحمة الله التي تقتضي قوة الامل. وفائدة الاية الاخبار عن سوء خلق الانسان وقنوطه من الرحمة عند نزول الشدة وأنه إذا أتعم عليه بنعمة لم يشكره عليها وإذا سلبها منه يئس من رحمة الله وكفر نعمه، وهو مصروف إلى الكفار الذين هذه صفتهم.

قوله تعالى:

ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيآت عني إنه لفرح فخور (١٠) آية أقســم الله تعالى في هذه الاية أنه لو أحل بالانسان " نعماء بعد ضراء مسته " لان الهاء كنايـــة عـــن الانسان الذي مضى ذكره، والنعماء إنعام يظهر أثره على صاحبه والضراء مضـــرة تظهـــر الحال بها، لانها أخرجت مخرج الاحوال الظاهرة كحمراء وعوراء مع ما فيها من المبالغـــة. معنى " مسته " نالته. وقوله " ليقولن ذهب السيئات عني " أي يقول عند نزول النعماء به بعـــد أن كان في ضدها من الضراء:

دهبت الخصال التي تسوء صاحبها من جهة نفور طبعه أو عقله، وهـــو – ههنـــا – بمعنـــى المرض والفقر، ونحو ذلك. وقوله " إنه لفرح فخور " إخبار منه تعـــالى أن الانســـان فـــرح فخور. والفرح انفتاح القلب بما يلتذ به وضده الغم، ومثله السرور والمرح. والفرح لـــذة فـــي القلب أعظم من ملاذ الحواس، والفخور المتطاول بتعديد المناقب، وفخور كثير الفخر، وهـــي صفة ذم إذا اطلقت لما فيه من التكبر على من لايجوز أن يتكبر عليه. وقيل: للعالم أن يفخـــر على الجاهل بالعلم لتعظيم

العلم وتحقير الجهل، ولذلك تفخر النبي على الكفار.

قوله تعالى:

إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير (١١) آية لما أخبر الله تعالى عن أحوال الخلق وأن أكثرهم إذا حل بهم نعمه تعالى بعد أن كانوا في مضرة شديدة وانهم إذا يقولون ذهب السيئات عنهم وان كثيرا منهم فرح فخور، استثنى من جملتهم المؤمنين بتوحيـــد الله الصابرين على طاعاته والكف عن معاصيه وأضافوا إلـــى ذلـــك الاعمـــال الصـــالحات. والصبر حبس النفس عن المشتهى من المحارم. والصبر على مرارة الحق يؤدي إلى الفـــوز بالجنة في الاخرة مع ما فيه من الجمال في الدنيا. واستثنى الذين صبروا من الانسان، لانه في معنى الجمع كما قال " والعصر إن الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات " (١)

وقال الزجاج والاخفش: (إلا) بمنى (لكن) لانه ليس من جنس الاول. والاول قول الفراء. وقوله " أولئك لهم مغفرة وأجر كبير " إخبار من الله تعالى عن هؤلاء المؤمنين بأن لهم عند الله المغفرة والاجر العظيم.

قوله تعالى:

فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شئ وكيل (١٢) آية

---

(١) سورة ١٠٣ العصر ١ - ٢

(*)

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) يحثه على أداء جميع مابعثه به وأوحى اليه، وينهاه عن كتمانه، ويشجعه على الاداء، ويقول له لايكون لعظم ما يرد على قلبك ويضيق به صدرك من غيظهم يوهمون عليك انهم يزيلونك عن بعض ما أنت عليه من امر ربك، وأنك تترك بعض الوحي ويضيق به صدرك مخافة أن يقولوا أو لئلا يقولوا " لولا انزل عليه كنز " أي هلا انزل عليه كنز فينفق منه " أو جاء معه ملك " يعينه على أمره بل " إنما أنت نذير " أي منذر مخوف من معاصي الله وعقابه " والله على كل شئ وكيل " أي حافظ يكتب عليهم أفعالهم وأقوالهم، ومجازيهم عليها، فلا تغمك اقوالهم ولاأفعالهم ولايضيق بذلك صدرك فان وبال ذلك عائد عليهم. وضائق وضيق واحد الا ان (ضائق) ههنا احسن لمشاكلته لقوله: تارك، والضيق قصور الشئ عن مقدار غيره ان يكون فيه، فاذا ضاق صدر الانسان قصر عن معان يتحملها الواسع الصدر. والصدر مسكن القلب ويشبه به رفيع المجالس ورئيس القوم لشرفه على غير. والكنز المال المدفون لعاقبته، وصار في الشرع اسم ذم في كل مال لايخرج منه حق الله من الزكاة وغيره، وإن لم يكن مدفونا.

قوله تعالى:

أم يقولون افتريه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين (١٣) آية هذه الاية صريحة بالتحدي وفيها قطع لاعتلال المشركين وبغيهم، لانهم لما عجزوا عن معارضة القرآن قالوا: إن ما فيه من الاخبار كذب اختلقه واخترعه أو قرأ الكتب السالفة، فقال الله تعالى لهم: افتروا أنتم مثله، وادحضوا حجته فذلك أيسر وأهون مما تكلفتموه، فعجزوا عن ذلك وصاروا إلى الحرب وبذل النفس والمال وقتل الاباء والابناء. ولو قدروا على إطفاء أمره بالمعارضة لفعلوه

مع هذا التقريع العظيم. وفيه دلالة على جهة إعجاز القرآن وأنها الفصاحة في هذا النظم المخصوص، لانه لو كان غيره لما قنع في المعارضة بالافتراء والاختلاق.

وقوله " فأتوا " وإن كان لفظه لفظ الامر فالمراد به التهديد والتحدي والمثل المذكور في الاية ما كان مثله في البلاغة والنظم أو ما يقاربه، لان البلاغة ثلاث طبقات فأعلاها معجز، وأدناها وأوسطها ممكن، فالتحدي وقع بما هو في أعلى طبقة في البلاغة، ولايجوز أن يكون المراد بالمثل إلا المثل في الجنسية، لان مثله في العين يكون حكايته وذلك لايقع به تحدي. وانما يرجع إلى ما هو متعارف بينهم في تحدي بعضهم بعضا كمناقضات امرئ القيس وعلقمة، وعمربن كلثوم والحارث بن حلزة، وجرير والفرزدق وغيرهم. ومعنى (أم) تقرير بصورة الاستفهام، وتقديره بل " يقولون افتراه ". وقال بعضهم: إن الاستفهام محذوف، كأنه قال أيكذبونك أم يقولون افتراه. وهذا ليس بصحيح لان (أم) ههنا منقطعة ليست معادلة، وانما يجوز حذف الاستفهام في الضرورة. وقوله " ادعوا من استطعتم من دون الله " أي ادعوهم إلى معاونتكم على المعارضة. وهذا غاية ما يمكن من التحدى والمحاجة.

وقوله " بعشر سور مثله " اي مثل سورة منه كل سورة منها. ومعنى " مفتريات " أي مختلقات يقال: افترى واختلق واخترق، وخلق وخرق وخرص واخترص إذا كذب.

قوله تعالى:

فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون (١٤) آية قيل في المعني بقوله " فان لم يستجيبوا لكم " قولان:

أحدهما – ان المراد به المؤمنون، والتقدير فان لم يقبلوا إجابتك يا محمد

والمؤمنين، ولا يأتون بعشر سور معارضة لهذا القرآن، فليعلم المؤمنون إنما أنزل بعلم الله بهذا الدليل، وهو قول مجاهد والجبائي.

والاخر – أن يكون المراد به المشركين، فالتقدير فان لم يستجب لكم من تدعونهم إلى المعاونة ولا يهيأ لكم المعارضة، فقد قامت عليكم الحجة.

والاستجابة في الاية طلب الاجابة بالقصد إلى فعلها، يقال: استجاب وأجاب بمعنى واحد. والفرق بين الاجابة والطاعة أن الطاعة موافقة للارادة الجاذبة إلى الفعل برغبة أو رهبة، والاجابة موافقة الداعي إلى الفعل من أجل أنه دعا به.

وقوله " انزل بعلم الله " يحتمل أمرين: احدهما – بعلم الله انه حق من عنده أي عالم به. والاخر – بعلم الله بمواقع تأليفه في علو طبقته. وقوله " وأن لا إله إلا هو " اي فاعلموا أن

لاإله إلا هو. وقوله " فهل أنتم مسلمون " معناه هل أنتم بعد قيام الحجة عليكم بما ذكرناه من كلام الله وانه أنزله على نبيه تصديقا له فيما أداه اليكم عن الله مسلمون له موقنون به؟ لان كل من سلم له الامر فقد استسلم له. قال مجاهد: وهذا خطاب لاصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) من المسلمين.

قوله تعالى:

من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون (١٥) آية شرط الله تعالى بهذه الاية أن " من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها " وحسن بهجتها، ولايريد الاخرة، فان الله تعالى يوفيه جزاء عمله فيها يعني في الدنيا، ولا يبخسه شيئا منه. والزينة تحسين الشئ بغيره من لبسة أو حلية أو هيئة، يقال:

زانه يزينه وزينه تزيينا. والتوفية تأديه الحق على تمام. والبخس نقصان الحق، يقال: بخسه بخسا إذا ظلمه بنقصان الحق. وفي المثل (يبخسها حمقاء) وهي

باخس. وقيل في العمل الذي يوفون حقهم من غير بخس قولان: أحدهما – قال الضحاك ومجاهد: هو أن يصل الكافر رحمه أو يعطي سائلا سأله أو يرحم مضطرا أو غير ذلك من أفعال الخير، فان الله تعالى يعجل له جزاء عمله في الدنيا بتوسيع الرزق، وإقرار العين فميا خول، ودفع مكاره الدنيا. الثاني – الغزو مع النبي (صلى الله عليه وآله) للغنيمة دون ثواب الاخرة، أمر الله نبيه أن يوفيهم قسمهم وهذا من صفة المنافقين، ذكره الجبائي. وانما جاز أن يقول " من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم " ولم يجز أن تقول: من جاءني اكرمه، لان الاجود في الشرط والجزاء أن يكونا مستقبلين أو يكونا ماضيين بنية الاستقبال، فان كان أحدهما ماضيا، والاخر مستقبلا كان جائزا على ضعف كما قال زهير:

ومن هاب أسباب المنايا تنلنه * ولو رام أسباب السماء بسلم (١)

قلنا عنه جوابان: أحدهما – قال الفراء: إن المعنى من يرد الحياة الدنيا و (كان) زائدة. والثاني إن المعنى أن يصح أنه كان، كقوله " إن كان قميصه قد من دبر فكذبت " (٢) ولايجوز مثل هذا في غير (كان) لانها أم الافعال.

قوله تعالى:

أولئك الذين ليس لهم في الاخرة إلا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون (١٦) آية قوله " أولئك " كناية عن الذين ذكرهم في الاية الاولى، وهم الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها، دون ثواب الاخرة. فأخبر الله أنه ليس لهم في الاخرة مستقر إلا النار، وأن أعمالهم كلها محبطة لا يستحقون عليها ثوابا، لانهم أوقعوها

(١) اللسان (سبب) وروايته (المنية يلقها) بدل (المنايا تنلنه)
(٢) سورة ١٢ يوسف آية ٢٧
(*)

على غير الوجه المأمور به، وعلى حد لاتكون طاعة، وأن جميع ما فعلوه في الدنيا باطل لاثواب عليه. وقد بينا فساد القول بالاحباط (١) على ما يذهب اليه المعتزلة وأصحاب الوعيد، سواء قالوا الاحباط بين الطاعة والمعصية أو بين المستحق عليها، فلا معنى للتطويل بذكره ههنا. وقوله " وباطل ما كانوا يعملون " بعد قوله " حبط ما صنعوا فيها " يحقق ما نقوله: إن نفس الاعمال تبطل بأن توقع على خلاف الوجه الذي يستحق به الثواب.

قوله تعالى:

أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده فلاتك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس (١٧) آية.

الالف في قوله " أفمن كان " ألف استفهام، والمراد بها التقرير، والتقدير هل الذي كان على بينة - يعني برهان وحجة من الله - والمراد بالبينة ههنا القرآن والمعنى بقوله " أفمن كان على بينة " النبي (صلى الله عليه وآله) وكل من اهتدى به واتبعه.

وقوله " ويتلوه شاهد منه " قيل في معناه أقوال: أحدها - شاهد من الله هو محمد (صلى الله عليه وآله). وروي ذلك عن الحسين بن على (عليهما السلام) وذهب اليه ابن زيد واختاره الجبائي:

والثاني - قال ابن عباس ومجاهد وابراهيم والفراء والزجاج: جبرائيل يتلو القرآن على النبي (صلى الله عليه وآله). والثالث - شاهد منه لسانه، روي ذلك عن محمد بن علي أعني ابن الحنفية، وهو قول الحسن وقتادة والرابع - روي عن أبي جعفر محمد

(١) انظر ٢ / ٣٣٦، ٣٥٣، ٥٢٢، ٥٢٥ (*)

ابن علي بن الحسين (عليهم السلام) أنه علي بن ابي طالب (عليه السلام) ورواه الرماني، وذكره الطبري باسناده عن جابر بن عبدالله عن علي (عليه السلام). ذكر الفراء وجها خامسا - قال: ويتلوه يعني القرآن يتلوه شاهد هو الانجيل، ومن قبله كتاب موسى يعني التوراة. والمعنى ويتلوه في الحجة والبينة. وقوله " ومن قبله كتاب موسى " الهاء في " قبله " عائدة على القرآن

المدلول عليه فيما تقدم من الكلام، والمعنى أنه يشهد به بالبشارة التي فيه. وقوله " إماما ورحمة " العامل فيه أحد امرين:

احدهما – الظرف في قوله ومن قبله. والثاني – وشاهد من قبله كتاب موسى إماما ورحمة، وخبر (من) في قوله " أفمن كان على بينة من ربه " محذوف والتقدير أفمن كان على بينة من ربه وعلى الاوصاف التي ذكرت كمن لابينة معه، قال الشاعر:

وأقسم ولو شئ أتانا رسوله سواك * ولكن لم نجد عنك مدفعا

وأنشد الفراء:

فما أدري إذا يممت وجها * أريد الخير أيهما يليني

آلخير الذي أنا أبتغيه * أم الشر الذي لايأتليني (١)

قال: أيهما، وإنما ذكر الخير وحده، لان المعنى مفهوم، لان المبتغي للخير متق للشر. وقال قوم خبره قوله " من كان يريد الحياة الدنيا " وقد تقدمه، واستغني به. وقوله " أولئك يؤمنون به " كناية عمن كان على بينة من ربه أنهم يصدقون بالقرآن ويعترفون بأنه حق. وقوله " ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده " معناه إن كل من يجحده ولايعترف به من الاحزاب الذين اجتمعوا على عداوته. وقال الفراء: يقال كل كافر حزب النار " والنار موعده " يعني مستقره وموعده " فلاتك " يا محمد (صلى الله عليه وآله) في شك من ذلك، فالخطاب متوجه إلى النبي (صلى الله عليه وآله) والمراد به جميع المكلفين. وقوله " انه الحق من ربك " اخبار منه تعالى بأن

---

(١) مر هذا الشعر في ٢ / ١١٣

(*)

هذا الخبر الذي ذكره حق من عند الله. ولكن اكثر الناس لايعلمون صحته وصدقه لجهلهم بالله وجحدهم نبوة نبيه (صلى الله عليه وآله). وروي أن الحسن قرأ (في مرية)

بضم الميم، وهي لغة أسد وتميم، وأهل الحجاز يكسرون الميم وعليه القراء.

قوله تعالى:

ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على ربهم ويقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين (١٨) آية قال الحسن معنى قوله " ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا " لأحد أظلم منه إلا انه خرج مخرج الاستفهام مبالغة في انه أظلم لنفسه من كل ظالم، وانما كان المفتري على الله كذبا أظلم من كل ظالم، لانه يجحد نعم الله ولا يشكرها. وقوله " أولئك يعرضون على ربهم " اخبار منه تعالى أن من هذه صفته يعرض

على الله يوم القيامة. والعرض إظهار الشئ بحيث يرى للتوقيف على حاله يقال: عرضت الكتاب على فلان، وعرض الجند على السلطان، ومعنى العرض على الله أنهم يقفون في المقام الذي يرى العباد، وقد جعله الله تعالى للمطالبة بالاعمال فهو بمنزلة العرض في الحقيقة، لانهم لا يخفون عليه في حال من الاحوال بل هو تعالى يراهم حيث كانوا. وقوله " ويقول الاشهاد " يعني الملائكة والانبياء والعلماء، يشهدون بما كان منهم من الكذب عليه تعالى. وقيل: هو جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب، وقيل: جمع شهيد كشريف وأشراف. وقوله " ألا لعنة الله على الظالمين " تنبيه من الله تعالى لخلقه بأن لعنته على الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بادخال الضرر عليها وعلى غيرهم بادخال الالام عليهم. ولعنة الله إبعاده من رحمته.

(٤٦٣)

قوله تعالى:

ألذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالاخرة هم كافرون (١٩) آية وصف الله تعالى الظالمين الذين جعل لعنة الله عليهم بأنهم يصدون عن سبيل الله بمعنى أنهم يغرون الخلق ويصرفونهم عن المصير اليه واتباعه، بغير الحق، ويجوز أن يكون صده عن الفساد بدعائه إلى تركه، والصد عن الحق سبب الامتناع منه إذا صادف منه ما يهواه، فيفعله من أجل ذلك الداعي، وانما جاز تمكين الصاد من الفساد لانه مكلف للامتناع. وليس في منعه لطف بأن ينصرف عن الفساد إلى الصلاح، فهو كشهوة القبيح الذي به يصح التكليف. قال ابوعلي: ولو لم يكن إغواء الشيطان إضلالا لعمل من قبل نفسه ذلك أو شرا منه. وقوله " يبغونها عوجا " معناه إنهم يطلبون لسبيل الله عدولا عنه. والعوج العدول عن طريق الصواب، وهو في الدين عوج بالكسر، وفي العود عوج بالفتح، فرقوا بين ما يرى وبين مالا يرى فجعلوا السهل للسهل والصعب للصعب بالفتح والكسر. والبغية طلبة أمر من الامور تقول: بغاه يبغيه بغية مثل طلبه يطلبه طلبة. وقوله " وهم بالاخرة هم كافرون " إخبار منه تعالى أن هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله كافرون بالاخرة وبالبعث والنشور والثواب والعقاب أي جاحدون غير مقرين. وقوله " وهم بالاخرة هم كافرون " كرر (هم) مرتين كما قال " أيعدكم أنكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون " (١) كرر (أنكم) مرتين، ووجه ذلك أنه لما طال الكلام وفارق فعله كرره مرة أخرى.

---

(١) سورة ٢٣ المؤمنين آية ٣٥

(*)

قوله تعالى:

أولئك لم يكونوا معجزين في الارض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون (٢٠) آية أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار الذين وصفهم بأن عليهم لعنة الله وأنهم الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا بأنهم غير " معجزين في الارض " أي لم يكونوا فائتين فيها هربا من الله تعالى إذا اراد إهلاكهم كما يهرب الهارب من عدو، وقد جد في طلبه. والاعجاز الامتناع من المراد بما لا يمكن معه إيقاعه، وانهم لم يكن لهم ولي يستطيع الدفاع عنهم من دون الله. والولي الخصيص بأن يلي بالمعاونة لدفع الاذية، ومنه قولهم: تولاك بحفظه، فلا ولي لهؤلاء يعاونهم ويدفع العقوبة عنهم، لان الله تعالى قد أيأسهم من ذلك. وقوله " يضاعف لهم العذاب " قيل في معناه قولان: احدهما - بحسب تضاعف الاجرام. والاخر - كلما مر ضعف جاء ضعف، وكله على قدر الاستحقاق. وقوله " ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون " معناه انه كان يثقل عليهم سماع الحق ورؤيته، كما يقال:

فلان لا يستطيع النظر إلى فلان، وحقيقة الاستطاعة القوة التي تتطاع بها الجارحة للفعل، ولذلك لايقال في الله انه يستطيع. وليس المراد بنفي الاستطاعة في الاية نفي القدرة بل ما ذكرناه، لانه لو لم يكن فيهم قدرة لما حسن تكليفهم. وقد ذكر الفراء فيه وجها مليحا، فقال: المعنى يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع ولايعقلون، وحذف الباء كما قال " اليم بما كانوا يكذبون " (١)

اي بتكذيبهم وسقوط الباء جائز، كما قال " احسن ما كانوا يعملون " (٢) ويقول

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٠ (٢) سورة ٩ التوبة آية ١٢٢

(*)

القائل: لاجزينك ما عملت، وبما عملت. واختار ذلك البلخي. والسمع إدراك الصوت بما به يكون مسموعا. والابصار إدراك الشئ بما به يكون مبصرا.

قوله تعالى:

أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون (٢١) آية ثم أخبر عنهم بخبر آخر، وهو أنهم " الذين خسروا أنفسهم " من حيث أنهم فعلوا ما يستحقون به العذاب وهلكوا بذلك في خسران أنفسهم، وخسران النفس اعظم الخسران، لانه ليس عنها عوض، وعن هلاك رأس

المال عوض، فسلامة النفس أجل فائدة، وما كان بعده من نفع فهو ربح. وقوله " وضل عنهم ما كانوا يفترون " قيل في معناه قولان: أحدهما – ذهب عنهم الانتفاع بالافتراء كما كانوا في الدنيا والثاني – ذهب عنهم الاوثان التي كانوا يأملون بها الانتفاع – في قول الحسن – و (اولئك) اشارة إلى البعيد، (وهؤلاء) إشارة إلى القريب

وأولاء مبني على الكسر، لانه اسم للجمع بمنزلة الواحد والكاف في (أولئك)

حرف يدل على أن الكلام الذي معه مخاطبا به. ووجه اتصال (ما) في الاية أن (أولئك) إشارة إلى من تقدم ذكره و (الذين) صفة لهم وهو موصول و (خسروا) صلته و (أنفسهم) معمول الصلة و (ضل) معطوف على الصلة و (كانوا)

صلة فاعل معطوف الصلة و (يفترون) خبر صلة فاعل معطوف الصلة، وهو تمام (الاسم).

قوله تعالى:

لاجرم أنهم في الاخرة هم الاخسرون (٢٢) آية

(٤٦٦)

معنى (لاجرم) قال الزجاج: معنى (لا) نفي لما ظنوه أنه ينفعهم كأن المعنى لاينفعهم ذلك. ثم ابتدأ " جرم انهم " أي كسب ذلك الفعل لهم الخسران.

وقال غيره: معناه لابد انهم، ولامحالة أنهم. وقيل: معناه حقا أنهم. واصل (الجرم) القطع فكأنه قال لاقطع من انهم في الاخرة هم الاخسرون و (جرم)

في قوله (لاجرم) فعل، وتقديره لاقطع قاطع عن ذا، إلا أنهم كثر في كلامهم حتى صار كالمثل وهو من قول الشاعر:

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة * جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا (١)

اي قطعتهم إلى الغضب، فرواية الفراء نصب فزارة، والمعنى كسبهم أن يغضبوا.

وخسران النفس يتعاظم، لان خسران النفس بعذاب دائم أعظم من خسرانها بعذاب منقطع، و (هم) في قوله هم الاخسرون " يحتمل أن يكون فصلا والاخسرون خبر (أن) و (هم) إذا كانت فصلا لم تقع في النكرة. وقولهم: ما كانوا في الدار هم القائمون. فلا يكون إلا اسما، فان جعلتهما فصلا قلت: كانوا في الدارهم القائمون.

قوله تعالى:

إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون (٢٣) آية لما ذكر الله تعالى الكفار، ووصف ما أعدلهم من العذاب وخسران النفس أخبر – هنا – أن الذين يؤمنون بالله ويعتقدون وحدانيته ويصدقون رسله، وعملوا الاعمال الصالحة التي أمرهم الله بها ورغبهم فيها " وأخبتوا إلى ربهم " أي خشعوا اليه.

والاخبات الخشوع المستمر على استواء فيه، وأصله الاستواء من الخبت، وهو

---

(١) مر في ٣ / ٤٢٣ و ٥ / ٤١٣
(*)

الارض المستوية الواسعة. وقيل: إن الاخبات الانابة - ذكره ابن عباس - وقال مجاهد: هو الاطمئنان إلى ذكر الله. وقال قتادة: هو الخشوع اليه والخضوع له.

وقال الحسن: هو الخشوع للمخافة الثابتة في القلب. وقال الجبائي: الاخبات سكون الجوارح على وجه الخضوع لله تعالى. وليس كل عمل صالح يستحق عليه حمد أو مدح، لانه مثل الحسن في أنه ينقسم قسمين: أحدهما - يستحق عليه الحمد. والاخر - لايستحق عليه كالمباح، فكذلك الصالحات. والمراد بالصالحات - ههنا - الطاعة، لانه وعد عليها الجزاء في قوله " إن الحسنات يذهبن السيئات " (١). وقوله " وأخبتوا إلى ربهم " قال قوم: معناه اخبتوا لربهم، فوضع (إلى) مكان اللام، لان حروف الاضافة توضع بعضها مكان بعض، كما قال " أوحى لها " (٢) بمعنى أوحى اليها. والاخر - أن معناه عمدوا باخباتهم إلى الله. وقوله " أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون " إشارة إلى المؤمنين الذين وصفهم بأنهم يعملون الصالحات ويخبتون إلى ربهم، فاخبر عنهم أنهم أصحاب الجنة اللازمون لها وأنهم فيها مخلدون دائمون.

قوله تعالى:

مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون (٢٤) آية المثل قول سائر يشبه فيه حال الثاني بحال الاول، والامثال لاتغير عن صورتها كقولك للرجل (اطرى انك ناعلة) وكذلك يقال للكافر: هو أعمى أصم أي هو بمنزلة الذين قيل لهم هذا القول، ويجري هذا في كل كافر يأتي من بعد.

---

(١) سورة ١١ هود آية ١١٥ (٢) سورة ٩٩ الزلزال آية ٥
(*)

و (الواو) في قوله " كالاعمى والاصم " قيل في دخولها قولان:

أحدهما - العموم في التشبيه أي حال الكافر كحال الاعمى وكحال الاصم وكحال من جمع العمى والصمم.

الثاني - أن المعنى واحد، وإنما دخلت الواو لاتصال الصفة الاولى بعلامة.

وإنما قال: هل يستويان، لانه أراد الفريقين: الموصوف أحدهما بالصمم والعمى، والاخر بالبصر والسمع. وفائدة الاية تشبيه المؤمن والكافر في تباعد ما بينهما فشبههما، بالاعمى والبصير، والاصم والسميع، فالكالفر كالاعمى والاصم في أنه لايبصر طريق الرشد، ولا يسمع الحق، وأنه مع ذلك على صفة النقص. والصمم عبارة عن فساد آلة السمع، ولو كان معنى يضاد السمع لتعاقبا على الحي، والامر بخلافه، لانه قد ينتفي حال الصمم ولايكون سامعا، وكذلك العمى عبارة عن فساد آلة الرؤية، وليس بمعنى يضاد الابصار، لان الصحيح أن الادراك أيضا ليس بمعنى، ولو كان معنى لما وجب أن يكون العمى ضده. لانه لو كان ضده لعاقبه على حال الحي وكان يجوز أن يحضر المرئي من الاجسام الكثيفة من غير ساتر فلا يرى مع حصول شروط الادراك لاجل وجود الضد، وكذلك الصمم، ولاضد له لانه ليس هناك حال يعاقبه على حال مخصوصة كمعاقبة العجز القدرة على حال الحياة.

وقوله " هل يستويان مثلا " وإن كان بصورة الاستفهام فهو لضرب من التوبيخ والتقريع.

وقوله " أفلا تتفكرون " معناه أفلا تتفكرون في ذلك فتعلموا صحة ما ذكرنا.

قوله تعالى:

ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين (٢٥) أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم (٢٦) آيتان قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة (إني) بكسر الهمزة. الباقون بفتحها

قال أبوعلي النحوي. من فتحها حملها على (أرسلنا) أي أرسلناه بأني لكم ولم يقل إنه، لانه انتقل عن الغيبة إلى الخطاب، ومثله كثير، قال الله تعالى " وكتبنا له في الالواح من كل شئ موعظة " ثم قال بعده " فخذها بقوة " (١)

فكذلك الاية. ومن كسر يضمر القول قبلها كأنه قال: أرسلنا نوحا إلى قومه فقال: إني لكم نذير، ومثله كثير، قال الله تعالى " والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم " (٢) اي يقولون: سلام عليكم، وقوله تعالى " والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى " (٣) أي قالوا:

ما نعبدهم، ويكون الكلام على ظاهره لم يرجع من الغيبة إلى الخطاب. وليس لاحد أن يرجع القراءة بالفتح من حيث أن ما بعده من قوله " أن لاتعبدوا إلا الله " محمول على الارسال، فاذا فتحت كان أشكل بما بعدها لحملهما جميعا على الارسال. وذلك أن من كسر حمل قوله " اني لكم " وما بعده على الاعتراض بين المفعول وما يتصل به مما بعده، كما أن قوله " إن الهدى

هدى الله " اعتراض بينهما في قوله " ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هـدى الله ان يؤتى أحد مثل ما أوتيتم " (٤) فكذلك قوله " إني لكم نذير مبين " لان التقدير ولقد أرسلنا نوحا لانذار أن لاتعبدوا الا الله إني أنذركم لتوحدوا الله وأن تتركوا عبادة غيره.

أقسم الله تعالى في هذه الاية أنه أرسل نوحا وأمره أن يقول لهم: إني مؤد عن الله ومخـوفكم من عقابه وترك طاعاته، لان اللام في قوله " لقد " لام القسم، وهي تدخل على الفعل والحرف الذي يختص بالفعل مما يصح معناه معه، ولام الابتداء للاسم خاصة. ومعنى (قد) وقوع الخبر على وجه التقريب من الحال تقول: قد ركب الامير – لقوم يتوقعون ركوبه –

---

(١) سورة ٧ الاعراف ١٤٤ (٢) سورة ١٣ الرعد آية ٢٥ – ٢٦ (٣) سورة ٣٩ الزمر آيـة ٣ (٤) سـورة ٣ آل عمران آية ٧٣

(*)

وقوله " أن لاتعبدوا الا الله " يحتمل أن يكون موضع (تعبدوا) من الاعراب نصبا، والمعنى أن لا تعبدوا الا الله، ويجوز أن يكون موضعه جزما على تقدير أي لاتعبدوا. ويحتمل أن يكـون متعلقا بقوله " أرسلنا " وتقديره أرسلنا بأن لاتعبدوا الا الله، على ما بينا من الاعتراض وحملها جميعا على الارسال.

وقوله " اني أخاف عليكم عذاب يوم أليم " أي مؤلم عذابه وانما قال عذاب يـوم الـيم بـالجر ومعناه مؤلم، لان الالم يقع في اليوم، فكأنه سبب الالم. ولو نصبته على أن يكون صفة للعذاب كان جائزا، ولم يقرأ به أحد. وانما بدئ بالدعاء إلى العبادة دون سائر الطاعات، لانها أهم ما يدعى اليه من خالف الحق فيه ولانه يجب أن يفعل كل واحدة مـن الطاعـات علـى وجـه الاخلاص والعبادة فيها لله. وانما قال " اني أخاف عليكم عذاب يوم اليم " مع أن عذاب الكافر معلوم لانه يخاف مالم يعلم ما يؤل اليه أمرهم من ايمان أو كفر، وهذا لطف فـي الاسـتدعاء وأقرب إلى الاجابة في غالب أمر الناس.

قوله تعالى:

فقال الملا الذين كفروا من قومه ما نريك إلا بشرا مثلنا وما نريك اتبعك إلا الذين هم أراذلنـا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين (٢٧) آية قرأ أبـوعمرو " بـادئ الرأي " بالهمز في بادي. الباقون بلا همز.

قال ابوعلي: حدثنا محمد بن السدي أن اللحياني قال: يقال: أنت بادي الـرأي تريـد ظلمنـا لايهمز (بادي) وبادئ الرأي مهموز. فمن لم يهمز أراد أنت أول الرأي ومبتدؤه وهمـا فـي

القرآن. وقال أبوعلي: من قال (بادي الرأي) بلاهمز جعله من بدو الشئ وهو ظهوره، وما اتبعك إلا أراذل فيما ظهر لهم من الرأي

(٤٧١)

اي لم يفعلوه بنظر فيه ولا بتبين له. ومن همز أراد اتبعوك في أول الامر من غير فكر فيه ولاروية، والقراءتان متقاربتان، لان الهمز في اللام منها ابتداء الشئ وأوله وابتداء الشئ يكون ظهورا، وان كان الشئ الظاهر قد يكون مبتدأ وغير مبتدأ، فلذلك يستعمل كل واحد منهما مكان الاخر يقولون: انا بادي بدا وبادئ بدء، فاني أحمد الله.

أخبر الله تعالى في هذه الاية عن جماعة الرؤساء من قوم نوح الذين كفروا وجحدوا نبوته أنهم قالوا له " ما نراك الا بشرا مثلنا " والبشر مأخوذ من ظهور البشرة، لان الغالب على الحيوان غير الانسان أن يلبس البشرة منه بالصوف أو الشعر أو الريش أو الصدف. والانسان مأخوذ من النسيان، لانهم يصغرونه إنيسيان ويجوز أن يكون من الانسان الا أنهم زادوا الياء في التصغير. والمثل ماسد مسد غيره في الجنس بمعني أنه لو ظهر للمشاهد لسد مسده كما يسد الاسود مسد الاسود في الجنس من غير فضل. وقوله " ما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا " حكاية أيضا عما قاله قوم نوح من أنه ما نرى من اتبعك الا أنه رذل خسيس حقير من جماعتنا تقول: رذل وجمعه أرذل، وجمع الجمع أراذل مثل كلب وأكلب وأكالب والعامل في (الذين) قوله " اتبعك " كأنه قال ما اتبعك الا الذين هم أراذلنا ونراك ملغى، ذكره الفراء. قال ابوعلي النحوي: هو نصب على الحال، والعامل فيه (اتبعك) وأخر الظرف وأوقع بعد (الا) ولو كان غيره لم يجز، لان الظرف اتسع فيه في مواضع. ومعنى " بادئ الرأي " أول الرأي ما نراهم. والرأي والرؤية من قوله " يرونهم مثليهم رأي العين " (١) وهو نصب على المصدر كقولك ضربته أول الضرب. وقال الزجاج: نصبه ب (اتبعوك أول الرأي) من غير فكر كأنه قيل اتبعوك رأيا غير سديد، ومن قرأ بادي الرأي بلا همز اراد ظاهر الرأي قال الشاعر:

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٣

(*)

(٤٧٢)

وقد علتني ذرأة بادي بدي * وريثة تنهض في تشددي (١)

وقال آخر:

اضحى لخالي شبهي بادي بدي * وصار للفحل لساني ويدي (٢)

وقوله " وما نرى لكم علينا من فضل " تمام الحكاية عن كفار قوم نوح وانهم قالوا لنوح: إنا لانرى لك ولا مثالك علينا زيادة خير، لان الفضل هو زيادة الخير، وانما قالوا ذلك، لانهم جهلوا في طريقة الاستدلال. وقوله " بل نظنكم كاذبين " ايضا تمام الحكاية عن كفار قومه أنهم قالوا له ولمن آمن معه هذا القول.

قوله تعالى:

قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتيني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون (٢٨) آية قرأ حمزة والكسائي وحفص " فعميت " بضم العين وتشديد الميم. الباقون بتخفيف الميم وفتح العين. وقال ابوعلي: من قرأ " فعميت " بالتخفيف فلقوله " فعميت عليهم الانباء يومئذ " (٣) وهذه مثلها. ويجوز في قوله (فعميت) أمران:

احدهما – ان يكون عموا هم، الا ترى ان الرحمة لاتعمى وانما يعمى عنها، فيكون هذا من المقلوب، كقولهم: أدخلت القلنسوة في رأسي، وأدخلت الخاتم في أصبعي ونحو ذلك مما يقلب إذا زال الاشكال. والاخر – ان يكون معنى عميت خفيت كقول الشاعر:

ومهمه أطرافه في مهمه * أعمى الهدى في الحائرين العمه (٤)

(١، ٢) اللسان (بدا) (٣) سورة ٢٨ القصص آية ٦٦ (٤) قائله رؤبة ديوانه: ١٦٦ وتفسير الطبري ١ / ٣١٠ وقد مر في ١ / ٨١

(*)

أي خفي الهدى ألا ترى أن الهدى ليس بذي جارحة تلحقها هذه الافة، وقد قيل للسحاب: العمى لخفاء ما يخفيه، كما قيل له: الغمام ومن ذلك قول زهير:

ولكنني عن علم ما في غد عمي (١)

ومن شدد اعتبر قراءة الاعمش فانه قرأها فعماها عليهم. وروى ذلك الفراء عن أبي، والمعنيان متقاربان. قال الفراء: يقال عمى علي الخبر وعمي بمعنى واحد.

حكى الله تعالى عن نوح ما قاله لقومه جوابا عما قالوه له مما حكيناه فانه " قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة " أي برهان وحجة من المعجزة التي تشهد بصحة النبوة. وخصهم بهذا إذ هو طريق العلم بالحق لاما التمسوا من اختلاف الخلق. وقوله " آتاني رحمة من عنده " يرد عليهم ما ادعوه من أنه ليس له عليهم فضل، فبين ذلك بالهداية إلى الحق من جهة البرهان المؤدي إلى العلم. وقوله " فعميت " يحتمل امرين: احدهما – خفيت علكيم، لانكم لم تسلكوا

الطريق المؤدي اليها. والاخر – ان يكون المعنى عميتم عنها، واضاف العمى إلى البينة لما عموا عنها لضرب من المجاز، لان المعنى ظاهر في ذلك، كما يقال: ادخلت الخاتم في يدي والقلنسوة في راسي، والمراد ادخلت يدي في الخاتم ورأسي في القلنسوة.

ومن قرأ بتشديد الميم وضم العين أضاف التعمية إلى غيرهم ممن صدهم عن النظر فيها واغواهم في ذلك من الشياطين والمضلين عن الحق.

وقوله " أنلزمكموها وانتم لها كارهون " أنضطركم إلى موجب البينة مع العلم مع كراهتكم لذلك فيبطل تكليفكم الاستدلال بالبينة المؤدية إلى المعرفة أي أضطركم إلى حال الضرورة.

ووجه آخر – وهو أن يكون المراد إن الذي علي أن أدل بالبينة، وليس علي أن أضطركم إلى المعرفة.

وفي قوله " انلزمكموها " ثلاث مضمرات ضمير المتكلم وضمير المخاطب وضمير الغائب، وهو أحسن ترتيب: بدأ بالمتكلم، لانه اخص بالفعل ثم بالمخاطب

---

(١) اللسان (عمى)

(*)

ثم بالغائب، ولو اتى بالمنفصل لجاز لتباعده عن العامل بما فرق بينه وبينه، فاشبه ماضربت إلا إياك، وما ضربني إلا انت. وأجاز الفراء " أنلزمكموها " بتسكين الميم جعله بمنزلة عضد وعضد وكبد وكبد. ولايجوز ذلك عند البصريين، لان الاعراب لايلزم فيه النقل كما يلزم في بناء الكلمة، وإنما يجيزون مثل ذلك في ضرورة الشعر كقول امرئ القيس:

فاليوم أشرب غير مستحقب * إثما من الله ولا واعل (١)

وقال آخر:

وناع يخبرنا بمهلك سيد * تقطع من وجد عليه الانامل وقال آخر:

إذا اعوججن قلت صاحب قوم قوله تعالى:

ويا قوم لا أسئلكم عليه ما لا إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أريكم قوما تجهلون (٢٩) آية في هذه الاية حكاية ما قال نوح لقومه أي لا أطلب منكم مالا أجرا على الرسالة ودعائكم إلى الله فتمتنعون من إجابتي بل أجري وثوابي في ذلك على الله.

وقوله " وما أنا بطارد الذين آمنوا " معناه إني لست أطرد المؤمنين من عندي ولا أبعدهم على وجه الاهانة. وقيل: انهم كانوا سألوه طردهم ليؤمنوا أنفة أن يكونوا معهم على سواء، ذكره

ابن جريح والزجاج – وقوله " إنهم ملاقوا ربهم " اخبار بأن هؤلاء المؤمنين ملاقــوا جــزاء ربهم بعقاب من طردهم. في قول الزجاج.

---

(١) ديوانه: ١٣٠ تفسير القرطبي ٩ / ٢٦
(*)

(٤٧٥)

وقوله " ولكني اراكم قوما تجهلون " معناه أراكم تجهلون انهم خير مــنكم لايمــانهم بــربهم وكفركم به.

وقال قوم: إنهم قالوا له إن هؤلاء اتبعوك طمعا في المال على الظاهر دون الباطن، فقال لهــم نوح انهم ملاقوا جزاء اعمالهم فيجازيهم على ما يعلم من بواطنهم ولــيس لــي الا الظــاهر احملهم على ظاهر الايمان فانتم تجهلون ذلك.

قوله تعالى:

ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون (٣٠) آية.

ثم قال لهم نوح (عليه السلام) " يا قوم " وأراد به الجماعة الذين يقومون بالامر و (قــوم) اســم جمع لاواحد له من لفظه. " من ينصرني من الله " أي من يمنعني من الله، يقال: نصره مــن كذا يعني منعه منه، ونصره عليه بمعنى أعانه عليه حتى يغلب، ونصره إلى كذا بمعنى نصره معه، ومنه قوله " من أنصاري إلى الله " (١) ويجوز أن يقدر الله الكافر على الكفر، ولايجوز أن ينصره عليه لان النصرة على الشئ زيادة في القوة ليقع ذلك الشئ، وهذا لايجوز على الله. والقدرة تصلح للضدين على منزلة سواء ولا دليل فيها على ارادة احدهما.

وقوله " أفلا تذكرون " معناه أفلا تتفكرون، فتعلمون أن الامر على ما قلته. وفرق الطبري بين التذكر والتفكر بأن قال: التذكر طلب معنى قد كان حاضرا للنفس و (التفكر) طلــب معرفــة الشئ بالقلب وان لم يكن حاضرا للنفس.

و (النصرة) المذكورة في الاية ليست من الشفاعة في شئ، لان النصرة هي المنع على وجــه المغالبة والقهر. والشفاعة هي المسألة على وجه الخضوع.

وليس لاحد ان يستدل بذلك على نفي الشفاعة للمذنبين.

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٥٢
(*)

(٤٧٦)

قوله تعالى:

ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا أالله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين (٣١) آية في هذه الاية تمام الحكاية عما قال نوح لقومه وحاجهم به، وهو أن قال لهم مضافا إلى ما مضى حكايته " ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول اني ملك " والمعنى إني لا أرفع نفسي فوق قدرها، فأدعي أن عندي خزائن الله من الاموال فأعطيكم منها وأستطيل عليكم بها، أو أقول إني أعلم الغيب، أو أقول لكم إني ملك روحاني غير مخلوق من ذكر وأنثى بخلاف ما خلقني الله، بل أنا بشر مثلكم وانما خصني الله بالرسالة وشرفني بها. وقيل معنى خزائن الله مقدوراته لانه يوجد منها ما يشاء. وفي وصفها بذلك بلاغة.

وقيل " لا أقول لكم عندي خزائن الله " فادعوكم إلى أن أعطيكم منها، ذكره ابن جريح. و (الغيب) ذهاب الشئ عن الادراك، ومنه الشاهد خلاف الغائب.

واذا قيل: علم الغيب معناه علم من غير تعلم، وهو جميع الغيب، وعلى هذا لايعلم الغيب إلا الله تعالى. وقوله " ولا أقول للذين تزدري أعينكم " أي لست أقول للذين احتقرتهم اعينكم. و (الازدراء) الافتعال من الزراية، يقال: زريت عليه إذا عبته، وازريت عليه اذا قصرت به، والازدراء الاحتقار. وقوله " لن يؤتيهم الله خيرا " معناه لااقول لهؤلاء المؤمنين الذين احتقرتموهم انهم لايعطيهم الله في المستقبل خيرا من أعمالهم، ولا يثيبهم عليها، من حيث لاعلم لي بباطنهم بل الله اعلم بما في انفسهم، هل هم مؤمنون في باطنهم ام لا، ومتى قلت لايعطيهم خيرا كنت اذا من الظالمين الذين ظلموا أنفسهم وغيرهم.

(٤٧٧)

قوله تعالى:

قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (٣٢) آية في هذه الاية حكاية عما قال قوم نوح لنوح جوابا عما قاله لهم فيما تقدم " يا نوح قد جادلتنا " اي خاصمتنا وحاجتنا فأكثرت مجادلتنا، وروي فاكثرت جدلنا – والمعنى واحد، فلسنا نؤمن لك " فأتنا بما تعدنا " من العذاب " إن كنت من الصادقين " فيما تقوله على الله تعالى. وحقيقة المجادلة المقابلة بما يقبل الخصم من مذهبه بالحجة أو شبهه، وهو من الجدل لشدة الفتل، ويقال للصقر أجدل، لانه أشد الطير. و (الاكثار) الزيادة على مقدار الكفاية. و " الاقلال " النقصان عن مقدار الكفاية. والفرق بين الجدال والحجاج: ان المطلوب بالحجاج ظهور الحجة، والمطلوب بالجدال الرجوع عن المذهب. والمراء مذموم لانه مخاصمة في الحق بعد ظهور

الحق كمري الضرع بعد دروره، وليس كذلك الجدال. وفي الاية دلالة على حسن الجدال في الدين، لانه لو لم يكن حسنا لما استعمله نوح مع قومه، لان الانبياء لايفعلون إلا ما يحسن فعله.

قوله تعالى:

قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين (٣٣) آية فأجابهم نوح (عليه السلام) عما قالوه فقال: إنما يأتي بالعذاب الله تعالى دون غيره يأتي به متى يشاء، ولستم تفوتونه هربا. ومعنى (انما) اختصاص ما ذكر لمعنى دون غيره، تقول: إنما زيد كريم أي هو كريم دون غير. وإنما دخل (إنما)

بمعنى الاختصاص بالمذكور دون غيره، لانها لتحقيق المعنى: ومن تحقيقه أن

يكون لها دون غيره إذ المشرك لم يحقق على شئ بعينه، وإذا دخلت (إنما)

هذه على (اسم) كان الاسم مرفوعا، لان (ما) كافة للعامل، ولولا ذلك لما دخلت على الفعل، والاعجاز هو الفوت بالهرب. وفي الاية دلالة على أن المجادلة تقوم بها الحجة على مخالف الحق، لانه لو لم تقم بها الحجة ما جادلهم نوح ولما قال الله تعالى للنبي (صلى الله عليه وآله) " وجادلهم بالتي هي أحسن " (١).

قوله تعالى ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون (٣٤) آية هذه الاية عطف على قول نوح: إنما يأتيكم بالعذاب الله إن شاء ولستم تفوتونه، " ولا ينفعكم نصحي " ويحتمل قوله " يريد أن يغويكم " أمرين:

احدهما – ان كان الله يريد أن يخيبكم من رحمته بأن يحرمكم ثوابه، ويعاقبكم لكفر كم به، ولا ينفعكم نصحي يقال: غوى يغوي غيا، ومنه قوله تعالى " فسوف يلقون غيا " (٢) أي خيبة وعذابا وقال الشاعر:

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره * ومن يغو لايعدم على الغي لائما (٣)

فلما كان الله قد خيب قوم نوح من رحمته وثوابه وجنته أعلم نبيه نوحا بذلك في قوله " لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن " (٤) وأنهم سيصيرون إلى خيبة وعذاب، أخبرهم الله بذلك على لسان نبيه، فقال " ولا ينفعكم نصحي " مع إتيانكم ما يوجب خيبتكم والعذاب الذي جره عليكم قبيح أفعالكم، ويريد الله إهلاككم وعقوبتكم على ذلك. وحكي عن طي انها تقول: أصبح فلان غاويا أي

---

(١) سورة ١٦ النحل آية ١٢٥ (٢) سورة ١٩ مريم آية ٥٩ (٣) مر تخريجه في ٢ / ٣١٢ (٤) سورر ١١ هـود آية ٣٦
(*)

مريضا. وحكي عن غيرهم سماعا منهم: أغويت فلانا أهلكته، وغوي الفصيل إذا فقد اللبن فمات: بكسر الواو في الماضي، وفتحها في المستقبل، ومنه قوله تعالى " وعصى آدم ربه فغوى " (١) اي خاب من الثواب الذي كان يحصل له بتركه.

والوجه الثاني – أن يكون جرى على عادة العرب في تسمية العقوبة باسم الشئ المعاقب عليه، فيكون المعنى ان كان الله يريد عقوبتكم على اغوائكم الخلق واضلالكم اياهم، فسمى عقوبته اياهم على اغوائهم اغواء كما قال " وجزاء سيئة سيئة " (٢) " ومكروا ومكر الله " (٣) و " الله يستهزئ بهم " (٤) ونظائر ذلك كثيرة. ومثله قوله حكاية ابليس " بما أغويتني " (٥) فانه يحتمل هذين الوجهين، الاول يحتمل أن يكون فبما خيبتني، والثاني – فبما جازيتني على اغوائي الخلق عن الهدى. ولايجوز أن يكون المراد بذلك أن يجعلهم كفارا على ما يذهب اليه المجبرة، لان الاغواء بمعنى الدعاء إلى الكفر او فعل الكفر لايجوز عليه تعالى، لقبحه كقبح الامر بالكفر. والنصح اخلاص العمل من الفساد على الاجتهاد فيه. والنصح نقيض الغش. وكان نصح نوح لقومه اعلامهم موضع الغي ليتقوه، وموضع الرشد ليتبعوه. وانما شرط النصح بالارادة – في قوله " ان أردت أن أنصح " مع وقوع هذا النصح – استظهارا في الحجة: لانهم ذهبوا إلى أنه ليس بنصح، فقال: لو كان نصحا ما نفع من لايقبله. وقوله " هو ربكم واليه ترجعون " اخبار من نوح أن الله الذي عذبكم وخيبكم من رحمته هو الذي خلقكم ويميتكم ثم يردكم بأن يحبيكم ليجازيكم على افعالكم ويعاقبكم على كفركم بنعمه حيث لاينفعكم استدراك ما فات، ولا ينفعكم الندم على ما مضى. وقال الحسن:

معنى الاية ان كان الله يريد أن يعذبكم وينزل بكم عذابه فانتم عند ذلك لاينفعكم

---

(١) سورة ٢٠ طه آية ١٢١ (٢) سورة ٤٢ الشورى آية ٤٠ (٣) سورة ٣ آل عمران آية ٥٤ (٤) سورة ٢ البقرة آية ١٥ (٥) سورة ٧ الاعراف آية ١٥ وسورة ١٥ الحجر آية ٣٩
(*)

نصحي، لان الله تعالى لايقبل الايمان عند نزول العذاب.

وقال بعض العلماء: ان قوم نوح كانوا يعتقدون أن ماهم عليه بارادة الله لــولا ذلــك لغيــره وأجبرهم على خلافه، فقال نوح على وجه الانكار عليهم والتعجب مــن قــولهم: ان نصــحي لاينفعكم ان كان القول كما تقولون وتعتقدونه، حكى ذلك البخلي.

قوله تعالى:

أم يقولون افتريه قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا برئ مما تجرمون (٣٥) آية.

معنى قوله " أم يقولون " اخبار من الله تعالى بأن هؤلاء الكفار الذين ليس يقبلون ما أتاهم بــه من عند الله يقولون: ليس هذا القرآن من عند الله بل افتراه وتخرصه وكذبه على الله، فمعنــى (ام) في الاية (بل)، فأمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) ان يقول لهم: إن افتريتــه، فعلــي اجرامي. وقيل في معناه قولان: احدهما – انه وعيد، بأني ان كنت افتريته فيما اخبرتكم بــه من الخبر عن نوح فعلي عقاب جرمي، وان كانت الاخرى فعليكم عقاب تكذيبي، وســتعلمون صدق قولي وأينا الاحق. والثاني – انه قال ذلك على وجه الاحتجاج بصحة امره بأن لايتقول مثل هذا مع ما فيه من العذاب في الاخرة والعار في الدنيا مع انه ذو امانة وصيانة. وهو في خطاب محمد (صلى الله عليه وآله).

وقوله " وانا برئ مما تجرمون " معناه ليس علي من اجرامكم ضرر وانما ضرر ذلك علــيكم فاعملوا بحسب ما يقتضيه العقل من التفكر في هذا المعنى.

والفرق بين افتراء الكذب وبين قول الكذب: ان قول الكذب قد يكون على وجــه تقليــد مــن الانسان لغيره، واما افتراؤه فهو افتعاله من قبل نفسه. ومعنى اجرام

اذنب ومثله جرم قال النميري حار الزبرقان:

طريد عشيرة، ورهين ذنب * بما جرمت يدي وجنى لساني (١)

ومعنى أجرم اقترف السيئة بفعلها لانه من القطع، وأذنب اي تشبه بالذنب في السقوط، وجــرم وأجرم في المأثم أكثر، قال الشاعر:

كذا الناس مجروم عليه وجارم قوله تعالى:

وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون (٣٦) آيــة اخبر الله تعالى في هذه الاية انه اوحى إلى نوح، وقال له انه لن يؤمن احد من قومــك فــي المستقبل اكثر من الذين آمنوا، فلا تبتئس أي لاتغتم ولا يلحقك حزن لاجلهم، يقال ابتأس ابتآسا فهو مبتئس، وقد يكون البؤس الفقر والابتآس حزن في الاستكانة انشد ابوعبيدة.

مايقسم الله أقبل غير مبتئس * منه وأقعد كريما ناعم البال (٢)

واصله البؤس وهو الفقر والمسكنة. ولما اعلم الله نوحا (عليه السلام) أن أحدا من قومه لايؤمن فيما بعد، ولامن نسلهم قال " رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا " (٣) ذكره قتادة وغيره. والعقل لايدل على أن قوما لايؤمنون في المستقبل وإنما طريق ذلك السمع، وقد يغلب في الظن ذلك مع قيام التجويز، ألا ترى انه يغلب في ظنوننا

---

(١) تفسير الطبري ١٢ / ١٨ واللسان والتاج (جرم)
(٢) قائله حسان ديوانه ٣٢٦ واللسان (بأس)
(٣) سورة ٧١ نوح آية ٢٦ – ٢٧
(*)

أن الروم مع كثرتهم لايؤمنون جملة إلا انه ليس يمتنع مع ذلك أن يؤمنوا، لان الله كلفهم الايمان، فلو لم يكن ذلك جائزا لما كلفهم.

قوله تعالى:

واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولاتخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون (٣٧) آية في هذه الاية اخبار من الله تعالى عما أمر به – عزوجل – نوحا (عليه السلام) حين أيأسه من ايمان قومه فيما بعد، وأنه مهلكهم بالطوفان. بأن يتخذ الفلك ويصنعها، والصنع جعل الشئ موجودا بعد أن كان معدوما، ومثله الفعل، وينفصلان من الحدوث من حيث أن الصنعة تقتضي صانعا، والفعل يقتضي فاعلا من حيث اللفظ، وليس كذلك الحدوث، لانه يفيد تجدد الوجود لاغير. والصناعة الحرفة التي يكتسب بها، والفلك السفينة، ويكون ذلك واحدا وجمعا، كما قيل في أسد وأسد قالوا: في فلك وفلك، لان (فعلا وفعلا) جمعهما واحد، ويأتيان بمعنى واحد كثيرا يقال عجم وعجم، وعرب وعرب، ومثله فلك وفلك.

والفلك والفلكة يقال لكل شئ مستدير أو شئ فيه استدارة، وتفلك ثدي المرأة إذا استدار، ومنه الفلك. وقوله " باعيننا " معناه بحيث نراها وكأنها ترى بأعين على طريق المبالغة، والمعنى بحفظنا إياك حفظ من يراك ويملك دفع السوء عنك.

وقال الجبائي بأعين أوليائنا من الملائكة الذين يعلمونك كيفية عملها، والموكلين بك. وقيل: معناه بعلمنا. وقوله " ووحينا " اي على ما أوحينا اليك من صفتها وحالها. قال ابن عباس: امره الله تعالى ان يبنيها على هيئة جؤجؤ الطائر. ويجوز أن يكون المراد بوحينا اليك أن اصنعها. وقوله " ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون " نهي لنوح (عليه السلام) أن يراجع الله تعالى ويخاطبه ويسأله في امرهم

بأن يمهلهم، ويؤخر إهلاكهم، لانه حكم بأهلاكهم وأخبر بأنه سيغرقهم، فلا يكون الامر بخلاف ما أخبر به. ويجوز الامر بما علم أنه لايكون، ولايجوز أن يدعو بما يعلم أنه لايكون، لان في ذلك إيهاما بأنه لايرضى باختياره، وليس كذلك الامر، لانه يتناول من يجوز عليه هذا المعنى.

وكسر (إنهم)

على الابتداء.

قوله تعالى:

ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملا من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون (٣٨) فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم (٣٩) آيتان

أخبر الله تعالى في هذه الاية عن نوح أنه أخذ في عمل السفينة، قال الحسن:

كان طولها ألف ذراع ومئتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع. وقال قتادة: كان طولها ثلثمائة ذراع، وعرضها خمسين ذراعا، وارتفاعها ثلاثين ذراعا، وبابها في عرضها وقال ابن عباس: كانت ثلاث طبقات طبقة للناس، وطبقة للطير وطبقة للدواب والوحش.

وقوله " وكلما مر عليه ملا من قومه سخروا منه " اخبار من الله عن أشراف قومه ورؤسائهم أنهم كلما اجتازوا به وهو يعمل السفينة هزئوا من فعله. وقيل:

إنهم كانوا يقولون: يا نوح صرت نجارا بعد النبوة على طريق الاستهزاء. وقال الرماني: السخرية إظهار خلاف الباطن على جهة يفهم منها استضعاف العقل ومنه التسخير: التذليل استضعافا بالقهر. والفرق بين السخرية واللعب أن في السخرية خديعة واستنقاصا، ولايكون إلا الحيوان، وقد يكون اللعب بجماد لانه طلب الفرجة من غير مراعاة لما يعقب، كفعل الصبي. وانما كانوا يسخرون من

عمل السفينة، لانه كان يعملها في البر على صفة من الهول، ولا ماء هناك يحمل مثلها فكانوا يتضاحكون ويتعجبون من عمله. وقوله " إنا نسخر منكم كما تسخرون " جواب من نوح لهم بأنا نسخر منكم يعني نذمكم على سخريتكم، وسماه سخرية، كما قال " وجزاء سيئة سيئة مثلها " (١) وقوله " ومكروا ومكر الله " (٢)

وأطلق عليه إسم السخرية على وجه الازدواج. وقال قوم: معناه إن تستجهلونا في هذا الفعل فانا نستجهلكم، كما تستجهلون، ذكره الزجاج. وقوله " فسوف تعلمون " (سوف) ينقل الفعل عن الحال إلى الاستقبال مثل السين سواء إلا أن فيه معنى التسويف وهو تعليق النفس بما

يكون من الامور. وقوله " من يأتيه عذاب " قيل في معنى (من) قولان: أحدهما – أن يكون بمعنى (أي) كأنه قال فسوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه.
الثاني – أن يكون بمعنى الذي، والمعنى واحد، و (من) إذا كانت استفهاما استغنت عن الصلة، وإذا كانت الذي فلا بدلها من الصلة، كما استغنت (كم. وكيف) لان البيان مطلوب من المسؤل دون السائل. والخزي العيب الذي تظهر فضيحته والعار به، ومنه الذل والهوان. وقوله " ويحل عليه " معناه ينزل عليه. وقال الرماني: الحلول النزول للمقام وهو من الحل خلاف الارتحال. وحلول العرض وجوده في الجوهر من غير شغل حيز. وقوله " عذاب مقيم " أي دائم لايزول.
قوله تعالى:
حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيهامن كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن

---

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ٤٠ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ٥٤
(*)

وما آمن معه إلا قليل (٤٠) آية قرأ حفص " من كل زوجين " بتنوين في اللام هنا، وفي المؤمنون. وقال أبوالحسن: يقال للاثنين هما زوجان، قال الله تعالى " ومن كل شئ خلقنا زوجين " (١) يقال للمرأة زوج، وللرجل زوجها، قال الله تعالى " وخلق منها زوجها " (٢) وقال " امسك عليك زوجك " (٣) وقال بعضهم زوجة، قال الاخطل:
زوجة أشمط مرهوب بوادره * قد صار في رأسه التخويص والنزع (٤)
وقال ابوالحسن: يقال للاثنين هما زوج. قال أبوعلي الفارسي: يدل على ان الزوج يقع للواحد، قوله " ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين " إلى قوله " ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين " (٥) وقال الكسائي أكثر كلام العرب بالهاء. وقال القاسم بن معن أنه سمعها من العرب من اسد شنوءة، وليس في القرآن بالهاء، وهو أفصح من اثباتها عند البصريين. ومن قرأ بالاضافة كان قوله " اثنين " مفعول الحمل. والمعنى احمل من الازواج اذا كانت اثنين اثنين زوجين، فالزوجان من قوله " من كل زوجين " يريد بهما الشياع، ولا يراد به الناقص من الاثنين، ومنه قول الشاعر:

فمالك بالامر الذي لا تستطيع بدارا ومن نون حذف المضاف من (كل) والمعنى من كل شئ أو من كل زوج زوجين اثنين، فيكون اثنين على انه صفة لزوجين، وذكر تأكيدا كما قال " الهين اثنين " (٦).

---

(١) سورة ٥١ الذاريات آية ٤٩ (٢) سورة ٤ النساء آية ١ (٣) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٣٧ (٤) ديوانه ٦٩ واللسان (خوص) الشمط:
البياض من السواد، وإذا بدا في رأسه البياض قيل: خوصه الشيب. والنزع: الصلع (٥) سورة ٦ الانعام آية ١٤٣ - ١٤٤ (٦) سورة ١٦ النحل آية ٥١
(*)

اعلم الله نوحافي هذه الاية ان وقت هلاك قومه الكفار فور التنور، وفي (التنور) اقوال: منها أن الماء اذا فار من التنور الذي يخبز فيه. وقيل: التنور عين ماء معروفة، وتنور الخابزة وافقت فيه لغة العرب العجم. وقيل: ان التنور وجه الارض، ذكره ابن عباس، واختاره الزجاج. وقيل التنور تنور الصبح، وروي ذلك عن علي (عليه السلام). و (حتى) متعلقة بقوله " واصنع الفلك بأعيننا ووحينا.. حتى ".

أخبر الله تعالى أنه لما جاء أمره باهلاك قوم نوح (عليه السلام) لاستحقاقهم ذلك بالكفر، وفار التنور يعني خروج الماء من موضع لم يعهد خروجه منه علامة لنوح (عليه السلام) وهو تنور الخبز - في قول ابن عباس والحسن ومجاهد - وقيل: هو تنور آدم (عليه السلام) ويقال: فار إذا ارتفع ما فيه، كما يفور القدر بالغليان، فار يفور فورا وفؤرا. وقال ابن عباس: فار إذا نبع. وقوله " قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين " إخبار منه تعالى أنه أمر نوحا أن يحمل معه في سفينته من كل جنس زوجين: والزوج واحد له شكل إلا أنه قد كثر على الرجل الذي له امرأة: قال الحسن: في قوله " من كل شئ خلقنا زوجين " فالسماء زوج، والارض زوج والشتاء زوج، والصيف زوج، والليل زوج، والنهار زوج، حتى يصير الامر إلى الله الفرد الذي لا يشبهه شئ قال الاعشى:

وكل زوج من الديباج يلبسه * أبوقدامة محبوا بذاك معا (١)

وقوله " وأهلك " معناه واحمل معك أهلك " الا من سبق عليه القول " بالاهلاك قال الضحاك وابن جريح: هو ابنه وامرأته. وقوله " ومن آمن " تقديره واحمل من آمن. ثم أخبر تعالى فقال " وما آمن معه الا قليل ". قال ابن جريح: القليل الذين نجو معه كانوا ثمانية. وقال الاعمش: كانوا سبعة، وقال ابن عباس:

كانوا ثمانين، وكان فيهم ثلاثة: بنيه: يافث، وسام، وحام. وثلاث كائن له

---

(١) ديوانه ٨٦ وتفسير القرطبي ٩ / ٣٥
(*)

ويافث جد الترك والروم والصقالبة وأصناف البيضان. وحام جد السودان، وهم الحبش والنوبة والزنج وغيرهم. وسام أبوفارس وأصناف العجم.

قوله تعالى:

وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرسيها إن ربي لغفور رحيم (٤١) آية قرأ حمزة والكسائي " مجراها " بفتح الميم. الباقون بضمها، وكلهم ضم ميم مرساها. ومن ضمها قابل بينها وبين مرسها لما بينهما من المشاكلة ومن فتح فلانه قال بعده " وهي تجري " ومن اختار الاول، قال التقدير اجري فجرت.

قال أبوعلي الفارسي: يجوز في " بسم الله مجراها ومرساها " أن يكون حالا من شيئين: احدهما – ان يكون من الضمير الذي في (اركبوا) او من الضمير الذي في (فيها)، فان جعلت " بسم الله مجراها " خبر مبتدأ مقدم في قول من لايرفع بالظرف، أو جعلته مرتفعا بالظرف، ولم يكن قوله " بسم الله مجراها " الا جملة في موضع الحال من الضمير الذي في (فيها) ولا يجوز أن يكون الضمير في قوله " اركبوا فيها "، لانه لاذكر فيها يرجع إلى الضمير، ألا ترى أن الظرف في قول من يرفع به ارتفع به الظاهر، وفي قول من رفع مثل هذا بالابتداء قد حصل في الظرف ضمير المبتدأ، فاذا كان كذلك خلت الجملة من ضمير يعود من الحال إلى ذي الحال. واذا كان كذلك لم يكن الا حالا من الضمير الذي في (فيها).

والثاني – يجوز أن يكون قوله " بسم الله " حالا من الضمير الذي في (اركبوا)

على ان لا يكون الظرف خبرا عن الاسم الذي هو (مجراها) على ما كان في الوجه الاول، ويكون المعنى اركبوا الان متبركين ببسم الله في الوقتين اللذين لاينفك الراكبون فيها منهما من الارساء والاجراء، وليس يريد اركبوا في وقت الجري

والرسو، فموضع " مجراها " نصب على هذا الوجه بأنه ظرف عمل فيه على المعنى.

وفي الوجه الاول وقع. بالابتداء وبالظرف. ومن فتح الميم فلانه قال " وهي تجري ". ومن ضم، فلان جرت بهم وأجري بهم متقاربان في المعنى، ويقال:

جرى الشئ وجريت به وأجريته، وإنما ضموا الميم من (مرساها) لقوله " أيان مرساها " (١) وقوله " والجبال أرساها " (٢) ومن أمال او ترك الامالة، فكلاهما حسنان.

اخبر الله تعالى عما قال نوح حين دنا ركوبهم السفينة " اركبوا فيها " يعني في السفينة، والركوب العلو على ظهر الشئ، فمنه ركوب الدابة وركوب السفينة وركوب البر وركوب البحر.

والعامل في " بسم الله " يحتمل ثلاثة أشياء: احدها - (اركبوا). والثاني - ابتدؤا ببسم الله. والثالث - أجراها وأرساها. والمجرى يحتمل ثلاثة اوجه:

أحدها - أن يكون موضع الاجراء. والثاني - وقت الاجراء. والثالث - نفس الاجراء. وقيل: كان اذا اراد أن تجري قال " بسم الله " فجرت، فاذا أراد أن ترسوا قال " بسم الله " فرست ذكره الضحاك. قال لبيد:

عمرت حين ثلاثا قبل مجرى داحس * لو كان للنفس اللجوج خلود (٣)

والارساء إمساك السفينة بما تقف عليه أرساها إرساء ورست ترسو قال عنترة:

فصرت نفسا عند ذلك حرة * ترسوا إذا نفس الجبان تطلع (٤)

وقوله " ان ربي لغفور رحيم " إخبار منه تعالى حكاية عما قال نوح لقومه " ان ربي لغفور رحيم " أي ساتر عليهم ذنوبهم رحيم بهم منعم عليهم.

ووجه اتصال الاية بما قبلها أنه لما ذكرت النجاة بالركوب في السفينة

---

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٨٦ وسورة ٧٩ النازعات آية ٤٢ (٢) سورة ٧٩ النازعات آية ٣٢ (٣) ديوانه: ٢٥ واللسان والتاج (جرى)

(٤) ديوانه: ٢٩ والدر المنثور ٣ / ٣٣٨

(*)

ذكرت النعمة بالمغفرة والرحمة ليجتلب الطاعة كما اجتلب النجاة.

قوله تعالى:

وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين (٤٢) آية أخبر الله تعالى عن حال السفينة بعد الغرق أنها كانت تجري على الماء في أمواج كالجبال. والجري مر سريع كمر الماء على وجه الارض. والسفينة تجري بالماء والفرس يجري في عدوه، ويقال: هذه العلة تجري في أحكامها، أي تمر فيها من غير مانع منها. والموج جمع موجة، وهي قطعة عظيمة ترتفع عن جملة الماء الكثير، ومنه أمواج البحر وأعظم ما يكون إذا اشتدت به الريح، وشبه الله تعالى الامواج بالجبال في عظمها، والجبل

جسم عظيم الغلظ شاخص من الارض هو لها كالوتد في عظمه، وجمعه اجبال وجبال. وقوله " ونادى نوح ابنه وكان في معزل " فالمعزل موضع منقطع عن غيره. وكان ابن نوح في ناحية منقطعة عنه حين ناداه وقرأ عاصم " يا بني اركب " بفتح الياء. الباقون بكسرها. وفي قوله " يا بني " ثلاث ياءات، ياء التصغير، وياء الاصل، وياء الاضافة. وفي قوله " يا بني ان الله اصطفى لكم الدين " (١) يا آن، ياء الجمع، وياء الاضافة. قال أبوعلي الفارسي:

الوجه كسر الياء، لان اللام من (ابن) ياء أو واو، وحذفت من (ابن) كما حذفت من (إسم) فاذا حقرت ألحقت ياء التحقير، لزم أن ترد اللام الذي حذفت لانك لو لم تردها لوجب أن تحرك ياء التصغير بحركات الاعراب، وهي لاتحرك أبدا بحركات الاعراب ولاغيرها، فاذا أضفته إلى نفسك أجتمعت ثلاث ياء آت:، الاولى التي للتحقير، والثانية لام الفعل، والثالثة هي التي للاضافة تقول: بني،

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٣٢

(*)

فاذا ناديت جاز فيه وجهان: إثبات الياء وحذفها، فمن قال ياعبادي فأثبت الياء فقياسه أن يقول يا بني، ومن قال يا عباد يقول يا بني حذفت التي للاضافة، وابقيت الكسرة دلالة عليها. وهذا هو الجيد عندهم. ومن فتح الياء أراد الاضافة كما أرادها في قوله يا بني اذا كسر الياء التي هي آخر الفعل، كأنه قال يا بني ثم أبدل من الكسرة الفتحة، ومن الياء الالف. فصار (يا بنيا) كما قال:

يابنت عما لا تلومي واهجعي ثم حذفت الالف كما كانت تحذف الياء: في يا بني إنها؟، وقد حذفت الياء التي للاضافة إذا أبدلت الالف منها قال أبوالحسن:

فلست بمدرك ما فات مني * بلهف ولا بليت ولا لو أني ()

كذلك سمع من العرب، فقوله: بلهف إنما هو بلهفا، فحذفت الالف. قال أبوعثمان: ووضع الالف مكان الياء في الاضافة مطرد وأجاز يازيد اقبل إذا أردت الاضافة.

قوله تعالى:

قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين (٤٣) آية حكى الله تعالى في هذه الاية ما أجاب ابن نوح أباه (عليه السلام) فانه " قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء " أي سأرجع إلى مأوى من جبل

يعصمني من الماء أي يمنعني منه، يقال آوى يأوي إذا رجع إلى منزل يقيم فيه و (العصمة) المنع من الافة والمعصوم في الدين الممنوع باللطف من فعل القبيح لاعلى وجه الحيلولة.

---

(١) اللسان (لهف)

(*)

فان قيل كيف دعا نوح ابنه إلى الوكوب معه في السفينة مع أن الله تعالى نهاه أن يركب فيها كافرا. قلنا: فيه جوابان: أحدهما – أنه دعاه إلى الركوب بشرط أن يؤمن. الثاني – قال الحسن والجبائي: انه كان ينافق باظهار الايمان.

فان قيل: هلا كان ما صار اليه ابن نوح من تلك الحال الهائلة إلجاء؟.

قلنا: لا. لان الالجاء لايكون إلا بأحد شيئين: احدهما – بأن يخلق فيه العلم بأنه متى رام خلافه منع منه. الثاني – تتوفر الدواعي من ترغيب او ترهيب، ولم يحصل له واحد من الامرين، لانه جوز أن يكون من عجائب الزمان، وأنه وقع إلى نوح علم به، فتقدم فيه. وقوله " لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم " حكاية لما قال نوح لولده حين " قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء " بأنه لامانع اليوم من أمر الله. واستثنى من رحم، وقيل فيه ثلاثة اقوال: أحدها – أنه استثناء منقطع، كأنه قال من رحم فانه معصوم. الثاني – لاعاصم إلا من رحمنا برحمة الله سبحانه لنا كأنه قال: لاعاصم إلا من عصمه الله فنجا، وهو نوح (عليه السلام)، وهو اختيار أبي علي النحوي. وقال: لانه يحتمل أن يكون (عاصم) بمعنى معصوم مثل دافق بمعنى مدفوق، فيكون الاستثناء متصلا. وقال ابن كيسان: لما قال (لا عاصم) كان معناه لامعصوم، لان في نفي العاصم نفي المعصوم ثم قال " إلا من رحم " فاستثناه على المعنى ويكون متصلا. وقوله " وحال بينهما الموج " إخبار منه تعالى انه حال بين نوح وولده الموج، " فكان من المغرقين ".

قوله تعالى:

وقيل يا أرض ابلعي ماءك وياسماء أقلعي وغيض الماء وقضي الامر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين (٤٤) آية

حكى الله تعالى في هذه الاية قصة نوح وقومه بأوجز لفظ وأبلغه، وبلوغ الغاية التي لاتدانيها بلاغة ولاتقاربها فصاحة، لان قوله " وقيل يا أرض ابلعي ماءك " اخبار منه عن إذهاب الماء

عن وجه الارض في أوجز مدة فجرى ذلك مجرى ان قال لها ابلعي فبلعت. والبلع في اللغة انتزاع الشئ من الحلق إلى الجوف، فكانت الارض تبلع الماء هكذا حتى صار في بطنها الغراء، يقال: بلعت وبلعت بفتح اللام وكسرها. وقوله " ويا سماء اقلعي " اخبار أيضا عن اقشاع السحاب، وقطع المطر في أسرع وقت، فكأنه قال لها اقلعي فأقلعت. والاقلاع إذهاب الشئ من اصله حتى لايبقى منه شئ. وأقلع عن الامر إذا تركه رأسا. وقوله " وغيض الماء " أي أذهب به عن وجه الارض إلى باطنها، يقال: غاض الماء يغيض غيضا إذا ذهب في الارض. وقوله " وقضي الامر " معناه أوقع الهلاك بقوم نوح على تمام والقضاء وقوع الامر على تمام وإحكام. وقوله " واستوت على الجودي " جبل معروف. قال الزجاج بناحية أمد، وقال غيره: بقرب جزيرة الموصل، قال زيد بن عمربن نفيل:

وقبلنا سبح الجودي والجمد.

وقيل: أرست على الجودي شهرا، وقال قتادة: اهبطوا يوم عاشوراء.

وقوله " وقيل بعدا للقوم الظالمين " معناه أبعدهم الله من الخير بعدا، على وجه الدعاء. ويجوز أن يكون الله تعالى قال لهم ذلك. ويجوز أن يكون المؤمنون دعوا عليهم بذلك، وهو منصوب على المصدر.

وقيل في هذه الاية وجوه كثيرة من عجيب البلاغة: منها انه خرج مخرج الامر على وجه التعظيم من نحو " كن فيكون " (١) لانه من غير معاناة، ولا

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ١١٨ وسورة ٣ آل عمران آية ٤٧، ٥٩ وسورة ٦ الانعام آية ٧٣ وسورة ١٦ النحل آية ٤٠ وسورة ١٩ مريم آية ٣٥ وسورة ٣٦ يس آية ٨٢ وسورة ٤٠ المؤمن آية ٦٨.

(*)

لغوب. ومنها حسن تقابل المعنى. ومنها حسن ائتلاف الالفاظ. ومن ذلك حسن البيان في تصوير الحال. ومنها الايجاز من غير إخلال. ومنها تقبل الفهم على أتم الكمال إلى غير ذلك مما عليه هذا الكلام في الحسن العجيب واللطف البديع.

قوله تعالى:

ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين (٤٥) آية حكى الله تعالى عن نوح أنه حين رأى قومه قد أهلكهم الله تعالى " فقال يا رب ان ابني من أهلي وإن وعدك الحق " لانه تعالى كان وعده بأنه ينجيه وأهله، وأمره بأن يحملهم معه في الفلك في قوله " وقلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك " فسأل نوح ربه أن ابنه إن كان ممن وعده بنجاته أن ينجيه، فسأله بهذا الشرط لانه لايجوز أن يسأل نبي من أنبياء الله أمرا

لايجاب اليه، وخاصة على رؤس الملا لان ذلك ينفر عنهم. وانما يجوز أن يسأل بما يظهر له بشرط مقترن بالكلام وحال يدل عليه، فيعرف أنه لم يحصل الشرط. والرب والمالك واحد.

وقيل: ان الرب المالك للشئ من كل وجه يصح أن يملك به، وهو أتم الملك، ولاتصح الصفه به على الاطلاق الا الله تعالى. والانسان قد يكون مالكا بالاطلاق.

وقوله " وانت احكم الحاكمين " يعني في قولك وفعلك، لانه حق تدعو اليه الحكمة، فقال نوح ذلك على وجه الاعتراف تعظيما لله تعالى.

قوله تعالى:

قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسئلن ماليس لك به علم إني أعظك أن تكون من

الجاهلين (٤٦) آية قرأ الكسائي ويعقوب " انه عمل غير صالح " على الفعل، ونصب (غير) الكسائي. الباقون " عمل " اسم مرفوع منون (غير) رفع. وقرأ ابن كثير (تسألن) بالتشديد، وفتح النون، وافقه نافع في التشديد الا انه كسر النون.

الباقون بالتخفيف وكسر النون الا أن أبا عمرو يثبت الياء في الاصل. قال أبو علي النحوي (سألت) فعل يتعدى إلى مفعولين وليس ممايدخل على المبتدأ وخبره، ويمتنع ان يتعدى إلى مفعول واحد. فمن قرأ بفتح اللام، ولم يكسر النون عداه إلى مفعول واحد في اللفظ. والمعنى على التعدي إلى ثان ومن كسر النون دل على انه عداه إلى مفعولين، احدهما: اسم المتكلم. والاخر – الاسم الموصول، وحذف النون المتصلة بياء المتكلم، كما حذفت من قولهم (اني) كراهة اجتماع النونات. ومن اثبت الياء فهو الاصل، ومن حذفها اجتزأ بالكسرة الدالة عليها.

في هذه الاية حكاية عما أجاب الله به نوحا حين سأله نجاة ابنه بأن قال له " يا نوح انه ليس من أهلك.. " وقيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها – قال ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك واكثر المفسرين: انه ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم معك، وانه كان ابنه لصلبه، بدلالة قوله " ونادى نوح ابنه " فأضافه اليه اضافة مطلقة. والثاني – انه اراد بذلك أنه ليس من أهل دينك، كما قال النبي (صلى الله عليه وآله) (سلمان) منا أهل البيت) وإنما اراد على ديننا.

وثالثها – قال الحسن ومجاهد: انه كان لغيره، وولد على فراشه، فسأل نوح على الظاهر فأعلمه الله باطن الامر، فنفاه منه على ما علمه، فيكون على هذا هو نفسه عمل غير صالح، كما يقولون: الشعر زهير. وهذا الوجه ضعيف، لان في ذلك طعنا على نبي وإضافة ما لايليق به اليه. والمعتمد الاول. وقال ابن عباس:

مازنت امرأد نبي قط، وكانت الخيانة من امرأة نوح انها كانت تنسبه إلى الجنون والخيانة من امرأة لوط انها كانت تدل على أضيافه. وروي عن علي (عليه السلام) أنه قرأ ونادى نوح ابنها فنسبه إلى المرأة، وأنه كان يربيه. وروي عن محمد بن علي بن الحسين (عليهم السلام) وعروة بن الزبير أنهما قرءا " ونادى نوح ابنه " بفتح الهاء وترك الالف كراهة ما يخالف المصحف، وأرادا أن ينسباه إلى المرأة، وأنه لم يكن ابنه لصلبه. وقال الحسن: كان منافقا يظهر الايمان ويستر الكفر.

وقوله " انه عمل غير صالح " فمن قرأ على الفعل، فمعناه انه ليس من اهلك لانه عمل غير صالح، وتقديره انه عمل عملا غير صالح، وحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه، وذلك يستعمل كثيرا، وهذه القراءة تقوي قول من قال: إن ابنه لم يكن على دينه، لان الله تعالى علل كونه ليس من أهله بأنه عمل عملا غير صالح.

وأما من قرأ على الرفع والتنوين على الاسم فتقديره إنه ذو عمل غير صالح فجاء على المبالغة في الصفة كما قالت الخنساء:

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت * فانما هي إقبال وإدبار (١)

قال الزجاج: تقديره فانما هي ذات إقبال وادبار، تصف الناقة في حنينها إلى ولدها. وقيل: ان المعنى ان سؤالك اياي هذا عمل غير صالح، ذكره ابن عباس ومجاهد وابراهيم. وهذا وضعيف، لان فيه اضافة القبيح إلى الانبياء (عليهم السلام) وذلك لايجوز عندنا على حال. فالاول هو الجيد. ويحتمل ان يكون المراد ان كونه مع الكافرين وانحيازه اليهم وتركه الركوب مع نوح عمل غير صالح.

وقوله " فلا تسألني ما ليس لك به علم " معناه لاتسألني ما لاتعلم أنه جائز في حكمي لان هذا من سؤال الجاهلين، نهاه عن ذلك، ولا يدل على أن ما نهاه عنه قد وقع كما أن قوله " لئن أشركت ليحبطن علمك " (٢) لايدل على وقوع

---

(١) مر تخريجه في ٢ / ٩٥ وهو في تفسير القرطبي ٩ / ٤٩ (٢) سورة ٣٩ الزمر آية ٦٥ (*)

الشرك. وقوله " اني اعظك أن تكون من الجاهلين " فالوعظ الزجر عن القبيح بما يدعوا إلى الجهل على وجه الترغيب والترهيب. والصحيح أن الجهل قبيح على كل حال. وقال الرماني:

انما يكون قبيحا اذا وقع عن تعمد، فاما اذا وقع غلطا او سهوا لم يكن قبيحا ولا حسنا. وهذا ليس بصحيح، لان استحقاق الذم عليه يشرط بالعمد فاما قبحه فلا كما نقوله في الظلم سواء.

قوله تعالى:

قال رب إني أعوذ بك أن أسئلك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين (٤٧) آية في هذه الاية اخبار عما قاله نوح (عليه السلام) حين عرفه الله حال ولده وأنه لايستحق الغفران ووعظه بان يكون من الجاهلين، فانه قال " اني أعوذ بك أن أسالك ما ليس لي به علم " فالعياذة طلب النجاة بما يمنع من الشر، يقال: عاذ يعوذ عوذا وعياذا فهو عائد بالله. والعياذ الاعتصام بما يمنع من الشر. والمعنى اني أعتصم بك أن اسالك مالا أعلمه، وانما اعتصم من ذلك، لان ما يعلمه الانسان يجوز أن يكون حسنا ويجوز كونه قبيحا. ولايحسن أن يسأل ما يجوز كونه قبيحا وان شرط حسن السؤال. وينبغي أن يشرط ان كان ما سأله حسنا فيحسن السؤال حينئذ. وقال الرماني: لايحسن أن تسال فتقول: اللهم احيي اقاربي في دار الدنيا على ما يصح ويجوز. لانه قد دل الدليل على أن ذلك لا يحسن في الحكمة فلا يجوز أن يسأله بحال. وانما جاز اطلاق " ما ليس لي به علم " مع أنه قد علمه سؤالا. لان هذا العلم لايعتد به لان المراد علم ماله أن يسأله اياه.

وانما حذفت (يا) من قوله " رب اني أعوذ بك " وأثبته في قوله " يا نوح " لان ذلك نداء تعظيم. وهذا نداء تنبيه فوجب أن يأتي بحرف التنبيه. وقوله (به)

يحتلم وجهين: احدهما – أن يكون كقوله " وكانوا فيه من الزاهدين " (١)

و " اني لك من الناصحين " (٢) و " انا على ذلكم من الشاهدين " (٣) قال ابوالحسن: انما يجوز في حروف الجر ذلك، لان التقدير فيه التعلق بمضمر يفسره هذا الذي يظهر بعد، وان كان لايجوز تسليطه عليه. ومثله " يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذ للمجرمين " (٤) فانتصب " يوم يرون " بما دل عليه " لابشرى يومئذ " ولايجوز فيما بعد (لا) هذه أن يتسلط على (يوم) وكذلك " ما ليس لك به علم " يتعلق بما دل عليه (علم) المذكور وإن لم يجز أن يعمل فيه. والثاني – أن يكون متعلقا بالمستقر، وهو العامل فيه كتعلق الظروف بالمعاني كما تقول: ليس لك فيه رضاء، فيكون (به) في الاية بمنزلة (فيه).

قوله تعالى:

قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم (٤٨) آية في هذه الاية حكاية ما أمر الله تعالى به نوحا حين استوت السفينة على

الجبل، وأنه قال له " اهبط " أي انزل من الجبل، فالهبوط نزول من أعلى مكان في الارض إلى مادونه ومن السماء. وقوله " بسلام منا " قيل في معناه وجهان:

احدهما – بسلامة منا وتحية منا، قال لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما * ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر (٥)

قيل: انه بمعنى السلام عليكما. وقيل: معناه بتسليم منا عليك وقوله

---

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٢٠ (٢) سورة ٢٨ القصص آية ٢٠ (٣) سورة ٢١ الانبياء آية ٥٦ (٤) سورة ٢٥ الفرقان آية ٢٢ (٥) ديوانه ٢ / ١ واللسان " عذر "
(*)

" وبركات عليك " معناه ونعم دائمة وخير ثابت حالا بعد حال، وأصله الثبوت، فمنه البروك، والبركة لثبوت النماء فيها قال الشاعر:

ولا ينجي من الغمرات إلا * براكاء القتال أو الفرار (١)

أي الثبوت للقتال. ومعنى تبارك الله ثبت تعظيم مالم يزل ولايزال.

وقوله " وعلي أمم ممن معك " فالامة الجماعة الكثيرة على ملة واحدة متفقة، لانه من (أمه يؤمه أما) إذا قصده، أو الاتفاق في المنطق على نحو منطق الطير والمأكل والمشرب والمنكح، حتى قيل: إن الكلاب أمة. وقيل في معناه – هنا – قولان: أحدهما – أنه أراد الامم الذين كانوا معه في السفينة، فأخرج الله أمما من نسلهم وجعل فيهم البركة. وقال قوم: يعني بذلك الامم من سائر الحيوان الذين كانوا معه، لان الله تعالى جعل فيها البركة، وتفضل عليها بالسلامة حتى كان منها نسل العالم. وقوله " وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم " معناه إنه يكون من نسلهم أمم سيمتعهم الله في الدنيا بضروب من النعم، فيكفرون نعمه ويجحدون ربوبيته، فيهلكهم الله. ثم يمسهم بعد ذلك عذاب مؤلم موجع. وانما رفع (أمم) لانه استأنف الاخبار عنهم.

قوله تعالى:

تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين (٤٩) آية الاشارة بقوله " تلك " إلى ما تقدم ذكره من اخبار نوح وقومه وما احل الله بهم من الاهلاك، والتقدير تلك الانباء من أنباء الغيب، ولو قال ذلك كان جائزا، لان المصادر يكنى عنها بالتأنيث تارة وبالتذكير أخرى يقولون: قدم فلان

---

(١) قائله بشر بن ابي خازم اللسان (برك)

(*)

ففرحت بها وفرحت به أي بقدومه أو بقدمته. والغيب ما غاب عن النفس معرفته بطريق الستر له بخلاف السهو لانه ذهاب المعنى عن النفس بحال ينافي الذكر.

وقوله " نوحيها اليك " أي نوحي اليك تلك الاخبار. وقوله " ما كنت تعلمها أنت ولاقومك " معناه إن هذه الاخبار التي أعملناك اياها لم تكن تعلمها قبل وحبنا اليك ولا قومك من العرب يعرفونها قبل إيحائنا اليك. وقوله " فاصبر ان العاقبة للمتقين " أمر للنبي (صلى الله عليه وآله) بأن يصبر على أذى قومه وجهلهم بموضعه كما صبر نوح مثل ذلك على قومه، وهو أحد الوجوه التي لاجلها كرر الله تعالى قصص الانبياء: في الاعراف، وهود، والشعراء، ليصبر النبي (صلى الله عليه وآله) على أذى قومه حالا بعد حال. وقوله " إن العاقبة للمتقين " اخبار منه تعالى بأن العاقبة المحمودة لمن اتقى معاصي الله وتحرز من عقابه.

تم المجلد الخامس – ويليه المجلد السادس وأوله قوله تعالى: وإلى عاد اخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله.. آية (٥٠) من سورة هود